جامعة محمد الأول
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
وجدة
مركز الدراسات في الدكتوراه: الآداب والعلوم
الإنسانية والفنون

وحدة تكوين الدكتوراه : العمل الاجتماعي في الإسلام وتطبيقاته المعاصرة

أطروحة لنيل الدكتوراه

منهج الأستاذ محمد فتح الله كولن في الإصلاح والخدمة

من إنجاز الطالب : حميد الداودي **الأستاذ المشرف : الدكتور عمر أجة**

السنة الجامعية: 2014م – 2015م / 1435هـ – 1436هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

أهمية الموضــوع

الحمد لله الذي جعل شريعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصلا أساسيا ومطلبا ملحا من مطالب الخطاب القرآني، فقال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾الآية 104ـ آل عمران. وهدى المسلمين إلى تبني خيار خدمة الناس والسعي في نفعهم ونصحهم فقال:﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الآية 110 ـ آل عمران.

والصلاة والسلام على خير الناصحين وأعظم المصلحين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، الذي ضمن لنا حيوية تدبُن الأمة من خلال واجب التجديد والتمكين للمجددين والالتفاف حولهم، وإسناد مشاريعهم الإصلاحية، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها »[1]، وحذر من الإعراض والتخلي عنهم، أو التولي عن تكاليف النهوض بمقتضيات تنزيلهم لواجب النصح

[1] سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة، دار الكتاب العربي، بيروت، ج 4، ص: 178، و مشكاة المصابيح، محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ، ط 3، المكتب الإسلامي، بيروت 1985، ج 1 ص: 98، و السلسلة الصحيحة ، محمد ناصر الدين الألباني ، رقم الحديث 599، ج2، ص: 98

العام،حيث الفراغ التأطيري الراشد يتسبب في ترؤس الجهلة الفاقدين شروط أهل الذكر ؛فقال: «**إن** الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يُبْقِ عالما اتخذ الناس رؤوسا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضَلّوا وأضلوا»[1].

لقد التزم الصادقون من أمته عليه الصلاة والسلام أمانة التكليف بأداء البلاغ المبين والقيام بشأن الاحتساب العام فأضاءوا بذلك السبيل لمن أراد أن يصلح وينخرط في عمليات البناء والتغيير لتحقيق شروط ميلاد جيل الأمل المنشود.

وكان ديْنا على الأمة وعلى الغيورين منها خاصة التحدث بنعمة الله والإشادة بهؤلاء الصالحين وتدارس مناهجهم وفحص نظرياتهم في النهوض والتجديد.

حيث كثرت آراء المصلحين المعاصرين على امتداد الوطن الإسلامي فكشفت عن تنوعها وتعددها، فَحَسِبَها بادي الرأي ظاهرة مَرَضية ومؤشرا على الاختلال والتفرق المؤدي إلى أن تذهب ريح المسلمين مما يغري بهم عدوهم. بينما الأصل أن يُنظر إلى ذلك بشكل إيجابي من خلال القراءات الواعية المنضبطة للنصوص الشرعية والهدي النبوي العام، وعبر جسور المفاهيم والمعاني المستفادة المرتبطة بواقع الأفراد والمجتمعات المتحرك.

من أجل ذلك كان لابد أن تراعى التحديات مع اتساع مساحاتها وتشابك إشكالاتها لتحقيق حاجة الأمة إلى مراجعات شاملة في الفكر والدعوة والحركة حتى نمكن لعملية الارتفاع إلى مستوى إسلامنا وعصرنا وآمال أمتنا ومطالب الإنسان فيها.

إن أوضاع المسلمين وواقعهم يستدعي إصلاحا متجددا وإعادة بناء هيكلي كبير وعميق وأصيل، فرغم الانتفاضات المتعددة المرتبطة بالحراك السياسي فإننا في أمس

[1] أخرجه البخاري في صحيحه، تحقيق الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي، كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم، ح98، ط1، دار القلم، بيروت، م1، ج1، ص:114

الحاجة إلى إصلاح حضاري شامل، بل إن ما يحدث من تغيرات سياسية يمثل قاطرة الإقلاع لاستئناف رحلة مشروع النهضة العظيم.

إن المدخل الطبيعي الضروري إلى إحداث إصلاح حقيقي هو المدخل الحضاري الشامل وعموده الفقري التجديد الاجتماعي والإصلاح التربوي، ذلك أن الأمة تقف اليوم في مفترق الطرق من حيث الخيارات الكبرى للمجتمعات والأمم والحضارات، حيث لم يعد ممكنا التغاضي عن الاختلالات الخطيرة التي تهدد البناء العام للبشر، ومن ثم يُدْعى المسلمون إلى إبداء مواقفهم وعرض مشاريعهم الثقافية ومنتوجاتهم الفكرية بلغة تطرح نفسها شريكا محوريا لعلاج نسبة مهمة من تلك الاختلالات، الشيء الذي سيمكِّن من تيسير التأسيس لصياغة جهاز مفاهيمي متوازن، يود نشدان آفاق جيدة وجادّة من خلال استهداف شمولية البناء الهادئ للأفراد والأمة.

إن التجربة الإصلاحية التي قادها الأستاذ محمد فتح الله كولن بلغت من الثراء والقوة والاتساع والإيجابية والتوازن والفاعلية مستوىً جعلها محطة ينزل بها الدارسون بمجاهداتهم الثقافية، خصوصا أنها ما تزال تؤتي أكلها الميداني بإذن ربها في أماكن عديدة من هذا العالم على مستوى مختلف الشرائح.

دوافع البحــث

إن من أعظم ما يشغل العقل المسلم المعاصر تسديد الرؤى حول مشاريع الإحياء والتجديد في الأمة؛ ذلك أن استمرار وجودها رهين بمدى تجسيدها لمطالب الخطاب الشرعي واحتياج الناس إليها، كما أن حضورها مرتبط بمقدار ما تسديه من خير لأفرادها وللبشرية من حولها؛ قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، وإن من بركات النبوة الخاتمة أن أوصت بتمديد أنوارها بتشغيل العقول وتحريك الأفكار ومساءلة التجارب

وتقويمها وتصويب الرؤى؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها»[1].

ومن رحمة الله سبحانه بخلقه أن هيأ لهم أوعية تحتضن رسائل الوحيين عن طريق الإيمان والتدبر والتفكر، وجعلها قادرة على التنزيل والتجسيد.

وفي ذلك تنافس المتنافسون وقدموا قراءات وتجارب وحركات ونماذج وبرامج أثْرت البنية الإسلامية، وأغرت ببحثها ودراستها.

إن من تلك الأمثلة الجديرة بالعناية رواحل أُعِدت للسفر الطويل والحمل الثقيل والبناء المتقن الجميل.إن الأستاذ محمد فتح الله كولن وتجربته في الحياة وحركته في البناء والتجديد تجسيد للراحلة الصادقة الصبور، وإنه لجدير بالعناية والدراسة والتأمل خصوصا في نظريته حول الإصلاح ومنهجه في التجديد الاجتماعي والخدمة.

إن كل ما يتعلق بالأستاذ كولن مثير للاهتمام بدء من مولده 1938/11/11 الذي يمثل معنى جديدا للحياة في بلاد الأناضول، فقبل هذا اليوم بيوم واحد فقط كان قد مات أتاتورك[2].

وكان متميزا في خطبه ومواعظه ذات التأثير الواسع والجو الخاشع يستهدف بها صياغة الشخصية الإيجابية العاقلة والصادقة، إذ أثمرت كلماته عمرانا بشريا متينا امتد خارج تركيا. وهو أحد أشهر علماء الإسلام المصلحين ودعاته المعاصرين على مستوى العالم، نال المرتبة الأولى في قائمة "أهم مئة مثقف معاصر في العالم" بحسب نتائج الاستطلاع الذي أجرته في صيف 2008 مجلّة السياسة الخارجية "Forgien Policy" الأمريكية، بالتعاون مع مجلة Prospect البريطانية"[3].

---

[1] سبق تخريجه في الصفحة 1

[2] ثم جاء الفتح، فريد الأنصاري، موقع فتح الله كولن(fgulen.com)، صفحة الدراسات.

[3] "الخدمة"في خدمة عالمية الإسلام، د. إبراهيم البيومي غانم، مجلة حراء، عدد 42، ماي 2014.

وقد حدد سر تخلف العالم الإسلامي – تبعا لشيخه بديع الزمان سعيد النورسي – في الأدواء الثلاثة: الجهل، الفقر، الفرقة.لأجل ذلك نذر نفسه للعلم "لتفعيل مشروع إصلاح تربوي متكامل، يبدأ من الإنسان وصياغته صياغة صالحة ليخرج منه نموذج الإنسان المسلم المثالي المتمسك بجذوره الروحية، الموفق بين القلب والعقل والسلوك، الواقف نفسه لخدمة الإنسانية، كسبا لمرضاة الله، إيمانا منه بأن هذه هي رسالة الإسلام الحقيقية"[1].

إن النجاح القوي في التأطير الاجتماعي والحضور التربوي والإعلامي جعل تيار الخدمة الإيمانية لفتح الله من أكثر المؤثرين في السياسة التركية.

ولقد تجاوز تأثيره تركيا واستأثر باهتمام العديد من المواقع العالمية والمراكز الدولية ومؤسسات البحث والعلم الاجتماعي والتربوي مما استدعى طرح أسئلة حول هذا الامتداد والحضور الوازن محليا وإقليميا ودوليا:

- لماذا نجحت التجربة التركية للأستاذ فتح الله في التواصل إيجابيا مع الغرب أكثر من أي حركة إصلاحية أخرى أتت من العالم الإسلامي؟
- ما هي طبيعة الدور الإصلاحي لهذه الحركة داخل تركيا وخارجها؟
- ما الذي تضيفه بتجربتها التربوية من خلال مدارسها المنتشرة عبر مائة وستين دولة؟

إن المثير في هذه التجربة الإصلاحية هو تميزها وبلوغها نسبة عالية من الإحسان في التوفيق بين النظرية والتطبيق، بين العلم والسلوك حيث "إن المدرسة الفكرية للأستاذ الشيخ فتح الله كولن تسمو إلى أرفع المستحصلات العقلية لأصحاب الفكر لكنها ليست مناظرات وجدلا وإرواء للظمإ العقلي والوجداني، وليست وليدة للمران العقلي المعزول عن الواقع والإنسان والكائنات، بل هي مدرسة فكرية واقعية وتربوية وعملية، تستهدف إعداد

[1] تلخيص كتاب "ونحن نقيم صرح الروح"، محمد عبد الله ولد مصطفى، موقع كولن، صفحة الكتَّاب.

جيل ممثل للإيمان عازم على الأخذ بيد الأمة والإنسانية إلى سعادتها المأمولة وفي حلقات تتسع دوائرها من البيئة القريبة إلى المحيط الأرحب فالأرحب، هؤلاء هم حملة الأمانة ووارثو الأرض الممثلون للإسلام"[1].

وإن مما يستحق العناية الكبيرة والتحليل البصير المستمر ما وُفق إليه الأستاذ في إطار التفكير الاجتماعي من جمع الذين استجابوا لفكرته من أركان الإحياء المجتمعي: "رجال في سن الشباب، وتجار شعارهم البذل، وعَلاَّمَة مُلْهَم، ثالوث النهضة الفكرية والثقافية والعلمية في تركيا".[2]

إن الاهتمام بهذه المدرسة الحضارية يساعد على استجلاء تجليات الانتفاضة التركية المعاصرة، وفهم الدور الكبير الذي تريد أن تؤديه نخبة المجددين التركيين المعاصرين، وقد أصبحت دولتهم من أكثر الدول أهمية في التأثير في مركز قضايا الأمة: فلسطين.

لقد استطاع الحكيم محمد فتح الله كولن أن ينشئ ويؤسس تجربة إصلاحية غيرت الكثير من أركان المجتمع التركي في جو هادئ واع بصير، مما يَسَّر نجاح تيار الخدمة الإيمانية.

إن رصد أهم ملامح نظرية ومنهج الأستاذ في الإصلاح وال خدمة المدنية عمل يرجو أن يعمق النقاش حول هذه التجربة الفريدة.

[1] حول كتاب" ونحن نبني حضارتنا"، عوني عمر لطفي أوغلو، موقع فتح الله كولن، صفحةالكتَّاب

[2] رحلة (حراء)، عبادة السيد نوح، مجلة الوعي الإسلامي، عدد 528، غشت 2009.

أهداف البحــث

تتطلع هذه الدراسة إلى تحقيق الأهداف التالية :

1. المساهمة في نشر تجربة الأستاذ فتح الله كولن الإصلاحية، ذلك أن توسيع دائرة الانتفاع من تجارب الصالحين عنصر من عناصر الإصلاح.

2. استجلاء أهم أركان السعي الإصلاحي وركائز الخدمة المدنية في هذه المدرسة المتميزة، حيث إن البحث عن عوامل النجاح في حركات الإحياء المعاصرة خطوة ضرورية في سبيل نهضة الأمة المنشود. من أجل ذلك كان من المطالب الملحة التركيز على أرضية البناء الحضاري المدخل الأساس للتغيير الحقيقي؛ يقول الأستاذ كولن: "إن أهم أركان ظاهرة الحضارة هو الإنسان المؤهل، وأقوى أسسها الحيوية هو دولة حرة ومستقلة، وأثمن رؤوس أموالها هو الزمن. ولا نشك أن الدولة المتقدمة قد استغلت هذه المقدمات بأحسن وجه، وعلاوة على استغلالها لهذه المقومات استغلالا حسنا لم تهمل أبدا تقسيم الوظائف واحترام الاختصاصات والاهتمام بالإنسان ومكافأة النجاحات واستثمار الإمكانات الأولية التي وهبها الله تعالى لها استثمارا مجديا.

وفي المقابل إذا وقعت هذه المقومات التي تساوي قيما فوق القيم في أيدي المجتمعات التي لم تنظم مساعيها تنظيما دقيقا، ولم توزع الواجبات والأعمال توزيعا جيدا، ولم تتعرف إلى أسرار ثرواتها المكنوزة والظاهرة، ولم تتفهم القيم الحقيقية للإنسان، ولم تستثمر الزمن استثمارا مجديا ... ففي هذه الحالة ستكون هذه المقومات كالمتاع الذي وقع في يد بائع لا يقدر قيمتها فيبيعها بثمن بخس دراهم معدودة"[1].

ومن ثم ترنو هذه الدراسة إلى تجلية الجسور بين الفكر والممارسة والنظر والعمل والتجريد والواقع.

[1] الإنسان المؤهل وبناء الحضارة، محمد فتح الله كولن، مجلة حراء، عدد 20، يوليوز. غشت 2010.

3. دراسة جوانب الشخصية الحكيمة للأستاذ فتح الله كولن من خلال نظراته وتأملاته الفلسفية والاجتماعية والتربوية في إعادة الشاكلة الحضارية بمدخلها الاجتماعي والإنساني، خصوصا عندما سعى لتنزيلها في ميدان الحياة.

4. تحليل أهم وسائل خدمة مشروع البناء المجتمعي التجديدي، وتلمس أهم عناصر الإصلاح والإحياء والنهضة التي تم إنجازها، وذلك ما يدعو إلى العكوف على نماذج المدارس التي استلهمت فكر محمد فتح الله كولن.

5. دراسة جوانب التفوق الخطابي والإحسان الوعظي ضمن أنشطة الأستاذ الجماهيرية، فقد تميزت خطبه ومواعظه على امتداد تركيا بخصائص جديرة بالعناية والتأمل، لامتلاك نواصي التعبئة الجماهيرية وإحداث الترشيد والتجديد والتذكير، خصوصا وقد أوتي من الزهد في متاع الدنيا حظا كبيرا أكسبه مناعة ضد استغلال موقع الإمامة لمنافع شخصية ومآرب ذاتية، ذلك "أن كل خطوة يخطوها المرء في سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تُكسبه ثواب وراثة النبوة، لأن هذه الوظيفة الجليلة هي أساسا وظيفة الأنبياء عليهم السلام. فأيما إنسان يخطو فيها خطوة فقد دخل تحت عبء هذه المهمة النبيلة أو وهب له المولى الكريم هذه الوظيفة فضلا منه وكرما أي يغنم ثواب هذه الوظيفة حسب نيته ودرجته"[1].

وقد خصص الأستاذ فتح الله كتبا للحديث عن وسائل ومناهج النصيحة منها (طرق الإرشاد في الفكر والحياة) يقول الشيخ: "نحاول في هذا الكتاب الذي بين أيديكم أن نتناول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بجوانبه المختلفة ومن زواياه المتنوعة، والمهم في الأمر أن نجعل انطلاقتنا في البحث وقاعدتنا في الدراسة أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أحد أحكام الإسلام ونضعه نصب أعيننا دائما ونُقوِّم بهذه الحقيقة المسائل، نأمل

[1] فتح الله كولن، موقع فتح الله كولن.

أن نغنم من هذا التقسيم أبعادا جديدة وكثيرة في فهمنا لأصول الإرشاد والتبليغ في الإسلام"[1].

6. بيان أهم عوامل احترام دوائر عالمية للأستاذ فتح الله كولن، وقدرته على إدارة الحوار بين مختلف الأديان والحضارات، فقد بدأ خلال التسعينات من القرن الماضي حركة رائدة في الحوار والتفاهم بين الأديان وبين الأفكار الأخرى متسمة بالمرونة والبعد عن التعصب والتشنج، وصلت ذروتها في الاجتماع الذي تم عقده في الفاتيكان بينه وبين البابا، إثر دعوة هذا الأخير له.

أهم ما كتب في الموضـوع

لقد لفتت تجربة الأستاذ فتح الله كولن أنظار كثيرين، واستقطبت اهتمام العديد من الباحثين في قضايا الإصلاح والتجديد والحوار الحضاري، خصوصا أنها تميزت بعطاءات ميدانية ومكتسبات عملية مؤثرة في مساحات واسعة داخل تركيا وخارجها.الشيءالذي يفسر تعدد الندوات والكتابات حول هذه التجربة المتميزة ضمن حركات الإحياء والتجديد والنهوض المعاصرة.

من بين هذه الكتابات :

"فتح الله كولن رائد النهضة الراشدة في تركيا المعاصرة" للدكتور عبد الحليم عويس.

"البراديم كولن فتح الله كولن ومشروع الخدمة على ضوء نموذج الرشد" د.محمد بابا عمي

"أرباب المستوى حضور معرفي في فكر الأستاذ فتح الله كولن" د.بابا عمي.

"الانبعاث الحضاري في فكر فتح الله كولن" د. سليمان عشراتي.

"هندسة الحضارة تجليات العمران في فكر فتح الله كولن" د. سليمان عشراتي.

"فتح الله كولن جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية" محمد أنس أركنه.

[1] طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ط 4، دار النيل، القاهرة 2008، ص: 13- 14

"فتح الله كولن قصة حياة ومسيرة فكر" أرطُغْرُول حِكمة.

"الضاربون في الأرض" أديب إبراهيم الدباغ .

"عبقرية فتح الله كولن بين قوارب "الحكمة" و "شواطئ الخدمة" " د. فؤاد البنا.

"محاورات حضارية: حوارات نصية بين فتح الله كولن وفلاسفة الفكر الإنساني" د.جيل كارول، وهي كاتبة أكاديمية بجامعة "رايس" الأمريكية. تقول جيل: "لقد عشت مع فتح الله كولن من خلال كتاباته أثناء إعداد هذا الكتاب ومازالت أفكاره تلهمني ولقد عرفت بعد لقائه لماذا أَلهم هذا الرجل ما يقرب من ثلاثة أجيال في تركيا ومنحهم الدافع رجالا ونساء لإنشاءعالم جديد.إنه رجل يتمتع بقدر هائل من الروحانية والإخلا ص والتعاطف، وهو شيء واضح للغاية في كتاباته وفي شخصيته. لقد قارنت أفكار كولن مع أفكار كل من كانط وأفلاطون وكونفشيوس وميل وسارتر لأنني أؤمن بأنهم أهل لأن يتحاوروا مع كولن،وأنه أهل لأن يتناقش معهم ".

وقد عقدت ندوات دولية عديدة حول جوانب أساسية من حركة الإمام فتح الله كولن وفكره، منها:

- ندوة في العاصمة الأردنية حول التجربة التركية بعنوان " رؤى معاصرة للإصلاح الإسلامي ودورها في تعزيز السلام العالمي، تجربة فتح الله كولن نموذجا" بتاريخ 2010-01-16. عقدتها مجلة (حراء) بالتعاون مع المنتدى العالمي للوسطية بمشاركة كوكبة من الأكاديميين والمثقفين من بلدان مختلفة من العالم العربي والإسلامي. وقد تناولت الندوة في جلساتها طيلة يوم كامل التجربة الإصلاحية التركية بأبعادها الاجتماعية والتعليمية والثقافية مع التركيز على تجربة فتح الله كولن التركية وجوانبها المختلفة التي تمثل نموذجا في العمل المدني الإصلاحي داخل تركيا وخارجها.
- ندوة دولية بالقاهرة: "مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي: خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية" نظمها مركز الدراسات الحضارية وحوار الثقافات بكلية

الاقتصاد والعلوم الإنسانية، جامعة القاهرة، بالتعاون مع كل من " وقف [1] البحوث الأكاديمية والأنترنت في إسطنبول، ومجلة (حراء) التي تصدر بالعربية لأول مرة من تركيا في العصر الحديث، وذلك أيام: 19-20-21 أكتوبر 2009م.

تهدف هذه الندوة إلى تعريف النخب العربية والمصرية، والجماعة الأكاديمية بشكل خاص، بنموذج التجربة الإصلاحية التي تمثلها حركة الشيخ محمد فتح الله كولن في تركيا، وهي حركة اجتماعية مدنية إصلاحية ذات مرجعية إسلامية، وذات تأثير واسع النطاق داخل تركيا وخارجها على المستويين الإقليمي والعالمي.

- مؤتمر بألمانيا تحت عنوان:" المسلمون بين التقاليد والحداثة، وحركة كولن كأنموذج تشكيل جسر الثقافات " يومي 26-27 ماي 2009م، شارك فيه ما يقارب من أربعين أكاديميا ، وجاءت الفكرة من قبل علماء اجتماع ألمان شاهدوا فعاليات حركة كولن بتركيا وقرروا أن يُعرِّفوا الرأي العام الألماني والأوروبي عامة بحقيقة هذه الحركة معرفة أكاديمية وليست معرفة مستندة إلى أخبار صحفية سطحية.
- ندوة بتونس بتاريخ 10-11 ماي 2012م، نظمها مركز الفاضل بن عاشور للتنوير تحت عنوان: الفكر الإصلاحي بين تونس وتركيا، الجذور التاريخية والأسئلة الراهنة: الشيخ الطاهر بن عاشور وفتح الله كولن نموذجا.
- نظمت جامعة محمد الخامس بالرباط بالتعاون مع مجلة(حراء) يومي 19و20/ 2012/01 ندوة دولية حول كتاب " ونحن نبني حضارتنا".

من محاور هذه الندوة :

- ✓ الحركية والبناء في فكر الأستاذ فتح الله كولن "ونحن نبني حضارتنا " نموذجا.

[1] تأسس هذا الوقف 1997 ليقوم بأنشطة متعددة في مجال التعليم والثقافة ويرعى الأبحاث العلمية ويوفر الإمكانات للباحثين.مكتبته تضم 12500 مجلدا، كما يقدم الوقف الخدمات المساندة للباحثين في أبحاثهم العلمية، ويخصص منحا دراسية للطلبة.

- ✓ تشكيل السلوك المتمدن في النفوس عند المفكر محمد فتح الله كولن.
- ✓ منظومة التعليم من خلال رسالة الإحياء، قراءة في كتاب " ونحن نبني حضارتنا".
- ✓ فلسفة البناء الحضاري ومقوماته عند المفكر الأستاذ محمد فتح الله كولن.
- ✓ الانبعاث الحضاري ومرتكزات الإصلاح عند المفكر الأستاذ محمد فتح الله كولن.
- ✓ عوامل النهوض الحضاري عند المفكر الأستاذ محمد فتح الله كولن.

خطة البحث ومنهجيتــه

سأعتمد الخطوات التالية:

- ➢ دراسة كتب الأستاذ الإمام ومقالاته وقد تجاوزت مؤلفاته الستين، ومقالاته في مجلة حراء ثابتة ومتجددة.
- ➢ جمْع ما تفرق في هذه المؤلفات والمقالات مما يتعلق بملامح منهج حركة الشيخ ونظريته في الإصلاح والخدمة.
- ➢ تحليل هذه المعطيات لاستخراج أسس الإصلاح الفردي والمجتمعي.
- ➢ دراسة عوامل فاعلية مدارس تيار الخدمة الإيمانية وأهم خصائصها وأهدافها الإصلاحية وموقعها ضمن رؤية الإصلاح لدى تجربة كولن الإحيائية وتحليل أهم أركانها التجديدية.
- ➢ معاينة التجربة من خلال زيارة مباشرة لبعض مشاريع الخدمة بإسطنول.

وقد اعتمدت في ذلك كله المنهج الاستقرائي والوصفي والتحليلي.

أهم الخطوات والمباحث المعالَجــة

الباب الأول: تحدثت فيه عن الأستاذ محمد فتح الله كولن ونشأته وبيئته.

قسمت الباب إلى فصول ثلاثة ومباحث ومطالب:

❖ **الفصل الأول: حالة تركيا العامة ونشأة الأستاذ محمد فتح الله كولن**

قسمته إلى مباحث أربعة:

- المبحث الأول: ظروف تركيا السياسية العامة

بسطت القول فيه من خلال مطالب خمسة:

- المطلب الأول: خسارة الحرب العالمية الأولى والاحتلال الأجنبي
- المطلب الثاني: أتاتورك والانتكاسة الكبرى
- المطلب الثالث: العلمانية الاستئصالية
- المطلب الرابع: نسيم من الحرية يهب على تركيا سنة 1950
- المطلب الخامس: عام حزن وبداية الفوضى والتضييق على الحريات.

- المبحث الثاني: الحالة الاجتماعية والثقافية لتركيا خلال النصف الثاني من القرن الماضي

قسمته إلى مطالب أربعة تبين أهم خصائص هذه الحالة:

- المطلب الأول: عبودية الأهواء والشهوات
- المطلب الثاني: الركون إلى الغرب من خلال استلهام نمطه الحضاري

- المطلب الثالث: قطع المجتمع عن جذوره المعنوية
- المطلب الرابع: تشاكس المرجعيات واختلال الموازين

المبحث الثالث: ميلاد فتح الله كولن ونشأته

قسمته إلى مطالب ستة:

- المطلب الأول: مولده
- المطلب الثاني: أسرته
- المطلب الثالث: طفولة كولن وعفة شبابه
- المطلب الرابع: أهم شيوخه
- المطلب الخامس: لماذا لم يتزوج كولن؟
- المطلب السادس: معاناته مع الاعتقال

المبحث الرابع : خصصته للحديث عن علاقة فتح الله كولن بالنورسي من خلال مطالب أربعة:

- المطلب الأول: مولد بديع الزمان النورسي ونشأته
- المطلب الثاني: أهم مراحل تطور فكر سعيد النورسي الإصلاحي
- المطلب الثالث: رسائل النور
- المطلب الرابع: فتح الله كولن والنورسي

❖ **الفصل الثاني: الخطيب الواعظ وفيه مباحث ثلاثة:**

المبحث الأول: الخطوات الأولى في الوعظ

وفيه مطلبان:

- المطلب الأول: أول درس في المسجد، البداية الرسمية للوعظ
- المطلب الثاني: توسيع مجال الوعظ

- المبحث الثاني: من أهم مميزات خطاب كولن الدعوي

وفيه مطالب خمسة:

- المطلب الأول: أهمية الحديث عن خصائص خطاب كولن
- المطلب الثاني: الصدق والاستقلالية
- المطلب الثالث: اللين والحكمة
- المطلب الرابع: الواقعية
- المطلب الخامس: كولن والبكاء

- المبحث الثالث: نماذج من أحاديث كولن ومواعظه

وفيه مطالب خمسة:

- المطلب الأول: فقه التعامل مع المتساقطين في طريق الخدمة
- المطلب الثاني: أزماتنا مشاريع عمل وإصلاح
- المطلب الثالث: من تجليات إحياء السنة جهود أهل الخدمة
- المطلب الرابع: الإنسان مصدر المشاكل والحلول
- المطلب الخامس: دعوة جنود الخدمة وحوارييها إلى إزالة غربة الإسلام المعاصرة

- **الفصل الثالث: مؤلفات الأستاذ محمد فتح الله كولن في مبحثين:**

- المبحث الأول: أهم خصائص مؤلفات الأستاذ كولن، تناولتها في مطالب أربعة:
  - المطلب الأول: الحركة و الفاعلية
  - المطلب الثاني: تعدد مجالات التأليف
  - المطلب الثالث: البعد الإصلاحي ومحبة الناس

- المطلب الرابع: حضور الذاكرة التاريخية والنفحات المسجدية

المبحث الثاني: مؤلفات الأستاذ محمد فتح الله كولن

وفيه مطلبان:

- المطلب الأول: قائمة مؤلفات الأستاذ محمد فتح الله كولن
- المطلب الثاني: تعريف بمؤلفات الأستاذ محمد فتح الله كولن المترجمة إلى اللغةالعربية

الباب الثاني: عرضت فيه لبيان أسس ومنطلقات الإصلاح في فك رالأستاذ محمد فتح الله كولن، من خلال فصول ثلاثة:

❖ **الفصل الأول: منطلقات الإصلاح عند كولن، قسمته إلى مباحث ثلاثة:**

المبحث الأول: بسطت فيه الحديث عن أسس ممهدات في نظرية كولن في الإصلاح، في مطلبين:

- المطلب الأول: الانطلاق من أنفسنا سبيل علاج أدوائنا
- المطلب الثاني: الذاتية الحضارية منطلق صياغة مستقبلنا

المبحث الثاني: تحدثت فيه عن مرجعية الكتاب والسنة في فكر كولن من خلال مطالب ثلاثة:

- المطلب الأول: المصادر الأساسية لميراثنا الثقافي
- المطلب الثاني: من شروط الانتفاع بالقرآن الكريم
- المطلب الثالث: توظيف الإعجاز القرآني لترسيخ ربانية الكتاب

المبحث الثالث: عرضت لفقه الحديث عند كولن في مطلبين:

- المطلب الأول: قواعد منهجية في دراسة كولن للحديث النبوي
- المطلب الثاني: نموذج تجسيدي لفقه كولن للحديث النبوي

- الفصل الثاني: مركزية الإنسان الفاعل والأسرة البانية في الإصلاح، وقسمته إلى مباحث ثلاثة:
  - المبحث الأول: تحدثت فيه عن محورية الإنسان في الإصلاح في مطالب ثلاثة :
    - المطلب الأول: الإنسان ذلك المحور الأساس لأي إصلاح
    - المطلب الثاني: الإنسان الإيجابي ركن الحضارة
    - المطلب الثالث: الإنسان بين الفكر والحركة
  - المبحث الثاني، بينت فيه أهمية التوازن في بناء و صياغة الإنسان، من خلال مطالب ثلاثة:
    - المطلب الأول: الحاجة إلى الإنسان المتوازن لصياغة القرار الإيجابي
    - المطلب الثاني: من تجليات التوازن
    - المطلب الثالث: التوازن سبيل إلى الإيجابية
  - المبحث الثالث ، عرضت فيه لمركزية مؤسسة الأسرة في الإصلاح عند كولن، في مطالب ثلاثة:
    - المطلب الأول: نظرة كولن للزواج والأسرة
    - المطلب الثاني: نحو أسرة بانية
    - المطلب الثالث: وجوب رعاية جيل البناء والمستقبل

- **الفصل الثالث: تحدثت فيه عن العمل الجماعي من حيث ضوابطه وتفعيله، من خلال مباحث ثلاثة:**
  - المبحث الأول، بينت فيه أهمية العمل الجماعي عند كولن وأهم ضوابطه في مطالب ثلاثة:
    - المطلب الأول: أهمية العمل الجماعي

- المطلب الثاني: من أهم ضوابط العمل الجماعي المؤثر
- المطلب الثالث: التكامل بين الفرد و المجتمع

المبحث الثاني، تحدثت فيه عن تفعيل الشعائر التعبدية لتجديد الإيمان، من خلال مطالب ثلاثة:

- المطلب الأول: عبودية الله تعالى طريق الحرية والتصوف جسر إليه
- المطلب الثاني: فقه مقاصد الشعائر التعبدية من خلال الصلوات
- المطلب الثالث: الكهفية وسيلة الشحن والتجديد الإيماني

المبحث الثالث: بينت فيه مركزية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في منهج كولن الإصلاحي، من خلال مطالب ثلاثة :

- المطلب الأول: حاجة الفرد والمجتمع إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- المطلب الثاني: نحو تجرد الأمر بالمعروف نصرة للدين
- المطلب الثالث: نحو توسيع دائرة الآمرين بالمعروف

❖ **الفصل الرابع: خصصته للحديث عن فقه الجهاد والحوار عند كولن، في مباحث ثلاثة:**

المبحث الأول: مفهوم الجهاد عند كولن،بسطت القول فيه من خلال مطالب ثلاثة:

- المطلب الأول: شمولية مفهوم الجهاد
- المطلب الثاني: بين الجهاد (الأكبر) والجهاد (الأصغر)
- المطلب الثالث: حسن الجهاد من خلال الخدمة الإيمانية

المبحث الثاني: تحدثت فيه عن فقه الائتلاف عند كولن في مطالب ثلاثة:

- المطلب الأول: أهم سبل علاج الاختلاف وتحقيق الائتلاف

- المطلب الثاني: احترام تنوع الاجتهادات
- المطلب الثالث: النقد الإيجابي حصن الائتلاف

المبحث الثالث: بينت فيه أهمية الحوار في منهج كولن الإصلاحي من خلال مطالب ثلاثة:

- المطلب الأول: الحوار سمة أساسية في مدرسة كولن الإصلاحية
- المطلب الثاني: نحو مأسسة الحوار في مدرسة كولن
- المطلب الثالث: أسس الحوار في فكر الأستاذ كولن

الباب الثالث: خصصته للحديث عن مرتكزات الخدمة وفاعلية المدرسة، في فصول أربعة:

❖ **الفصل الأول: تناولت فيه الحديث عن الخدمة من حيث مفهومها وأهم خصائصها من خلال مبحثين:**

المبحث الأول: عرضت فيه مفهوم الخدمة وخصائصها في أربعة مطالب:

- المطلب الأول: مفهوم الخدمة
- المطلب الثاني: المزج بين المدنية والتجربة عنوان خيرية الخدمة
- المطلب الثالث: المأسسة والشمول
- المطلب الرابع: الإيجابية والتلطف

المبحث الثاني: تحدثت فيه عن إنسان الخدمة وأهم مواصفاته، من خلال مطلبين:

- المطلب الأول: الحاجة إلى التحول الصادق وفدائيي المحبة
- المطلب الثاني: مميزات إنسان الخدمة

❖ **الفصل الثاني: بينت فيه أسس الخدمة وتمويلها في مبحثين:**

- المبحث الأول: تحدثت فيه عن أسس الخدمة من خلال مطالب ثلاثة:
  - المطلب الأول: التزكية في حضن السنة ونهج الصحابة
  - المطلب الثاني: الاستعلاء الرحيم والنفير العام
  - المطلب الثالث: استقلالية حركة الخدمة وتمويلها الذاتي
- المبحث الثاني: أبرزت فيه أركان الخدمة المادية في مطالب ثلاثة:
  - المطلب الأول: التمويل الذاتي عن طريق الجهاد المالي
  - المطلب الثاني: التشجيع على الاستثمار وتوسيع مجالاته: توسكون
  - المطلب الثالث: العمل الخيري و الإغاثي: "هل من مغيث " أو "هل من أحد".

❖ **الفصل الثالث: بينت فيه اقتران الخدمة بالأخلاق من خلال مبحثين:**

- المبحث الأول: أبرزت فيه أهمية الأخلاق في صياغة إنسان مجتمعي وتحقيق الخدمة في ثلاثة مطالب:
  - المطلب الأول: الاستقامة بوصلة الأخلاق
  - المطلب الثاني: أهمية الصدق في التمكين للخدمة
  - المطلب الثالث: الحاجة إلى التواضع والشورى وفقه الممات لصناعة الحياة
- المبحث الثاني: تحدثت فيه عن إنسان البعد الجمعي والامحاء في مطالب ثلاثة:
  - المطلب الأول: الفناء في الغير جسر احتضان الجميع
  - المطلب الثاني: الحياة من خلال إحياء الآخرين
  - المطلب الثالث: فقه الإثم والغربة

❖ **الفصل الرابع: تناولت فيه الحديث عن مدارس الخدمة في مباحث ثلاثة:**

- المبحث الأول: بينت فيه أهمية التعليم ومركزية المعلم من خلال مطالب ثلاثة:
  - المطلب الأول: كولن بين المدرسة "الدينية" والمدرسة "الحديثة"
  - المطلب الثاني: أهمية التعليم عند كولن
  - المطلب الثالث: مركزية المعلم في العملية التعليمية والتربوية
- المبحث الثاني: عرضت فيه لمدارس الخدمة وعوامل فعاليتها في مطالب خمسة:
  - المطلب الأول: وحدة العقل والقلب وتعزيز الانتماء للأمة
  - المطلب الثاني: انفتاح المدرسة على مختلف الثقافات
  - المطلب الثالث: التأليف الجماعي للكتاب المدرسي والتقييم المستمر للتلاميذ
  - المطلب الرابع: ارتباط المدرسة بالعائلة
  - المطلب الخامس: وقف معلمي تركيا و قاعات المطالعة
- المبحث الثالث: خصصته لبيان استقلالية المدارس، في مطالب ثلاثة:
  - المطلب الأول: استقلالية المدارس من خلال شركاتها الخاصة وإدارتها المستقلة
  - المطلب الثاني: مركزية التضحية والبذل والعطاء في إنجاح المشاريع
  - المطلب الثالث: المعاهد التحضيرية فرصة لتواصل أعمق بين الطلبة

خاتمة: ذكرت فيها أهم النتائج المتوصل إليها

أهم الصعوبـــات

إن استجلاء مكونات نظرية الإصلاح ومنهج الخدمة لدى الأستاذ الشيخ محمد فتح الله كولن يتطلب الإحاطة بكل ما صنف وألف، وذلك لأن كتبه المتجاوزة للستين مجتمعة محطة أساس للوصول إلى هذا الهدف وإنجاز هذه المهمة.

لقد تعددت مساحات اجتهادات الأستاذ محمد فتح الله وتنوعت مناطق اشتغاله الفكري والتربوي، وكثرت مجالات نهجه الإصلاحي مما يفرض صبرا علميا متميزا.

لقد مزج الشيخ المربي بين النظرية والتطبيق والعلم والسلوك فأحدث بعد ذلك تغييرا ملحوظا في المجتمع التركي وفي أماكن أخرى من خلال " مدارس الخدمة"، الأمر الذي يستدعي معاينة ميدانية لدراسة ثمرات حركة الأستاذ وبركاتها العلمية.

معظم مؤلفات فتح الله كولن باللغة التركية ولم يترجم منها إلى العربية (في حدود علمي) سوى خمسة عشر كتابا.

وقد ضعفت تلك الترجمة بسبب وفاة أورخان محمد علي (مات 08 فبراير 2010 بإسطنبول) وكبر سن لطفي عوني، و انشغال إحسان قاسم الصالحي بتراث النورسي.

حاولت التغلب على هذه الصعوبة من خلال :

- الاطلاع على المقال الرئيس الذي يكتبه فتح الله كولن في مجلة حراء.
- الاستفادة من المؤتمرات التي تتحدث عن الخدمة ومؤلفات فتح الله كولن.
- الالتقاء ببعض حواريي وأنصار فكر الخدمة من الجيل الأول والثاني:

مصطفى أوزجان – جمال ترك – أنس أركنه – نوزاد صواش.

- حضور الأيام التكوينية التي انعقدت بإسطنبول لفائدة الأكاديميين الباحثين العرب في فكر كولن من 24 إلى 29 دجنبر 2013.

- زيارة بعض أعمال ومشاريع الخدمة؛ حيث تم تخصيص ثلاثة أيام للاطلاع على بعض منجزات الخدمة في إسطنبول، والاستماع إلى شروح القائمين على تلك المؤسسات.
- قراءة كتب باللغة الفرنسية تحدثت عن مشاريع الخدمة وفكر كولن الإصلاحي.

وفي حدود علمي وجهدي، لم أجد دراسات تعكف على إبراز منهج فتح الله كولن في الإصلاح والخدمة وتبيان ملامح هذه النظرية التجديدية لدى الأستاذ. وما اطلعت عليه في هذا المجال من ندوات ومؤتمرات ومقالات و كتابات تناولت جوانب متفرقة من حياة الإمام وآرائه المختلفة لا تلغي مجهودا إضافيا، أرجو به أن أنضم إلى محبي الشيخ ودارسي إنتاجه الفكري التجديدي خصوصا وأننا في أمس الحاجة إلى مراجعات شاملة لرؤانا في الإصلاح والإحياء لإحداث نقلة نوعية في إطار نهضة واسعة تشمل عموم الأمة، وعبر استراتيجية الشيخ الثلاثية: الإنسان الكفء، الدولة المستقلة، استثمار الزمن.

التعريف بالمصطلحات التالية: المنهج، الإصلاح، الخدمة

1 - المنهـج:

يتضمن المنهج والنهج معنيين مختلفين؛ الوضوح والانقطاع. يقول أحمد بن فارس: "النون والهاء والجيم أصلان متباينان:

الأول:النهج، الطريق. ونهج لي الأمر: أوضحه. وهو مستقيم المنهاج. والمنهج: الطريق أيضا. والجمع المناهج.

والآخر:الانقطاع. وأتانا فلان ينهج، إذا أتى مبهورا منقطع النفَس. وضربت فلانا حتى أُنهج، أي سقط"[1].

و"النهج، الطريق الواضح البين. والجمع نهجات ونهُج، ونهوج. وطرق نهجة، واضحة كالمنهج والمنهاج. والنهج بالتحريك هو الربو وتتابع النفس من شدة الحركة"[2].

وقال الفيروزأبادي: "النهج: الطريق الواضح كالمنهج والمنهاج. وبالتحريك (النهَج) البُهر وتتابع النفس"[3].

---

[1] معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا أبو الحسين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مادة(ن هـ ج)، دار الفكر 1979، ج 5، ص: 361

[2] تاج العروس من جواهر القاموس،محمد بن محمد بن عبد الرزاق المرتضى الزبيدي،مادة (ن هـ ج) تحقيق عبد السلام هارون، ط 2، الكويت 1994، ج 6، ص: 252- 253

[3] القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي الشيرازي، ط8، مؤسسة الرسالة، بيروت 2005،ج4، ص: 208

ونهج الأمر وأنهج وضح[1].

قال الجوهري: " النهج: الطريق الواضح، وكذلك النهج والمنهاج.

وأنهج الطريق، أي استبان وصار نهجا واضحا بينا.

ونهجت الطريق، إذا أبنته وأوضحته؛ يقال: اعمل على ما نهجته لك. ونهجت الطريق أيضا، إذا سلكته"[2].

ذكر ابن منظور معاني أربعة لكلمة النهج: الوضوح – الإبانة – الاستقامة – الانقطاع. فقال : "طريق نهج: بين واضح. والجمع نهَجات ونهُج ونهُوج.

منهج الطريق: وَضَحُهُ. والمنهاج كالمنهج. وفي التنزيل ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا﴾الآية48 . المائدة.

وأنهج الطريقُ : صار نهجا. وفي حديث العباس: لم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تركّكم على طريق ناهجة أي واضحة بينة.

ونهجتُ الطريقَ : أبنته وأوضحته؛ يقال : اعمل على ما نهجته لك.

ونهجتُ الطريقَ: سلكته. وفلان يستنهج سبيل فلان أي يسلك مسلكه.

والنهج: الطريق المستقيم.

والنهج بالتحريك، والنهيج؛ الربو وتواتر النفَس من شدة الحركة..

ونهِج الثوب بلي ولم يتشقق"[3].

---

[1] معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، الراغب الأصفهاني، تحقيق نديم مرعشلي، دار الفكر، بيروت، ص: 528

[2] الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، مادة(ن هـ ج)، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ط 4 ، دار العلم للملايين، بيروت 1990، ج 1، ص: 346

[3] لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري،مادة (ن هـ ج) دار صادر، بيروت، مجلد 2، ص: 383

أضاف الفراهيدي إلى ما سبق من المعاني معنى الاتساع فقال: طريق نهج: واسع واضح"[1].

وردت كلمة منهاج في كتاب الله تعالى في سورة المائدة الآية 48 ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ بمعنى السنة الموضحة لأحكام الكتاب؛ قال أبو زهرة: "وتفسير الشرعة قد اتفق الفقهاء على أن المراد بها الشريعة، وهي ما جاء من أحكام تكليفية يجب العمل بها أمرا ونهيا وندبا وإباحة، والمنهاج على هذا هو الطريق الواضح لتنفيذها، وبيان مجملها، وتفصيل أحكامها الجزئية، ولذلك روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن الشرعة هي النصوص التي تجيء في أصل الكتاب المنزل، والمنهاج هو ما يبينه النبي الذي أنزل عليه الكتاب وفصل به الأحكام الجزئية"[2].

وقول ابن عباس ورد في صحيح البخاري كتاب الإيمان باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «بني الإسلام على خمس»: وقال ابن عباس: "شرعة ومنهاجا" سبيلا وسنة[3].

وعلى هذا فالقصد من "منهج الأستاذ محمد فتح الله كولن في الإصلاح والخدمة" بيان طريقه، وتوضيح رؤيته في الإصلاح وأسسه، والإبانة عن مشروع الخدمة ومرتكزاتها.

[1] كتاب العين، أبو عبد الرحمان الخليل بن أحمد الفراهيدي ، مادة(الهاء والجيم والنون)، تحقيق د. مهدي المخزومي و د. إبراهيم السامرائي، طبعة دار الرشيد للنشر، العراق 1981، ج 3، ص: 392

[2] زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، طبعة دار الفكر العربي، القاهرة 1987، ج 4، ص:2227

[3] صحيح البخاري، م1، ج1، ص: 66

2 - الخدمـــة

خدَمه يخدِمه ويخدُمه خِدمة، ويفتح (خَدمة). فهو خادم. ج خدام وخدم.اختدم: خدم نفسه[1]. والخدَّام، كشدّاد: الكثير الخدمة[2].والخدمة بالفتح: الساعة من ليل أو نهار[3].

ومن معاني الخدمة: الإطافة؛ قال ابن فارس: "خدم. الخاء والدال والميم أصل واحد. وهو إطافة الشيء بالشيء. فالخدم الخلاخيل، الواحد: خَدَمة.

الخَدَمة: سير محكم مثل الحلقة. ومنه اشتقاق الخادم، لأن الخادم يطيف بمخدومه"[4]، ويحرص على ملازمته وتحقيق حاجاته؛ «عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَشْرَ سِنِينَ وَاللَّهِ مَا قَالَ لِى أُفًّا قَطُّ وَلاَ قَالَ لِى لِشَىْءٍ لِمَ فَعَلْتَ كَذَا وَهَلاَّ فَعَلْتَ كَذَا»[5].

قال الخليل: " الخدمة سير غليظ محكم كالحلقة، يشد في رسغ البعير، ثم يشد إليها سرائح نعلها، وبه سمي الخلخال خدَمة"[6]، لأنه ربما كان من سيور يركب فيه الذهب والفضة[7].

---

[1] القاموس المحيط، مادة (الخاء) ج 4، ص: 102/ أساس البلاغة، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري، مادة (خ د م)، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية بيروت ط1، 1998 ج 1، ص: 236

[2] تاج العروس، مادة(خ د م)، ج 32، ص: 59

[3] القاموس المحيط، مادة(الخاء)، ج 4، ص: 102

[4] معجم مقاييس اللغة، ج 2، ص: 162- 163

[5] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل باب كان رسول الله أحسن الناس خلقا، ح 6151 ج 7 ص:73، دار الجيل بيروت

[6] كتاب العين، ج 4، ص: 235. انظر كذلك القاموس، ج 4، ص: 102

[7] الصحاح، مادة(خ د م)، ج 5، ص: 1909

ومن معاني الخَدَمة: تجمع القوم؛ قال مرتضى الزبيدي:" ومن المجاز، (فض الله خَدَمتهم، أي جمعهم، إشارة إلى حديث خالد بن الوليد أنه كتب إلى مرازبة فارس: الحمد لله الذي فض خدمتكم أي فرق جماعتكم.

والخدَمة في الأصل: سير غليظ مضفور مثل الحلْقة يشد في رسغ البعير ثم تشد إليها سرائح نعله، فإذا انفضت الخدمة انحلت السرائح وسقطت النعل، فضرب ذلك مثلا لذهاب ما كانوا عليه وتفرقه"[1].

إن الخدمة جهد يبذل من أجل الآخرين، والإطافة بهم لرعايتهم، والمرابطة على ذلك النهج من أجل المساعدة. ومن ذلك "الخدمة الاجتماعية كمهنة تستهدف مساعدة الإنسان كفرد أو كعضو في جماعة أو مجتمع على مواجهة مشكلاته وإشباع حاجاته، مع تنمية قدراته إلى أقصى حد ممكن.. من الواضح أن عملية المساعدة لابد أن تكون مبنية في الأساس على فهم كاف لموضوع تلك المساعدة، ألا وهو "الإنسان".. سواء من حيث طبيعته ومكوناته التي ركب منها، أو من حيث ديناميات التفاعل بين تلك المكونات"[2].

وتطلق أيضا على "العمل الذي يقدمه العامل او الخادم لتحقيق مطلب من المطالب الحيوية، أو الاجتماعية في البيت او المتجر أو العمل او المزرعة بطريق الاستئجار لهذا الغرض"[3].

إن "الخدمة " التي وجه إليها الأستاذ كولن، ودعا إلى بسط مشاريعها، وإحكام سيرها،للإطافة بالإنسان، أعم من "الخدمة الاجتماعية"، وأعمق أثرا وأكثر شمولية، ذلك أنها تبشر بعالم جديد محوره الأساس الإنسان الجديد القادر على خدمة من حوله بمشاريع ومؤسسات مدنية متنوعة ذات تأثير قوي، تحتضن المخدومين وتضحي من أجلهم على

[1] تاج العروس، ج 32، ص:57

[2] الإسلام والخدمة الاجتماعية، د. إبراهيم عبد الرحمان رجب، ط1، 2000، ص: 24

[3] موسوعة المصطلح في التراث العربي، د . محمد الكتاني، ط 1 دار الثقافة الدار البيضاء ، ج 1 ص: 912

قاعدة (أحب الخلق إلى الله أنفعهم لعباده)، مترجمة نور قوله تعالى :﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾الآية110. آل عمران. ونور قوله تعالى:﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾الآية 107. الأنبياء.

3 - الإصـلاح

صلَح يصلَح ويصلُح، صلَاحا وصُلوحا.

الصالح ضد الفساد ونقيض الطلاح، وهو الخالص من كل فساد.

والإصلاح نقيض الإفساد، والاستصلاح ضد الاستفساد.

أصلح الشيء بعد فساده، أقامه.

أصلح إلى دابته : أحسن إليها وتعهدها فصلحت[1].

تشغل كلمة الصلاح مساحات واسعة من كتاب الله تعالى وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم؛ قال الراغب: " الصلاح ضد الفساد. وهما مختصان في أكثر الاستعمال بالأفعال. وقوبل في القرآن تارة بالفساد، وتارة بالسيئة، قال تعالى: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا ﴾ الآية 102. التوبة.﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾ الآية 56. الأعراف.﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾في مواقع كثيرة[2].

وإصلاح الله تعالى الإنسان يكون تارة بخلْقه إياه صالحا، وتارة بإزالة ما فيه من فساد بعد وجوده، وتارة يكون بالحكم له بالصلاح، قال تعالى: ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ الآية 2. سورة محمد.﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ الآية 71. الأحزاب.﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ﴾ الآية 15 .

---

[1] لسان العرب، م2، ص: 516- 517 / كتاب العين، ج 3، ص: 117 / القاموس المحيط مادة(ص ل ح)، ج 1، ص: 23 / الصحاح، مادة(ص ل ح)، ج 1، ص: 383 / تهذيب اللغة ، محمد بن أحمد الأزهري الهروي أبو منصور ، تحقيق محمد عوض مرعب ، ط 1، دار إحياء التراث العربي بيروت 2001، ج 4، ص: 142/ تاج العروس، ج 6، ص: 547 - 548

[2] مفردات الراغب، ص: 292

الأحقاف.﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ الآية 81 . يونس."أي المفسد يضاد الله تعالى في فعله، فإنه يفسد، والله تعالى يتحرى في جميع أفعاله الصلاح، فهو إذا لا يُصلح عمله"[1].

تعد كلمة الصالحات من أشمل الألفاظ المعبرة عن الخير والحسنات حيث إنها "تعبير عام مطلق يتضمن كل نوع من أنواع الخير والبر والمعروف تعبديا كان أم غير تعبدي، فعبادة الله وحده وإسلام النفس إليه ونبذ ما سواه عمل صالح، والجهاد في سبيل الله ومكافحة الظلم والظالمين وتضحية النفس والمال في هذا السبيل عمل صالح، والتزام الحق والعدل والإنصاف والصدقة والأمانة عمل صالح، والتعاون على البر والتقوى والأعمال العامة عمل صالح"[2].

وقد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض ونهى عن الإفساد فيها؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ﴾ الآية 85. الأعراف.

"وأرسل الرسل تصلح ما بين الناس بالحق، وأجرى على أيديهم شرائع تهديهم إلى الرشاد، وتأخذهم إلى الحق إن استقاموا على الطريقة . وإذا عرفنا معنى الإصلاح الذي كان من الله تعالى في الأرض، عرفنا معنى الإفساد الذي يكون بعد الإصلاح الأزلي الذي قرره الله تعالى، فيكون الإفساد تخريب العامر وقطع القائم وإهلاك الحرث والنسل، وتعطيل شرائع الله، وإشاعة الأخلاق الفاسدة، وإثارة الغرائز الفتاكة والقاتلة لكل فضيلة بين الناس"[3]. ومعنى " الإفساد فعل ما به الفساد، والهمزة فيه للجعل أي جعل أشياء فاسدة في الأرض. والفساد أصله استحالة منفعة الشيء النافع إلى مضرة به أو بغيره، وقد يطلق على وجود الشيء مشتملا عل مضرة، وإن لم يكن فيه نفع من قبل، يقال: فسد الشيء

[1] مفردات الراغب، ص: 292

[2] التفسير الحديث، ترتيب السور حسب النزول، محمد عزة دروزة، ط 2،دار الغرب الإسلامي، بيروت 2000،ج 1، ص: 562- 563

[3] زهرة التفاسير، ج 6، ص: 2869

بعد أن كان صالحا، ويقال: فاسد، إذا وجد فاسدا من أول وهلة، وكذلك يقال: أفسد إذا عمد إلى شيء صالح فأزال صلاحه، ويقال: أفسد إذا أوجد فسادا من أول الأمر"[1].

ومن ثم جاء التحذير من جميع أنواع الفساد؛ يقول الرازي: "فقوله تعالى :﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ﴾ منع عن إدخال ماهية الإفساد في الوجود، والمنع من إدخال الماهية في الوجود يقتضي المنع من جميع أنواعه وأصنافه" [2]، ذلك أن الله تعالى أصلح الأرض بأن خلقها على أحسن نظام لمنافع العباد ومصالح المكلفين ببعث الرسل، وبيان الهدى، وإبطال الكفر، وتشريع الأحكام[3].

وجعل القرآن ازدياد نسبة صلاح علاقات الناس بالعدل من الأمور التي تجنبهم الهلاك حتى مع كفرهم.قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾الآية 117. هود. حيث " إن الله تعالى لا يهلك القرى إذا كان أهلها مصلحين يتعاطون الحق بينهم ولا يتظالمون وإن كانوا غير مؤمنين بالله ورسله، وإنما يهلكهم إذا تظالموا..تقريرا لأهمية الصلاح الاجتماعي والعلمي والعمراني حيث تبقى الأمم مع الكفر ولا تبقى مع الظلم" [4]. ومن هنا تكمن الحاجة إلى ارتقاء أئمة التسديد الاجتماعي وترشيد حركات الأفراد داخل الأمة ليكونوا في مستوى هذه المهمة العظيمة؛ يقول الدكتور عباس الجراري:"ولعل المفكرين والعلماء والفقهاء الذين يحتلون الموقع المتميز في هذه الاستقطابات، هم أكثر حاجة من غيرهم إلى التحديث الذي قد يسعفهم في الانتقال ـ عن

---

[1] التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، م 1، ج 1، ص: 284

[2] مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، ط1، دار الفكر، 1981، م 7، ج 14، ص: 108 – 109

[3] محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق محمد عبد الباقي، ط 1، 1957، ج 7، ص: 151 / روح المعاني في تفسر القرآن الكريم والسبع المثاني، محمود شكري الألوسي البغدادي شهاب الدين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج 8، ص: 140

[4] التفسير الحديث، ترتيب السور حسب النزول، ج 5، ص: 353 –354

جدارة إذا ما تجاوزوا عوائق الوصول ـ من ثقافة القضية إلى قضية السلطة، أي من ثقافة الانعزال بما يكتنفها من تردد وحيرة أو سخط وتذمر مهما يكن فيها من نقد إيجابي، إلى ثقافة ميدانية عاملة،قادرة على البناء والتأسيس، تكون مرتكزة على العلم والعقل والإبداع"[1].

يرتبط التمكين لورثة الأرض بالإصلاح منهجا وهدفا وغاية، اقتداء بالأنبياء والرسل؛ قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ الآيات 105-106-107. الأنبياء.

إن الإصلاح الحقيقي يستهدف تكوين جيل ورثة الأرض من خلال نموذج الصالحين المصلحين الذين يجسدون منهج شعيب عليه السلام الذي قال ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾الآية 88 هود؛ أي "إنما أريد لكم الإصلاح، والخلاص من الفساد الذي أنتم فيه غارقون، ما استطعت إلى ذلك سبيلا عن طريق الإقناع والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن" [2]، وذلك "مدة استطاعتي للإصلاح وما دمت متمكنا منه لا آلو فيه جهدا"[3]، فأنا "ما أريد إلا أن أصلح ما استطعت إصلاحه من فاسدكم"[4].

إن الإصلاح الذي ينشده فتح الله كولن، ينطلق من الإنسان الذي هو مصدر المشاكل والحلول معا عبر بنائه من جديد، وإنشاء مؤسسات الخدمة بعمودها الفقري؛ التعليم والتربية، والانفتاح والحوار، والبحث عن المشترك الإنساني، وتسخير طاقات الأمة

---

[1] الإصلاح المنشود، عباس الجراري، ط1، منشورات النادي الجراري، الرباط2005، ص: 21

[2] معارج التفكر ودقائق التدبر، عبد الرحمان حسن حبنكه الميداني، م 10، ط 1، دار القلم، دمشق، ص: 478- 204

[3] مفاتيح الغيب، م 9، ج 18، ص: 38

[4] روح المعاني، ج 12، ص: 120

وإحياء أمجادها، وبناء اجتماع قوي، ونشدان أفق الارتقاء الشامل بالحرص على تجديد الإصلاح المتواصل على نور من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر»[1].

[1] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب التعوذ من شر ما عمل،ومن شر ما لم يعمل،ح 2720، ج8، ص:81

الباب الأول

نشأة الأستاذ

محمد فتح الله كولن

وحياته ومؤلفاته

الفصل الأول

حالة تركيا العامة ونشأة الأستاذ محمد فتح الله

تقديـــم

مثل انهيار الدولة العثمانية خطا فاصلا في تاريخ الأتراك بين مرحلة القيادة والعالمية والانتماء لأمة عظيمة شاهدة، ومرحلة التيه السياسي وفقدان البوصلة الحضارية وضياع المكانة وموقع السيادة والإمامة، وكان "من أهم النتائج التي ظهرت بعد تفكك الوحدة السياسية للدولة العثمانية هي دخول الهوية الفردية والجماعية للمسلمين في أزمة شديدة.

إن الانهيار التدريجي للدولة العثمانية - والدولة الفارسية من جهة - أدى إلى تصاعد الأيدولوجية القومية المستندة إلى الهوية اللغوية ... وهذه القوميات لم تستمد هوياتها من القيم الإسلامية ولا من التقاليد التاريخية الإسلامية مباشرة، بل رجعت إلى جذورها القديمة قبل الإسلام. فمثلا استلهم المفكر القومي التركي ضياء (كوك آلب) [1] أفكاره من الحضارات التركية القديمة التي نشأت في الأناضول، مثل الحضارة السومرية والحضارة الحيثية (Hitite) ودعا إلى قومية تركية (pan-turkism) ".[2]

[1] منظر الحركة القومية التركية الكمالية(1875م . 1924).انظر(تطور الأوضاع الثقافية في تركيا، من عهد التنظيمات إلى عهد الجمهورية، سهيل صابان، ط1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية 2010، ص: 129)

[2] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، محمد أنس أركنه، ط 1، دار النيل، القاهرة 2010، ص: 83

المبحث الأول: ظروف تركيا السياسية العامة

المطلب الأول: خسارة الحرب العالمية الأولى والاحتلال الأجنبي

من أهم ما أسفرت عنه الحرب العالمية الأولى فقدان الدولة العثمانية لكثير من مجالاتها ونفوذها، بل دخل الاحتلال الأجنبي عقر دارها؛ يقول إحسان قاسم الصالحي: "والدولة قد خسرت الحرب (العالمية الأولى) واستولى الإنجليز واليونان والإيطاليون والأرمن على مناطق مختلفة من تركيا، وحتى إستانبول نفسها كانت تحت الاحتلال الإنجليزي... شعب مهزوم قد أنهكته الحرب يئن تحت وطأة أقدام الغزاة، وجروح عميقة في وجدان هذه الأمة التي فقدت كل شيء بنته بعرقها وجهادها وعقيدتها في عدة قرون"[1].

وفي كل مرة يتعرض أهل القبلة للانتكاسة وللإذلال الحضاري ومحاولة التسلط الاستئصالي لوجودهم ، تنتفض أرواح طاقاتها المجمدة وتظهر مواهبها في المقاومة ورفض الموت المهين " فما إن هتف بهذا الشعب (التركي) هاتف الإيمان وصرخ بوجدانه صارخ الإسلام، إلا وانتفض انتفاضة مذهلة، فوقف يحشد ما بقي من قواه، ويهيئ ماتبقى له من طاقات، وقرر أن يخوض حربا تحريرية ضد الغزاة وهي التي تسمى (حرب الاستقلال)"[2]، وما كان لغير ذلك النداء أن يحقق الإنجاز الكبير لأنه " لم تكن هناك أية فكرة أخرى يمكن أن تستنهض الهمم وتوحد الأمة للدخول في معارك ضارية ضد جيوش عدة دول في ظروف بالغة السوء" [3]، ظروف كان عنوانها الكبير ظهور " تركيا قطرا منهوك القوى، منتهك السيادة، لا تملك طليعته العسكرية والسياسية إلا أن

---

[1] بديع الزمان سعيد النورسي، نظرة عامة عن حياته وآثاره، إحسان قاسم الصالحي، مطبعة النجاح الدار البيضاء 1999، ص: 14

[2] المصدر نفسه، ص: 15

[3] نفسه، ص: 15-16

تمضي في طريق تم التمهيد له خارجيا ورسمت له معالمه، وهيئت له المخططات ورصدت عدة التنفيذ"[1].

المطلب الثاني: أتاتورك والانتكاسة الكبرى

بعد (حرب الاستقلال) بدأ مسلسل الإلحاق القسري للشعب التركي بسياق غير سياقه وفرض عليه ما لم يقبله إلا مكرها مرغما، إذ ما "إن استقر الأمر بيد مصطفى كمال وأصبح الرجل الأول في البلاد حتى ألغى الخلافة واستبدل بالقوانين الشرعية قوانين سويسرية وصفى جميع معارضيه ممن كانوا معه من القواد، وفرض الحياة الغربية على الأمة فرضا وقننها قانونا، وجعل مخالفتها جريمة يعاقب عليها صاحبها بأشد العقوبات،واستبدل بالحروف العربية حروفا لاتينية، وحول الأذان الشرعي إلى الأذان باللغة التركية" [2] سنة 1932، وعانى من أصر على الأذان باللغة العربية معاناة شديدة[3]،وصدر قانون منع الزي العثماني واللباس الشرعي للنساء، وفرض الزي الأوروبي سنة 1925[4]، ورفضت عقيدة الخالق الواحد في دائرة معارف الحياة التركية المطبوعة في إسطنبول سنة 1932[5]. وصودرت أملاك الوقف،ومنعت قراءة القرآن باللغة العربية،وحولت مساجد عديدة إلى مخازن ومتاحف، وقيد علماء الإسلام إلى المشانق[6] بعد

---

[1] الانبعاث الحضاري في فكر فتح الله كولن، أ. د سليمان عشراتي، ط 1، دار النيل، القاهرة 2012، ص: 84

[2] بديع الزمان النورسي: نظرة عامة عن حياته وآثاره، ص: 16

[3] المصدرنفسه، ص: 77-78-79-80

[4] نفسه، ص: 87

[5] نفسه، ص: 88 . النورسي متكلم العصر الحديث، د. محسن عبد الحميد، طبعة سوزار للنشر، القاهرة، ص: 67-68

[6] النورسي متكلم العصر الحديث، ص: 67-68. المفكر الداعية الإسلامي الكبير بديع الزمان سعيد النورسي، أبو بكر القادري، ط1، 2004، ص: 10- 11 – 12

أن تم إعلان تركيا دولة علمانية سنة 1928، السنة التي أنشأ فيها حسن البنا جماعة (الإخوان المسلمين) بمصر[1].

المطلب الثالث : العلمانية الاستئصالية

تتفاوت العلمانيات من حيث شدتها وقسوتها ومصادمتها للدين وقيم الأمة، ومما يميز العلمانية التي أعلنها أتاتورك أنها استئصالية وتصر من أجل ذلك على تجفيف منابع التدين ومحاصرة كل مظاهره ورموزه [2]، والتمكين لدولة حديثة أريد لها أن تكون " تلميذا نجيبا لإيديولوجية الانتكاس والحيدة عن الدين والانسياق الأعمى لروحية التغرب والانسلاخ عن الأمة، وسلكت الإيديولوجية الجديدة الطريق السهل، إذ حسبت أن خروجها عن هويتها الملية سيمكنها من تحقيق الانتساب إلى حاضرة الغرب"[3].

ولَكَمْ سعى أولو المشروع العلماني الاستئصالي في سبيل سلخ جيل بأكمله من كل ما يذكره بماضيه أو يمكنه لصياغة مستقبله الخاص في فلكه الحضاري، فكانت "مأساة الأمة التركية أنها عاشت البلاء الروحي الماحق والدمار المعنوي الكاسح، على يد لفيف متسلط من أبنائها، حادوا عن الأصل، ونهجوا بالوطن والشعب سبيلا يناقض جوهر كينونتها ... وبذلك دخلت تركيا في مرحلة هدم الذات، فمضت النخب المستلبة، وخلال عقود متلاحقة، تتنافس في اتخاذ الإجراءات والتحولات والترتيبات التي تجعل من تركيا شعبا متغربا، قد قطع كل أسباب الارتباط مع ماضيه وأمته وعقيدته"[4].

---

[1] موسوعة الحركات الإسلامية في الوطن العربي وإيران وتركيا، د.أحمد الموصللي، ط 1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2004، ص: 8

[2] La société civile démocratie et islam. perspective du mouvement Gûlen , Sous la direction d'Erkan ToGuslov, P 32

[3] الانبعاث الحضاري، ص: 84

[4] المصدر نفسه، ص: 84-85

لقد أفلحت جهود قطاع الطرق والسراق المشؤومين ـ كما يسميهم[1] فتح الله كولن ـ في نهب العقول والقلوب إلى درجة العجز عن "ذكر أي قيمة من القيم الإسلامية حتى وإن كان هذا على مستوى الشعارات، إذ ربما عد هذا جريمة وانتهاكا للدستو ر. لذا يتم الابتعاد عن هذا الأمر بحساسية ودقة بالغة. وليس هذا فحسب، بل قد ترى أن أي فعالية تقوم بها المؤسسات أو الجماعات المدنية، وتخاطب بها الضمير الإسلامي في المجتمع ليست مشروعة" [2].

ونفخ في المجتمع التركي نفخة أخرى إذ مسخ فيه وجوده الممتد، ووقعت واقعة التجريف والتحريف، وصنع للناس عجل غربي قال سامريوه الجدد: هذا هدفكم الذي نسيه أجدادكم.

لقد"تغيرت أوضاع تركيا المؤدلجة وباتت السياسة ـ وليس الدين ـ تصنع القيم،فتهاوى الفقه الشرعي من عليائه تحت صولة الأيدولوجية الإلحادية، وتحولت الفتوى عن جهة ذوي الاختصاص والأهلية، وبات ينهض بها مشرع في القانون الوضعي، ويتدخل في رسم موادها إداري تكنوقراطي، ويملي مقاصدها إيدولوجي مادي، وجميعهم يعادون العقيدة الإسلامية عن تصميم، ويناهضون مصادرها ورموزها كتابا وسنة وسيرة سلف عن قحة وضلال. لذا اضطهد الفقيه الحق، وألغي دوره التسديدي، وبدله قامت تنظيمات ما سمي بالوسط المدني بدور تعويم قيم المروق في المجتمع، وترويج أفكار التغرب والفلسفات الإلحادية بين الفئات والطبقات، وانبرت المدرسة والقطاع الإعلامي والفني تلقن الأيدولوجية اللادينية للمجتمع والناشئة، فاستكمل الطغيان جهوزيته،واستفحلت عوامل الردة"[3].

تمت هذه الإجراءات في جو من الاستبداد والقمع ومنع كل صوت يرفض التنميط

---

[1] ونحن نبني حضارتنا، محمد فتح الله كولن، ط 1، دار النيل، القاهرة 2011، ص: 169

[2] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 121.

[3] الانبعاث الحضاري، ص: 81

ويصرخ في وجه مصادرة الإرادة، وينادي بحرية الإنسان في بناء وتأسيس كيانه وصيغة مجتمعه بما يعتقده منسجما مع أصالته حتى صارت " سجون البلاد بيوتهم ومساكنهم، إذ لم يبق نوع من عذاب إلا وذاقوه، ولم يبق شكل من أشكال الإهانة والتحقير إلا وشاهدوه، ومنهم من أخذ من أهله إلى التحقيق ولم يعد إليهم، بل كثيرون كانوا يودعون أهلهم صباحا بلا أمل بالعودة ... هؤلاء جميعا كابدوا ما كابدوا من أجل استمرارية الكفاح"[1].

إن المتأمل في مرافعات النورسي أمام المحاكم تستوقفه ضخامة مأساة اضطهاد الأحرار الأبرار، ويلفت نظره بشاعة الحرب على الإسلام وقياداته، يقول بديع الزمان سعيد النورسي في إحداها: " لم أذق طوال عمري البالغ نيفا وثمانين سنة شيئا من لذائذ الدنيا،قضيت حياتي في ميادين الحرب وزنزانات الأسر، أو سجون الوطن ومحاكم البلاد. لم يبق صنف من الآلام والمصاعب لم أتجرعه، عوملت معاملة المجرمين في المحاكم العسكرية العرفية، و نفيت وغربت في أرجاء البلاد كالمشردين، وحرمت من مخالطة الناس شهورا في زنزانات البلاد، وسممت مرارا وتعرضت لإهانات متنوعة ومرت علي أوقات رجحت الموت على الحياة ألف ضعف. ولولا أن ديني يمنعني من قتل نفسي فربما كان سعيد ترابا تحت التراب"[2].

حقا إنها أيام عصيبة مرت بالمجتمع التركي سيم فيها سوء العذاب، يذبح فيها ماضيه ويحطم فيها أحراره وعلماؤه. إنها ـ كما يصفها كولن ـ "أيام نحس سود سيق البشر فيها إلى الإلحاد بالاستغلال السيئ للفنون والفلسفة وتعرضوا إلى (غسيل الدماغ) بالشيوعية، وأبعد المتصدون لهذه السلبيات في البلاد نفيا وتغريبا، وأشيع في أرجاء البلاد أشد الخيارات المخجلة، والباعث للحيرة أن كل ذلك جرى باسم التحضر والعصرنة حتى

[1] طرق الإرشاد، ص: 126

[2] كليات رسائل النور: سيرة ذاتية، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، ط 2، شركة سوزلر للنشر، القاهرة 1998، ص: 457

غدت (العبثية) سحر العصر الساري كالنار في الهشيم" [1]. ويقول الأستاذ فتح الله مؤكدا سوء العذاب الذي لحق بالأتراك:" يكفينا أن نطلع على ماضينا القريب لنمتلئ رعبا! فكم من روح اغتيلت بشعار الديموقراطية، وكم من شرائح اجتماعية أوقع بينها فصارت بعضها ذئاب بعض! وكم من مرة سيقت قلوبنا بالحقد والبغض والكدر"[2].

إن ضياع الدين و خراب الدنيا و قيام الدولة على شفا جرف هار، هو معظم ما جلبته خيارات اللادينية المهيمنة القاهرة للإنسان بسلخه عن جلده بدون إذنه ورضاه؛ يقول شاهد عصره . فتح الله كولن . متألما: " الصحيح هو أننا ارتكبنا خطأ من أعظم ما لا يغفره التاريخ؛ ضحينا بالدين في سبيل الدنيا، فوجدنا أنفسنا مذّاك أسرى في شباك الممتنعات، وضاع الدين وفرّت الدنيا... وعاش هذا العالم المجيد التعيس مرحلة التفريغ: رفض لميراث مبارك من ألف عام، وتلبيس على الشعب بمبدأ مصطنع، وتركيب الدولة العظيمة وتصميم بنائها على قاعدة هشة ومتهاوية، وتعريض التاريخ والقوم والأرومة والثقافة الموروثة إلى الازدراء والتزييف، وإلقاء بالنفس في أحضان أعداء الألف سنة، ثم دس أشد الأفكار إلحادا بأفحش الألفاظ طرا في جسم الوطن، بل شهدنا انهمار الجوائز والمكافآت على من يزخرف هذه الأفكار بالشعر والنثر، بل السعي لإحياء الشيوعية في العواطف والأفكار والأخلاق في عالم المسحوقين والمظلومين...أذكر زمانا كان أمثال هؤلاء التعساء يقيئون حقدهم وكرههم وغيظهم، يناضلون نضال المستميت لكبح صوت الدين والمسلم، أيام رواج الشيوعية والاشتراكية، متكئين على نظم لا أنساب لها. وما أجمل أبيات شاعر [3] النشيد الوطني وأمل الاستقلال الذي صار نشيده أسطورة تروي

---

[1] ونحن نقيم صرح الروح، محمد فتح الله كولن، ط 5، دار النيل، القاهرة 2011، ص: 72

[2] المصدر نفسه، ص: 106

[3] محمد عاكف شاعر الإسلام في تركيا(1873 ـ 1936)، أصبحت إحدى قصائده النشيد الوطني التركي؛ انظر: زهر البساتين من مواقف العلماء والربانيين، د. سيد بن حسين العفاني، دار العفاني،القاهرة، ج2، ص: 308

انبعاث الشعب من جديد، في تصويره ـ بالضد ـ هذه المرحلة المظلمة، إذ يرتقب فيه المسلم والإسلام ويقتفى أثره ليقتل وتطفأ شعلته وتفسد طبائعه:

قد انسلخ الحياء وانحسر فالعار ملء البوادي والقفار

كم وجه قبيح لم نعرفه اختفى خلف رقيق الستار

فلا وفاء والعهد عدم والأمانة لفظ بلا مدلول

والكذب رائج، والخيانة ملتزمة في كل حال والحق في المجهول

العقل مرتعب جزع، يارب كم رهيب هذا الانقلاب

ضاع الدين والإيمان فالدين خراب والإيمان تراب

أبيات مفعمة بحسرة وانكسار تقصم ظهر الشاعر، لكن هذا التسلط القهري والكفري والمزاجي، طوال هذه السنين، عجز عن الاستحواذ تماما على إرادة هذا الشعب الأصيل، ولم يطفئ أبدا شعلة أفكاره ذات البعد الأزلي والأبدي"[1].

المطلب الرابع: نسيم من الحرية يهب على تركيا سنة 1950

لقد استمر الطغيان والعداء المبين للإسلام وتاريخ الأمة طيلة ربع قرن حتى سنة 1950[2]، حيث أجريت انتخابات حرة تمكن فيها الحزب الديمقراطي من الفوز، مطيحا بحزب الشعب الجمهوري الذي حكم البلاد مدة ربع قرن معاديا للإسلام [3] وأصبح إثر ذلك

[1] ونحن نقيم صرح الروح ، ص: 15-16-17

[2] بديع الزمان سعيد النورسي: نظرة عامة عن حياته وآثاره، ص: 65

[3] بديع الزمان سعيد النورسي: نظرة عامة عن حياته وآثاره، ص: 110- 115. الإسلاميون والحكم في البلاد العربية وتركيا : دراسات وبحوث الندوة الفكرية الأولى المنظمة من طرف مركز الدراسات الدستورية والسياسية، مراكش، يونيو 2006، تنسيق امحمد مالكي، ط 1 2006، ص: 383

عدنان مندريس[1] رئيسا للوزراء، وقد أعطى في عهده حرية للنشاط الإسلامي وتمت العودة إلى الأذان الشرعي وشجع على الزيادة في معاهد الأئمة والجمعيات الدينية [2]. ولكن هذا الانفراج لم يمنع من مواصلة التضييق على رسائل النور ومن يخدمها نسخا ونشرا ومدارسة، فقد استمرت محاكمة رسائل النور طوال ثمان سنوات حتى صدر حكم 1956 بأنها تخلو من أي عنصر مخالف للقانون، قال عقبها النورسي: هذا هو عيد رسائل النور، كنت أنتظر مثل هذا اليوم، لقد انتهت مهمتي إذن وسأرحل قريبا.

جرت عمليات اعتقال واسعة لطلبة النورسي في أنقرة و إسطنبول واسبارطة[3]، ولكن ذلك لم يثن أحدا عن المضي في خدمة مشروع بديع الزمان، بل إنهم كانوا مستعدين للتضحية والصبر الجميل، فعندما "قال المحامي للمسجونين: إنني أحب أن آخذ رأيكم في مسألة تخصكم، فهل تحبون أن أسعى إلى إطلاق سراحكم من السجن في أقرب فرصة؟ أم ترغبون أن أسعى للدفاع عن دعوتكم وشرحها دون الاهتمام بقضية إطلاق سراحكم؟ أجابوه: نرجو منك أن تحصر جهدك في بيان وشرح دعوتنا السامية فنحن راضون أن نبقى في السجن سنوات عديدة"[4].

المطلب الخامس: عام حزن وبداية الفوضى والتضييق على الحريات

توفي النورسي سنة 1960 وفي العام نفسه وقع انقلاب 27 ماي الذي أطاح بالحزب الديمقراطي وسيق أعضاء الحكومة إلى المحكمة، حيث أعدم رئيس الوزراء

---

[1] هو علي عدنان إرتكين مندريس(1899م . 1961م)، أول زعيم سياسي منتخب ديموقراطيا في تاريخ تركيا، استمر في الحكم أكثر من عشر سنوات بفضل التأييد الشعبي العام له. انظر: تطور الأوضاع الثقافية في تركيا، ص: 508-517

[2] بديع الزمان سعيد النورسي: نظرة عامة عن حياته وآثاره، ص: 127

[3] المصدر نفسه، ص : 129. اسبارطة عاصمة محافظة اسبارطة غرب تركيا (انظر أطلس العالم،إبراهيم حلمي الغوري، ط5، دار الشرق العربي للطباعة والنشر، بيروت2005، ص: 67)

[4] بديع الزمان سعيد النورسي: نظرة عامة عن حياته وآثاره، ص: 129

عدنان مندريس واثنان من وزرائه وحكم على الآخرين بالسجن لمدد متفاوتة. وظهر عداء سافر لجميع التيارات والحركات الإسلامية في تركيا، إلى درجة أن لاحقوا النورسي بعد موته ونقلوا رفات قبره إلى جهة غير معلومة [1]. ومما زاد الأمر سوءا تولي عصمة إينونو قيادة تركيا، وهو رفيق أتاتورك، شديد الحقد على الإسلام فبالغ في تجفيف منابع التدين من المجتمع التركي[2].

في مارس 1971 وقع انقلاب عسكري آخر اعتقل خلاله محمد فتح الله كولن لأشهر ثم أطلق سراحه[3].

استمرت الاضطرابات والصراعات السياسية المسلحة بشكل رهيب، يقول أنس أركنة واصفا هذه المرحلة : " كانت تركيا قبل الثمانينات مسرحا لنزاع ولصدام العديد من الحركات ومن التيارات الأيدولوجية وقد قتل الآلاف من الشباب في أثناء الصدامات التي جرت بين الحركات الشبابية. واهتزت تركيا من أعماقها بتأثير النزاعات الأيدولوجية التي عمت أيضا العالم كله... لقد خسر البلد في الستينات والسبعينات ثلاثة أجيال واستولى التعب واليأس على الناس"[4].

صور الأستاذ كولن مشاهد من هذه المرحلة بقوله " إن أي نوع من أنواع الإرهاب والفوضى حاليا أجنبي المنشإ بلا شك، فهم يريدون أن يحولوا هذا الوطن الشبيه بالجنة إلى جحيم لا يطاق، ولا أسهل من إرغام دولة خارت قواها نتيجة الإرهاب والفوضى، وهذا

---

[1] بديع الزمان سعيد النورسي: نظرة عامة عن حياته وآثاره، ص: 138-139، (وقد نقل الصالحي تفاصيل نقل الرفات في ص: 139-140- 141). انظر أيضا: الإسلام في تركيا الحديثة : بديع الزمان النورسي ، شكران واحدة ، ترجمه عن الإنجليزية محمد فاضل ، sunny press.USA 2005، ص: 512 – 513. وكذلك، عودة الفرسان: سيرة محمد فتح الله كولن ، فريد الأنصاري، ط 3، دار النيل، القاهرة 2012، ص: 241 – 242

[2] عودة الفرسان، ص: 241

[3] المصدر نفسه، ص: 279- 280- 281 - 297

[4] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 42-43- 228

ما يصبو إليه الأجانب. فهم يريدون أن تتحول هذه البلاد إلى مستعمرة يستغلونها،والإرهابيون والفوضويين جميعهم ماهم إلا عملاء أولئك المستعمرين" [1]. ويقول أيضا:" سأورد هنا إحدى مشاهداتي: في غضون أيام الإرهاب والفوضى التي ضربت أطنابها في البلاد حتى بدأ الإرهابيون يفتشون السيارات العابرة ويتخذونها ترسا لهم تجاه قوات الجيش والشرطة، ولما أرادوا مرة حجز شاحنة مارة واتخاذها ترسا، إذا بسائق الشاحنة ـ ولا نعلم مبلغ إيمانه ودينه ـ يخرج عليهم وليس بيده سوى عصا غليظة فيشتت عشرين منهم أيما تشتيت"[2].

وقع انقلاب سنة 1980 ووصل أوزال تورغوت ـ في إطار حزب الوطن الأم ـ إلى السلطة سنة 1982 بعد عودة الديمقراطية [3]، مما يسر لتيارات المجتمع المدني ـ ومنها حركة الخدمة التي أنشأها كولن ـ من أن تتحرك بحرية حيث "نشط في عهده التعليم الديني وتنظمت معاهد الأئمة والخطباء والكليات الشرعية، وسمح لطلاب المعاهد الدينية لأول مرة الالتحاق بكليات الشرطة والأكاديميات العسكرية، وتوسعت الحركة الإسلامية التركية في تأسيس الأحزاب السياسية والأوقاف والجمعيات في مختلف المناشط، وبرزت الحركة الإسلامية التركية كقوة سياسية واقتصادية.. وظهرت مجموعات اقتصادية تابعة لجماعات دينية مختلفة استثمرت في مجالات التجارة والصناعة والصحة والإعلام والتعليم[4].

---

[1] روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، محمد فتح الله كولن، ط 7، دار النيل، القاهرة 2012، ص: 96

[2] المصدر نفسه، ص: 121

[3] عبقرية كولن بين قوارب الحكمة وشواطئ الخدمة ، فؤاد البنا ، ط2، دار النيل ، القاهرة 2013، ص: 30

[4] الإسلاميون والحكم في البلاد العربية وتركيا، ص 386- 387

المبحث الثاني : الحالة الاجتماعية والثقافية لتركيا خلال النصف الثاني من القرن الماضي

اتسمت الأجواء العامة للمناخ الاجتماعي والثقافي التركي خلال النصف الثاني من القرن الماضي بالتدهور والانسلاخ عن هوية الأمة وبالاغتراب الشامل على مستويات عديدة مست الأفراد والمجتمع والأسرة وشبكة العلاقات العامة، يقول الأستاذ فتح الله كولن ـ وهو شاهد عصره ـ : " دعي مفكر القرن العشرين بديع الزمان سعيد النورسي يوما بـ "رجل عصر النكبة والفتنة والهلاك"، ولو نادى الرسول صلى الله عليه وسلم جيل هذا القرن لقال: تعالوا ! تعالوا ! يا جيل المهالك والمخاطرة، لأننا إن تفحصنا السوق والشارع والحياة الاجتماعية والتجارية والفرد والعائلة والمجتمع والمدرسة المكلفة بإسناد كل هذه الوحدات الاجتماعية،وتناولنا جميع الهيئات والمؤسسات واحدة واحدة، وقمنا بإصدار تقييم حولها، لكان هناك وصف واحد فقط ينطبق على الجميع وهو وصف سيئ جدا...أينما تذهب أو تتجول لا تستطيع الحيلولة دون التلوث ببعض الإثم. لا تستطيع أن تعبر في الحياة الاجتماعية من جهة إلى أخرى دون أن ينثلم روحك عدة مرات ودون أن تتعكر حياتك القلبية. إن العيش اليوم مسلما أصبح أصعب من المشي على الجمر. إذن فنحن جيل مثل هذا العهد المهلك والمفجع، وأهواء النفس المركبة في طبيعتنا تترصدنا كالعقرب لكي تلدغنا. وهذه الأهواء والشهوات تتغذى وتتقوى على الدوام من المحيط الفاسد الذي ولدت فيه وترعرعت. ومن المحتمل في كل آن وحين أن يقوم هذا العقرب بلدغنا وتسميمنا"[1].

[1] أسئلة العصر المحيرة، محمد فتح الله كولن، ط 5، دار النيل، القاهرة، ص: 174-175

المطلب الأول: عبودية الأهواء والشهوات

أ . ازدواجية خطر أعداء الأمة

امتدت مساحات الحـ اقدين على الأمة من الخارج إلى داخلها وعلى يد بني جلدتها،يصف الأستاذ فتح الله كولن هذه الأزمة بقوله: " لقد تبدل شكل الخطر حاليا عما كان في الماضي؛ ذلك أن الخطر في السابق كان آتيا من الخارج، أما الآن، فهو يأتي من الداخل أيضا. لذا فمقاومته أصبحت أصعب كما أن السقوط الأخلاقي الذي سرى كوباء إلى جميع مفاصل المجتمع هدم الركائز التي تحفظ المجتمع وسوى بها الأرض. أما جيلنا الذي انتزع منه التوقير والاحترام لقيمنا المقدسة بوساطة النماذج المجنونة لما سموه بالخلق اللاديني والخلق الفوضوي والخلق الشيوعي، هذا الجيل أصبح ضحية للفكر وللروح المشوه،وغافلا عن تخبطه في فوضى مخيفة من المصطلحات والمناهج"[1].

وقد استغلت القوى المعادية للأمة هذا الجو لتـعميق الهبوط وتـجذير التفكك وتغذية مناخ التردي والانحطاط. خصوصا أن تركيا تمثل إرثا كبيرا وثقلا وازنا، وتتبوأ موقعا رئيسا ودورا محوريا.

ب . سجن الرغبات وعبودية الأهواء

لقد عمق سجن الرغبات وعبودية الأهواء ، واتخاذها معيارا للتواصل مع الآخرين ومؤطرا للنسيج الاجتماعي ، التفكك والأنانية والكراهية. يصف الأستاذ هذه الحالة فيقول: "لقد أصبحنا . كمجتمع . منذ زمن طويل أسرى رغباتنا وعبيدا لأهوائنا، وبدأ معظمنا يتصرف بوحي من الشيطان في قيامه وقعوده، ننزعج من الجميع ونزعج الجميع...لقد استقرت المشاعر السيئة في قلوب معظمنا، مع أن هذه القلوب عش وخيمة للحب. فلم نعد نستطيع حب الآخرين ولا احتضانهم ولا إبداء التسامح والمرونة تجاههم. وأصبحنا

[1] الموازين أو أضواء على الطريق، محمد فتح الله كولن، ط 7، دار النيل، القاهرة 2012، ص: 66

نلتذ بالتحطيم والتدمير والتخريب، وكالبوم نقيم أعشاشنا فوق الخرائب ونهجم على الجميع، ونسرع للتخريب برغبة وشهوة كبيرة، ونتورط بذلك في آثام لا تغتفر نحو الله تعالى ونحو بلدنا ونحو الناس. وأحيانا نقترف هذه السيئات ونحن نحسب أننا نقدم خدمة نتوقع الشكر والحمد والثناء من الآخرين عليها. والشمس بدأت تطلع كل يوم على ظلم أو على اعتداء وتجاوز أو هذيان،وتمر الليالي حالكات الظلم، وأصبحت حالنا حال مجتمع عقد العزم على اقتراف الآثام...إثم عدم احترام الحق، وإثم شعور الكره نحو الناس والنفور منهم، وإثم الاستخفاف بالأفكار، وإثم بذر بذور الفرقة والخلاف في المجتمع، وإثم النظر إلى كل شيء بمنظار أسود، وإثم عد الآخرين مجرمين وأنفسنا بريئين، واعتبار الآخرين من أهل النار أو من الرجعيين، وإثم القيام بعرقلة كل خطوة إيجابية، وإثم تخريب القيم الإنسانية"[1].

ج . بين شباك الشهوة وشَرَك الكفر

قام خصوم الأمة والحاقدون على ملتها والكارهون لحضارتها بجهود ضخمة خصوصا في المجتمع التركي في سبيل زعزعة قواعد العقيدة وخراب إنسان التوحيد، يؤكد هذا الأمر الأستاذ كولن بقوله: "لا تقوم الجبهة المعادية إلا بعمليات التخريب، إذ تقوم باستغلال مشاعر الإنسان وغرائزه لجره وإسقاطه في شباك الشهوة، وتثير فيه الرغبات لتجعله أسيرا وعبدا لحياة مادية بحتة، وتزين له المنصب والجاه وتجعله هدفا للحياة. وهكذا تقوم بعمليات هدم وتخريب واسعة بوسائل بسيطة، فتغوي أجيالا من الشباب" [2]. ولتحقيق هذا المشروع كان لابد من السعي إلى زلزلة الجذور والطعن في الأصول وتغوير المنابع. يقول فتح الله كولن:" لقد اهتزت قواعد التوحيد في هذا البلد وفي بعض البلدان الإسلامية الأخرى، وظهر الكفر بالله وإنكاره، وهوجم الرسول صلى الله عليه وسلم

[1] ترانيم روح وأشجان قلب، محمد فتح الله كولن، ط 4، دار النيل، القاهرة 2010، ص: 156-157

[2] أسئلة العصر المحيرة، ص: 171

واستهين بالدين ونبذ القرآن الكريم جانبا مع كونه مصدر النور والحق... بل فقد الدين حتى عند بعض المتدينين أولويته وثقله وأصبح الوضع بائسا بكل معنى الكلمة"[1].

بين تلك الشباك وذلك الشَرَك تحرك برنامج الاجتثاث لإنجاز الموت الحضاري لأمة بأكملها بعد أن دخلت الوهن الحضاري، مما جعل الغيورين من الإحيائيين يصرخون بقوة "فألف لعنة على من يتلاعب بعقيدة وتاريخ هذه الأمة ! وألف لعنة على أعداء ماضي هذه الأمة ! وألف لعنة على من خرب فكر وثقافة هذه الأمة ! وألف لعنة على المتشائمين الذين يرون مستقبلنا مظلما ويوهموننا بذلك"[2].

المطلب الثاني: الركون إلى الغرب وطلب التطور من خلال نمطه الحضاري

أ . فوضى القيم و الركون إلى الغرب والإخلاد إلى بضاعته والتبشير بثقافته

لقد عانى المجتمع التركي ـ كما يقول فتح الله ـ :"من فوضى القيم، ثم النزاع الدموي كنتيجة طبيعية، هذه هي الحال البائسة للوطن الآن الغارق في الفوضى نتيجة هذه الفلسفة والنظرة إلى الحياة دون أخذ الفطرة والطبيعة الإنسانية في نظر الاعتبار. ففي فوضى المفاهيم هذه من المفيد الوقوف على موقف المتفرنجين ومقلدي الغرب، فالدين عند هؤلاء يعني الرجعية، والوطن يعني الطورانية، والأمة تعني الفاشية. ومن الصعب أن تفهم ما يكتبه هؤلاء الراكضون وراء السراب منذ أكثر من قرن ونصف، إذ بينما نراهم يربطون كل الطرق مع الغرب ويسيحون في تلاله وسهوله، ويصبح الغرب قبلتهم الوحيدة لسنوات وسنوات، فأنت لا تجد لدى هذه الفئة الغريبة أي فكر جدي.. وخلاصة القول أن القيام بتخريب المعاني الدينية والملية في هذه المرحلة؛ بينما أدى إلى تنشئة فريق من

[1] أسئلة العصر المحيرة، ص: 171

[2] الموازين، ص: 104

الملحدين من جانب، أدى من الجانب الآخر إلى نشوء وظهور جماعات متعددة لا يعرف بعضها البعض الآخر" [1].

ب . بين التبشير بالسراب وبيع وهم الاستقرار والتنمية

لقد وُعِد المجتمع التركي بجنات الاستقرار والازدهار إذا التحق بالغرب، وصور له المستقبل الجميل رهينا بثقافة الآخرين واحتضان مشاريعهم، وتنفيذ وصاياهم، والتولي شطر قبلتهم، وكانت المحصلة هي ما عبر عنه الأستاذ فتح الله كولن: "الذين أبعدونا عن الإسلام وَعَدُونا بأنهم سيصلون بنا إلى حياة في مستوى المدن يّ الغربية، ولكن على الرغم من مرور 150 عاما على هذا الوعد، فلا نزال نتسول عند أبواب الغرب، ولم يحدث أي تغيير ولم يتم تقدم خطوة واحدة، واستمر الغرب في نظره إلينا كخدام عند عتبة بابه ...خدام جاؤوا إليه من أجل دراهم معدودة" [2]، عندما يتم إدراك هذه الحقيقة سيزول وهم حصول القوة بالركون إلى الذين أذلوا المستضعفين ؛ " فطالما كان العالم الإسلامي مغلوبا المرة تلو الأخرى بالضربة القاضية، وطالما بقي أسيرا ومتسولا ومتمسحا بأعتاب الغرب وخائفا من الغرب ومرتجفا منه،فلن يكون هناك أي احتمال لأن يعيرك الغرب سمعه أو يهتم بالرسالة التي تحملها"[3].

المطلب الثالث: قطع المجتمع عن جذوره المعنوية

أ . إبعاد المجتمع عن المسجد.

كثرت عمليات الصد الممنهجة عن سبيل الله لإنشاء المسخ الحضاري حتى "إن جيلا كاملا قد فني ومحي ـ كما يقول فتح الله ـ ووضعت على الطرق المؤدية إلى

---

[1] الموازين، ص: 68

[2] أسئلة العصر المحيرة، ص: 108-109

[3] المصدر نفسه، ص: 109

المساجد حواجز وعقبات من الشهوات والأهواء. وجعلت الأمور الجسدية محراب الجيل، فلم يعلموه شيئا عن الدين والإيمان والقرآن.

والآن هذا الجيل يضطرب في هذه الدوامة، وهذه نتيجة طبيعية جدا ومنتظرة. فليس هذا الجيل النكد وهذا الشباب البائس يغضب عليه ويحنق عليه، بل الذين يستحقون لعنة المؤمنين هم الذين دفعوا هؤلاء إلى هذا المجرى القذر...وأملنا أن ينقذ هذا الجيل من هذا المستنقع في أقرب وقت وهذه غاية وجودنا ومبتغانا"[1].

ب . قطع الصلة باللغة العربية

من أجل أن يحال بين الأتراك وبين مصادر ميراثهم الثقافي ومنابع جذورهم المعنوية ثم دفعهم إلى البحث عن هوية جديدة، فقد " قامت الفئات التي تدعي التقدمية في تركيا ـ بعد إنشاء الجمهورية التركية ـ بحركة واسعة لحذف الكلمات العربية والفارسية من اللغة التركية ووضعوا مكانها إما كلمات تركية أهمل استعمالها، أو اشتقوا هذه الكلمات، أو اخترعوا كلمات جديدة أو وضعوا بدلا منها كلمات فرنسية أو إنجليزية، ولم يدعوا اللغة في سيرتها التطورية الطبيعية.. والشباب لا يستطيعون فهم الأدب التركي السابق ولا يستطيعون قراءته بعد أن تم تغيير الحروف الكتابية السابقة ـ وهي بالحروف العربية ـ بالحروف اللاتينية وحذف استعمال العديد من الكلمات التركية القديمة."[2]

والأدهى من ذلك هو وجود عدد لا يستهان به من الأميين؛ يقول فتح الله كولن: "وعندما ننظر إلى عهدنا الحالي بكل الإمكانيات المتوفرة فيه وبالرغم من كل الجهود،حتى الإكراه والضغط أحيانا . فإن قسما كبيرا من المواطنين لا يعرفون القراءة والكتابة، رغم مرور خمس وستين سنة على قبول تركيا للحروف اللاتينية"[3].

---

[1] طرق الإرشاد، ص: 162-163

[2] أسئلة العصر المحيرة، من مقدمة المترجم، ص: 6-7. عبقرية فتح الله كولن، ص: 104

[3] النور الخالد: محمد صلى الله عليه وسلم مفخرة الإنسانية، محمد فتح الله كولن، ط 7، دار النيل، القاهرة 2012، ص: 325

ج . التشويش على السنة والتشكيك في حجيتها

انتشرت ثقافة التشويش على السنة لزعزعة الثقة في حجيتها من خلال تشويه الأوعية الشرعية التي نقلتها إلينا، خصوصا ما تعلق بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم،الشيء الذي يحقق أهداف المشروع الاستئصالي للعلمانية الشاملة. يصف الأستاذ فتح الله كولن هذا الموقف المستهجن قائلا:" فالذين يريدون إحلال نظم عقيدية زائفة محل الدين لا يزالون يبذلون جهودهم في هذا السبيل، ولا يستغرب هذا منهم، فهذا هو طبيعة نفوسهم، غير أن الغريب والشيء المستهجن هو قيام البعض عندنا بمحاربة السنة وجعل أنفسهم آلة بيد المستشرقين، إذ قاموا بنشر الشبه حول بعض الصحابة الكرام من أمثال أبي هريرة وأنس وعبد الله بن عمر، ومثل هذه المحاولات تحاول المساس برسول الله صلى الله عليه وسلم من طرف خفي، ولا يمكن التكهن بالأبعاد التي ستمضي إليها في المستقبل"[1].

وفي مقابل هذا التشكيك الممنهج تمتد مساحات الإشادة بالغرب وما أنتجه،والإشادة بنظرياته المختلفة حتى وإن تخلخلت بعض أسسها وتهاوى سندها العلمي،يقول الأستاذ فتح الله كولن متحدثا عن التشبث بتدريس نظرية التطور عند دارون:" أما في تركيا فالمدافعون عن هذه النظرية، والساعون إلى خدمة هذا الفكر، وهذا المبدإ هم بعض أساتذة الجامعات وبعض أعضاء السلك التعليمي إذ يقومون عند تدريس مادة (البيولوجيا) علم الإحياء، بتقديم هذه النظرية وكأنها هي الحقيقة بعينها فيفسدون بذلك العقول الغضة"[2].

[1] النور الخالد، ص: 614

[2] أسئلة العصر المحيرة، ص: 263

د . ضمور تأثير المدارس الدينية

ضاعف غياب مهمة المدارس الدينية المشكلة ، وحرم المجتمع من الحصانة الثقافية،فقد "كانت المدارس الدينية مؤسسات تعليمية مستقلة خارجة عن السيطرة المباشرة للدولة،لأن المؤسسات الوقفية كانت هي القائمة بإدارة هذه المؤسسات التعليمية. كان المجتمع العثماني مجتمعا تكافليا وتعاونيا، وكانت العائلات الغنية تهب أملاكها وتجعلها وقفا في سبيل المجتمع دون انتظار أي منفعة، بل بدافع روحي وديني ومعنوي صرف.

ولكن عندما دب الضعف في الدولة وفي النظام الاجتماعي والاقتصادي اعتبارا من القرن السابع عشر، بدأ التدهور في نظام الأوقاف ثم سرى إلى المؤسسات التعليمية المرتبطة به ... مما أفقدها مهمتها في الإشعاع والتأطير وحصرت وجودها في تكرار نقل العلم وتاريخه دون تجديد في الوسائل ومسايرة للنوازل"[1].

المطلب الرابع: تشاكس المرجعيات واختلال الموازين

أ . انقلاب الموازين والتباس الحق الباطل

لقد ابتلي المجتمع التركي بحظ وافر من هذا الاختلال، وهذا ما يؤكده شاهد عصره كولن بقوله: " لقد ظهر في أيامنا هذه عدد غفير من العقليات والأفكار الخيالية المدعية والحداثية، فضلا عن أنهم يملكون من قوة الذكاء الخداعي ما يظهرون الأسود أبيض،يشرحون الإسلام يمنة ويسرة، ولكن ليس وراءهم حتى حفنة من المؤمنين المخلصين،لأنهم ليسوا مخلصين صادقين، يتكلمون كثيرا، ولكن لم يألفوا الإيمان والإسلام في نفوسهم مثلما ألفوا الكلام، وحياتهم الدنيوية ومعيشتهم منصبغة بباطل النظام الغربي

[1] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 275

لا بحسناته. فعندما يريدون أن يرشدوا العوام والمجتمعات يجعلونهم غرباء، وهم بدورهم يصبحون كأجانب إزاء مجتمعهم"[1].

وكيف يتوقع من هؤلاء غير القيام بمهمة الإلحاق القسري لمجتمعاتهم بمن يظنون فيهم إمامة الحضارة الإنسانية ويسلمون لهم قيادة الشعوب إلى ما يحسبونه ازدهارا واستقرارا! يصف الأستاذ فتح الله كولن عاقبة اختلال المعايير قائلا: " إن الموازين والقيم، بل كل شيء سينقلب رأسا على عقب فيصبح المنكر معروفا والمعروف منكرا، وتشيع الفاحشة وتعم الفوضى والإرهاب ويستخف بالإيمان والقرآن، ويستهان بالمؤمنين، وتحافظ الدولة على عدد من المنكرات بالقوانين، وتعد الحقائق التي تخص الدين تخلفا ورجعية،وهذا هو قلب للقيم والمقاييس. وإنسان هذا العصر قد عاش هذه الفتن أضعافا مضاعفة، وأظن أنه سيعيشها مدة أخرى"[2].

ب . تشاكس المرجعيات

مثَّل تشاكس المرجعيات حالة من الاضطراب وعدم الاستقرار الثقافي وجسد صورة من الاغتراب في الماضي والارتهان في حاضر الآخرين، وانتظار قائمة مخيمة على المستقبل،هذا الوضع دفع المجتمع التركي إلى تلمس الطريق وسط هذا الركام غير المتجانس من الثقافات و"وسط هذا الصخب من الأفكار والفلسفات التي تغزو دياره والقادمة إليه من الشرق والغرب. ومعظم هذه الأفكار الجديدة عليه تشكل تناقضا مع ما ورثه من أسس فكرية انتقلت إليه من عائلته. وهو في خضم هذه الأفكار الجديدة المتضاربة بعضها مع البعض الآخر والمتناقضة مع جذوره الإسلامية يقف حائرا: أيدع نفسه للتيار القوي الهادر الذي يحاول قلعه من جذوره؟ أم يرجع إلى جذوره؟ ولكن كيف يرجع وجذوره الفكرية هذه متهمة ليل نهار بالرجعية وبأنها لا تناسب روح العصر"[3].

---

[1] طرق الإرشاد، ص: 130

[2] المصدر نفسه، ص: 23

[3] أسئلة العصر المحيرة، من مقدمة المترجم، ص: 5

إن البلوى مست ركائز البناء وقواعده الرئيسة ولا تتعلق باختراقات في المظاهر والأشكال فحسب، ذلك أن "الاستهداف لم يعد يعني اختراقات محصورة ومرصودة في مسائل بعينها، تشكل ما ظل الفقه الإسلامي يصطلح على تسميته بالنازلة أو النوازل،وإنما الاختراق أصبح ظواهر قيمية طارئة، ومظاهرأخلاقية مستجلبة، وأحوالا ثقافية تغريبية مفروضة تزيح وضعا مدنيا وحياتيا قائما بأسسه الثقافية الأصيلة وأركانه الاعتقادية الوطيدة، الضاربة بجذورها في أرضية تاريخية وحضارية وتشريعية عتيدة، لتستبدله بنمط حياتي آخر تسعى أن تستنسخه في كلياته وتفاصيله من حضارة الغرب"[1].

ولذلك اشتد الصراع ولم يخف، واستمر ولم يتوقف عن التداول بين الفريقين. في هذا السياق "وجد الأستاذ فتح الله كولن نفسه في المحيط الذي نشأ فيه بين قيم حضارتين؛ بين قيم المدارس الدينية والثقافة الإسلامية، وبين قيم الثقافة الغربية المعاصرة والحضارة الأوروبية. إن ثلاثة أجيال قبله عاشت في حمى البحث عن هويتها بين هاتين الثقافتين والحضارتين. ولم يكن هذا البحث عن الهوية ـ على الأقل بين هاتين الحضارتين ـ قاصرا على التجربة التركية، فقد عاشت جميع البلدان وكافة الثقافات التي كانت خارج نطاق الحضارة الغربية عهد بحث ونقاش حول طبيعة هويتها."[2]

المبحث الثالث: ميلاد فتح الله كولن ونشأته

المطلب الأول: مولده

ولد محمد فتح الله كولن يوم 11 نونبر 1938 في قرية كورجوك التابعة لمحافظة أرضروم[3] التي تقع في الشمال الشرقي من تركيا، وهي مدينة محافظة لدرجة كبيرة من

---

[1] الانبعاث الحضاري، ص: 87

[2] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 35-36

[3] تقع شمال شرق تركيا،(انظر أطلس العالم، ص: 67)

الناحية الاجتماعية والثقافية [1]، وتعد قلعة الإسلام في الأنا ضرول وأول رقعة مباركة يرفع فيها الأذان ويذكر فيها اسم الله ورسوله [2]. لم يتم اعتماد هذا التاريخ في وثائقه الرسمية وذلك أن "والده رامز أفندي لما ذهب إلى إدارة تسجيل المواليد ليسجله، وكان ذلك في عهد حكم الحزب الواحد، حيث سيادة الفكر السلطوي العلماني مستحكمة. وما إن سمع الموظف باسم (محمد فتح الله كولن) حتى ثار محتدا وقال: ممنوع تسجيل هذا الاسم،فغضب الوالد وعاد إلى قريته خاوي اليدين. بعد عامين ونصف، ولد لرامز أفندي مولود آخر أحب أن يسميه صبغة الله، فلم يذهب إلى إدارة التسجيل إلا بعد عام ونصف،أي بعد ولادة فتح الله بأربعة أعوام، ولكن هذه المرة استعان بضابط مخفر القرية الذي كان يحترم رامز أفندي ويحبه،فذهبا معا إلى مصلحة التسجيل، وعندما اعترض الموظف مرة أخرى، صرخ الضابط في وجهه وطلب منه أن يسجل الاسمين وفق طلب الوالد، ثم غادر المصلحة. ولكن الموظف أبى إلا أن يسجلهما كما يحلو له، حيث سجل صبغة الله بـ سيف الله وسجل محمد فتح الله بـ (فت الله) بحذف الحاء وحذف محمد كما سجل تاريخ ولادتهما في نفس العام أي 1942، فكان تاريخ ميلاد محمد فتح الله 27 أبريل 1942 في السجلات الرسمية بدلا من 11 نونبر 1938.

وفي عام 1959 قدم الأستاذ فتح الله طلبا في مدينة أدرنة[3] ليتم توظيفه إماما في أحد المساجد فبدا أن عمره لم يتجاوز سبع عشرة سنة حسب التسجيل الرسمي، ومن ثم يتعذرعليه أن يتولى وظيفة رسمية، حيث إن شرط التوظيف أن يكون عمره ثمان عشرة

[1] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 32

[2] فتح الله كولن: قصة حياة ومسيرة فكر، أَرْطُغْرول حكمة، ترجمة عبد المولى علي جربيع و خليل جمال عبد الناصر، ط 1، دار النيل، القاهرة 2013، ص: 13

[3] إحدى مدن إقليم تراقيا في أقصى الجهة الشمالية الغربية لتركيا بالقرب من بلغاريا واليونان(انظر أطلس العالم، ص: 67)

سنة، فراجع المحكمة، فتم تكبير عمره سنة واحدة، وتم تغيير تاريخ ميلاده إلى 27 أبريل 1941، وذلك هو المسجل رسميا في بطاقة هوية الأستاذ فتح الله كولن اليوم"[1].

ومن تدابير القدر أن فتح الله كولن ولد في اليوم الثاني لموت مؤسس العلمانية في تركيا مصطفى كمال أتاتورك[2].

المطلب الثاني: أسرته

جـده: اشتهر الملا أحمد والد شامل أغا جد الأستاذ محمد فتح الله كولن بالزهد والورع، وقد أوتي بسطة في المال والجسم، "قوي البنية، طويل القامة، مهيب، يحترمه الناس جميعا، في إشراقاته الروحية سر عظمته الحقيقية، حياته كلها تنسك وتعبد، لم يعهد عنه التواني في أداء العبادة،وأصبح يقوم الليل كله في العقود الثلاثة الأخيرة من عمره" [3]. وكان شامل أغا جد كولن أشبه الناس بوالده، فهو مثال الوقار، والحيطة، والجدية، والشدة في أمر الدين، فحياة الروح هي محور أفعاله، فشعاره(اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة)،وهو رجل جاد وقور يحترمه الناس جميعا، حياته حياة الأولياء؛ يتهجد حتى الفجر، وله في لقيمات يقمن صلبه الغناء، يصوم حتى تظن أنه لا يفطر... ورغم هيبة شامل أغا العظيمة، إلا أنه كان بينه وبين حفيده فتح الله كولن اتصال روحي لم يستطع أحد أن يلحظه، كان يحب حفيده كثيرا وإن لم يكن يظهر ذلك، فما رئي هذا الرجل العثماني يبكي قط إلا عندما رأى حفيده لأول مرة بعد غياب كان لسبب تعيين والده إماما في قرية أَلْوَار، احتضنه فأخذه البكاء"[4].

---

[1] عبقرية كولن، ص: 25

[2] العروج الحضاري، فؤاد البنا، ط1، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة 2013، ص: 43

[3] فتح الله كولن: قصة حياة ومسيرة فكر، ص: 14

[4] المصدر نفسه، ص: 16

وجده أحمد من جهة أمه ورع كان يختم القرآن كل أسبوع مرة فأكثر. وقد تأثر كولن لموت جده شامل وجدته مؤنسة تأثرا بالغا وبكى ليالي وأياما حزنا عليهما[1].

ولجدته لأبيه السيدة مؤنسة أثر بليغ في حياته، "فكم كان يذكرها في مواعظه، وإن لأنينها ونحيبها من خشية الله أثرا كبيرا في نفسه، فعبادة الله تعالى ومحبته محورحياتها،حتى إذا سمعت اسم الله لم تملك عينيها، صوامة: صامت اثني عشر عاما متصلة، يصفها الأستاذ بقوله: [يا لله كم أثر في عمقها مثل البحار الهادئة، فبشائر الإيمان عليها بادية، وصلتها بالله ظاهرة، كانت مبتسمة وكان جل ضحكها التبسم]. وفي هذا ما يشير إلى أنها كانت تجتهد في أن تجعل من أفعالها مرآة للإسلام "[2]. وكانت كثيرة الصمت ومحترمة لدى العلماء ومشايخ العصر الكبار[3].

والده : ولد رامز أفندي والد فتح الله كولن عام 1905، تعلم القرآن في عقده الثالث ثم درس العلوم الشرعية[4]. عمل إماما حكوميا في جوامع مدن عديدة. كان حريصا على "استثمار وقته، قوي الحافظة حاد الذكاء. عندما كان يعود من المزرعة إلى البيت،كان يبدأ بقراءة فصل من كتاب قبل أن يخلع حذاءه، فيستغرقه الكتاب إلى أن يجهز له الطعام. وما بين المزرعة والبيت مدرسة أيضا، فقد كان يعمر وقت الطريق ذهابا وإيابا بمراجعة المحفوظات الحديثة واستذكارها حتى إن ابنه فتح الله كولن قد تلقى منه الكثير من المعلومات حفظا عبر السماع لهذا التكرار والاستظهار...كما حفظ من مواعظه التي كان يلقيها بالمسجد الشيء الكثير"[5].

---

[1] فتح الله كولن: قصة حياة ومسيرة فكر، ص: 16-17

[2] المصدر نفسه، ص: 17

[3] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 32

[4] فتح الله كولن: قصة حياة ومسيرة فكر، ص: 17

[5] المصدر نفسه، ص: 27

تعلق قلبه بالصحابة، وكثيرا ما كان يقرأ عن حياتهم حتى إن عائلته كانوا يشعرون أنهم والصحابة أسرة واحدة[1].

وكان رامز مدرسة في الورع، حيث إنه عندما يعود بالبقر من الحقل يلجمه لئلا يأكل من عشب الحقول ولو قليلا"[2].

استقبال العلماء والمشايخ في البيت :

وقد جعل لمشايخه في منزله متكأ، حيث كانوا هم أغلب ضيوفه ولم يكن يخلو منهم إلا قليلا[3]، ومما يبين إصرار الأسرة على العلم والقرآن مقاومة العقبات التي تحول بينها وبين تعلم كتاب الله فـ "خلال السنوات العجاف التي ضرب فيها المنع والحصار على تعليم القرآن،حفر السيد رامز أفندي في إصطبله نفقا سريا، يسلك من تحت الأرض حتى ينفتح على بيت إمام المسجد في الجوار القريب وخلال هذا النفق السري كان يتم عبور رامز وأبنائه إلى غرفة الإمام يتعلمون القرآن! حتى إذا انتهت الحصة، ورجعوا إلى بيتهم عبر النفق كما جاؤوا سد رامز مدخله بالقش وروث البهائم "[4] .

علاقة الوالد بولده :

لقد توطدت العلاقة بينهما وتوثقت وتجاوزت ما اعتاده الكثيرون، فقد كان "رامز يرى في ابنه فتح الله مخايل العبقرية، كان يعقد عليه الآمال الكبيرة... في الوقت الذي كان يجلس فيه فتح الله لحفظ مقرره اليومي من القرآن، كان الوالد يجلس إلى جانبه ليحفظ درسه من ذلك اليوم، تشجيعا له وتشويقا"[5].

---

[1] عودة الفرسان، ص: 44

[2] فتح الله كولن: قصة حياة ومسيرة فكر، ص: 18

Un enseignant à l'etranger, M .Futhellah Gülen, Murat Alptekin, Edition Nil, Istanbul 2012, P3

[3] عودة الفرسان، ص: 46

[4] المصدر نفسه، ص: 47

[5] نفسه، ص: 49

والدته رفيعة : تعد أول معلمة له، وهي من أسرة عريقة، عمها هو مفتي الشام يومئذ، لم يمنعها رعاية خمسة أفراد في أسرتها من تعليم نساء القرية القرآن الكريم [1] في جو يطبعه حظر قراءة القرآن وتعليمه.

علمت السيدة رفيعة وليدها القرآن الكريم وهو في الرابعة من عمره، وما إن تعلمه حتى قرأه كله لأول مرة في شهر[2]، وحفظ القرآن في عام 1951[3].

المطلب الثالث: طفولة كولن وعفة شبابه

مثلت هذه الأسرة الحضن الدافئ والمدرسة الأساسية التي أشرب فيها كولن حب العلم والإيمان، فقد "تميزت طفولته بمجالسة الكبار من العلماء والمشايخ الذين كانوا يأتون بيت أبيه على الدوام. وخصوصا الشيخ ألوارلي الذي أعجب به الفتى، وكان يحفظ كلامه ويحكيه لأمه وجدته وأزواج أعمامه ويجد في ذلك لذة خاصة"[4].

وقعت له حادثة كان لها أثرها البالغ حيث وهو "في الثامنة من عمره استيقظ عدة مرات في ليال عدة وهو يقول: لبيك يا رسول الله" [5]. ولذلك ينفعل بشكل خاص كلما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم في لقاءاته وعظاته؛ "إن هتافه الطفولي (لبيك يا رسول الله) ظل ساريا في فكره ومشاعره، فكتاباته وأحاديثه وخطبه ومواعظه إنما هي نضوحات عن تلك الهتفة المباركة، ولذلك العهد الذي قطعه على نفسه للرسول عليه السلام ولنصرة دينه ودعوته وسنته"[6].

---

[1] Un enseignant à l'etranger, M .Futhellah Gülen, p 5

[2] فتح الله كولن قصة حياة ومسيرة فكر، ص: 22

[3] المصدر نفسه، ص: 26

[4] نفسه، ص: 22

[5] نفسه، ص: 24

[6] الضاربون في الأرض، أديب إبراهيم الدباغ، ط 1، دار النيل، القاهرة 2012، ص: 238

التحق بالمدرسة الابتدائية في قريته عامين أو ثلاثة، وتركها عام 1949 عندما عين والده رامز إماما في قرية ألوار، ثم استكمل الابتدائية في أرضروم بالانتساب"[1].

عكف على كتب والده يقرأها، ولاسيما كتب حياة الصحابة، وقد أخذ عن أبيه اللغة العربية والفارسية[2].

كولن الشاب الأنيق العفيف:

تميز محمد فتح الله كولن منذ شبابه بالحرص الشديد على مظهره الخارجي والعناية بملابسه وممارسة الرياضة بنشاط. [3] كان "ذواقة أنيقا، حسن المظهر، كل ما يرتديه يكون لائقا عليه، لم يكن وهو طالب يلبس بنطالا دون كي، فإن لم يجد مكواة،وضعه تحت فراشه ونام عليه. لا يرى علاقة بين ترك الأناقة والورع. لا ترى في وجهه ما تعافه العين، مشيته متميزة، يمشي شامخ الرأس، واسع الخطا، كان قبل مرض القلب يصعد الدرج مثنى وثلاث"[4].

تزداد أهمية أناقة كولن وتمسكه بها في تلك الأيام حيث " كانت العناية بالنظافة والأناقة شبه معدوم في المدارس " [5]. وقد حرص كولن على طهارته وعفته إلى درجة أنه "دعا في شبابه فقال: (اللهم خذ مني وأنزل بي ما يشغل جسدي عن حمى الشهوات في ريعان الشباب). وحذره عالم فاضل من هذا الدعاء، لكنه كأنه رأى دواءه في دائه، وربما لم يبق مرض إلا زاره فترة ثم رحل ليأتي غيره، فقاسى في شبابه قرابة خمسة عشرعاما من أمراض منهكة في جسده كله حتى وجهه ويديه ورجليه "[6].

---

[1] فتح الله كولن قصة حياة ومسيرة فكر، ص: 23-24

[2] المصدر نفسه، ص: 26

[3] نفسه، ص: 34-39

[4] نفسه، ص: 120

[5] نفسه، ص: 13

[6] نفسه، ص: 110

هذا، مع أنه قد عصم من لوثات أمثاله، " إذ حفظ الله للشاب في فتوته عقد الروح الذي نشأ وشب فيه ... كان في تلك الفترة قد حضر حفل زفاف مرتين: فبينما كان يشاهد في الأولى الثمالى جاءه أحدهم فلطمه وطرده قائلا: ماذا تفعل هنا؟ وفي الثانية لما رجع طرق الباب فلم يسمعه والده مع أنه خفيف النوم، فبات مرغما على الانتظار في الثلج حتى الصباح"[1]. وحين كان يقرأ القرآن يرفض أن يأخذ مقابله شيئا من المال، و ينصح أصدقاءه

بالابتعاد عن ذلك"[2]، ومن تجليات عفته أنه" لما وصل أدرنه كان أول ما قام به التحقق من طريقة ذبح الحيوانات، فلما رآها مخالفة لأحكام الشرع ما أكل فيها لحما قط".[3]

المطلب الرابع: أهم شيوخه

1. الشيخ ألوارلي أفه (1868م . 1956م)

من أبرز علماء عصر الجمهورية، وكان له في قلوب أسرة كولن كلها حب جم وتقدير وتوقير، وكان يحب الأستاذ محمد فتح الله أيما حب. وكان يناديه تلميذي [4]، ولقد تأثر فتح الله تأثرا بالغا بوفاته، وقد حضر جنازته خلق كثير رغم الشتاء والثلج[5].

سئل الأستاذ عن مشاعره ومدى تأثره بالشيخ الوارلي أفه فقال:"... كان الشيخ الوارلي أفه باعتبارعالمه الداخلي عميقا جياشا بالعشق والهيجان. وكان حاله في مجالس الذكر يبدو مثالا حيا لثرائه القلبي هذا. فقد كان نقشبنديا وقادريا في الوقت نفسه. ولذلك كانت مجالس الذكر تعقد تحت إشرافه على الطريقة النقشبندية أحيانا وعلى الطريقة القادرية أحيانا أخرى.

---

[1] فتح الله كولن قصة حياة ومسيرة فكر، ص: 34-57

[2] المصدر نفسه، ص: 30

[3] نفسه، ص: 40

[4] فتح الله كولن: قصة حياة ومسيرة فكر، ص: 20. عودة الفرسان، ص: 53

[5] www.herkul.org

وفي تلك المجالس كان فضيلته يتجه بكل ذاته إلى الحق تعالى، ويغيب عن نفسه أحيانا... ويحدث فيما حوله حالة روحية منصبغة بصبغته الخاصة.. وحين ينفعل أحد الموجودين فائضة عيناه بالدموع، فإن هذه الحالة تسري إلى الآخرين، وتكون مناخا من العشق والانفعال لدى الجميع.... مازلت أشعر بتأثيره على رغم أنني شهدت كل هذه الأمور في طفولتي .

كان الشيخ سلطانا في الكلام، يكتب أشعاره التي يترنم فيها بإلهامات روحه، ولكن رغم مهاراته البالغة في هذا المضمار إلا أنه لم يكن يتحرج قط من أن يردد أحد أقوال المشايخ الآخرين وأشعارهم في حضرته، بل كان يحض على ذكرها. أجل ، إن كان القول حقا أبدى له الشيخ كل التحية والإجلال، أيا كان قائله، بل كان يتبنى هذه الأقوال والأشعار كأنها محصلة من أفكاره، ويقابلها بكل احترام وتقديره...ذات يوم في أوائل الخمسينات حضر الأخ الكبير "صالح أوزجان" إلى مدينة "أرضروم"، وقابل الشيخ وقبل يديه، ثم قال له: سيدي الشيخ، هناك شخص اسمه يدعى الأستاذ بديع الزمان له رسائل حررها حول الدين والإيمان،أسماها " رسائل النور"، وإننا لنسعى على نشر هذه الرسائل إلى كل العالم، ونغذ السير لإغاثة جيل الشباب على وجه الخصوص، فرد عليه الشيخ قائلا:" آه لو كانت عيناي تبصران لساعدتكم على هذا الأمر"[1].

2. عثمان بكتاش (1914 – 1986)

درس عليه قرابة عامين النحو والصرف والفقه وأصوله وغيرها من علوم الشريعة [2]. وقد كان الشيخ متمكنا من ذلك لدرجة أن مفتي المدينة كان يستدعيه إلى مكتبه لاستشارته،كلما عرضت له نازلة[3].

---

[1] شد الرحال لغاية سامية، محمد فتح الله كولن، ترجمة عبد الله محمد عنتر و د. عبد الرزاق أحمد، دار النيل القاهرة 2014، ص: 229-230

[2] فتح الله كولن: قصة حياة ومسيرة فكر، ص: 33

[3] عودة الفرسان، ص: 84

لقي كولن عناية خاصة من شيخه عثمان حتى إنه "جعله يدرسه مقررات المستوى العالي، وبذلك تمكن الطالب حقيقة من علوم اللغة والبلاغة والفقه وأصوله حتى صار الأستاذ يكلفه بتدريس المستويات الأولى، وبمراجعة الدروس مع المبتدئين في هذا العلم أو ذاك. وذلك كله أفاده في ترسيخ معلوماته السابقة وفي اكتساب خبرة أولية في التدريس والتعليم. ولعل الأستاذ عثمان هو الشيخ الوحيد الذي يمكن أن نقول إلى حد ما أن الطالب فتح الله قد تخرج على يديه وبه، رغم قصر المدة التي لازمه فيها. فلو جمعنا كل ما درسه فتح الله على المشايخ بمدارس التعليم العتيق لما تعدى ذلك كله مدة سنتين، إلا أن الأشهر التي قضاها متتلمذا على شيخه عثمان بكتاش كانت كافية لانطلاقه في بحر العلوم فردا ! فبفهمه الدقيق لأسرار البلاغة وقواعد اللغة وتلقيه لقواعد الفقه والأصول،انفتحت أمامه كنوز محفوظه القديم من المقررات العلمية التي استظهرها من قبل "[1].

3. شيوخ غير مباشرين :

أمضى فتح الله كولن طفولته في جو محافظ داخل أسرته وبين المدارس التقليدية والزوايا التي كان يلازمها ويتأثر بأجوائها [2]، ولم "تكن آنذاك مدارس ولا معاهد بالمعنى الحقيقي للعلوم الدينية واللغوية في منطقة أرضروم ونواحيها، فمن ناحية قضى الانقلاب العلماني على كل أشكال التعليم الديني في بلاد الأناضول كلها، ومن ناحية أخرى بدأ جيل العلماء ينقرض شيئا فشيئا... ولم يكن قد أتيح للخلف أن يكون في نفس المستوى إلا نادرا، فما كان من ملقني العلوم الشرعية آنئذ إلا بعض أئمة المساجد المتناثرين هنا وهناك بين القرى والبوادي، لا يحمل أغلبهم من العلم إلا بضاعة مزجاة، ذلك كله بالإضافة إلى عوامل أخرى جعلت الفتى فتح الله لا يكاد يستقر عند شيخ من الشيوخ إلا

[1] عودة الفرسان، ص: 85

[2] فتح الله كولن: قصة حياة ومسيرة فكر، ص: 34

شهرا أو شهرين"[1] ...لم يجد فتح الله غايته فيما أتيح له من تلك الإمكانات ذلك أنه كان " يحمل بين جوانحه عشقا خاصا للعلم ورغبة كبيرة للمعرفة والفهم، ولم يكن في مقدور هذه البيئة الضيقة إشباع تطلعاته"[2]. الشيء الذي نتج عنه أمران رئيسان؛ أولهما: العصامية،إذ سعى كولن " ليروي غليله بنفسه بمطالعة الكتب الدينية و اللغوية بشتى أنواعها، دراسة واستظهارا حتى نبغ وفاق كثيرا من شيوخ زمانه، ولم تزل زهرة عوده يومها تتبرعم ما بين الطفولة والشباب"3، ولذلك آوى إلى ذاته وركن إلى طاقته يستفرغها في التعلم الذاتي، "فنجح في بناء جامعة ذاتية كان أساتذتها هم عمالقة الأمة في كل الأزمان، حيث قرأ الحديث والسيرة والتاريخ والفلسفة وعلم الكلام والفقه وأصوله. وكان من مدرسيه في هذه الجامعة عمالقة الأمة: أبو حامد الغزالي وابن تيمية والشاطبي وأئمة المذاهب الأربعة،وجلال الدين الرومي [4]، ومن المعاصرين: النورسي وحسن البنا وسيد قطب وأبو الأعلى المودودي ومحمد الغزالي وأبو الحسن الندوي وغيرهم...."[5]

ثانيهما: كبر اهتماماته ومحوريتها القضايا الاجتماعية ،حيث " توجه – وهو في هذه المرحلة المبكرة من عمره – بعقله واهتماماته إلى النشاطات الثقافية والسياسية والاجتماعية التي تمارس في العالم الخارجي. وبتعبيره هو فقد كثف اهتمامه من حين لآخر في السنوات الأولى من وجوده في المدرسة الدينية على المشاكل الاجتماعية... وانتبه إلى المسائل والنزاعات السياسية والأزمات الاقتصادية المتعاقبة والفقر السائد. بدأ

---

[1] عودة الفرسان، ص: 69-70

[2] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 32

[3] عودة الفرسان، ص: 70

[4] مولانا جلال الدين الرومي(1207م . 1273م)، تنسب إليه الطريقة الصوفية المولوية التي انتشرت في الأناضول الغربية وأروبا العثمانية، ومن أهم كتبه(المثنوي)، وهو منظومة في فلسفة التصوف. انظر: تطور الأوضاع الثقافية في تركيا، ص: 75-76

[5] عبقرية كولن، ص: 94-26

وهو شاب يافع بالتفكير الجدي في علاج وفي حلول لما أنتجه انحطاط عصرين كاملين"[1].

ومما أهله للانخراط المبكر في ثقافة العلم والإيمان والاهتمام بالإنسان وقضاياه عنصران مركزيان:

الأول: إقباله الشديد على المطالعة والقراءة فهو" مثقف نهم يقرأ يوميا من 150 إلى 200 صفحة. بدأ طفولته بقراءة السيرة النبوية ومناقب الصحابة الكرام، ثم عكف على الكتب العلمية والفكرية والفلسفية؛ اطلع على ثقافة الشرق وقسمات ثقافة الغرب. قرأ لرواد الثقافة الغربية أمثال شكسبير وبالزاج وفولتير وروسو وكانْت وزولا وجوتيه وكامو وسارتر وقرأ لرواد الثقافة الشرقية أمثال جلال الدين الرومي ...وقرأ للأدباء أمثال برنارد روسيل وبوشكين وتولستوي ...وقرأ في الأدب التركي لعمالقة الأدب الكلاسيكي"[2].

الثاني: تأثره الشديد بعالمين تركيين بشكل كبيرهما: جلال الدين الرومي وبديع الزمان النورسي. والناظر في كتب الأستاذ فتح الله كولن يستوقفه كثرة استشهاده بهما والاستناد إلى مقرراتهما والإشادة بهما .

يقول البروفيسور أكبر أحمد: " وقد استلهم كثيرا من أفكاره من تعاليم وكتابات مولانا جلال الدين الرومي (ت 1273 م)، ورسالته في العمل لوجه الله ونشر المحبة والتضامن بين الناس.

وقد مهد الرومي ـ الذي تعد كتاباته من أكثر الكتابات مبيعا ليس في العالم الإسلامي فحسب، بل في الولايات المتحدة أيضا ـ الطريق عقليا وروحيا لحركة كولن" [3].

---

[1] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 32-33

[2] فتح الله كولن: قصة حياة ومسيرة فكر، ص: 119

[3] محاورات حضارية، د. جيل كارول، ترجمة إلهام فتحي وأحمد سعيد، ط 1، دار النيل، القاهرة 2011، ص: 10-11 من مقدمة الكتاب.

يتحدث الأستاذ محمد فتح الله عن الرومي ـ الذي أتقن الجمع بين البيان والعرفان ـ قائلا: "كان جلال الدين الرومي رجلا في القمة، مع أن بعضهم قد أفرط في حقه، إلا أنه كان من العمالقة الذين فتحوا قلوبهم على العالم اللانهائي وسبحوا بفكرهم في عالم الملكوت..لقد كان ممثلا للعشق والوجد الإلهي.. أنموذجا للإخلاص والتفاني، ومن أكثر المكتشفين لطرق الوصول إلى الحقيقة المطلقة والدالين عليها بأسلوب ضرب الأمثلة وإيراد القصص. كما كان في الوقت نفسه من أبطال الكلمة والبيان، يستطيع بعصاه السحرية فتح القلوب وسحرها"[1].

أما النورسي فسيأتي الحديث عنه ضمن مبحث خاص [2] بعلاقة كولن بالنورسي. وقد تعرف الأستاذ فتح الله "على الرسائل النورسية عام 1957 وكان عمره 19 سنة وأحب كولن بديع الزمان حتى صار أنجب تلاميذه رغم أنه لم يلتق به .. بل تفوق عليهم في استلهام فكره وتطويره ومأسسته في مشاريع تبني الإنسان وتعمر الأرض "[3].

المطلب الخامس: لماذا لم يتزوج كولن؟

الزواج من العقود الشرعية التي تعتريها الأحكام الخمسة (الاستحباب الوجوب،الكراهة، الحرمة ثم الإباحة). مع أن حكمه العام الاستحباب وأنه من سنن المرسلين، فإن ظروف كل مكلف وما يحيط به هو الذي يكشف به الفقيه حكم الزواج.

الزواج ـ كما يقول فتح الله كولن ـ :" ليس من أجل الحصول على اللذة، بل هولتشكيل أسرة ولتأمين بقاء الأمة ودوامها ولإنقاذ أحاسيس الفرد وأفكاره من

[1] النور الخالد، ص: 341

[2] علاقة كولن بالنورسي، ص: 82

[3] عبقرية كولن، ص: 27

التشتت،وللسيطرة على أهوائه وغرائزه الجسدية، وكما في مسائل فطرية عديدة، فإن اللذات ليست إلا جوائز للترغيب"[1].

ومن علماء الأمة ومصلحيها من آثر العزوبة للتفرغ الكلي للعلم وخدمة الأمة وقضاياها، مع حثهم غيرهم على الزواج، وبناء مؤسسات الأسرة على ركائزها القوية باعتبار " العزوبة عند أهل الله هي الإعلان الأظهر عن الخيار التبتلي الذي لا مجال فيها للبس أو استرابة، وأن من يختارها نهجا في الحياة يكون في وضع مثالي، من حيث التأهب للعمل الصالح، والتأهل للسعي والاحتساب الدائبين" [2]. وذلك لأنه " من تمام الإخلاص أن يكون قلبك مشرعا لعشق فريد لا يساهمك فيه مساهم. إن عزوبة الصالحين تتدرج ضمن منهج التخلية الذي ينهجونه قاعدة للتعبئة و الانطلاق "[3].

رغم المحاولات العديدة من قبل أقارب كولن ومحبيه لحثه على الزواج، فإنه أصر على عزوبته؛ " حاول أبوه وأمه وعمه أنور وأخته الكبرى إقناعه بالزواج، لكن أحدا لم يستطع التأثير عليه لتغيير موقفه الحاسم. أما والدته فقد قالت له معبرة بالمثل التركي: يا بني إننا نريد أن نربط رأسك ونحن ما نزال على قيد الحياة، فأجابها: يا أماه أنا مربوط القدمين بدعوة الإيمان وخدمة الإسلام، فإذا ربطتم رأسي أيضا فكيف أتحرك؟. وكان هذا العرض في الثانية وعشرين من عمره، وقد تجدد مرة أخرى عند بلوغه الثلاثين، ورد كذلك بقوله: إنني لا أريد أن يرفرف أمام عيني علم سوى علم خدمة الدين الإسلامي والدفاع عن قضاياه "[4].

لقد اقتفى فتح الله كولن سبيل العلماء العزاب الذين آثروا العلم على الزواج لأن اختيارهم ذلك " مع علمهم وصلاحهم ، ورجولتهم و سلامتهم ما كان إلا إيثارا منهم

---

[1] الموازين، ص: 145

[2] الانبعاث الحضاري، ص: 221

[3] المصدر نفسه، ص: 271

[4] عودة الفرسان، ص: 167-168

لغيرهم على أنفسهم، ليفرغوا كل طاقاتهم لخدمة الدين والعلم وليبذلوا أقصى جهدهم في بيان الشريعة الغراء وتدوينها وتقديمها للناس، ولاشك أن الإيثار مشروع في الإسلام،ومحمود فاعله، فكم لهم من المنة والفضل في رقاب العلماء والناس "[1].

وقد أثنى فتح الله كولن على النووي فقال: " إنه انكب على العلم ولم يتزوج مخافة أن تشغله مطالب المعيشة والأسرة عن تحصيل العلم، وتفرغ للعلم وحده"[2].

كما أشاد بموقف أستاذه بديع الزمان الذي أحبه كثيرا فنقل عنه قوله لمن سأله عن سبب عدم زواجه: "إنني من كثرة تفكيري وانشغالي بآلام الأمة الإسلامية ومشاكلها لم أجد متسعا من الوقت ولا فرصة للتفكير في الزواج "[3].

أصر فتح الله كولن على موقفه كذلك حين "عرض عليه الزواج كثيرا في أدرنة سواء من أقاربه كالأستاذ حسين طوب أومن أصدقائه، فأبى، و كم عرض عليه في سنوات لاحقة، فكان يأبى وكان يفضل أن لا يشغل عقله شيء سوى خدمة الدين والدعوة،ويخشى أن تضيق النساء بهذا الانشغال التام عنهن"[4].

المطلب السادس: معاناته مع الاعتقال

أثناء ممارسة فتح الله كولن للوعظ واجهته عقبات كثيرة، وتحديات عديدة منها: سخط خصومه وكره شانئيه، و قد رأوا تأثير كلماته على مخاطبيه؛ "فكانت حفاوة الناس بوعظه وتقديرهم له، وحب التجار الجم واحترامهم البالغ، يثير حفيظة حساده، فتآمروا

---

[1] العلماء العزاب الذين آثروا العلم على الزواج، عبد الفتاح أبوغدة، ط1، دار النشر مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب سوريا 1982، ص: 129. انظر كذلك، العلماء المغاربة العزاب، أحمد كافي، مجلة الفرقان، عدد: 2013/70، ص: 92

[2] النور الخالد، ص: 671

[3] المصدر نفسه، ص: 153 -154

[4] محمد فتح الله كولن: قصة حياة ومسيرة فكر، ص: 200

عليه أيام الانتخابات المحلية، واتهموه بأنه خالف الصمت الانتخابي، فاقتحمت الشرطة المسجد(مسجد الشرفات الثلاث)،وألقت القبض عليه، وفي الطريق أخذ أحد أفراد الشرطة يشتمه بقبيح الكلام، فرد على الشرطي فهو لا يتحمل شيئا من الإهانة، ولايتهاون في عزته وكرامته، وكان مدير الأمن (السيد رسول) يحضر مواعظه ويعرفه حق المعرفة فبرأه وأفرج عنه" [1]، وسخر الله تعالى من يرد عنه التهم بعد انقلاب 1960 حيث "دافع عنه ورعاه ورد عنه افتراءات الحاقدين وإفكهم مفتي أدرنة بعد انقلاب 27 ماي 1960 الأستاذ بشار طوناكور الذي كان يقدر كولن "[2].

بطاقة تهنئة العيد والاعتقال

واصل الأستاذ نشاطه الدعوي في أدرنة واستمر في "المواعظ ومدارسة الكتب رغم صرامة الرقابة حينئذ وتناوب الشرطة على المسجد. وبدأت حلقة الدرس بخمسة أفراد،وسرعان ما زاد عددهم على الثلاثين.

جاء العيد فقام الأستاذ محمد فتح الله بطبع بطاقة تهنئة، عليها حديث شريف يحض على تمسك المسلمين بدينهم مهما بلغت المشقة والبلاء الذي يتعرضون له«عن خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا؟ قال: قد كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه فيجاء بالم نشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه. ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه. والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله، أوالذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون» [3] البخاري فوقعت جلبة كبيرة، واقتحمت

---

[1] محمد فتح الله كولن: قصة حياة ومسيرة فكر المصدر نفسه، ص: 41

[2] المصدر نفسه، ص: 41-42

[3] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، حديث رقم 139، م3، ج5، ص: 49-50

الشرطة المسجد فاعتقلوه، وسيق إلى التحقيق مرة أخرى، وكانت أسئلتهم مأساة ومهزلة،مثلا: ما كل هذا الإخلاص في المواعظ، وما السبب في تحمل كل المشاق في سبيل الدين؟ ومالذي يبكيك وأنت تعظ؟ وكادوا له ليوقعوا به أثناء التحقيق "[1].

واستمر التضييق عليه وصده عن الدعوة والدروس واللقاء بطلابه بمختلف الوسائل، فكان "محافظ أدرنة يومئذ يفعل ما بوسعه لعرقلة حراك الأستاذ فتح الله، ألغى له رخصة الوعظ، ومنعه من التدريس في مراكز تحفيظ القرآن وهم بحبسه عشر سنوات،ووضعه تحت المراقبة الدائمة، فتحولت أدرنة إلى كابوس.. لقد ضيقوا عليه الخناق،فذهب إلى أنقرة في 31 يوليوز 1965 يلتمس النقل إلى محافظة أخرى، فنقل إلى محافظة قيرقلارأللي"[2]، حيث استقر به المقام يعظ الناس و يخطب فيهم دون أن ينسى أدرنة التي كان "يتردد عليها عدة مرات كل أسبوع، ليتفقد طلابه فيها، ولم تكن تحقيقات أدرنة قد انتهت، فلم يرعو الحاقدون على ملاحقته والتربص به، فاستهدفته الصحافة المحلية بمقالاتها، وحقق معه في خطبة جمعة ألقاها في قيرقلارأللي، فلم يثبت ما يدينه، فسرعان ما أخذ البراءة. و رغم كل ما كان لم تخب جذوة فعالياته ونشاطه"[3].

اعتقال 1971

اعتقل مرة أخرى في 1971/05/03 وصادروا نحوا من أربعين كتابا ليدينوه،وجردوه من كل شيء، حتى من القرآن الكريم.. قضى إحدى وعشرين يوما في مركز الاعتقال، وشهرا في سجن شِرِينْ بِرَ وستة أشهر ونصفا في سجن (بادملي) ثم أطلق سراحه 1972/09/11، ولم يكف هذه المدة عن المواعظ"[4].

---

[1] محمد فتح الله كولن: قصة حياة ومسيرة فكر، ص: 53

[2] محمد فتح الله كولن: قصة حياة ومسيرة فكر، ص:55 . مدينة قيرقلارأللي(كيركلاريلي) تقع شمال غرب تركيا، قريبة من الحدود مع بلغاريا (انظر أطلس العالم، ص: 67)

[3] محمد فتح الله كولن: قصة حياة ومسيرة فكر، ص: 58

[4] المصدر نفسه، من ص:80 إلى 84 ، وفيها تفاصيل الاعتقال.

بعد انقلاب 1980 وإعلان حالة الطوارئ، صدرت مذكرة اعتقال في حق كولن،اختفى على إثرها من 1980 إلى 1986، حيث كان يطارد كما يطارد المجرمون[1]،وهذا "منحه تفرغا للتركيزعلى بناء تلاميذه بناءا فولاذيا، ليكونوا أهلا لتحمل المسؤولية، يلتقي بهم في أماكن سرية متعددة " [2]. ثم تم القبض عليه فاعتقل في 12 يناير 1986، وحققوا معه فترة طويلة، فلما لم يعثروا على ما يدينه أخلوا سبيله [3]. ولما سافر لأداء فريضة الحج "في 06 يونيو 1986 وأثناء حجه صدرت مذكرة باعتقاله بناء على دعوى ضده، فأصر أصدقاؤه أن يجاور في المدينة المنورة، فأبى، أراد أن يثبت براءته، فلو هرب لكان ذلك إقرارا بخطإ، لذا خاطر وتجشم الصعاب، فتسلل من سوريا إلى كليس فإزمير [4]، ولم يقبض عليه، وسلم نفسه هناك إلى شرطة الطوارئ، فلما حققوا معه ثبتت براءته وأخلي سبيله."[5]

المنفى الاختياري: غادر إلى أمريكا للعلاج في 21 مارس 1999[6] واستقر بها لحد الآن. يقول فؤاد البنا : "وبسبب وجود مخاطر على حياة كولن من عدد من الأمراض القاتلة التي يعاني منها،ومن بعض الجهات الخفية في تركيا التي تستهدف اغتياله لإحداث فتنة داخلية، فقد هاجر في 21 مارس 1999 إلى الولايات المتحدة الأمريكية،وهو منذ ذلك العام مقيم في ولاية بنسلفانيا في مخيم على قمة جبل تحيط به غابة، يمارس الكتابة وتعليم تلاميذه علوم القرآن، رغم منع الأطباء له من ذلك"[7].

---

[1] كلمات شاهدة حول الدين والمجتمع والدولة بأفق إنساني، (حوارات مع الأستاذ فتح الله كولن)، دار النيل 2015، ص: 52

[2] عبقرية كولن، ص: 30

[3] عودة الفرسان، ص: 311-312

[4] مدينة مجاورة لشاطئ خليج إزمير الذي هو امتداد لبحر إيجة غرب تركيا(أطلس العالم، ص: 67)

[5] محمد فتح الله كولن: قصة حياة ومسيرة فكر، ص: 99

[6] المصدر نفسه، ص: 100

[7] عبقرية فتح الله كولن، ص: 32

المبحث الرابع: فتح الله كولن والنورسي

المطلب الأول: مولد بديع الزمان النورسي ونشأته

ولد سعيد النورسي في قرية"نورس" بولاية بتليس[1] شرقي الأناضول سنة 1876 م في أسرة متدينة كان يضرب بها المثل في الاستقامة والزهد.

وقد تميز على أقرانه بمعالم الذكاء والحفظ منذ صغره وكان سؤولا ويلازم مجالس الكبار الذين كانوا يقصدون بيتهم. وتلقى علومه الأولى في الكتاتيب على يد مشايخ لم يشبعوا رغبته ونهمه العلمي. فعكف على الكتب التي أتيحت له يدرسها بل يحفظ الكثير منها. وقد تيسر له لقاء بعض أساتذة العلوم الحديثة؛ حيث أدرك نقصه عندما ناقشهم مما دفعه إلى إقباله على الكثير من هذه العلوم حتى أتقنها. ولتعدد قابليته ولذكائه الخارق ـ حتى إنه حفظ { جمع الجوامع} في أصول الفقه لابن السبكي ـ وحفظه أكثر من ثمانين كتابا من أمهات كتب العلوم الإسلامية، وكان يقرأ في اليوم الواحد أكثر من مائتي صفحة، "[2] ذاع صيته ولقب ببديع الزمان[3].

من أهم مشاريعه التي كان يسعى إلى تحقيقها فتح المدارس التي تعلم العلوم الرياضية والفيزياء والكيمياء بجانب المدارس الدينية في شرقي الأناضول [4]، وكان حلمه الكبير إنشاء جامعة إسلامية عالمية تحت اسم(جامعة الزهراء)[5].

وقد جاهد بالقلم والسيف عندما احتل الاستعمار تركيا، جاهد ضد الروس حتى أسر[1]،وحينما احتل الإنجليز إستانبول سنة 1920 أصدر كتابه"الخطوات الست" خارطة

---

[1] أطلس العالم، ص: 67

[2] بديع الزمان سعيد النورسي، نظرة عامة عن حياته وآثاره، ص: 24-25

[3] المصدر نفسه، ص: 21

[4] نفسه، ص: 28

[5] بديع الزمان سعيد النورسي وآثره في الفكر والدعوة، حسن عبد الرحمان بكيز، دار الحق، ص: 251

لطريق المقاومة [2]. وقد اشتهرت مقاومته للمحتل حتى إنه دعي إلى أنقرة 1922 للالتحاق بزعماء الاستقلال، لكنه صدم بحال النواب المتهاونين في واجبات الدين وعلى رأسها الصلاة فنصحهم وفارقهم" [3]. وفي الوقت نفسه رفض الالتحاق بثورة سعيد بيران [4] المسلحة ضد سياسة مصطفى أتاتورك وحذر من عواقبها السلبية الأليمة [5]. وقد حدث ذلك فأعدم سعيد وإخوانه،"وأخفقت حركة الشيخ سعيد واشتدت الحملة على الإسلام وأهله أكثر من ذي قبل"[6].

وقد صور النورسي بعضا من معاناته التي تعرض لها من قبل الأباعد والأقارب فقال: "إني قد خدمت بصفة قائد للمتطوعين في الحرب العالمية الأولى وخضت المعارك وضحيت بخيرة طلابي وأحبائي مع نيل تقدير القائد العام للجيش أنور باشا. وسقطت جريحا وأسرت. وبعد مجيئي من الأسر ألقيت بنفسي في المهالك، بتأليفي كتاب "الخطوات الست" الذي تحديت به الإنكليز وهم يحتلون استانبول، فعاونت هؤلاء الأصدقاء الذين ألقوني في عذاب الأسر بغير سبب. وكان هذا جزائي نظير معاونتي لهم، فأذاقني هؤلاء من المصاعب والمتاعب في ثلاثة شهور ما يفوق من المصاعب والمتاعب التي قاسيت منها في روسيا طوال ثلاث سنوات.

---

[1] بديع الزمان سعيد النورسي، نظرة عامة عن حياته وآثاره، ص: 41

[2] المصدر نفسه، ص: 52

[3] محمد فتح الله كولن: قصة حياة ومسيرة فكر، ص: 54-55

[4] هو سعيد بن الشيخ محمود بن الشيخ علي، ولد سنة 1865م، قاد ثورة ضد الحكومة التركية 1925م، وحكم عليه بالإعدام ونفذ فيه في ساحة المسجد الكبير بمدينة ديار بكر 30 يونيو 1925م، انظر" تطور الأوضاع الثقافية في تركيا"، ص: 135-271

[5] محمد فتح الله كولن: قصة حياة ومسيرة فكر، ص: 58-59

[6] رجل القرآن وصناعة الإنسان، د. عبد الحميد عويس، ط 1، دار النيل، القاهرة 2009، ص: 104

وعلى الرغم من أن الروس كانوا ينظرون إلي بصفة قائد للمتطوعين الأكراد،والظالم الذي يذبح الأسرى والقازاق، إلا أنهم لم يمنعوني من إلقاء الدروس، فكنت ألقيها على معظم زملائي الأسرى من الضباط البالغ عددهم تسعين ضابطا، ثم إننا جعلنا غرفة في الثكنة التي كنا فيها مسجدا لأداء الصلاة في فقه أصول الفقه جماعة، وكنت أؤم الجماعة، ولم يتدخلوا في ذلك قط ... بينما أرى هؤلاء الذين يفترض فيهم أنهم إخواني في الدين وفي الوطن يمنعوني من الدرس بغير سبب مع أنني أحاول أن أفيدهم في الإيمان، وهم يعلمون أنني قد قطعت علاقتي مع الدنيا والسياسة . حتى إنهم وضعوني في الأسر طوال ست سنوات ـ وليس ثلاث سنوات ـ بل في أسر مشدد، إذ منعوني عن الاختلاط بالناس، ومن إلقاء الدروس، بل حتى من إلقاء الدروس الخاصة في غرفتي الخاصة، علما أنني أحمل شهادة في ذلك، وحالوا بيني وبين المراسلات، بل منعوني حتى عن الإمامة في المسجد الذي عمرته بنفسي، والذي كنت أؤم الجماعة فيه طوال أربع سنوات...فضلا عن ذلك لو ذكرني أحدهم بخير، يغضب الموظف المراقب علي، ويحاول بشتى الوسائل أن يهون من شأني، ويشدد من المضايقات كي يحصل على تكريم من آمريه والتفاتهم إليه[1].

وقد اشتدت به المعاناة في بعض المراحل من منفاه حتى إنه يبث شكواه إلى بعض تلامذته فيقول : " لقد بقيت منذ شهرين أو ثلاثة وحيدا وربما يأتيني ضيف في كل عشرين يوما أو ما يقرب من ذلك، فأظل وحيدا في سائر الأوقات، ومنذ ما يقرب من عشرين يوما ليس حولي أحد من أهل الجبل، فلقد تفرقوا.

[1] كليات رسائل النور، المكتوبات، ص: 94- 95

ففي هذه الجبال الموحية بالغربة، وعندما يرخي الليل سدوله، فلا صوت ولا صدى إلا حفيف الأشجار الحزين" [1]. ثم ذكر أنواعا أليمة من الغربة التي عاناها وكيف تغلب عليها بذكر الله والقرآن "[2].

المطلب الثاني: أهم مراحل تطور فكر سعيد النورسي الإصلاحي

تميزت حياة سعيد النورسي بمراحل ثلاثة :

المرحلة الأولى: سعيد القديم، تمتد إلى سنة 1926، تبنى فيها أسلوب العمل السياسي لنشر الإسلام وتحقيق الإصلاح، حتى تبين له انسداد أفقه.

المرحلة الثانية: سعيد الجديد، رجل القرآن والتربية [3]، تمتد إلى سنة 1949، رفع فيها شعار (إنقاذ الإيمان) الذي ركز من خلاله على بناء وتجديد وتفعيل الإيمان في النفوس. وكان يقول: "إن خدمة القرآن الكريم هي التي منعتني بشدة عن عالم السياسة بل أنستني حتى التفكر فيها"[4]. ويفصل ذلك بقوله: " إنني لم أرغب في قراءة جريدة واحدة ولم أقرأها طوال ثماني سنوات... إن خدمة القرآن لها من السمو والرفعة ما يعلو على جميع السياسات مما يجعلني أترفع عن التدخل في السياسات الدنيوية التي يغلب عليها الكذب"[5]. وقد تبنى بديع الزمان هذا المنهج بعد مراجعة شاملة لتجاربه السابقة؛ يقول رحمه الله: "لقد خاض سعيد القديم غمار السياسة ما يقارب العشر سنوات عله يخدم الدين والعلم عن طريقها، فذهبت محاولته أدراج الرياح إذ رأى أن تلك الطريق ذات مشاكل

---

[1] المصدر نفسه، ص: 29

[2] نفسه، ص: 30-31 -31

[3] مفاتح النور في مفاهيم رسائل النور، د. فريد الأنصاري، ط1، دار النيل، القاهرة 2010، ص: 22

[4] كليات رسائل النور، المكتوبات، ص: 58-59

[5] المصدر نفسه، ص: 59

ومشكوك فيها وأن التدخل فيها فضول . بالنسبة إلي . فهي تحول بيني وبين القيام بأهم واجب، وهي ذات خطورة، وأن أغلبها خداع وأكاذيب، وهناك احتمال أن يكون الشخص آلة بيد الأجنبي دون أن يشعر، وكذا فالذي يخوض غمار السياسة إما أن يكون موافقا لسياسة الدولة أو معارضا لها، فإن كنت موافقا فالتدخل فيها بالنسبة إلي فضول ولا يعنيني بشيء، حيث إنني لست موظفا في الدولة ولا نائبا في برلمانها، فلا معنى ـ عندئذ ـ لممارستي الأمور السياسية وهم ليسوا بحاجة إلي لأتدخل فيها. وإذا دخلت ضمن المعارضة أو السياسية المخالفة للدولة، فلا بد أن أتدخل إما عن طريق الفكر أو عن طريق القوة. فإن كان التدخل فكريا فليس هناك حاجة إلي أيضا، لأن الأمور واضحة جدا، والجميع يعرفون المسائل مثلي فلا داعي إلى الثرثرة. وإن كان التدخل بالقوة، أي بأن أظهر المعارضة بإحداث المشاكل لأجل الوصول إلى هدف مشكوك فيه. فهناك احتمال الولوج في آلاف من الآثام والأوزار، حيث يبتلى الكثيرون بجريرة شخص واحد. فلا يرضى وجداني الولوج في الآثام وإلقاء الأبرياء فيها بناء على احتمال أو احتمالين من بين عشرة احتمالات، لأجل هذا فقد ترك سعيد القديم السياسة ومجالسها الدنيوية وقراءة الجرائد مع تركه السيجارة"[1].

المرحلة الثالثة: سعيد الثالث، تميزت هذه المرحلة بانفراج سياسي بعد وصول الحزب الديمقراطي وتولي عدنان مندريس رئاسة الوزراء. استغل فيها النورسي هذه الظروف وأكثر بديع الزمان من رحلاته الدعوية والتربوية حتى لقي ربه 1960 بعد 28 عاما قضاها إما في النفي أو السجن وهي السنة نفسها التي تم فيها إعدام رئيس الوزراء بعد الانقلاب العسكري[2].

المطلب الثالث: رسائل النور

[1] كليات رسائل النور، المكتوبات، ص: 76- 77

[2] رجل القرآن وصناعة الإنسان، ص:12.بديع الزمان النورسي، نظرة عامة، ص: 137- 143

الرسائل إبداع نورسي وتجسيد لشعار "إنقاذ الإيمان " وتوحيد القبلة (القرآن) ، فقد كان من أهم أهداف بديع الزمان سعيد النورسي خدمة القرآن، والعكوف على نشر أنواره وتقريبها إلى الأجيال المعاصرة التي حيل بينها وبين الوحي وأريد لها أن تفقد الصلة به. لقد نذر نفسه للدعوة إلى إنشاء جيل جديد يرتبط بالكتاب ويجدد العهد به. يقول خادم رسائل النور إحسان قاسم الصالحي: " مَنَّ الله عز وجل على هذه الأمة فقيض الأستاذ سعيد النورسي للذود عن حياض الإيمان وبيان أنوار القرآن، وشرح صدره للتتلمذ على يدي القرآن العظيم والتزود من نبعه الفياض، حتى استنار قلبه وسطع فكره وارتوت روحه من زلال القرآن، ونور الإيمان،فأملى على من حوله من محبيه ما استلهمه من نور الكتاب المبين هذه اللفتات القرآنية والمعارف الإلهية، والفيوضات الإيمانية فكانت هذه الرسائل التي أطلق عليها رسائل النور" [1]. وقد علل بديع الزمان هذه التسمية بقوله: "إن سبب إطلاق اسم رسائل النور على مجموع الكلمات (و هي ثلاث وثلاثون كلمة) والمكتوبات (وهي ثلاث وثلاثون مكتوبا) واللمعات (وهي إحدى وثلاثون لمعة) والشعاعات (وهي ثلاثة عشر شعاعا)، هو أن كلمة النور جابهتني في كل مكان طوال حياتي، منها :

قريتي اسمها: نورس.

اسم والدتي المرحومة: نورية.

اسم أستاذي في الطريقة النقشبندية : سيد نور محمد.

وأحد أساتذتي في الطريقة القادرية: نور الدين.

وأحد أساتذتي في القرآن: نوري.

وأكثر من يلازمني من طلابي من يسمون باسم نور.

و أكثر ما يوضح كتبي و ينورها هو التمثيلات النورانية.

[1] بديع الزمان سعيد النورسي، نظرة عامة عن حياته وآثاره، ص: 73

وأكثر ما حل مشكلاتي في الحقائق الإلهية هو اسم "النور" من الأسماء الحسنى. ولشدة شوقي نحو القرآن وانحصار خدمتي فيه، فإن إمامي الخاص هو سيدنا عثمان ذو النورين رضي الله عنه"[1].

ومما يحسن التنبيه إليه فيما يتعلق بهذه الرسائل ما يلي :

من أوائل القضايا التي تحدث عنها النورسي (رسالة الحشر) وقد كانت الدوائر الإلحادية تصور اليوم الآخر وما يعقبه خرافة، فتصدى لذلك سعيد[2].

رسالة(إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز) أملاها بديع الزمان باللغة العربية على تلاميذه في ساحات القتال أثناء الحرب العالمية الأولى بدون مصدر أو مرجع[3].

(المكتوبات): مجموعة من رسائل جوابية " كتبها الأستاذ النورسي ردا على أسئلة طرحها كل من السيدين خلوصي وصبري وهما من السابقين الأول من طلاب رسائل النور ،وقد استغرقت هذه المراسلات أكثر من خمس سنوات منذ 1929 إلى سنة 1934"[4].

كان لتلاميذ النورسي الفضل في كتابة الرسائل، ونسخها ونشرها في التراب التركي،لأنه ـ رحمه الله ـ" لم يكن يكتب من رسائله بيده، لكونه نصف أمي من حيث القدرة الكتابية، وإنما كان يملي هذه الرسائل على بعض طلابه في حالات من الجيشان الروحي والوجداني، وبعد ذلك تتداول النسخة الأصلية بين التلاميذ الذين يقومون بدورهم باستنساخها باليد، ثم ترجع هذه النسخ جميعها إليه، لكي يقوم بتدقيقها واحدة

---

[1] كليات رسائل النور، الملاحق في فقه دعوة النور، بديع الزمان سعيد النورسي، ط2، شركة سوزلر للنشر، القاهرة 1995، ص: 70- 71

[2] بديع الزمان سعيد النورسي، نظرة عامة عن حياته وآثاره، ص: 73

[3] المصدر نفسه، ص: 73. مختارات من المثنوي العربي النوري لمؤلفه بديع الزمان سعيد النورسي، أديب إبراهيم الدباغ، ط1، مطبعة الزهراء الحديثة، الموصل 1983، ص: 5

[4] المكتوبات، ص: 61 (والكلام لمترجم الكتاب إحسان الصالحي)

واحدة،وتصحيح أخطاء الاستنساخ إن وجدت، ولم يكن لديه أية كتب ومصادر يرجع إليها أثناء التأليف سوى القرآن الكريم.

وقد ساعده على ذلك ما وهبه الله من ذاكرة خارقة وقدرة عجيبة على الحفظ، فكان يستقي عند تأليف رسائله من مخزونات محفوظاته في مصادر العلوم الدينية التي كان قد قرأها في بداية حياته" [1]. و" قد استمر نسخ الرسائل باليد حتى طبعت أول مرة سنة 1956 بعد أن صدر حكم قضائي بأنها تخلو من أي عنصر مخالف للقانون، الحكم جاء تتويجا لثمان سنوات من المحاكم منذ 1948 إلى 1956"[2].

ولقد كشفت هذه المحاكمات عن قوة رسائل النور وانتشارها، واستجابة العديد من أبناء تركيا لمضامينها ووفائهم لغاياتها وأهدافها ،وذلك لأنها ـ كما يقول كولن ـ:" كلها ثمرة جهد جاد و دؤوب من أجل توضيح مسائل ومشكلات معروضة على الرأي والنظر في العصر الذي صنفت فيه ـ إذا أطللنا عليها من هذه الجهة ـ فمن بين سطورها ينبعث صوت الأناضول، ثم العالم الإسلامي، حينا نشيجا ونحيبا،وحينا أملا وشوقا وطربا"[3]،ولأنها مصنفات " تفوح منها نفحات الإيمان والأمل. لقد استشعر وشخص الداء الأعظم قبلنا وقبل الناس جميعا، ألا وهو الفوضى الناشئة من الكفر والإلحاد، فتصدى لها. لقد نفث في إنساننا طوال حياته ضرورة التغلب على وباء العصر هذا"[4].

وقد ترجمت رسائل النورسي إلى أكثر من خمسين لغة عالمية، وطبعت من هذه الرسائل مئات الآلاف من النسخ سواء في مجموعة كاملة تحت عنوان(كليات رسائل

[1] المصدر نفسه، ص: 77

[2] المكتوبات، ص: 127

[3] ونحن نقيم صرح الروح، ص: 71

[4] المصدر نفسه، ص: 71

النور) أو في مجموعة مختارة من الرسائل، أو في رسالة واحدة [1]، وتكاثر قراء تراث النورسي وسُمُّوا "بطلاب النور وقد بلغ عددهم الملايين حتى أصبحوا القوة الحقيقية في الجامعات وغيرها من المؤسسات الحكومية والأهلية"[2].

المطلب الرابع: فتح الله كولن والنورسي

انتشرت كتابات النورسي في تركيا انتشارا واسعا في أواسط القرن العشرين حتى إن رسائله أصبحت المادة الإسلامية الأكثر قراءة في البلاد بعد صحيح البخاري ومسلم.[3]

تعرف محمد فتح الله كولن إلى رسائل النور عن طريق مجلس عقده طلبة النور بأرضروم سنة 1957، وقد حضر هذا اللقاء أحد تلاميذ النورسي، سمع منه فتح الله كولن أول درس وتأثر به كثيرا وبأجوائه إلى درجة أنه دعا أن يلحقه الله بكتائب طلاب النور، وأن يحبب إليه الخدمة ويهب روحه لها، وألا يكون بينهم عابر سبيل. وقد استمرت هذه اللقاءات خمسة عشر يوما.حضرها فتح الله كولن ولم يكن قد تجاوز سن التاسعة عشرة من عمره"[4].

ومما سمعه كولن في تلك الجلسات " رسالة (الخطوات الست) و(الشعاع الخامس) من كتاب 'الشعاعات' من رسائل النور.

---

[1] نور وفتح : قراءة في فكر سعيد النورسي وفتح الله كولن، عبد القادر الإدريسي، ط1، دار النيل،القاهرة 2014، ص: 57

[2] أثر بديع الزمان سعيد النورسي في إحياء الاتجاه الإسلامي المعاصر في تركيا، محمد السيد قنديل،ط1، القاهرة 1998، ص: 329

[3] السلام والتسامح في فكر فتح الله كولن، أ. د. زكي ساري تُوبْرَاكْ، طبعة دار النيل، القاهرة 2014، ص: 20

[4] محمد فتح الله كولن: قصة حياة ومسيرة فكر، ص: 35-36

وكان لما تلقاه أثر كبير لم يتمكن معه بعض شيوخ أرضروم من صده عنها،وتحذيره من عواقب مصاحبة النورسيين" [1] بل زاد إصراره وتعلقه ببديع الزمان وحواريه، خصوصا عندما وردت رسالة من الأستاذ سعيد تخص مجلس طلاب النور بأرضروم، يسلم عليهم فيها ويعين واحدا منهم بقوله: وبلغوا سلامي إلى فتح الله "[2].

ولقد تأثر فتح الله كولن بشخصية النورسي تأثرا كبيرا، وأعجب به، بحيث لا تخلو كتبه من الاستناد إلى رسائل النور وسيرة صاحبها. فقد ذكره بصفات عديدة منها: المرشد الكبير[3]، أحد كبارالعلماء ؛ المؤمن العملاق[4]، مفكر العصر الأستاذ [5]، مفكر القرن العشرين[6]، مفكر العصر الكبير[7]، أحد تلاميذ الرسول صلى الله عليه وسلم ممن حملوا آلام الأمة الإسلامية وآمالها في هذا العصر[8]، وداعي القرن العشرين[9].

وحينما تحدث عن نماذج من أبطال الحقيقة ومهندسي الروح والفكر والعمل،خصص لبديع الزمان عشر صفحات كاملة من كتابه: (ونحن نقيم صرح الروح)[10] ومما جاء فيها قوله: " لقد اتصف في كل وقت بصفتين ظاهرتين:

الأولى: صفة كونه رجل وجدان رحيب، ومثال عشق وحماس أصيل، وإنسان شهامة ومروءة عظيمة.

---

[1] عودة الفرسان، ص: 103-104

[2] المصدر نفسه، ص: 106-107

[3] أسئلة العصر المحيرة، ص: 192. نحو عقيدة صحيحة، محمد فتح الله كولن، ترجمة أورخان محمد علي وعبد الله عنتر، ط دار النيل، القاهرة 2014، ص: 105- 114

[4] أسئلة العصر المحيرة، ص: 37-38

[5] المصدر نفسه، ص: 302

[6] نفسه، ص: 174-194

[7] النور الخالد، ص: 49

[8] المصدر نفسه، ص: 153

[9] نفسه، ص: 261

[10] من ص 69 حتى 79

والثانية: صفة كونه مفكرا متوازنا غاية التوازن، يتقدم على معاصريه أشواطا في الرأي والبصيرة، وصاحب عقل سليم ينتج خططا وبرامج شاملة. فالاقتراب إلى بديع الزمان ودعوته من هذه الجهة، مقترب مهم لفهم ما يعنيه لنا في عصرنا – الذي نحن فيه – باعتباره امتدادا لسلسلة عظماء الإسلام"[1].

ولذلك يرى كولن ضرورة إنجاز بحوث كثيرة تعرف بهذا العملاق الذي بصم العصر بسمات خاصة كان لها أثرها البالغ على المجتمع التركي والإسلامي والإنساني. يقول محمد فتح الله: "بديع الزمان سعيد النورسي علم ينبغي التفكير فيه باعتناء وتعريفه للإنسانية بأبحاث مستفيضة، فهو رجل العصر الأول الذي أبرز إيمان العالم الإسلامي ومعنوياته وعمقه الوجداني الفسيح، وبصورة صافية ومؤثرة.

ولا نحسب أن مقتربات الملاحظات العاطفية لفهم شخصيته وأفكاره مقتربات سليمة لمعرفته ومعرفة تراثه وآثاره. فالعواطف لا تتآلف مع جدية المسائل العالية الزخم التي أظهرها وأبانها بشجاعة عظيمة في كل زمان وآن. فقد عاش حياته كلها إنسان محاكمة منطقية وعقلية، في ظل الكتاب والسنة، وبموازين التجربة والمنطق، في حال العشق والحماس العميق"[2].

يشيد فتح الله كولن بالأستاذ النورسي وهو يقدمه مشخصا لعلل الأمة وكاشفا لعلاج أزماتها، مهندسا لروح نهضتها، محرضا على انبعاثها الحضاري ومحييا لماضيها المجيد، فقد " صار النورسي طبيبا حكيما، مفكرا وباحثا عن الحلول، وفاحصا ومشخصا،ثم واصفا دواء هذه الأمراض، لزمن الفتن والهرج، كان الشعب فيه يعيش حمى الضعف الفكري والهموم الاجتماعية، ويسلط عليه مئات الحوادث المرعبة في أنحاء الوطن كافة، ويئن تحت ركامالقيم الإسلامية والملية التي تهدمت فوق رأسه. فهو عاش

[1] ونحن نقيم صرح الروح، ص: 70

[2] ونحن نقيم صرح الروح، ص: 69-70

منذ البداية مشدودا دائما، مفكرا،مقدما الحلول البديلة للدولة والمجتمع، ساعيا في تلقين هذا الشعب المجيد لكن الفقير حظا، وهذه الدولة الشامخة لكن الآفلة طالعا، دروس ماضيه الرحيب والغني، إذ يرى حيرة الأجيال المسكينة المضطربة قلقا تحت المصائب والنكبات المهولة التي أعدتها السنون السود الطويلة وجهزتها لها، فتتخبط في وديان العجز والضلالة والشك، وكلما أرادت الخلاص دفنت نفسها في أوحال أزمات أعمق.. يرى حيرتها، ويستشعرها، ويصغي إلى صوت ما يراه وما يستشعره"[1].

ويقدم محمد فتح الله كولن نفسه ومدرسته امتدادا وتطويرا لما خلفه الأستاذ النورسي،يظهر ذلك على الأقل من خلال قضيتين مركزيتين :

أولاهما :اعتماد تشخيص النورسي لعلل الأمة وتبنيه، من خلال شرحه وتفصيله،يقول فتح الله كولن: " ساح بديع الزمان في أرجاء كثيرة من البلاد منذ عهد الدولة العلية العثمانية بمدنها الكبيرة أو قراها القاصية، وبنواحيها التي تعج بالبشر أومناطقها القليلة أنفسا.

فرأى حيثما حل سريان الجهل في الناس، وتضورهم في الفقر وحد الضرورة،ونهشهم وإفناءهم لبعضهم بعضا بأنواع التفرق. فخاف وذعر. فأراد أن يشحن تلك الجموع التعيسة بروح العلم، باعتباره مفكرا واعيا بأحوال العصر.والتفت إلى معضلة الفقر والحاجة والاقتصاد. وبحث عن حلول التفرق، وصار داعية يتنفس وحدتنا في كل زمان وبلا توان ... فالنورسي يرى مصدر المفاسد كلها ـ بالأمس كما اليوم ـ في الجهل والفقر والتفرق.."[2]

ثانيهما : التركيز على العلم والمعرفة ومشروع مدارس الخدمة.

---

[1] المصدر نفسه، ص: 72-73

[2] ونحن نقيم صرح الروح، ص: 73

لقد كان حرص النورسي على مركزية العلم ومحورية المعرفة في أية نهضة،واضحا ولافتا للنظر، فهو" لم يمل من الإصرار على القراءة والتفكير والعمل، ولم يكل من السعي لأجل إنقاذ أفراد الشعب من الفردية المتبادلة وبناء مجتمع مثالي وشعب عامر، فكان يلح على "المعارف" و"التربية والتعليم" ، فيحث بالضرورة على نشر المعارف والتربية والتعليم في كل زمان وبكل وسيلة "[1].

وقد نفخ كولن من فكره وعزيمته في محبيه وأنصاره فتح المدارس في العالم كله وتيسير العلم والمعرفة للأجيال والارتفاع بالمنظومة التعليمية والفئات المستهدفة إلى الآفاق الكبرى البعيدة التي تعيد للإنسان حيويته وانطلاقته وسيادته.

تأثر كولن بالنورسي إلى حد كبير، ولكنه لم يكن نورسيا، لقد حقق فتح الله كولن الكثير من أحلام النورسي، بل إن الأستاذ يصرح بأنه ـ وبمشاريع الخدمة ـ قد بدأ الانخراط في طريق النورسي الذي رسمه بديع الزمان ؛ يقول تلميذ النورسي فتح الله كولن: "ولو تفهم عدة مئات من المثقفين بديع الزمان، وأعانوه عندما كان يسعى حثيثا ويلهث ركضا في كل ناحية من أرجاء البلاد، عارضا رسالته، فربما كنا اليوم أغنى من كل دولة، وأسبق شوطا في الحضارة بين الأمم، وربما بلغنا قوة كانت تؤهلنا لاجتياز العراقيل التي وضعت في طريقنا لاحقا، فكنا انخرطنا في طريق النور ـ الذي يبدو كأننا انخرطنا فيه الآن ـ منذ بداية القرن العشرين ، ولم يكن الكثير من مشاكلنا الحالية تواجهنا اليوم"[2].

لقد أظهر محمد فتح الله كولن الكثير من إعجابه الشديد بالنورسي، بل يعتبره المرشد الكبير للقرن العشرين، ولكنه طور مشروع الخدمة الذي أسسه بديع الزمان وأبدع في توسيع أنوارها عبر العالم، ويؤكد هذا المعنى فؤاد البنا ـ وهو يشير إلى خاصية

[1] المصدر نفسه، ص: 77

[2] ونحن نقيم صرح الروح، ص: 77

الاستقلالية في فكر كولن ـ عندما يقول: " وتبدو الذاتية بادية للعيان في تكوين هذا المفكر الحكيم، فقد درس رسائل النور للإمام النورسي، ورغم إعجابه الشديد بها، إلا أنه لم يحاول أن يكون نسخة أخرى من أستاذه، ولم ينغلق على أفكاره، بل انفتح على كل تيارات التجديد والإصلاح في العالم الإسلامي"[1].

إذا كان يقال لولا البخاري ما جاء مسلم، ولولا مالك ما كان الشافعي، فيمكن أن يقال لولا النورسي ما جاء فتح الله، ولكن مسلما، والشافعي، وفتح الله، تلاميذ تجاوزوا أساتذتهم في أمور، ومدينون لهم في أمور كثيرة.

يقول مايمول أحسن خان: " ظلت الجماهير التركية زمنا تعتقد أن كولن من أتباع بديع الزمان سعيد النورسي. نعم، لمؤلفات النورسي أثر كبير طبعا في سير كولن على طريق الدعوة السلمية نحو العالم، غير أن كولن بوصفه واعظا فاعلا مليئا بالنشاط والقوة، وناشطا اجتماعيا، ونصيرا للمبادئ الإسلامية، حمل رسالة الإسلام إلى مدى أبعد بكثير من الإحداثيات التي وضعها النورسي، ومع هذا، لم يقلل البتة من تأثير النورسي على العقلية التركية المتدينة... وإذا كانت حركة النور ـ التي استلهمت مبادئها من كتابات بديع الزمان سعيد النورسي ـ حركة شعائرية عموما تركية النشأة، فإن فكر كولن يرنو إلى الخارج بمنظاري الرؤية الكونية والدولية.. يمثل كولن الزعيم الملهم لحركة تربوية عابرة للقوميات، بينما يمثل النورسي عملاقا في صياغة الخطاب الفكري؛ وكان اهتمام النورسي منصبا على التحول الفردي، أما كولن فاهتم بالتحول الفردي والمجتمعي مستفيدا من الظروف السياسية والاقتصاد الحر"[2].

يؤكد الإدريسي هذه العلاقة بين فتح الله كولن والنورسي من زاوية أخرى قائلا:" إن حركة الأستاذ فتح الله كولن المبدعة هي الامتداد الطبيعي لدعوة بديع الزمان سعيد

[1] عبقرية فتح الله كولن، ص: 78

[2] فتح الله كولن: الرؤية والتأثير؛ تجربة فاعلة في المجتمع المدني، مايمول أحسن خان، ط دار النيل،القاهرة 2015، ص: 145-146-147

النورسي، إذ نقلتها من طور إلى آخر، وبثت فيها روح العصر، وذلك من خلال شبكة واسعة من التعليم الجيد، تتضافر من أجل إنشائها جهود طائفة مؤمنة بأفكاره من التجار المخلصين والقادرين الأوفياء الذين ينفقون أوالهم بغية نيل رضا الله ثم تحقيق التقدم لأبناء شعبهم في تجربة نادرة"[1].

ولعل هذا التأثر الشديد بالشيخ النورسي هو الذي يفسر لنا الخلط الذي وقع فيه أحد الباحثين عندما عد الشيخ فتح الله كولن رئيسا للحركة النورسية الآن[2].

[1] نور وفتح، ص: 163

[2] صورة الأتراك لدى العرب، د. إبراهيم الداقوقي، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2001، ص: 105

الفصل الثـــاني

الخطيـــــب

الواعـــــظ

تقديـم

نشأ محمد فتح الله كولن في بيئة محافظة وتلقى أولى معارفه في المدرسة التقليدية من خلال المواعظ وخطب المساجد ومجال الذكر في البيوت وبخاصة بيت أسرته. مما أهله ليدرك منذ وقت مبكر أهمية الوعظ والخطابة، لقد كانت "المحادثة والخطابة من أهم وسائل نقل الثقافة منذ ظهور الإسلام. وكانت منظومة الفكر الإسلامي الموضوعة من قبل المدارس التقليدية تنقل عن طريق الخطابة والمواعظ والمجالس الدعوية والمساجد إلى الجماهير العريضة، وكانت المساجد هي المراكز الطبيعية لهذه الوسائل. إذن فالبيئة التي نشأ فيها فتح الله كولن هي هذه البيئة، فهو كان ـ قبل كل شيء ـ خريج المدرسة الدينية،كان يعيش حياة متداخلة مع الجامع ومع الجماهير الواسعة التي يؤمها"[1].

وكان لخطابة الأستاذ كولن أثر بليغ على كل من استمع إليه، وقد ساعده في ذلك "انخراطه في الزوايا التي جعلته منفتحا يجيد فن العلاقات الاجتماعية حيث ما حل،ومجالسته للكبار كان لها الفضل في مهارة التحدث مع الآخرين بسكينة

[1] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 37

وطمأنينة،فكان يجالس الفئات كلها خصوصا المشايخ وكبار العلماء، زاده الحياء الشرقي أدبا مع أهل العلم والفضل"[1].

المبحث الأول: الخطوات الأولى في الوعظ

المطلب الأول: أول درس في المسجد، البداية الرسمية للوعظ

أول درس في المسجد

كان من عادة محمد فتح الله كولن الذهاب إلى المسجد مبكرا، وتأخر أبوه ذات يوم عن درس الوعظ مما دفع الحاضرين إلى اقتراحه ليقوم مقامه، فألقى الفتى البالغ من العمر أربعة عشر عاما أول موعظة، ولم يكن بطول كرسي الوعظ فحملوه وأجلسوه عليه[2].

اختار فتح الله كولن مقطعا من السيرة النبوية يتعلق بالإذايات التي تلقاها رسول الله صلى الله عليه وسلم، "فجعل يحدث الناس بقصة عدو الله العاص بن وائل الذي وصف النبي صلى الله عليه وسلم بالأبتر والذي نزل في حقه قوله تعالى:﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾الآية 3 . الكوثر. لكن الفتى أخطأ في ضبط اسم الرجل لأنه عندما كان يراجع القصة قبل لحظات اختلط عليه اسم راوي الحديث مع اسم عدو الله العاص بن وائل فبدل هذا الإسم القبيح، لا يدري كيف رسخ في ذهنه اسم التابعي أبو صالح، بل لقد سقطت من ذهنه حتى كلمة (أبي) فجعله بعد ذلك أثناء الوعظ (صالحا) فقط، فصب الفتى كل غضبه على صالح وجعل ينعته بأسوإ النعوت والصفات، لكن المشكلة الكبرى ههنا أن

---

[1] فتح الله كولن: قصة حياة ومسيرة فكر، ص: 43

[2] فتح الله كولن: قصة حياة ومسيرة فكر، ص: 26. فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 37

رجلا من القرية كان اسمه صالحا لكنه لم يملك من أوصاف الصلاح شيئا، بل كان خبيث الطبع، سيئ المعاملة لا يعرف معروفا ولاينكر منكرا، ولايأتي الصلاة إلا في الأعياد، فكان قدره هذه السنة أن وجد نفسه متربعا بين يدي الواعظ الصغير ليسمع من التجريح مالم يسمعه قط في حياته"[1].

البداية الرسمية للوعظ

تقدم محمد فتح الله كولن إلى مديرية الشؤون الدينية سنة 1959 لاجتياز امتحان الالتحاق بالوعظ، فكان من الفائزين، فأصبح واعظا رسميا حيث استغرقت هذه المرحلة ثلاثين عاما قضاها إماما واعظا ومدرسا للقرآن الكريم وإداريا في عدة محافظات تركية[2].

وللمنبر قوة تأثير على المستمعين ينصحهم ويوجههم إلى مافيهم من خير عليهم أن يستثمروه ويستزيدوا منه، وإلى مافي نفوسهم وفيما حولهم من شرور وعصيان بإمكانهم تجاوزه والتوبة منه، وخصوصا عندما يرتفع الواعظ والخطيب إلى مستوى مهمته. ولقد جاهد كولن نفسه ليحيي بكلماته نفوس الكثيرين، "وعندما صعد المنبر اكتشف التأثير الإيجابي للوعظ على الجماهير منذ عصور عدة. وقد نذر نفسه وهمته لاستعمال فن الخطابة كواسطة للإرشاد والتبليغ، ولإثارة مشاعر الجماهير فيما يخدم المجتمع والدين والملة، وأظهر بقابليته الفذة في الخطابة مدى فاعلية الكلمة وتأثيرها، حيث كانت هذه الفاعلية تاريخية وعاشت عصورا عدة.

لعل الخطابة كانت أهم جوانبه انعكاسا إلى الخارج، فالعديد من الناس لا يعرفون عنه سوى أنه خطيب مفوه. ولسنوات طويلة قد ظلت جوانبه الأخرى كالعلم والعرفان وقريحته الواسعة مغمورة في ظل هذه القدرة الفذة على الخطابة. بينما كان يملك معرفة واسعة في العلوم الإسلامية وفي العلوم الغربية المعاصرة. ولكن هذه القابليات بقيت في

---

[1] عودة الفرسان، ص: 74-75

[2] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 38

السنوات الأولى من نشاطه كجوانب غير معروفة. ثم بدأت مقالاته وأشعاره تظهر في مجالات مختلفة. واهتم لسنوات طويلة . إلى جانب العلوم الدينية . بالعلوم الحديثة أيضا كالتاريخ والفلسفة وعلم الاجتماع والأدب والفن. وكان يستعمل هذه العلوم بنسبة حاجة الجماهير للتثقيف والإرشاد"[1] .

كان للأستاذ فتح الله كولن برنامج مكثف من الدروس، "ففي إزمير مثلا كان له درس كل جمعة في جامع (كتانة بزاري)، ودروس أخرى يومي السبت والأحد. وذات يوم ذهب الأستاذ فتح الله كولن ليعظ الناس في مقاطعة (برصا) وبينما هو ينزل من الحافلة إذ سمع نداء من مكبرات الصوت بالبلدية(انتبهوا جيدا فاليوم سيعظنا الواعظ المشهور الأستاذ فتح الله كولن)، فتسلل الأستاذ من بين الزحام وركب من فوره سيارة تنادي ـ إزمير.. إزمير ـ وغادر ولم يعظ في ذلك اليوم"[2].

ويظهر أن نفسيته تنفر من كل ما يشهره ويجعله محور اهتمام الآخرين؛ "فقد وقع له مثل هذا في مدينة بورصة [3] أيضا، ففي إحدى المحاضرات تعالت أصوات التصفيق عندما بدأ الأستاذ فتح الله كولن بالحديث فأشار إليهم ألا يفعلوا، إلا أنهم فعلوها ثانية،فحملق الأستاذ كالعقاب هذه المرة وأكمل حديثه فلما تكرر الأمر قال السلام عليكم،وغادر المكان. وكانت المحاضرة في سينما ويحضرها جمع من الناس"[4] .

وكان يرفض تسجيل دروسه ومواعظه، لكن محبيه أصروا على ذلك وقاموا بتوزيعها على كثيرين[5]، لاعتقادهم بأن ذلك من حق الناس عليهم وعلى أستاذهم.

---

[1] المصدر نفسه، ص: 37 – 38

[2] فتح الله كولن: قصة حياة ومسيرة فكر، ص: 65

[3] رابع أكبر مدن تركيا، تقع شمال غرب البلاد بين مدينتي إستنبول وأنقرة(انظر أطلس العالم، ص: 67)

[4] فتح الله كولن: قصة حياة ومسيرة فكر، ص: 65-66

[5] المصدر نفسه، ص: 62

"وكان السيد (جاهد) مصرا على تسجيل دروس فتح الله كولن رغم معارضته قائلا: لاأسجل المواعظ لأجلك أنت ولكنني أسجلها ليستفيد الناس منها، هذه مهمتي التي تهمني فلتهمك مهمتك. فلم يستطع الأستاذ كولن أن يجيب فاستمر هو في مهمته إلى آخر عمره رحمه الله"[1]. وقد أحسن محبوه فيما فعلوا لأن الكثير من كتب الأستاذ مصدرها دروسه المسجلة مثل "أسئلة العصر المحيرة" و "النور الخالد".

المطلب الثاني: توسيع مجال الوعظ

لاحظ كولن أن رواد المساجد كانوا من فئة معينة، و"أن المقاهي كانت ملتقى الكثير من الشباب فقال لأتباع .ه مقترحا عليهم فكرة الحديث إلى هؤلاء ومحاورتهم في مجالسهم : (إذا كان الشباب لا يأتون، فلنذهب نحن إليهم)، فكان أول لقاء بأحد المقاهي في إزمير سنة 1966، ولما كان لقاء حشد من الناس في مقهى يتطلب رخصة طبقا لقانون التجمع والتظاهر تمت الدعوة إلى تنظيم محاضرات في أماكن أكبر وحشود أكثر بالرخصة نفسها. فكانت المحاضرة التالية عن (نظرية التطور) في المعرض الدولي بإزمير، وفي القاعة خمسة آلاف مقعد، فإذا بالناس خارجها أكثر ممن في داخلها، فصار المعرض كمصلى للعيد، وذلك في مطلع عام 1975. وكان موضوع نظرية التطور قد شغل الرأي العام التركي كثيرا في الستينات والسبعينات" [2]، ثم دعي بعد إلى الجامعة فحاضر عن جلال الدين الرومي في جامعة أرضروم، كما ألقى محاضرة في موضوع التقنيات والعلوم الطبيعية في ضوء القرآن[3].

---

[1] فتح الله كولن: قصة حياة ومسيرة فكر، ص: 64

[2] المصدر نفسه، ص: 92-93 (المحاضرة ضمنها كتابه حقيقة الخلق ونظرية التطور)

[3] نفسه، ص: 91

وكان لتنوع المنابر الخطابية التي تحدث فيها إلى الجماهير وقعه الكبير؛ يقول صفوة سنيح: "وانطلق يجوب في ميدان واسع جدا من العمل، بدء من منصة الوعظ في الجامع إلى مقاعد المقاهي العامة المنتشرة في المناطق المختلفة في المدينة إلى محيط الجامعة وصفوف المثقفين. وقد كنا شهود عيان لهذا العمل الدائب والخدمة الجليلة، إذ ما كان يصدر سؤال من أي أحد كان، وبأي أسلوب كان، فيطرحه دون تردد وإحجام، إلا ويأخذ جوابا شافيا وافيا.. ولقد كنا نلمس التحول ونشاهده رأ ي العين، إذ كانت الجلسات تبدأ بعدم المبالات وعدم الاكتراث من الحاضرين ولاسيما في المقاهي، ولكن بعد فترة إذا بالحاضرين يتحولون إلى آذان صاغية تدريجيا ويستمعون إلأى المحاضرة وكأن على رؤوسهم الطير"[1].

[1] القدر في ضوء الكتاب والسنة، محمد فتح الله كولن، ط7، دار النيل، القاهرة 2012، ص: 6 من مقدمة الكتاب.

المبحث الثاني : من أهم مميزات خطاب كولن الدعوي

المطلب الأول: أهمية الحديث عن خصائص خطاب كولن الدعوي

إن التأثير الإيجابي الكبير الذي أحدثته خطابات كولن، يستحق من الباحثين التأمل البصير لاستجلاء طبيعة مواعظه ودروسه، يقول أنس أركنه: " توجد آثار عميقة للخطابة الشفوية في الحياة الاجتماعية والثقافية للجماعات الإسلامية المعاصرة، وعندما ندرك التأثير الاجتماعي لثقافة الخطابة على الجماهير، ندرك السبب الكامن وراء التأثير الكبير لكلام وتوصيات ونصائح صانع أفكار مثل كولن على الجماهير الواسعة.

وعلى الرغم من أن فتح الله كولن لا يتربع على قمة هرم منظمة بشكل فعلي وعضوي، إلا أن لأفكاره وتوصياته تأثيرا مهما على الجماهير، بيد أن التزام الجماهير بتوصياته وأفكاره كل الالتزام ووضعها ضمن المشاريع الاجتماعية، يعود إلى قابليته الخطابية هذه وإلى تأثير هذه الثقافة الشفوية العميقة والمتأصلة في المجتمع"[1].

ولذلك يكتسي الحديث عن "كولن الخطيب والواعظ" أهمية خاصة لإدراك جانب أساس ومركزي في الفكر الإصلاحي لدى الأستاذ ومعرفة طبيعة تيار الخدمة الذي أنشأه،"لأن براعة فتح الله كولن ومهارته في الخطابة ساهمت بشكل كبير في إعطاء شكل معين و سمة معينة لحركته، فاستطاع بقابليته الخطابية هذه جلب انتباه الجماهير وإثارة اهتمامهم. وفي أحاديثه وخطبه يلاحظ أنه ـ بجانب كونه مفكرا غزير العلم والمعرفة ـ

---

1 فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص:14- 15

يحرك العواطف والأحاسيس أيضا، أي أنه خطيب يخطب على المنابر بوجدانه وقلبه كما يخطب بفكره وعقله. لذا فكما يتم تحليل مقالات فتح الله كولن ونشاطاته الثقافية الاجتماعية، يجب تحليل شخصيته من خلال ألفاظه الشفوية وأحاديثه الثقافية"[1].

المطلب الثاني: الصدق والاستقلالية

أ – تحسيس المخاطبين بصدق المتكلم وجديته

من يستمع إلى أحاديث الأستاذ ودروسه يشعر بأن فتح الله جاد وصادق في كلماته التي يختارها بعناية، ويقدر عمله ويثق في رسالته و يعظمها لتعظم لدى المخاطبين. يقول محمد فتح الله كولن: " ولا شك أن من يبلغ عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وكتابه واليوم الآخر ويحبب ذلك إلى قلب مخاطبه، يقدر مدى أهمية عمله فيقوم أحواله وأطواره وتصرفاته وفق تلك الأهمية، لأن أي امتعاض يستشعره المخاطب من أطواره، ربما يكون سببا لتنفيره مما هو مكلف أن يحببه إليه. فهل من خسارة أفدح من هذا؟ وسنتحمل جميع المسؤوليات في الآخرة إن كانت نابعة من أحوالنا وسلوكنا"[2].

ب . استقلالية الخطابة وتجرد الوعظ حماية لهما من الاستغلال

حرص الأستاذ فتح الله كولن ألا تكون دروسه ومواعظه واجهة لفتح المعارك مع الآخرين تستفزهم أو تستعديهم، وفي الوقت نفسه نأى بدعوته من أن تكون جسرا لغيره أو محطة ينطلقون منها لخدمة أهدافهم المادية والمعنوية، وقد صبغ تيار الخدمة ـ بمختلف تجلياته ـ بهذه الصبغة، إذ ما فتئ يؤكد "على كل مرشد في أي عهد كان من العهود ـ والذي أخذ على عاتقه مهمة التبليغ ونشر الحق ـ الاقتداء بالأنبياء العظام، وعلى كل من

---

[1] المصدر نفسه، ص: 13 – 14

[2] طرق الإرشاد، ص: 106

يقوم بمهمة الوعظ والإرشاد ويقوم بزيارة القرى والقصبات الابتعاد عن قبول أي أجر أو منفعة مقابل خدماته في نشر الحق والحقيقة"[1].

وذلك حتى لا يضعف تأثيرهم، ولا تكون فرصة لانتقادهم باستهدافهم مصالح مادية معينة، وحتى لا تؤثر فيهم الدنيا فتكون عاقبة أمرهم حبوط أعمالهم [2]، ومع هذا التوجيه لا يرى بأسا من أن يأخذ المحتاجون من المرشدين ما يكفي لأولادهم قياسا على العاملين عليها[3].

ومما يضمن استقلالية الوعظ ألا يرهن أمره ويربط مصيره بالملأ من رجال المال والحكم. وكان الأستاذ يحذر باستمرار من ذلك مع دعوته إلى الانفتاح على جميع فئات المجتمع، وفي ذلك يقول:" المبلغ والمرشد لا يكون ذا علاقة وطيدة مع رجال الدولة والطبقة العليا من الناس خارج ضرورة الإرشاد والتبليغ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : «شرار أمتي العلماء الذين يأتون الأمراء، وخيار الأمراء الذين يأتون العلماء »[4]، ثم إن أهل الإرشاد لا يبقون تحت منة أحد من الناس، إذ لا يكون كلام من كانت همته ملء بطنه على موائد الأغنياء، والتشبث بأبواب رجال الدولة والتملق إليهم، مؤثرا فيهم ولا في غيرهم، ذلك لأن الإنسان عبد الإحسان كما هو مقرر. ولكن إن أتى رجال الدولة والأغنياء إلى المرشدين والمبلغين فهذا عمل يستحق التقدير كله ما لم يستغل لأمور

---

[1] أسئلة العصر المحيرة، ص: 286

[2] المصدر نفسه، ص: 286-287

[3] أسئلة العصر المحيرة، ص: 288

[4] الحديث قال فيه الحافظ العراقي: أخرجه ابن ماجة بالشطر الأول نحوه من حديث أبي هريرة بسند ضعيف. انظر: إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، وبذيله المغني عن حمل الأسفار للحافظ العراقي، ط 1، المكتبة العصرية، بيروت 2004، ج 1، ص: 96

أخرى"[1]، ولذلك تعد سمة البعد عن التوظيف السياسي إحدى أهم خصائص تيار الخدمة[2].

المطلب الثالث: اللين والحكم.ة

أ . تجنب الجدال والمراء

يحرص كولن على تجنب أساليب المراء والجدال ويركز على استهداف زرع القيم الأساسية وبيان العناصر الرئيسة التي تصبغ الإنسان والمجتمع بصبغة الخير وخدمة الناس،ولذلك يؤكد في أحاديثه على ضرورة توفير أجواء سليمة لإحسان البناء، وهو يلتزم بذلك ويدعو إليه قائلا: " المتكلم في المجادلة والمناقشة هو (الأنانية)، فهذا الجو الذي لا يراد به الوصول إلى الحق يسلم زمامه إلى الشيطان، ولذا فمهما كان الكلام الذي نريد أن نبسطه للمخاطب مقنعا ومؤدبا، لا يؤثر فيه ولا يجد القبول الحسن لديه... لأنه مثلما نتهيأ للظهور على خصمنا، كذلك المخاطب يتهيأ مثلنا في الأقل، ولا شك أن الأدلة التي نسردها لإثبات مقولتنا قد استعد هو لتفنيذها بأدلة أخرى، وهكذا يتحول الحوار في المراء إلى كلام عقيم ولو طال ليالي وأياما" [3]. بل إن أخطرعاقبة لشيوع ثقافة الجدل هي الهلاك؛يهلك المتجادلون باستفراغ طاقاتهم في إظهار أنانياتهم وإنتاج الثرثرة المميتة ويهلك معهم المجتمع بحرمانه من خير كثير.

ب . تجنب أساليب الغلظة والتزام اللين واختيار الكلمة الحسنة

عندما تطالع (النور الخالد) وهي مجموعة مواعظه لسنة كاملة ب إسطنبول[4]، أو (أسئلة العصر المحيرة)، وهي مجموعة أجوبة لأسئلة وردت مكتوبة أجاب عنها في

---

1 طرق الإرشاد، ص: 144-145

2 Le Nouveau Visage De l ʾislam: Le Mouvement Gülen, M . Enes ERJENE, Edition Du NIL , 2011 , p 16

3 طرق الارشاد، ص: 107

4 فتح الله كولن: قصة حياة ومسيرة فكر، ص: 100

المسجد[1]، أو (نظرية التطور) وهي محاضرة ألقيت في إزمير [2]، لا نكاد نجد عبارة خشنة أوأسلوبا فظا، أو كلمات منفرة، أو هجوما عنيفا يستفز الآخرين.

لقد تحدث الأستاذ فتح الله كولن عن أسس التبليغ ومنهج الإرشاد في كتابه (طرق الإرشاد)، والتزم بذلك وطبقها إلى حد بعيد، يقول في بيان مركزية اللين والشفقة في خطاب الآخرين: " إن المبلغ هو بطل الشفقة والرحمة قبل كل شيء، لا يتوسل لدفع الآخرين إلى قبول الحق الذي يدعو إليه بالوسائل الخاطئة كاستعمال القوة والخشونة والإكراه، لأن استقرار الإيمان بالله في القلوب ليس بهذه الوسائل قطعا بل الشفقة في الإرشاد تلين القلوب وترقق الوجدان، وتجعلهما تستأنسان وتتهيآن لقبول الإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم... وفي الحقيقة ليس أمام الشفقة والرحمة باب مسدود لا يمكن فتحه، فجبال الثلج التي لا تذوب بالشفقة والرحمة لايذوبها شيء قطعا. لذا إن كنتم تريدون ربط الناس بعضهم ببعض بمحبة دافئة عليكم أن تطووهم تحت جناح الرحمة والشفقة أولا، ومالم تعفوا عن تقصيرات الناس وأخطائهم، ومالم تظهروا لهم الحقيقة ملفعة بالشفقة والحنان لن تحلوا حلا جذريا أية مسألة من مسائل الفردية والجماعية. يعلمنا الرسول صلى الله عليه وسلم كيفية سلوكنا أمام أخطاء الأمة وتقصيراتهم بهذه الصورة التمثيلية.(إنما مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقحمون فيه [3]). يفتح الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بهذا المثال طريقا واسعا جدا للإرشاد، ويوضح أن من سار في هذا الطريق يوصل التبليغ إلى جموع عظيمة في المجتمع... وإذا ما شملتم قلب إنساننا اليوم بالعطف والحنان سمعتم صدى حزينا منه، لأنه لن يسعد إنسان يغوص في الآثام ويخوض في الرذائل، ولا جرم لا يبقى إنسان برضاه ورغبته في هذه الحياة الآسنة، سوى الذين أظلمت قلوبهم واسودت

---

[1] المصدر نفسه، ص: 94

[2] نفسه، ص: 92

[3] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب شفقته على أمته، ح 6095، ج 7، ص: 63

وجداناتهم نهائيا وتفسخ عالمهم المعنوي، إلا أنه قد زل ووقع فيما هو فيه الآن فلا يجد مخرجا له، فأنتم بأيديكم الشفيقة الحنونة تدلونهم على طريق الخروج الذي يبحثون عنه. فإذا تقربتم إلى هؤلاء بالإشفاق عليهم وبينتم لهم المسائل ضمن رحمة ورأفة موزونة فسينظرون إليكم وإلى ما تقدمونه لهم من مسائل بعين اللطف، وإن لم يتقبلوها. هذه حقيقة مشاهدة، حيث إنه قد انشرح بالإيمان قلوب من لا نتوقعه من أناس، وفي ما لا ننتظره من زمان، ولهذا مئات الألوف من الأمثلة... فالمرشد ليس إلا مثال الحب والشفقة والرحمة وفدائي المحبة. ومن تنتظره القلوب الظمأى إلى الإرشاد هو هذا المرشد. وقدوتنا في هذا سيدنا الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم"[1].

ج . الحماس المنضبط

عندما يكون المتحدث على يقين مما يقوله، وواثقا بما يدعو إليه، ومؤمنا بعظمة ما يقوم به، يتكلم بقوة وحماس يحتاج إلى ضبط كلماته والتحكم في مواقفه حتى لا ينتهي به الأمر إلى الندم على عبارات أو مواقف لم تكن مدروسة بعناية، يقول أنس أركنه عن فتح الله المتحمس المنضبط: "عاش وهو يهتم جدا بكل حركة تبدر منه، وبكل كلمة تخرج من فمه،ويتصرف بشعور شخص موضوع تحت المراقبة، لذا فهو يقظ على الدوام .. فكل حركة من حركاته وكل طور من أطواره وكل تصرف من تصرفاته، مدروس تماما ومنضبط ومعتدل.. فنراه وهو في ذروة الحماسة في خطبه وقورا مسيطرا على نفسه في خضم شعوره الحماسي. وفي جو حماس الحماهير، وبعد أن تنحسر الحماسة تبقى هناك العبارات غير المناسبة التي تفوهوا بها وتكون مصدرا لإثارة المشاكل لهم، بينما كان الشيخ فتح الله كولن يرتقي المنبر ينشر جوا من الوقار والجدية فيما حوله، فلا يسمح لنفسه ولا للجماهير أن تبدر منه أو منها كلمة أو تصرف غير لائق. كان يشعر قبل خروجه أمام الجماهير بآلام تشبه آلام المخاض، وبالتالي يعتني عناية فائقة ألا يخرج من

[1] طرق الإرشاد، ص: 158-159-160-161

فمه أي فكر أو كلام لم يأت أوان ولادته. . وتزداد أهمية هذه العناية عندما نعلم أن الذين كانوا يستمعون لخطبه ومواعظه كتل كبيرة من الجماهير من مختلف الثقافات والمشارب والأطياف"[1].

المطلب الرابع: الواقعية

أ . اعتماد معطيات العصر ومخاطبة الجيل بلغة يفهمها

سعى الأستاذ في لقاءاته بالشباب في المساجد وغيرها إلى توظيف ما درسه من علوم العصر لإقناعهم والتأثير عليهم، "لأن مرشدي ومبلغي يومنا الحاضر بحاجة ماسة إلى متابعة ما وصل إليه العصر من علوم وفنون وتكنولوجيا ولو بشكل معلومات أولية،وبخلافه يظل إرشادهم إرشادا خاصا لا يشمل الناس عامة" [2]، بل سيكون خطابا يحاصر نفسه قبل أن يحاصره غيره، وعاجزا عن تجاوز العقبات للوصول إلى التأثير الإيجابي وتحقيق البلاغ المبين، يقول فتح الله كولن: "فلقد صرعوا جيلنا بالفيزياء وأركعوهم بالكيمياء وأنزلوا على رؤوسهم الشهب بالفلك، فيجب عليك أمام هذا الموقف ألا تقف مكتوف اليدين، بل هو دين عليك أن تأخذ بيد هذا الجيل مستعملا الوسائل نفسها لترفعه من كبوته وتضمد جراحاته المادية والمعنوية وتسمو به إلى الأعالي من جديد"[3].

ولذلك تجد الأستاذ فتح الله يتحدث عن قضايا إيمانية بلغة معطيات العلم المعاصرة عندما يريد بسط الموضوع للشباب، ويوجه إلى ذلك غيره قائلا:"المسألة التي نشرحها ابتداء للغارق في الإلحاد المضطرب في الكفر، ليس بفضائل قيام الليل والتهجد

[1] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 39-40-42

[2] طرق الإرشاد، ص: 111

[3] المصدر نفسه، ص: 112

بلا شك، بل تفهم له الأسس الإيمانية فهما ملائما لمنطقه العقلي وبأسلوب علمي حيث إن الكفر يرد في الوقت الحاضر من جانب العلم "[1].

إن المتأمل في دروس الأستاذ وخطبه ولقاءاته . كما سيأتي ذكر نماذج منها. يلحظ طريقة أسلوبه الهادئ، لاستناده إلى لغة الإقناع والحجة والمعطيات العلمية، يتحرى بذلك ربط الجسور مع مخاطبه، مستحضرا الجو الثقافي السائد. ذلك بأن "معرفة المخاطب هي الإحاطة بمستواه الاجتماعي وبناه الثقافي، هذه الحالة مهمة جدا من حيث فن التبليغ،فكما أن التبليغ والإرشاد وظيفة، فإن معرفة فن التبليغ وظيفة أخرى"[2].

ب . التركيز على الشباب

إن النظر إلى المستقبل لصياغة نماذج جديدة ترث الأرض وتحقق وعد الله، وتعيد للأمة مجدها، وتحيي تاريخها، يقتضي عناية خاصة بجيل الإحيائيين، وعناصر خميرة الانبعاث الحضاري وهم الشباب. "وقد أخذ الأستاذ الشيخ محمد فتح الله كولن حاجة الشباب بنظر الاعتبار، فصرف جهدا كبيرا في سبيل إزالة الشكوك من عقول الشباب والإجابة على الاستفسارات والأسئلة التي تحير عقولهم وذلك في خطبه في المساجد وفي مجالسه التي تنقلب في العادة إلى مجلس علم يطرح فيه السائلون ـ وأكثرهم من الشباب ـ ما يدور في أفهامهم من أسئلة لا يجدون لها جوابا"[3].

ج . حضور الصورة والأمثال

تكاد تكون هذه الخاصية سمة رئيسة لكتاباته ومؤلفاته، ولكنها حاضرة بقوة في دروسه ومواعظه[4]، فقد كانت مشاهد السيرة النبوية وصور الصحابة من أوائل ماعلق

---

1 نفسه، ص: 110

2 طرق الإرشاد، ص: 109

3 أسئلة العصر المحيرة، ص: 5 (من مقدمة المترجم)

4 الصفحات التالية من أسئلة العصر المحيرة :127-128-129-130-133-150-169-203

بذهنه و زين مساحة واسعة من ذاكرته، ولذلك ترسخ عنده ما للصورة من تأثير، ذلك أن الخطباء يتمكنون من وجدان المخاطبين وعقولهم و قلوبهم عن طريق الإبداع في تجسيد رسائلهم في شكل صور، "وإذا لم نكن نمتلك الصور فإنه من الممكن أن نثيرها في مخيلة الجماهير عن طريق الاستخدام الذكي والصائب للكلمات والعبارات المناسبة، فإذا ما استخدمناها بشكل فني لبق ، فإنها تستطيع عندئذ أن تمتلك القوة السرية التي كان أتباع السحر يعزونها إليها في الماضي"[1].

المطلب الخامس: كولن والبكاء

يكاد البكاء لا يفارق مواعظ كولن ودروسه، خصوصا عندما يتحدث عن غربة القرآن[2] أو الرسول صلى الله عليه وسلم[3]، وعن أمجاد الأمة التركية وتاريخها. يتميز بكاؤه بما يعقبه من دعوة إلى نفخ الإيجابية في المستمعين، والمبادرة إلى اتخاذ الموقف الفاعل الهادئ من قضايا الأمة.

يقول إبراهيم الدباغ: "ومما سيبقى مرتسما في مخيلتي لا يمحوه الزمان، ما رأيته في شريط فيديو من حال الأستاذ فتح الله كولن شيخ الدعوة وهو يعظ، إنه إذا ذكر الله قام فوقف، وإذا ورد اسم محمد صلى الله عليه وسلم على لسانه قام ووقف دامع العينين، يزفر زفرات الحسرة على أمة غافلة عن دينها، فتطرق إلى ما لاقاه ويلاقيه من خصوم الدعوة،ومن تهديدهم ووعيدهم، فقام من مكانه، ورفع يده إلى السماء في تضرع، وظل يردد الجملة: الله كافيني – الله كافيني... كرر هذه الجملة ما يقارب من عشر مرات يتوجع ويتألم بدمع غزير.. حتى سقط على كرسي الوعظ مغشيا عليه. إنه لا يبكي

---

[1] سيكولوجية الجماهير، غوستاف لوبون، ترجمة وتقديم هاشم صالح، ط2، دار الساقي،بيروت1997، ص: 116

[2] هندسة الحضارة، د. سليمان عشراتي، ط 1، دار النيل، القاهرة 2012، ص: 75

[3] موقع فتح الله كولن: www.fgulen.com

لنفسه،إنه يبكي لدعوته ويبكي إشفاقا على هؤلاء الخصوم الضلال. ليس ببكاء الضعفاء والمهزومين، بل هو بكاء الأقوياء الواثقين من صدق دعوتهم، هؤلاء الذين إذا بكوا هزوا العالم وأيقظوا فيه نخوته وشرفه وأريحيته، وكل خباياه من قوى الحق والصدق والخير والجمال"[1].

لقد كانت (بكائية) كولن تعبيرا صادقا عن دعوته إلى استهداف الوجدان والقلب لأنه يرى وجوب "مخاطبة قلب المخاطب عند التحدث إليه. كل جملة يجب أن تبدأ وتنتهي بالصدق والحب و صادرة عن القلب" [2]، ويوقن بأهمية الدعاء ومركزيته في التبليغ والهداية والتوفيق، ويضرب لذلك أمثلة من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم للآخرين وهدايتهم[3].

1 الضاربون في الأرض، ص: 86

2 أسئلة العصر المحيرة، ص: 68

3 طرق الإرشاد، ص: 164 – 165

المبحث الثالث: نماذج من أحاديث كولن ومواعظه

المطلب الأول: فقه التعامل مع المتساقطين في طريق الخدمة

سئل كولن : كيف نتصرف تجاه إخواننا الذين انحرفوا عن الدعوة وأصبحت علاقتهم بها باردة ؟

فأجاب :"هناك إخوان لنا فترت علاقتهم بالدعوة لأسباب شتى. ويمكن أن يقع هذا الأمر في كل وقت، ولكنهم مع ذلك يبقون إخوة مؤمنين بالنسبة لنا. وكل ما يستحقه المؤمن من منزلة واحترام حسب تعاليم القرآن والسنة يكون جاريا بالنسبة لهم وينطبق عليهم. إذن فالمقياس هنا ـ كما في كل شيء آخر ـ هو القرآن والسنة. لانستطيع أبدا أن نغتابهم، لأن الغيبة حرام، وتعد مثل أكل لحم الأخ، أي يستوي هنا قيامك بإهانته قولا أو فعلا وبين سلقه في قدر ثم أكل لحمه. هناك حالات تجوز فيها الغيبة، وكتب الفقه تشرح هذه الحالات بالتفصيل، إلا أنني لا أوافق على الاقتراب من تلك الحالات ومن تلك الحدود. فالقليل من الناس من يستطيع التصرف بتوازن في تلك الحالات، فليس من الصحيح قيام كل شخص باستعمال ذلك الحق و الاقتراب من تلك الحدود، هذه ناحية من نواحي هذه المسألة، أما الناحية الأخرى، فهي أن ما نقوله بحق ذلك الأخ سيصل إلى أذنه في يوم من الأيام، فيكون هذا سببا في ابتعاده عنا أكثر فأكثر.

ولكوننا نحن المتسببين في هذا، فالمسؤولية تعود إلينا. وليس هذا بالإثم الهين،ذلك لأنه ما من شخص يملك صلاحية إبعاد أحد وحرمان أي فرد من هذه الدعوة ومن هذه الخدمة الإيمانية المباركة. وقد لا يكتفي هذا الشخص بالابتعاد عن الدعوة التي كان في السابق يفديها بروحه، بل ينقلب عدوا لها. ولما كانت الخصومة للدعوة الحقة ذنبا كبيرا وعظيما فإن المتسبب في مثل هذه الخصومة سينال الإثم نفسه.

كثيرا ما يقوم بعض الناس بنقد الدعوة أو الخدمة التي لا يكونون ضمن دائرتها ويستهينون بها. فإذا أخذنا هذا بنظر الاعتبار فإن من الحكمة توقع جميع التصرفات من هؤلاء الأشخاص المبتعدين عن الجماعة وذلك بنسبة ابتعادهم، فذلك هو قدرهم المر وحظهم التعس. وهذه نتيجة مؤلمة، ولا نستطيع إلا الشعور بالرثاء والشفقة على أمثال هؤلاء. ووظيفتنا هي أن نتصرف كما كنا نتمنى أن تتصرف الجماعة نحونا لو كنا في موقفهم، أي لا نستكثر عليهم مثل هذه المعاملة.

والرسول صلى الله عليه وسلم كان يفعل الشيء نفسه، إذ لم يقل شيئا ضد من وقع في الزلل ـ في ذلك العهد ـ أو في الوهم، أو فقد قابليته على العمل أو أداء الخدمة. ولم يغتب أشخاصا كان يعرف نفاقهم أمثال عبد الله بن أبي بن سلول وقبل ظاهرهم، ولم يقل ضده كلمة واحدة مع أن الصحابة طلبوا منه قتله بعد قيامه بإشاعة حديث الإفك ضد أمنا عائشة رضي الله عنها، بل قال بأنه لن يجعل الناس يقولون بأن محمدا يقتل أصحابه [1].

ولو قمت بتدقيق جميع كتب الأحاديث لما وجدت لرسول الله صلى الله عليه وسلم في حق أي مؤمن أي كلمة قد تزعجه أو تنال منه، فإن استطعت العثور على مثل هذه الكلمة فإني سأتخلى عن كل ماقلته سابقا أو ما سأقوله مستقبلا. كلا لن تجد كلمة واحدة في هذا الخصوص. وهذا هو المقياس الذي يجب أن يكون مقياسنا لأنه مقياس لن يضل،أي يجب أن لا نغتاب إخواننا ولو بكلمة.

وإذا نظرنا إلى العلامة المفكر بديع الزمان سعيد النورسي، نرى أنه عندما ابتعد عنه بعض تلاميذه لفترة من الزمن ثم عادوا ورجعوا إليه مدحهم وركز على رجوعهم فقط وأثنى على مستواهم أثناء الرجوع، وهذا هو ما بقي في ذاكرتنا عنهم، بقي في ذاكرتنا أنهم رجعوا،ولكن كان من الطبيعي أن هذا الرجوع سبقه فراق وبعد، ولكن ذلك الزعيم الكبير

[1] أخرجه مسلم في صحيحه بلفظ: قال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق(عبد الله بن أبي)، فقال: " دعه لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه"، ج 8، ص: 19

الذي كان دقيقا جدا في جميع كلامه وتصريحاته ركز فقط على رجوعهم، ولم يكتب سطرا واحدا عن مفارقتهم أو ابتعادهم. ومع أن العديد من الأشخاص في عهده افتروا عليه وهاجموه، إلا أنه لم يقل كلمة واحدة صريحة تفيد الغيبة ضد أحد منهم ولم يذكر بصراحة اسم أحد منهم،لأنه عد هؤلاء الأشخاص إخوانا له من جهة الإيمان، ولم يقابل تهجمهم عليه بكلمة واحدة. وكون أي إنسان مؤمنا ومتخذا موقعه ضد الكفر، وفي النتيجة استحقاقه للجنة، ليس من الأمور التي يمكن التهوين من شأنها. لذا فكما نهرب من الأفاعي والثعابين، علينا أن نبتعد ونتجنب ونحذر من اغتياب إخواننا.

من الممكن النظر إلى المسألة من زاوية أخرى. فالعقوبات التي تطبق في الظروف الاعتيادية في الإسلام لا تطبق في جبهة القتال، أي أن من يسرق أو يزني أو يفتري في جبهة القتال لا تطبق عليه عقوبات هذه الأفعال. والحكمة من هذا، الحيلولة دون لجوء ذلك الشخص ـ وهو يحاول إنقاذ نفسه ـ إلى الأعداء. ماذا يحدث إذا التجأ إلى الجبهة المعادية؟ أما هو فيقع في خسران أبدي، أما نحن فنكسب عدوا يعرف جميع أسرارنا، وكلا الأمرين خسارة لنا. لذا كان من الضروري التعامل مع هؤلاء في منتهى الحكمة وبأجمل أسلوب.

مثلا قد يبتعد عنا أحد إخواننا بسبب الخوف أو بسبب الرغبة في منصب. لمثل هذا الشخص نستطيع أن نذكر بأننا نتفهم دواعيه وأنه أراد الحيطة، ونعم ما فعل، ولكننا لا نستطيع مجاراته في هذا. وهكذا فإننا لا نسد المنافذ إزاءه، فقد تتجدد علاقاتنا معه بعد سنوات. وقد يفهم الحقيقة فيما بعد ويرجع إلينا، فإن اعترف بأنه كان على خطإ وأننا كنا على صواب، عندئذ نقول له: (أنت محق الآن أيضا).

ثم يجب علينا أن لا ننسى أن الشخص الذي يغتاب إنسانا آخر يفقد ثقة المستمعين له. والجماعة التي تهتز فيها الثقة بين أفرادها لن تستطيع أبدا حمل أمانة الحق الثقيلة. ثم قد يوجد أشخاص لهم علاقات مع ذلك الشخص الذي تتم غيبته كوجود

قرابة أو مودة أو فكر مشترك، عند ذلك تثير هذه الغيبة حساسية لدى هؤلاء، وهذا لا يؤدي إلا إلى خسارة في جبهتنا. ثم إننا لا نقول اليوم كلما نريد قوله، فلنا كلام نقوله في الغد، فلا فائدة من قوله اليوم.

قد يقوم هو بالإساءة إلينا باغتيابنا، ولكن علينا ألا نقابله بالمثل، إذ يجب أن نكون بعيدين جدا عن الانتقام لكرامتنا الشخصية، أو نتورط في مسائل شخصية. يجب أن نفدي كل شيء في سبيل دعوتنا السامية. ففي الوقت الذي يهاجم فيه رسولنا صلى الله عليه وسلم ويفترى عليه وعلى الإسلام، لا نستطيع جعل كرامتنا موضوع الساعة، بل لانستطيع أن نجد الوقت حتى لمجرد التفكير في ذلك. إن أفضل معونة يمكن تقديمها اليوم لأي إنسان هي المعونة المقدمة لإنقاذ حياته الدينية. ووظيفتنا نحن هي الإسراع لنجدة إخوتنا وإعانتهم"[1].

المطلب الثاني: أزماتنا مشاريع عمل وإصلاح

سئل الأستاذ فتح الله كولن: كيف نستطيع صيانة أنفسنا من أخطار نزوات الشباب؟ فأجاب : "من أهم مشاكل إنساننا الحالي بقاء معظمهم تحت ضغط عواطف الشباب التي تؤثر على مشاعرهم السامية. وقد أصبح من الصعوبة بمكان القيام بتمثيل الإسلام وحقائقه مثلما أراده الرسول صلى الله عليه وسلم. ولكن هناك نواح إيجابية في الكفاح في مثل هذه الظروف، فكلما زادت الصعوبات وادلهمت الخطوب زاد ثواب العاملين وأجرهم.

ألم تكن قسوة الظروف التي أحاطت بنضال حمزة رضي الله عنه هي التي سمت به إلى مرتبة سيد الشهداء؟ ألم يشاهد قلة عدد المسلمين وكثرة عدد الكفار؟ ومع ذلك

[1] أسئلة العصر المحيرة، ص: 166 – 167 – 168

اندفع إلى القتال بقوة إيمانه ولم يعبأ بالموت. لقد كان هذا وسيلة للسمو به إلى مرتبة سيد الشهداء.

إن الآثام التي تزعجنا الآن كانت موجودة أيضا في عهد الصحابة. فالنساء كن يطفن حول الكعبة عاريات، وكان الخمر والرشوة والميسر والربا ينخر في جسد المجتمع. ولكن الصحابة أداروا ظهورهم لكل هذه الفواحش وتوجهوا إلى الإسلام. كانوا بشرا،يحملون مشاعر وغرائز البشر. ألم تكن تضحيتهم بكل أهواء النفس هي التي سمت بهم وجعلتهم أعظم العظماء؟ لقد هجروا الفواحش جميعها واختاروا سلوك حياة طاهرة وساروا خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرغم من جميع المخاطر التي كانت تحف بهم. فاكتسبوا فضائل كبيرة واستحقوا بذلك أن يكونوا نجوم هداية لمن جاء بعدهم.

وهذه المهالك والمخاطر موجودة اليوم أيضا. لذا فقد دعي مفكر القرن العشرين بديع الزمان سعيد النورسي يوما بـ (رجل عصر النكبة والفتنة والهلاك). ولو نادى الرسول صلى الله عليه وسلم جيل هذا القرن لقال : تعالوا، تعالوا يا جيل المهالك والمخاطر، لأننا إن تفحصنا السوق والشارع والحياة الاجتماعية والتجارية والفرد والعائلة والمجتمع والمدرسة المكلفة بإسناد كل هذه الوحدات الاجتماعية، وتناولنا جميع الهيئات والمؤسسات واحدة واحدة، وقمنا بإصدار تقييم حولها، لكان هناك وصف واحد فقط ينطبق على الجميع وهو وصف (سيئ جدا).

أينما تذهب أو تتجول لا تستطيع الحيلولة دون التلوث ببعض الإثم. لا تستطيع أن تعبر في الحياة الاجتماعية من جهة إلى أخرى دون أن ينثلم روحك عدة مرات ودون أن تتعكر حياتك القلبية.

إن العيش اليوم مسلما أصبح أصعب من الجمر. إذن فنحن جيل مثل هذا العهد المهلك المفجع. وأهواء النفس المركبة في طبيعتنا تترصدنا كالعقرب لكي تلدغنا. وهذه

الأهواء والشهوات تتغذى وتتقوى على الدوام من المحيط الفاسد الذي ولدت فيه وترعرعت. ومن المحتمل في كل آن وحين أن يقوم هذا العقرب بلدغنا وتسميمنا.

ومع كل هذا فإننا نتقبل هذه المغارم من أجل مغانمها، ونجد السلوى في المغانم التي تكسبها لنا، بل نفرح، ذلك لأننا في الوقت الذي نستطيع فيه تجاوز هذه المصاعب تكون مكاسبنا كبيرة بنفس النسبة. فإن كان الصحابة وفقوا إلى تجاوز تلك الشروط الصعبة،فاستحقوا أعلى المراتب، فإننا نأمل من صاحب الرحمة الإلهية سبحانه وتعالى أن يوفق المؤمنين الحاليين ويعينهم لكي يصلوا إلى السعادة نفسها. لا شك أن هناك أخطاء وذنوبا ارتكبناها دون قصد في هذا الزمن الذي تزاحمت فيه الآثام وسهل الدخول إليها والتلطخ بها، ولكن واجبنا هو عدم مفارقة باب الرحمة الإلهية والاستمرار والثبات.

واسمحوا لي هنا بسرد إحدى ذكرياتي كوسيلة للتعبير عن مشاعري. عندما كنت طفلا كان لنا كلب يقوم بحراسة أغنامنا وبملازمة باب بيتنا وعدم مفارقته. كنت أعجب من إخلاصه وألعب معه وأطعمه. لا أناقش هنا مدى الصواب في هذا من الناحية الصحية، وإنما أريد نقل بعض مشاعري. وذكريات الطفولة هذه كثيرا ما ترد على خاطري فأرفع يدي بالدعاء إلى ربي وأتضرع إليه قائلا: (اللهم كما كنت صديقا لذلك الكلب لإخلاصه فاغفر لهذا القطمير الواقف على بابك، والذي لم ينظر إلى باب غير بابك،اغفر له وارحمه). نحن نقر ونعترف بتقصيرنا ونواقصنا، ولكننا في الوقت نفسه نأمل من الرحمة الواسعة أن تغفر لنا. واعترافنا هذا إشارة من إشارات ندمنا وتوبتنا، والله تعالى يقبل الرغبة الصادقة في التوبة ولا يردها. كان هذا تلخيصا للواقع. والآن لنقف قليلا حول الأمور التي يجب الانتباه إليها.

أولا: يجب المشي بكل حذر على مثل هذه الأرضية الزلقة والخطرة من جميع الأوجه،فكما يتم المشي بكل حذر في الأراضي المزروعة بالألغام أو في مدينة للأعداء،كذلك يجب إبداء الحذر نفسه عند التجول في الأسواق والشوارع اليوم.

ثانيا: قبل الخروج إلى الشارع يجب الاستعانة بكل ما يصفي مشاعرنا وأحاسيسنا. قد يكون هذا قراءة أو مشاهدة أو الاستماع إلى شيء أو محاسبة عميقة للنفس، أي يجب أن لا نخرج قبل الدخول إلى مثل هذا الجو الروحي.

ثالثا: عدم البقاء وحيدا، بل الخروج دائما مع صديق يعيننا على نفسنا ويحفظ حيوية أرواحنا ويقظتها.

رابعا: علينا أن نصحب معنا في رواحنا ومجيئنا وفي الأماكن التي نبقى فيها قدر الإمكان المواد أو العناصر أو أي شيء له علاقة مع حياتنا الروحية ويقوم بوظيفة الصيانة والحفظ والتذكير. فهذه المواد تكون سترا يحجبنا عن الآثام وتكون وسيلة للمراقبة والتذكير الدائم. والشخص المملوء بمشاعر المراقبة والتذكير نادرا ما يقع في الإثم.

خامسا: عند اقتراف أي ذنب أو عند الوقوع في أي خطإ يجب الندم وإعلان التوبة حالا. لأن قلب المؤمن يجب أن يكون أقل القلوب حملا للذنوب وأقصرها مدة مكث. فالأخطاء فيه مؤقتة و زائلة، وهي كالغيوم التي تحجبنا عن الشمس فترة قصيرة، وكلما تأخرت التوبة كلما اسودت الأرواح وانفتحت السبل للذنوب والآثام الأخرى وسهل اقترافها. ومن ثم يجب الحيلولة دون ذلك والإسراع إلى اللجوء إلى رحمة الله تعالى ومغفرته مهما كان شكل الذنب وحجمه.

جاء أحد الصحابة مسرعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقد هاله أمر قائلا:(يا رسول الله، لقد هلكت، لقد أصبت من امرأة قبلة، فافعل بي ما شئت) [1]. فلم يجبه الرسول صلى الله عليه وسلم ولكن الوحي سرعان ما نزل بالآية الآتية . وكأن العرش اهتز أمام

[1] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب التوبة ، باب قوله تعالى : (إن الحسنات يذهبن السيئات)، ج 8،ص: 102، بلفظ: "أن رجلا أصاب من امرأة قبلة فأتى النبي صلى الله عليه وسلم، فذكر له ذلك،فنزلت: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ الآية 114. هود.

هذا القلب المنكسر. : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤ ﴾. الآية 114. هود.

أما صلاة التهجد فهي النور في عالم البرزخ. وهي من أسرع العوامل في محو السيئات، لأنك تتوجه فيها لربك في أحلى ساعات الليل المظلم البهيم بالدعاء والتضرع بقلب يتقلب بين الخوف والرجاء دون شك قبولا حسنا من قبل الله تعالى، ولكن بشرط أن يتم هذا التضرع والدعاء بإخلاص ونية صافية. ففي الوقت الذي يغفر لنا الله سبحانه وتعالى زلاتنا وأخطاءنا التي وقعنا فيها بين كل صلاتين عندما نقف بين يديه في الصلاة ونعلن له عبوديتنا له بكل خشوع، فإن علينا السعي لكسب رضاه بالنوافل والتهجد.

ففي الوقت الذي نرى أننا محاصرون بالآثام من كل جانب، ونحزن لهذا، نرى وجود إيجابيات تستطيع إزالة آثار تلك السلبيات. وحالنا الآن التي تشبه حال الصحابة تعطي لنا دافعا قويا للتشبه بهم. صحيح أنهم كانوا يحسون بأنفاس الوحي، إلا أننا إن أمكننا التخلص من قيود الزمان استطعنا أخذ أماكننا في الصف المحمدي خلفهم فنضمن بذلك خلاصنا. ندعو من الله تعالى ألا يخيب رجاءنا ... آمين"[1].

المطلب الثالث: من تجليات إحياء السنة جهود أهل الخدمة

سأل سائل أستاذه كولن فقال: هناك حديث نبوي يقول: «من تمسك بسنتي عند فساد أمتي فله أجر مئة شهيد»[2]، فهل توضحون كيفية تعلم السنة السنية وتطبيقها حسب شروط هذا العصر؟ فأجاب الشيخ الواعظ قائلا: "الكتب الموجودة بين أيدينا تناولت هذا الأمر بالتفصيل وبينت كيف أن السنة هي الطريق الموصل إلى الحق. أجل لقد قامت

[1] أسئلة العصر المحيرة، ص: 174 – 175- 176- 177

[2] قال فيه الألباني: ضعيف جدا، انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، محمد ناصر الدين الألباني، ط1، دار المعارف، الرياض 1992، ج1، ص: 497

السنة ببيان هذا الطريق وحثت عليه حثا كبيرا. ولو اجتمع آلاف الأولياء وآلاف الأدمغة وحاولت وضع طريق أو مبدإ لما بدت هذه الطرق ودساتيرها إلا كبارقة ضوء خافت أمام أضواء أصغر مسألة من مسائل السنة النبوية. لذا فما زال المئات من المرشدين والمئات من أهل الحقيقة يكررون المرة تلو الأخرى وينبهون بأن طريق السنة هو طريق الدين.

إن النبي صلى الله عليه وسلم الموجه والمراقب من قبل الله تعالى والمرسل إلينا ليعلمنا الحياة هو الذي شرح لنا كل شيء اعتبارا من الفروض والواجبات والسنن وصولا إلى المستحب والمباح وآدابها. جاء في أحد الأحاديث القدسية: (عن أبي هريرة قال: قال سول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه،فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع يه، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه)[1].

أي أن الله تعالى يريه الأشياء بشكلها وبوضعها الصحيح. ويوفقه لتقييم الأمور تقييما صحيحا، ويفتح له من كل شيء دربا إلى الحقيقة. فإذا رأى الهداية طار إليها وإن رأى الضلالة هرب منها، عندما يسمع صوتا يدعو إلى الحق يستجيب له ويبدأ روحه بالسمو. عندما يتكلم يوفقه الله لقول الحق. عندما يعمل يسوقه الله إلى الأعمال النافعة وإلى الخير والجمال. أي أنه يسوقه على الدوام إلى الطريق المؤدي إلى الجنة ولا يدعه لحظة لنفسه. ولأنه يهدف إلى الحصول على رضا الله تعالى في كل أعماله، فإن الله يحركه على الدوام ضمن دائرة مرضاته. لذا فإن الله تعالى جعل حياة الرسول صلى الله عليه وسلم والأشخاص المهمين الذين جاءوا بعده تحت مراقبته وسد أمامهم جميع الطرق الخارجة عن طريق مرضاته، وجعل طريق السنة هو الطريق الوحيد المفتوح أمامهم.

[1] أخرجه البخاري في صحيحه،كتاب الرقاق، باب التواضع، ح 1367، م4، ج8، ص: 482-483

والآن لا يوجد طريق غير طريق السنة يؤدي إلى الهدف بشكل مضمون لا شبهة فيه. لذا فمن الطبيعي أن يكون إحياء السنة عند انتشار الفساد، أي إحياء الطريق الذي يبين الفرائض والواجبات والسنن، والقيام بأي خدمات وجهود لجعله سالكا من جديد ومضمونا وآمنا حتى يوم القيامة، تعد خدمات وجهودا مقدسة ترفع أصحابها إلى مرتبة الشهداء، بل هناك العديد من بين هؤلاء من يحصل على أجر عدة شهداء في كل يوم من أيام عمره. أما الذين يحاولون من بين هؤلاء إحياء أركان الإيمان فهم يكسبون ثوابا أكثر من ثواب مائة شهيد.

أجل هناك مسائل من السنة السنية من أحيا مسألة واحدة منها كان له أجر مائة شهيد. فكما أن هناك نوعا من الغيبة يكون أشد من قتل إنسان أو من الزنا، لأن الغيبة التي تزرع الفساد في المجتمع وتؤدي إلى الاضطراب والفوضى فيه أشد من غيبة شخص اعتيادي، فهنا يكون الإثم أكبر من هذا الإثم الفردي، كذلك ففي المسائل التي دخلت فيها الأمة إلى الفساد وتعطلت جميع أجهزة الدولاب الإسلامي، فإن القيام بإحياء أي مسألة دينية في مثل هذا الفساد الضارب أطنابه في كل مكان سيكسب ثواب مائة شهيد أو ربما ثواب ألف شهيد.

أما إنجاز مثل هذه الأعمال في يوم مبارك وفي لحظة مباركة فقد يكسب صاحبها ثوابا أكبر. والله تعالى يذكر في القرآن الكريم أن الله يعطي ويزيد من فضله وإحسانه على من يشاء من عباده. نسال الله تعالى أن يجعل من نصيبنا الاستمرار في هذا الطريق بشكل دائم وأن يوفقنا إلى الخدمة بإخلاص.

نحن سعداء ومحظوظون جدا. فعندما يتم ذكر خدماتنا نقول: (إن الوظيفة الملقاة على عاتقنا إنما هي فضل وإحسان إلهي)، أجل فقد وظفنا في هذا العهد الذي اختلط فيه الحابل بالنابل بوظيفة مقدسة غالية. وإن إحياء هذا الدين بكل مؤسساته وبكل كادره وبكل جماعته عمل لا نظير ولا مثيل له في العالم. وهو من جانب آخر استمرار لوظيفة

الرسول صلى الله عليه وسلم ومتابعة لدعوته. وإن ظهور فخر الكائنات صلى الله عليه وسلم تنزلا منه في رؤى العديد من تلاميذه المعاصرين وزيارته لبعض مؤسسات الخدمة الإيمانية والقرآنية ليست إلا من كرامات السنة السنية وخدمة هذه السنة، وليست نتيجة أي ميزة شخصية لأي شخص.

وإن حصول الأشخاص والجماعات والمؤسسات على حصص أعظم من هذا الثواب على قاعدة: (الدال على الخير كفاعله) ليس إلا فضلا آخر من الله سبحانه وتعالى، وهو ما ينتظر منه ومن رحمته الواسعة الشاملة. ولكن إن لم يقم الذين أوصلوا الخدمة الإيمانية والقرآنية إلى هذا المستوى بالمحافظة على المستوى نفسه من الإخلاص والحماس ستؤخذ الأمانة منهم وتودع إلى آخرين، أي سيتم نبذهم ورفضهم. ونحن إذ ندرك ونقدر العناية الربانية نعرف بأننا إن بذلنا كل طاقاتنا وصرفنا كل جهدنا واستفدنا من اللطف والرعاية الإلهية فإننا نستطيع اجتياز الامتحان ونكون مظهرا لألطاف أخرى.

وكم نتمنى أن يستمر أصدقاؤنا حتى يأتيهم اليقين بنفس الهمة وبنفس الحماس والوجد في خدمة القرآن والإيمان... هذه الخدمة التي تكسب في كل آن ثواب شهيد"[1].

المطلب الرابع: الإنسان مصدر المشاكل والحلول

سؤال: تواجهنا مشاكل في مجالات شتى: سياسية واقتصادية...فكيف يمكن تجاوزها؟ أجاب عنه فتح الله كولن بقوله:

" المشاكل كثيرة ولم يخل زمن من المشاكل، ولكن المشاكل إذا كانت ستُحَلُّ يوما من قبل أفراد إن شاء الله، فإنهم سيكونون أفرادا بلا مشاكل. أفرادا حلوا مشاكلهم الداخلية بأنفسهم، لم تعد الدنيا مشكلة بالنسبة لهم، ولم يعد الزوج والولد مشكلة لهم. قال سبحانه وتعالى:﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ

[1] أسئلة العصر المحيرة: ص: 137-138-139

وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ﴾ الآية14. آل عمران. كل ما في الدنيا من فتن وعوائق كما ذكرها النورسي في (الهجمات الست)، كل ما هو عائق لكم من بنين ونساء. أو رجال بالنسبة للنساء. الجميع فتنة وابتلاء لبعضه البعض ما لم يستخدم في مكانه الصحيح. إن المرء إذا لم يتجاوز هذه المشاكل فهو مشكلة بحد ذاته، المشاكل الخارجية في الحقيقة نابعة من مشاكله هو.

الأرض عرفت (المشكلة مع الإنسان) مع الالتزام بالتوقير لمقام النبوة، نقول إن (المشكلة) جاءت مع سيدنا آدم، قبل مجيئه لم يكن للديناصورات التي عاشت على الأرض أي إشكال، لم يكن لوحيدي القرن ولا للفيلة أي مشكلة، ولم يكن للنبات إشكال مع الشجر ولا للشجر إشكال مع النبات. المشكلة ـ مع التوقير لمقام النبوة ـ جاءت مع آدم عليه السلام،الأرض تعرفت على (المشكلة) من خلال آدم عليه السلام.

لإزالة هذه المشكلة في بني البشر أرسل الله الأنبياء، وبالتربية والثقافة رفع الفرد إلى المستوى الإنساني وبدأت المشاكل تحل. الآن قبل حل المشاكل الكامنة في الإنسان يتم اللجوء لحل الإشكال الاقتصادي، لحل الإشكال الاجتماعي والسياسي، وكذا الإشكال المتعلق بالتربية والتعليم. ما دام الإنسان موبوءا بالمشاكل، فهو كمن أصيب بالأيدز،سينتشر الفيروس ويعدي الجميع، وكل محاولة لبناء شيء أو إصلاحه ستنتهي بالفشل. أعتقد أن دوركم هو حل مشكلة ذاتكم أولا ثم الانطلاق لحل مشاكل المجتمع،لذلك اسمحوا لي أن أعيد إليكم السؤال: هل يمكنكم القول بارتياح، إنكم حللتم مشاكلكم التي ذُكرت؟.

نعم. البيت لم يعد عائقا لكم، الحياة الزوجية والأولاد لم يعودوا عقبة لكم، الراتب كذلك سواء كان أو لم يكن، سأعمل حمالا لتغطية حاجاتي. لايهم، ذلك المنصب كان أو لم يكن،سأتسول وأنظف مراحيض المساجد لأعيش، لا مشكلة. إذا كنتم تجاوزتم أنفسكم إلى هذا الحد، إذا استسلمتم لله هكذا. كان تسليمكم توكلا وتحول التوكل إلى تفويض.

آنذاك أجزم أنكم حللتم مشاكلكم. ماذا أقول آنذاك؟ أقبل جبينكم وأقول سيروا على بركة الله. أنتم جاهزون للسير على بركة الله لحل المشاكل الشائعة في أطراف العالم. لن تبقى عندئذ مشاكل لا في الدولة ولا في المجتمع. لكن إذا كنا نتخبط في إشكال الراتب والأسرة وغيرها... يأتيني كثيرون فيقول أحدهم وكأن القيامة قائمة، لم أرزق بمولود يا أستاذ، لو دعوت لي؟ هاكم مشكلة. أو يقول فقدنا السكينة في البيت وأنا في شجار دائم مع زوجتي. إن أفرادا تعثروا بمشاكل بسيطة كهذه لا يمكن أن يحلوا مشاكل المجتمع، والذين يتصدون اليوم لحل هذه المشاكل متعثرون بمشاكل مثل هذه للأسف، وأقول إنهم ليسوا بأفضل منكم في حلها. نعم، هؤلاء من يتصدون لهذه المشاكل. كيف إذا كان الطبيب مريضا؟. ينطبق عليهم قول القائل: طبيب يداوي الناس وهو مريض، مريض يعدي المرضى بالمكروبات ويظن أنه يداويهم. إذن، فمهمتكم الأسمى هي أن تحلوا المشكلة التي عرفتها الأرض مع الإنسان، إذا حللتم هذه المشكلة، فسترون معنى (كما تكونوا يولى عليكم)، كما تكونوا، يكن وضعكم الاقتصادي والسياسي والإداري، وكما تكونوا، ستُدار أموركم. إذن، لا تبحثوا عن المشكل خارجكم. الإشكال الأساس داخلنا. وعندما نحله في داخلنا سيُحل في الخارج والداخل تلقائيا"[1].

المطلب الخامس: دعوة جنود الخدمة وحواريها إلى إزالة غربة الإسلام المعاصرة

قيل لكولن: "ذكرتم أن الإسم الجليل لرسول الله صلى الله عليه وسلم سيبلغ كل مكان تشرق عليه الشمس وتغرب فهل يعد هذا أمرا بالنسبة لنا؟ أرجو أن تشرحوا لنا الهجرة من هذه الزاوية. فأجاب : "إن هذا الكلام من أقواله صلى الله عليه وسلم، يقول

[1] www.hiramagazine.com: هذه موعظة ألقاها الأستاذ بإزمير تركيا في 14 أكتوبر 1995

صلى الله عليه وسلم: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار» [1]. وهذا يعني أن هناك أماكن في الأقطاب تشرق عليها الشمس وتغرب لمدة يسيرة تصل إلى نصف ساعة فقط،مع ذلك سيصل الإسم المحمدي إلى هناك، فذكر المكان يستلزم ذكر الإنسان الكائن فيه،مما يعني: أنه سيبلغ اسمي كل مكان به أناس يتتابع عليهم ليل و نهار. هذا الكلام خبر غيبي، وفضلا عن أن يكون خبرا غيبيا يعد بالنسبة لنا أفقا أرشدنا إليها وغاية نتغياها،وهدفا ننشده حيث يأمرنا قائلا: (بلغوا اسمي العظيم في كل مكان تشرق عليه الشمس وتغرب). فلأجل هذا البلاغ.. مجموعة على خيول بلا سراج ولا لجام غادروا أرض الحجاز عراة... أقول عراة بكل اعتزاز؛هؤلاء العراة – فداؤهم روحي – يسارعون على خيول ضامرة لتبليغ الإسم المحمدي الأعظم إلى جميع بقاع الأرض، هذه الحركة بلغ مداها مكانا ما عن مركزها ثم توقفت. تلك القوة المستمدة من المركز انتهت عند نقطة معينة وجمدت، تعبت السواعد التي كانت تحمل الراية.. فسقطت. اندحر الحصان، وفقد السلاح فاعليته فانثنى السيف وارتخى الخوف، ولم يعد السهم ينطلق من مرماه، توالت الأمور هكذا حتى وصلت إليكم. إنهم قد وصلوا بالدعوة إلى حيث يمكنهم أن يصلوا بها،فهنيئا لأرواح هؤلاء الذين أوصلوها إلينا نحن شعب آسيا، وتعذر على هؤلاء أن يصلوا إلى بخارى سنة 80 من الهجرة النبوية الشريفة، أو لم يستطيعوا أن يبلغوا بلاد ما وراء النهر سنة 40، إذ كيف كنا سنتعرف على الإسلام إن لم يتمكن هؤلاء المسلمون الأوائل من شرح الإسلام جيدا ولم يخاطبونا بما لم نفهم، فكيف كنا سنفهم الإسلام؟ ولكنهم لهم عمرا محددا، أكملوا أعمارهم الطبيعية وارتحلوا إلى الله، رحلوا وهم يؤدون وظائفهم، الآن ألقيت هذه المهمة على عواتقنا.. ولكن واأسفاه لم يصل الإسم المحمدي

[1] أخرجه الحاكم النيسابوري محمد بن عبد الله في المستدرك على الصحيحين، كتاب الفتن والملاحم،باب 34، ح8326، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ط دار الكتب العلمية، بيروت 2002، ج 4، ص: 477، بلفظ "مبلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل"

العظيم لكل موطن طلعت عليه الشمس وغربت، فأصدقاؤكم في أراضي سيبيريا والتي تصل درجة الحرارة فيها 30 و40 درجة تحت الصفر في أيام الصيف و 20 درجة تحت الصفر في أيام الشتاء، يبذلون جهدهم بكل الطرق والوسائل لينقشوا الإسم المحمدي العظيم هناك، وكأنهم ينقشونه على الجليد في بلاد الإسكيمو. لا أدري أهناك أناس يعيشون في القطب الجنوبي أم لا؟ على كل حال، سيصلون بالإسم المحمدي إلى هنالك وإلى كل أنحاء العالم،دعكم من هذه الأماكن وتوجهوا إلى ألمانيا مثلا، فإذا تجولتم في كثير من أماكنها فلن تسمعوا أصداء الأذان المحمدي هناك، ونفس الشيء سيحدث إذا طوفتم بكل أنحاء إنجلترا،فلن تسمعوه أيضا، ربما يوجد بها مساجد.. إلا أن مساجدها لا تحاكي مساجدكم،يؤذن المؤذنون فيها في أماكن مغلقة ولا يتناهى صوت الأئمة إلى الشوارع، وهناك لا تعج شوارعهم بتمتمات المصلين ولا تتلى الصلوات والتسليمات على رسول الله صلى الله عليه وسلم... ولا يقال الله أكبر، أحسست مدة إقامتي هنالك بمدى غربة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت في نفسي: قليلا ما تذكر هنا يا رسول الله،أظنك أنك تعيش هنا في غربة موحشة، تأملت في حال من سبقك من الأنبياء مع قلة مرتبتهم عنك، أنظر إلى أمريكا فأجد صوت داوود يعلو صوتك، وصوت سليمان يعلو صوتك، وصوت عيسى يعلو صوتك، وصوت موسى يعلو صوتك، روحي فداء لهذه الأصوات أيضا، لكن صوتا كان منخفضا كانخفاض لواء الفريق الذي لم يفز في لعبة رياضية، تكاد نفسي تتمزق حسرة لأن الإسم المحمدي العظيم لم يصل إلى هناك، هل نحن غير أوفياء؟ أم السابقون لعهدنا غير أوفياء؟ أم التاريخ غير وفي؟ أم المؤرخون غير أوفياء؟؟ لم أستطع أن أعرف من غير الوفي، ولكني أرى أن عدم وفاء الصديق يقع على جانب خصومة العدو، ولذا لابد من الوصول إلى كل مكان تشرق عليه الشمس وتغرب. ولو شئتم فاحملوا هذا القول على محمل الأمر من صاحبه، وإن شئتم أيضا فخذوه على أنه غاية من الخيال الذي يمكن تحقيقه، فقد قال لأمته: (اجعلوا هذا الأمر هدفا وغاية

وأوصلوه إلى هنالك) وإن شئتم فاحملوا هذا الأمر على أنه خبر من الغيب، لم يحن وقت تحقيقه، بمعنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر بشيء سيقع، ومادام الأمر سيقع لا محالة فإنني أرى أننا لابد أن نحاول إيقاعه وتحقيقه، وسيصحبه إن شاء الله فضله وشفاعة رسوله صلى الله عليه وسلم. سيعينكم الله، وينصركم بفضله وكرمه. فلو كنتم تريدون أن يؤخذ بأيديكم ويزال أشتاتكم، ويقضى على تشرذمكم فاعتذروا بهذا الأمر،اجمعوا شمل الإسلام المبعثر حتى يخلصكم الله من تشردكم ويساعدكم على تآلفكم ووحدتكم ويرفع من شأنكم بما أقمتموه من حق، ويضع الحق حيث يشاء ويعلي أصحاب الحق ومن يحقون الحق إلى المكانة التي أقاموا عليها الحق. لا أطلب منكم أكثر من هذا، فليس لي حق في الطلب،إنما أرجو أن تستمروا في العمل الذي بدأتموه حبا لله،وإكراما لرسوله، وتخليدا لتاريخكم المجيد، فليست هذه حادثة غريبة عنكم في تاريخكم،بل تكرر مثلها الكثير، وهناك الكثير من الأمثلة على ذلك. إنني أقول لكم أنكم إذا ما أقمتم حياتكم على هذا الطراز،سيتحقق هذا الأمر بنفسه بفضل الله وعنايته. لا تدعوا العمل الذي بدأتموه في المنتصف، لكي لا يبقى كأسطوانة مشروخة، أناشدكم الله أن تكملوا على اللحن، حتى لا يستمع إليه خلفكم ويقولون: لم يكتمل هذا الشعر.. لم يكتمل هذا اللحن، ولكن ليستمعوا وليترحموا على من أكمله، أكملوا العمل الذي بدأتموه إن شاء الله. فإذا ما عقدتم العزم على إنهائه، سيزيد الله عددكم ويكمل نقائصكم ويساعدكم على إتمام أمركم"[1].

[1] www.fgulen.com

الفصل الثالث

مؤلفات الأستاذ

محمد فتح الله

كولن

تقديـــم

لقد اتسمت كتابات الأستاذ محمد فتح الله كولن بالفاعلية والحركية حيث استهدفت مقاومة العطالة وإحياء فاعلية الفرد والأمة، ولذلك تعددت مجالاتها في اتجاه ترسيخ محبة الناس وإصلاح شؤونهم.

وكان تاريخ الأمة هو الحاضر الأبرز من حيث التذكير بوجوب الارتباط بجذورها المعنوية مع الاستفادة من معطيات العلم الحديث، ومن ثم السعي إلى انتفاضة معرفية تشرك معها حياة القلوب والأرواح، تستلهم النفحات المسجدية وتجربة التكهف، وتوظيف كرم الإنسان التركي ومجده الكبير، عند ما قاد الأمة لفترة غير يسيرة من تاريخها.

ومما أضفى على كتاباته الحركية والفاعلية كون كثير من كتبه كانت في أصلها دروسا ومواعظ ومحاضرات ألقيت في أزمنة متعددة وفي أمكنة مختلفة. ولذلك تميزت مؤلفاته بمجموعة من الخصائص جديرة بالمدارسة.

المبحث الأول: أهم خصائص مؤلفات الأستاذ كولن

المطلب الأول:الحركة والفاعلية

أ . فكر مغر بالحركية:

إن الدارس لكتب كولن يوشك أن يندفع لاتخاذ الموقف الإيجابي تجاه نفسه وما حوله،لأن "مؤلفاته ليست بالنمطية ولا بالتقليدية، بل هي استثناء فكري متفرد الخصائص،ومن أهم خصائصه أنه ليس بفكر صالوني استرضائي، يقرأه المترفون في جلسات استرخائية على أرائكهم الوثيرة، وهم يحتسون الشاي، بل هو فكر يقلب موازين الأفكار، ويشعل ثورة في الأذهان، ويطير من عيني قارئه النوم، ويحمله على البقاء يقظا متحفزا إزاء التيارات الفكرية التي تجتاح العالم، وتنهضه لكي يعلم ويحمل ويبني نفسه،ويقوم فكره.. وهو فكر محتشم يفرض احترامه على العقول، غير أنه مترع بالمشاعر، مفعم بمحبة الإنسان، يشيع في القلب هزة مؤلمة ولكنها ملذة في وقت واحد.

وما من أحد يتاح له النظر في إرث هذا الرجل الفكري إلا ويجد نفسه فجأة على مشارف أعاصير فكرية يتفطر عنها قلبه، وينشق عنها رأسه ..هو ـ أي كولن ـ من عشاق العاصف الفكري الذي يعصف بالعقول الرخوة والأرواح الهشة، ليس من أجل الإجهاز عليها،بل من أجل أن تتعلم منه القوة والعزيمة، فتستأنف النهوض، وتواصل المسير"[1].

ب . من العطالة إلى الفاعلية

إن كتابات الأستاذ تدعو إلى العكوف على الذات تنبهها إلى الوعي بضرورة التحرر؛ذلك أن " هذا العالم الإيماني الذي يبشر به كولن قد يبعث على شيء من الخوف عند الراغبين في دخوله لأول وهلة، لأنه يكلف صاحبه جهدا تصعيديا يعلو به من بين أشلاء هبوطه الذهني والروحي، ويحمله مسؤولية القبض بيد من حديد فكرة تحرير نفسه

[1] الضاربون في الأرض، ص: 37

والعلو بها من كونها نفسا معطلة غير فاعلة، إلى نفس فاعلة قادرة على الإتيان بجلائل الأعمال.

فالإنسان عند كولن إرادة فاعلة، وإن كانت تابعة للفكر عادة غير أنها قد تستبق الفكر في أحيان كثيرة، كما أن الإنسان ليس شيئا ثابتا لا يتغير، بل هو "كيان" قابل للتغير والانتقال من حال إلى حال، ولئن كان طموح المسلم اليوم متواضعا إلى درجة الانكفاء على النفس، غير أنه من الممكن أن يأتي ذلك اليوم الذي يستطيع فيه دخول العالم بثقة، والتعامل معه كواحد من بناة الحضارة والمساهمين في رفدها وتجديدها."[1]

ج . التطلع إلى انتفاضة معرفية

تتسم هذه الانتفاضة بالحيوية البانية، فتراه يحرض دون كلل على إحداث نقلة نوعية لصياغة البطولات داخل النفوس. يبين أديب إبراهيم الدباغ ذلك بقوله: " ففكر كولن استثنائي بكل المقاييس، وانطلاقي آفاقي يسعى إلى إطلاق النفوس من حبوس الزمان والمكان، وهو مهتم بالتمهيد إلى إنشاء معرفة كونية قرآنية الأصول بلا حدود، تكون قاعدة انطلاق الأفكار الدينية والعلمية.... وهو يكافح ويبلو البلاء الحسن في كفاحه ضد الخمود العقلي، والبرود الروحي، والشلل النفسي والنكوص الورائي، والهبوط اليأسي،والتردي الأخلاقي، والفراغ الثقافي والمعرفي، هذه الآفات التي تنهك الشعوب،وتقضي على حيويتها وتعطل طاقاتها،وتبدد آمالها، فمدرسة " كولن التربوية" تدرب الإنسان على استمرارية التطلع الوثاب الذي لا يقف عند حد وإشعال فتائل الانفعالات الذهنية والنفسية لكي لا تميل للكسل والراحة والدعة التي هي قبور للفكر ولحود للروح... ففضل فكر "كولن" يتمثل في قدرته على تحريك قوى البطولة غير المرئية عند الإنسان، وجعله يفكر جديا بتغيير نفسه إلى الأعلى دائما لأنه يمت بصلة ما إلى

[1] الضاربون في الأرض، ص: 40

الجوهر الصافي والعنصر الأصيل للإنسان المفطور ـ في أصل خلقته ـ على الانجذاب إلى نور الحقيقة أينما أبصر شيئا من أقباسها ..."[1].

ويقول أيضا في بيان حيوية هذا الفكر"... إن ما يجلب الانتباه في هذا الفكر الملتهب عند كولن، أن أفكاره إنما هي شرح وتفسير لأعماله، وأعماله إنما هي أفكار مطبقة أو هي في سبيلها إلى التطبيق "[2].

المطلب الثاني: تعدد مجالات التأليف

تنوعت المجالات التي صنف فيها كولن ، ساعده في ذلك تعدد مشاربه وتجاربه فقد "عكست السيرة العلمية لهذا الرباني الرشيد (فتح الله) نوعية العدة والتجهيز التي تصدى بها للردة، فبعد أن انخرط في سلك الوظيف الديني الرسمي باشر بطريقته المتبصرة مهمة التنوير، مصعدا في الآن ذاته من جهود ترقيته العلمية وتحصيله الذاتي في العلوم الأصلية والحداثية على سواء.. ـ مما يسر له أن يكتب ـ " في السيرة والتاريخ وفي الفكر والدين وبيداغوجية الدعوة والإحياء، وفي استراتيجية الانبعاث والتأهل الحضاريين، بل وعالج قضايا من صميم العالم العصري بتشعباته الاختصاصية وتوجيهاته الإبستمولوجية، مؤلفا ذلك في وجهة إيمانية إثباتية تحصينية، كاشفا في كل ما كتب عن سعة تعمق وأصالة تمثل رسوخ اطلاع على الآداب والثقافات والفلسفات العالمية ... "[3].

---

[1] الضاربون في الأرض، ص: 49-50-51

[2] المصدر نفسه، ص: 232

[3] الانبعاث الحضاري، ص: 89-90

المطلب الثالث: البعد الإصلاحي ومحبة الناس

أ . من خصائص فكر كولن الانطلاق من حب الحياة والأحياء

فهو منذ أن " خبر الحياة ووعى رسالته فيها، وهو يعمل دائبا من أجل قيام فكره على أعمدة من "الحب الإنساني" والتسامح الفكري و"التعاون الحضاري"، فالإنسان عنده طاقة خلاقة إعجازية ينبغي التعامل معه بإيجابية فاعلة لكي يستطيع أن يعطيه أفضل ما عنده،ويأخذه من أفضل ما عنده"[1].

وقد أكسبت هذه المحبة أعمال كولن وإنتاجاته موقعا متميزا لدى محبيه وحوارييه من الأتراك، مما جعل صوته " صوتا متفردا بين الأصوات، ليس كمثله صوت، قوي من غير شدة، نافذ من غير حدة، عال من غير صخب، هامس من غير ضعف، في كلماته جمال وجلال وفي نبراته لهفة واشتياق، وفي ثناياه ذهن يتوقد ذكاء، وفكر يتلهب سناء.

إنه ذلك الصوت المضيء الآتي من قبل الظلمة اليائسة، والطالع من سويداء العتمات الهالكات. أفكاره مضيئة وإن لم تمسها نار، وسانحاته مغدقات بالمعاني المبتكرات. إنه يدعونا لننفض عن أنفاسنا سواد الليالي الحالكات، ونغسل عن أرواحنا وهن السنين اليائسات،ويهتف بنا لنؤمن بأننا طاقة من طاقات القدر، وجند من جنوده،ابتعثنا لتغيير الإنسان وتشكيله من جديد"[2].

ب . ثمرات فن القيادة وأثرها في التصنيف

حيث إن الأستاذ استفاد من تجاربه في المنبر وفي إدارة المخيمات الصيفية في مؤلفاته فقد " باشر مطلع شبابه إدارة ملتقيات الفتوة، وتسيير المخيمات المدرسية، يكتب لها الميزانيات عن طريق التبرع والإحسان، ويوفر لها العدة ووسائل الإيواء والنقل والتموين

---

[1] الضاربون في الأرض، ص: 66

[2] المصدر نفسه، ص: 31

والتطبيب والتنشيط وسائر ما تتطلبه حياة البناء المركز من ضمانات السلامة والبهجة والمردودية التكوينية ما يجعل منها أفقا تكوينيا مفتوحا على الحياة ومعززا لأسس التنشئة السليمة، فاكتسب بيداغوجية إدارة المال والأعمال ، واستحكمت فيه قدرة استئلاف الطوائف من الفتيان والشباب وبذلك اكتملت لديه خبرة القيادة والسيطرة الحكيمة،وانضافت إلى ما احترفه من رئاسة منبرية كان يمارسها بوصفه إمام مسجد، الأمر الذي جعل الأداء الوظيفي والترشيدي، بل والمقاصد تتباين باطراد مع ما كان نظراؤه يؤدونه في مساجدهم، ويتوخونه في وظائفهم"[1].

ج . كولن ظاهرة إصلاحية

" كانت عقود الجهاد والتزكية قد أثمرت وهيأت له (فتح الله) الصيت الروحي الذائع،والمكانة الاعتبارية الراسخة بين أوساط المجتمع التركي، لقد تحول كولن إلى رمز بفضل صبره وديناميته وحكمته وثباته على الطريق، وتكيفه الموفق مع الوقائع، واقتداره على التعامل معها بالدقة والفطنة التي مكنته من النجاة وتحقيق الفاعلية... وبذلك أضحى يمثل ظاهرة إصلاحية تسجل الفتوح باستمرار، وتكسب الأشواط باطراد،وتستقطب الأتباع المتطوعين على الدوام" [2]. الشيء الذي جعله في "مقدمة الصفوف بين صفوة العلماء والمفكرين الأتراك الذين جعلوا من قضية الإصلاح والانبعاث همهم الأوكد، وشاغلهم الرئيس،يحدوهم إلى ذلك حس ديني يملأ الصدور، وإرث حضاري شواهده العينية الفخيمة لا تفتأ تستنهض الإرادات، وتذكر أهل النعرة بأمجاد الماضي وتشرع في وجوههم آفاق مستقبل معالمه مرسومة، إذ هو طريق مهيأ لأن يمضي بلا انقطاع ولا انحراف،ويسترسل وفيا للروح التي كفلت للأمة العزة التاريخية والريادة الحضارية في العالم على مدار عشرة قرون"[3]،ذلك لأن " التاريخ عند كولن ليس مجرد أحداث ووقائع، بل هو نوع من أنواع

[1] الانبعاث الحضاري، ص: 220

[2] المصدر نفسه، ص: 101

[3] نفسه، ص: 79

التربية الروحية والسلوكية، يحتاج المسلم أن يتعمقها و يتعقلها ويعتبرها ... فالاستعانة بتجارب الماضي ليس من أجل الإشادة به فحسب، بل من أجل البرهنة على أن الإنسان هو المحراب الكبير الذي يتعبد فيه التاريخ لخالق الزمان، وأن ما يعانيه المرء من محدوديات عقلية وروحية يمكن التخلص منها بتحوله إلى رحالة جوال في لانهائيات العالم والتاريخ ، فيزداد خصبا وسعة وإدراكا"[1].

المطلب الرابع: حضور الذاكرة التاريخية والنفحات المسجدية

أ . توظيف كولن لكرم الإنسان التركي

" فقد توجه الأستاذ فتح الله كولن إلى مشاعر الخير والمسامحة الثرة الكامنة داخل الإنسان التركي وحركها وأثارها، إن هذه التضحية للإنسان التركي مظهر من مظاهر فهمه العميق للإسلام، وهنا تكتسب رسالة فتح الله كولن أهميتها. فالشعب التركي كريم ومعطاء،وقد لاحظ فتح الله كولن عمق هذا الكرم والعطاء الموجود عند الشعب التركي،ولكن لكي لا يتم استغلال هذا الكرم استغلالا سيئا فقد اعتنى فتح الله كولن عناية خاصة بتوجيه هذه العواطف والمشاعر نحو المصالح العليا للمجتمع، وحث السير ضمن هذا الإطار باستمرار وبدون توقف ."[2]

ب . الملاءمة بين القيم الدينية ومعطيات العلم الحديث

يقول أنس أركنة:" مع أن فتح الله كولن إنسان محافظ مرتبط بقوة القيم التقليدية، إلا أن هذه القيم الثقافية التقليدية لم تكن مانعة له من التفاعل مع المدنية الغربية المعاصرة،لذلك نرى أن مبادرته ومساهمته كانت من الناحية الفكرية والنظرية ومن الناحية العلمية محتوية على تفاسير جديدة للفكر المحافظ وللفكر الحديث، ونرى أنه ـ سواء في

[1] الضاربون في الأرض، ص: 45

[2] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 15

نشاطاته الدينية والاجتماعية الأولى أم في نشاطاته في ساحة التعليم فيما بعد ـ كان يحاول إظهار عدم وجود تناقض أو صراع بين القيم الثقافية الدينية والحقائق العلمية بل وجود تلاؤم كبير بينهما،وأنهما يستطيعان تقديم خدماتهما إلى الإنسانية. ولم يحاول الأستاذ فتح الله كولن إخفاء هويته الدينية أبدا، لأنه حقق ذاته ضمن تجربة دينية وروحية عميقة، ورأى حكمة وجوده في التجربة"[1].

هذه التجربة دخلها الأستاذ فتح الله كولن ـ بهذه الأفكار ـ " وهو في الخامسة عشر من عمره، فقد كان شابا يافعا نضجا مبكرا، والحقيقة أنه لم يعش لا طفولته ولا شبابه،فبيئته المحافظة والمدرسة الدينية التي درس فيها، جعلته شابا ناضجا في وقت مبكر، إذ كان يحمل في قلبه تجربة روحية ومعنوية عميقة، وفي عقله نشاطا وحماسة كبيرة "[2].

ج . النفحات المسجدية

يقول سليمان عشراتي: " لقد تأبى كولن إلا أن يجعل من صحن المسجد مسكنه وموضع إقامته، بل لقد أبى في مستهل أطوار تدرجه في الدعوة، إلا أن يجعل من نافذة أول مسجد تولى الوعظ فيه، مقرا له، ومثوى يؤول إليه آخر النهار.

من جهة أخرى نرى أن كولن طفق يتوقف في كتابته مليا عند قصة أهل الكهف كما روى تفاصيلها القرآن، وطفق يستخلص منها شرطا سلوكيا يرى ـ الأستاذ ـ أن على كل منخرط في المهمة الدعوية أن يتمرس به.

إن تجربة التكهف، أي الأخذ بسلوك العزلة والعكوف في الخلوة، وتقييد النفس والروح ببرنامج مكثف يقوم على التدبر والتأمل في الملكوت والحياة هو ـ فعلا ـ استكمال لعدة الخروج إلى الدعوة، على الدعاة والمرشدين أن يشحنوا في البداية شحنات روحية

[1] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 35

[2] المصدر نفسه، ص: 36

مثل أصحاب الكهف، وأن يمروا بمثل هذه المرحلة. لقد اتخذ كولن من نافذة أول مسجد عين فيه،حراءه الخاص، إذ وجد فيه الصعيد الأمثل للهجرة والاعتصام مما كان يتلاطم الواقع حواليه من عواصف الردة والارتكاس"[1].

د . من خصائص نفسية كولن: عدم تصوير الباطل

إذ يقول: " أنا شخصيا لا أحب تصوير الباطل، ولكني لا أملك نفسي من عرض بعض المناظر التي تبين مدى فساد المجتمع في العهد الذي ظهر فيه الرسول صلى الله عليه وسلم."[2] ويقول: " ومع أنني لا أحب تصوير الباطل إلا أنني سأتناول ـ وأنا مضطر ـ بعض الأمثلة من الافتراءات الموجودة في هذه الكتب المحرفة "[3].

[1] هندسة الحضارة، ص: 23-24

[2] النور الخالد، ص، 311

[3] المصدر نفسه، ص: 523

المبحث الثاني: مؤلفات الأستاذ محمد فتح الله كولن

المطلب الأول: قائمة مؤلفات الأستاذ محمد فتح الله كولن[1]

" للأستاذ فتح الله كولن أكثر من خمسة وستين كتابا، تناول فيها القضايا الكبرى في الفكر الإسلامي ومشكلات العصر. بعض كتبه مترجم من التركية إلى أكثر من خمسين لغة منها: العربية والانجليزية والفرنسية والألمانية والروسية والإسبانية وغيرها من اللغات الحية،وله آلاف الخطب والمواعظ المسجلة إضافة إلى مئات المقالات المنشورة في المجلات والصحف داخل تركيا وخارجها، وله ديوان شعر بعنوان "ريشة العزف المكسورة"[2].

العنوان باللغة التر كية	العنوان مترجم إلى اللغة العربية (لا يعني أن الكتاب ترجم)	ملاحظات (الأجزاء .. الترجمة)
Sonsuz Nur … ĭn	سلسلة النور الخالد … محمد … مفخرة الإنسانية	(سبعة أجزاء ، في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم مترجم إلى العربية)
	الجزء الأول : النبي المرتقب	
	الجزء الثاني : من صفات الأنبياء	
	الجزء الثالث: عظمة الفطنة	
	الجزء الرابع: فن التربية	

[1] فتح الله كولن: قصة حياة ومسيرة فكر، ص: 130-131-132-133-134

[2] المصدر نفسه، ص: 128- 129

	و حل المعضلات	
	الجزءالخامس:الرسول صلى الله عليه وسلم قائدا	
	الجزءالسادس:العصمة النبوية	
	الجزء السابع : السنة النبوية	
Çag ve Nesil Serisi	سلسلة العصر والجيل	جمهرة مقالات الأستاذ الافتتاحية في مجلة سيزنتي من العام 1979 حتى اليوم (تسعة اجزاء)
1 - Çag ve Nesil	الجزء الأول : العصر والجيل	
2 - Buhranlar anaforunda insan	الجزء الثاني : الإنسان في دوامة الأزمات	
3 - Yitirilmis cennete dogru	الجزء الثالث : نحو الجنة المفقودة	
4 - Zamamim altin dilimi	الجزء الرابع : شريحة الزمن الذهبية	
5 - Gunler bahari soluklarken	الجزء الخامس : أيام تتنفس أنساما ربيعية	
6 - Yseren dusunceler	الجزء السادس : أفكار في طور الاخضرار	

7 - Isigin gorundugu ufuk	الجزء السابع : أفق يلوح منه النور	
8 - Ornekleri kendin bir hrkt.	الجزء الثامن : حركة نماذجها من ذاتها	
9 - Sükutun Çighklari	الجزء التاسع : ذوي الصمت	
Ruhumuzun heykelini dikerken serisi	سلسلة ونحن نقيم صرح الروح	جمهرة مقالات الأستاذ الافتتاحية لمجلة يني أميد (مترجم إلى العربية جزءان)
1 - Ruhumuzun heykelini dikerken	الجزء الأول : ونحن نقيم صرح الروح	
2 - Kendi dunyamiza dogru	الجزء الثاني : ونحن نبني حضارتنا	
Kalbin Zümrüt tepeleri serisi	سلسلة التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح	جمهرة مقالات الأستاذ حول تزكية الانفس) أربعة اجزاء
	الجزء الأول : التلال الزمردية	مترجم إلى العربية
	الجزء الثاني : التلال الزمردية	
	الجزء الثالث : التلال الزمردية	
	الجزء الرابع : التلال الزمردية	

Asrn getirdigi tereddutler serisi	سلسلة أسئلة العصر المحيرة	نخبة مختارة من مجموعة التساؤلات التي وجهت إلى الأستاذ في المساجد (مفرغ من الأشرطة، أربعة اجزاء)
A.g - 1 tereddutler -1	الجزء الأول : أسئلة العصر المحيرة	
A.g - 2 tereddutler -2	الجزء الثاني : أسئلة العصر المحيرة	
A.g - 3 tereddutler -3	الجزء الثالث : أسئلة العصر المحيرة	
A.g - 4 tereddutler -4	الجزء الرابع : أسئلة العصر المحيرة	
Prizma serisi	سلسلة المنشور الضوئي	دروس الأستاذ المسائية (مفرغة من الأشرطة، ثمانية اجزاء)
Prizma - 1	الجزء الأول : المنشور الضوئي	
Prizma - 2	الجزء الثاني : المنشور الضوئي	

3 - Prizma	الجزء الثالث: المنشور الضوئي	
4 - Prizma	الجزء الرابع : المنشور الضوئي	
5 - Kendi iklimimizi	الجزء الخامس : مناخنا نحن	
6 - Yol Mülahazalan	الجزء السادس : ملاحظات على الدرب	
7 -	الجزء السابع : بيدر الفكر	
8 - Çizgimizi Hecelerken hecelerken	الجزء الثامن : في تهجي خط سيرنا	
Fasildan fasila serisi	سلسلة الفصول	دروس الأستاذ المسائية (مفرغة من الأشرطة، خمسة اجزاء)
1 - Fasildan fasila	الجزء الأول : الفصول	
2 - Fasildan fasila	الجزء الثاني : الفصول	
3 - Fasildan fasila	الجزء الثالث : الفصول	
4 - Fasildan fasila	الجزء الرابع : الفصول	
5 - Fikir atlasi	الجزء الخامس : أطلس الفكر	

Kirik Testi Serisi	سلسلة الجرة المشروخة	دروس الأستاذ المسائية (مفرغة من الأشرطة. خمسة أجزاء)
1 - Kirik Testi	الجزء الأول : الجرة المشروخة	
2 - Sohbet-i Canan	الجزء الثاني : صحبة الحبيب	
3 - Gurbet Ufuklan	الجزء الثالث : آفاق الغربة	
4 - Ümit Burcu	الجزء الرابع : فنار الأمل	
5 - ikindi Yagmurlan	الجزء الخامس: غيث الأصيل	
6 - Diriliş Çagns:	الجزء السادس: نداء البعث	
7 - Ölümsüzlük lksiri	الجزء السابع : إكسير الخلود	
8 - Vuslat Muştusu	الجزء الثامن : بشرى الوصال	
9 - Kalb lbresi	الجزء التاسع : بوصلة القلب	
10 - Cemre Beklentisi	الجزء العاشر في ارتقاب الجمرة	
Tekcllüm Arapça Dil Ögrctim Seti	سلسلة تعليم العربية بطريقة حديثة	خلاصة جهود الأستاذ في تعليم العربية لطلابه (صدرت في منتصف

		السبعينيات، خمسة أجزاء
	الجزء الاول : تعليم العربية بطريقة حديثة	
	الجزء الثاني : تعليم العربية بطريقة حديثة	
	الجزء الثالث : تعليم العربية بطريقة حديثة	
	الجزء الرابع : تعليم العربية بطريقة حديثة	
	الجزء الخامس: تعليم العربية بطريقة حديثة	
cl-Kulubu'd-Däria (Yakaran Gönüller)	القلوب الضارعة	مجموعة الأوراد والأدعية، النص الأصلي باللغة العربية
Dua Mecrnuasi	مجموعة الأدعية المأثورة	مجموعة الادعية المأثورة المنتخبة من كتب الصحاح
lrşad Ekseni	طرق الارشاد في الفكر والحياة	مترجم إلى العربية
Kader	القدر في ضوء الكتاب والسنة	مترجم إلى العربية
Cihad	روح الجهاد وحقيقته في الإسلام	مترجم إلى العربية

Kur'an 'dan Idrakc Yansiyanlar	أضواء قرآنية في سماء الوجدان	نظرة بيانية تحليلية في بعض النصوص القرآنية، مترجم إلى العربية.
Ölçü veya Yoldaki lşiklar	الموازين او أضواء على الطريق	حكم ربانية مستقاة من الكتاب والسنة، وممزوجة بخلاصة التجارب، (مترجم إلى العربية)
Yaranhş Gerçegi ve Evrim	حقيقة الخلق ونظرية التطور	مترجم إلى العربية
Beyan	البيان	جمهرة مقالات الأستاذ الافتتاحية في مجلة يغمور (الغيث) الأدبية
Fatiha Üzerine Mülahazalar	تأملات حول سورة الفاتحة	
lnancm Gölgesinde	في ظلال الإيمان	
Kink Mizrap	ريشة العزف المكسورة	ديوان شعري جمع فيه جملة ما كتبه الأستاذ من قصائد وأشعار
Ölüm Ötesi Hayat	الحياة بعد الموت	
Varhgm Metafizik Boyutu	البعد الميتافيزيقي للوجود	
Çekirdekten Çmara	من النواة إلى الشجرة	كتاب في تربية الأولاد في الاسلام

Renkler Kuşagi	ألوان وظلال في مرايا الوجدان	تأملات لتجليات أسماء الله وصفاته في مظاهر الكون والوجود(مترجم إلى العربية
Kur'an'tn Alun lklirninde	في عالم القرآن الذهبي	
Enginligiyle Bizim Dünyamiz	عالمنا الفسيح	نظرة آفاقية في البعد الاقتصادي في الإسلام وحله لجميع مشاكلنا الآنية
Huzmeler ve iktibaslar	حزم وقبسات	
Röportajlar	مقابلات صحفية	
1 - Küçük Dünyam	دنياي الصغيرة	
2 - Ufuk Turu – Eyüp Can	جولة في الآفاق	
3 - Gurbene F.G. - Nuriye Akman	مع فتح الله كولن في ديار الغربة	
4 - Global Hoşgörü ve Newyork Sohbeti. - Nevval Sevindi	التسامح العالمي وحوار نيويورك مع الأستاذ فتح الله كولن	
5 - F. Gülen'Je 11 Gün M.Gündern	أحد عشر يوما مع فتح الله كولن	

المطلب الثاني: تعريف بمؤلفات الأستاذ كولن المترجمة إلى اللغة العربية

الكتاب الأول : " ونحن نقيم صرح الروح "

أصل الكتاب مقالات رئيسة منشورة في مجلة "الأمل الجديد" التركية، اختيرت وجمعت في هذا الكتاب. و" لقد كانت فواصل الزمن بين المقالة والأخرى مددا متفاوتة ،لكن المحور الفكري لها واحد وثابت لم يتبدل ، فهي تدور حوله وترفده وتغذيه، فليس الكتاب مقالات مبعثرة جمعت بين دفتين، بل سلسلة منضودة بتخطيط متقدم، ومكتوبة بتنسيق فكري هادف،ترسم حدود الإحياء والانبعاث في الفكر والدعوة"[1].

يهدف فيه المؤلف إلى الدعوة إلى التوجه نحو الإنسان والحياة والكائنات بتصور إسلامي واضح، وذلك من خلال عرض نموذج الإنسان الإيجابي؛ إنسان الإيمان الجامع بين العقل والقلب، والفكر والحركة.

"والكتاب تعريف وتحليل لنهضتنا الإصلاحية التي نقف على أعتابها. نهضة تتحقق في سياق عودة الشعب برمته إلى جذوره الروحية... فحين يسري في أبناء الشعب كله روح الإحياء ينبلج فجر الانبعاث بعد الموت أو النهضة العظمى، ويسترد شعبنا الأمانة التي ضيعها منذ سنين طويلة فيصنع من الدنيا زاوية جنة كما صنع في الماضي"[2].

يجمع الأستاذ في هذا الكتاب بين عقلية الناقد البصير لواقع الأمة، وأهم أسباب انهيارها الذاتية والخارجية القريبة والبعيدة، وبين نفسية المبشر بالمستقبل من خلال لغة الأمل الإحيائية، والنظرة إلى جيل يسميه (أطباء الروح والفكر) و(مهندسي العقل)؛ جنود الحركية) و (ورثة الأرض): العمود الفقري لتيار الخدمة. هذا التيار تتعاون في صياغته

---

[1] ونحن نقيم صرح الروح، (الكلام لمقدم الكتاب علي جولاق) ص: 5

[2] المصدر نفسه، ص: 7

كل طاقات الأمة ومختلف مدارسها واتجاهاتها حيث يصب سعيها الشوري في نهر حيا تها الخالد.

يركز الأستاذ على أهمية الرواحل القادة في تحقيق التجديد والإصلاح، لذلك أورد فيه نماذج من أطباء المعنويات والأئمة المرشدين بناة الأجيال، فخصص أزيد من عشر صفحات للأستاذ بديع الزمان النورسي. ومن ثم يعد هذا الكتاب " مرجعا تحت الطلب لا يستغني عنه جيل الإحياء والانبعاث أو من يسميهم الأستاذ (ورثة الأرض)"[1].

الكتاب الثاني: " ونحن نبني حضارتنا "

وهو من أهم كتبه التي تعرض فيها لنظريته في الإصلاح والتغيير والتجديد الحضاري، بدأه بذكر أهم أركان صياغة جيل الانبعاث وروافد تيار الخدمة، ودعا إلى ضرورة التحرر من احتلال المفاهيم للانسجام مع الاستقلال –استقلال تركيا– الذي ضحى من أجله المقاومون، وتوفير البيئة الصالحة لاحتضان مشاتل تتفتق عن فسائل العبقريات التي تنجز الحضارة ولا تكتفي باستهلاك منتوجاتها.

ومن ثم كان للذاتية مهمة مركزية في البناء والإصلاح الذي يستدعي تجديد مؤسسات التعليم والإرشاد، لعلاج الخلل الذي أحدثه تخلفنا وارتهاننا للتعليم الغربي وثقافته.

إنه لابد من النفير الشامل انطلاقا من ثقافتنا الذاتية وقد سقطت الإيديولوجيات . هذا النفير يحتاج إلى دراسة أسباب الفتور الاجتماعي العام، وتحديد الأهداف السامية للإصلاح عن طريق تنظيم الجهود الجماعية لتحقيق تيار الخدمة،باحترام المرحلية والصبر على بطء التغيير. ومن ثم السعي إلى إنشاء الإنسان المثالي عبر استنشاق عبق عصر السعادة؛ عصر الصحابة؛ فدائيي المحبة؛ الجامعين بين العقل والقلب والفكر والحركية، جيل الأمل الذي يؤمن بأن الإسلام يسكن المستقبل.

---

[1] ونحن نقيم صرح الروح، ص: 6

في سبيل استبانة حضارتنا يجب تحديد مصادرنا الثقافية الإحدى عشرة: (ـ الكتاب ـ السنة ـ الإجماع ـ القياس ـ الاستحسان ـ المصلحة ـ التصوف ـ علم الكلام ـ العرف ـ العادة ـ العمل).

تحتاج هذه العملية إلى الإخلاص وتلقي الأجوبة الشاملة من مشكاة النبوة والإنسان الكامل محمد صلى الله عليه وسلم الذي خصص له ثلاثين صفحة من الكتاب.

ونحن مدعوون إلى أن نزن ما عند غيرنا بأصولنا وذاتيتنا، عن طريق الحوار ،مركزين على الحركية والإيمان وسلوك سنن التغيير والإصلاح، متجنبين القعود وانتظار الكرامات،ذلك أن ترك العمل الصالح هو الغربة ذاتها وقد أمرنا أن نزيلها بحقيقة الدين وحيوية الإيمان. وهذا يفرض علينا اليقظة لكيد الأعداء، والشفقة على أبناء الإسلام العجزة، ومقاومة قطاع الطرق وناهبي الحضارة.

الكتاب الثالث : "طرق الإرشاد في الفكر والحياة"

يعد هذا الكتاب دستور الدعوة ودليل المرشدين؛ منقذي الإيمان ومجددي الروح؛حيث بسط فيه الأستاذ قواعد وأصول التبليغ بعد أن مهد بالتأسيس لوجوب النصيحة من خلال مبدإ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وفي الكتاب يتجلى عمق وأصالة النصح العام والخاص في مدرسة الأستاذ، وهذا يساعد كثيرا على استجلاء أهم عوامل إنجازات تيار الخدمة الإيمانية في تركيا وخارجها. وضع الأستاذ خلاصة لما أورده في كتاب طرق الإرشاد في خمس وعشرين قضية في صفحات أربعة ، وهذا على غير عادته في كتبه الأخرى .

الكتاب الرابع : " الموازين أو أضواء على الطريق "

والكتاب يستحق اسما آخر: حكم الأستاذ فتح الله كولن. وهو يوجه أبناء الخدمة إلى التأمل في صناع الحياة: الطفل والشاب والمرأة ، وفي قيم إنسان الأمة؛ إنسان البناء الاجتماعي الذي يملك مفاتيح الإصلاح الداخلي والتغيير الاجتماعي.

ترجع مادة هذا الكتاب إلى السبعينات من القرن الماضي ـ وهو في الثلاثين من عمره ـ حيث كان يكتب هذه العبارات الحكيمة ويودعها دفاتره الخاصة، إلى أن شاء الله تعالى إصدار مجلة "الرشحة " فصار يخرجها جوهرة جوهرة، وعمد الناشرون إلى ترصيع صفحات المجلة بها باسم مستعار وبغير اسم الكاتب أحيانا أخرى، ثم جمعت وأودعت كتاب "الموازين " أو" أضواء على الطريق "[1].

والكتاب ـ كما يقول عشراتي ـ " طرح تقعيدي لأفكار الأستاذ في مجال التوجيه والتربية الروحية والمنهجية التي ينهض بها لفائدة الطلاب والمحبين والأتباع حتى ليبدو هذا المصدر للقارئ أنه توصيف عملي للسيرة الأخلاقية والانضباطية كما عاشها الأستاذ في حياته، فمادة الكتاب ـ من ثمة ـ هي خلاصة تقويمية لتجربة الدعوة والحياة كما لابسها الأستاذ كولن، لذا جاء الطرح فيها يتميز بروح من الواقعية رغم كون المجال مجال مثل ومقاصد وتنظير "[2].

الكتاب الخامس: "حقيقة الخلق ونظرية التطور".

وهو عبارة عن محاضرات سابقة في السبعينيات رأى رفاق الشيخ ترتيبها في كتاب. وقد ناقش فيه الأستاذ نظرية النشوء والارتقاء التي هيمنت لسنوات على ثقافة أجيال بأكملها.

يتميز حوار الأستاذ لهذه النظرية بلغة هادئة قوية تستهدف محاكمة أهم الأسس التي بنيت عليها ومناقشتها بمقررات العلم ومعطيات الدراسات المتعددة، وكشف التزييف الذي سلكته بعض التوجهات المغالية.

يقول فتح الله كولن: " تستند محتويات هذا الكتيب إلى بعض مجالس السمر والحوار التي ضمت دائرة ضيقة من الأصدقاء والتي جرت في أواخر الستينات. أما

---

[1] البراديم كولن، فتح الله كولن ومشروع الخدمة على ضوء نموذج الرشد، د. محمد بابا عمي، ط 1،دار النيل، القاهرة 2011، ص: 35

[2] هندسة الحضارة، ص: 30-31

عرض هذه المحتويات على الجمهور بشكل محاضرة فقد كان في السبعينات. كانت المعلومات والوثائق والمصادر حول هذا الموضوع قليلة في تلك الأيام، بل تكاد تكون معدومة. فإذا أضفت إلى هذا قصوري الشخصي؛ توضحت معالم هذا الكتيب... لقد كان من رأيي أن لا ينشر هذا الكتيب في هذه الأيام التي نشر فيها العديد من الكتب القيمة حول هذا الموضوع، بسبب نقص هذا الكتيب، وعدم كفايته، والذي لم يكتب إلا للاستجابة لحاجة ماسة في السابق ... لكن عندما قام رفاقي في الفكر والدعوة ـ الذين أحترم آراءهم ـ بوضع هذا الكتيب الذي هو عبارة عن محاضرات سابقة أمامي بعد شذبها وتصحيحها لم أجد بدا من النزول على آرائهم وقبول طبعه" [1]. وذلك نظرا لما كانت تكتسيه نظرية التطور من أهمية كبيرة " فقد شهد القرن التاسع عشر ميلاد ثلاث نظريات أثرت في الحياة الإنسانية تأثيرا خطيرا وسلبيا وهي: النظرية الماركسية ونظرية دارون في التطور ونظرية فرويد في التحليل النفسي. ولعل نظرية التطور لدارون هي أخطر هذه النظريات،لأنها حاولت البرهنة على "حيوانية الإنسان"،وعندما يتم إثبات هذه الصفة الحيوانية في الإنسان ويدمغ بها فمن السهل قبول النظرية الماركسية التي ترى أن الهم الوحيد للإنسان هو حاجاته المادية ومايشبع بطنه. وكذلك يسهل قبول نظرية فرويد التي أرجعت جميع نشاطات الإنسان وغاياته إلى غريزته الجنسية.

وهناك ظاهرة تلفت النظر في موضوع نظرية التطور لأن هذه النظرية خرجت من كونها نظرية علمية قابلة للصواب أو الخط إ إذ تحولت إلى إيدولوجية يدافع عنها أنصارها،ولا يترددون حتى في القيام بعمليات تزوير مشينة من الناحية العلمية والأخلاقية،وهذا ما لا نراه في النظريات العلمية الأخرى."[2]

---

[1] حقيقة الخلق ونظرية التطور، محمد فتح الله كولن، ترجمة أورخان محمد علي، ط 5 ، دار النيل،القاهرة 2011، ص: 17

[2] المصدر نفسه، ص: 8

الكتاب السادس: " ترانيم روح و أشجان قلب "

هو مجموعة مقالات افتتاحية في مجلة (الرشحة) (sizinti) الشهرية، خاطب فيها القلب والعقل معا؛ فقد وقف مستلهما العبر والدلالات من خلال تأملاته في الكعبة المكرمة،والروضة المشرفة والمسجد الأقصى وأياصوفيا، ومناسبات العيد وإيحاءات المعبد،وعبرة الموت، وميلاد النبي صلى الله عليه وسلم ، وهجرته المباركة، وبركات القرآن الكريم. " وقد عالج فيه الأستاذ قضايا إيمانية عظيمة الأهمية بأسلوب أدبي رشيق يستطيبه وينجذب إليه القراء مهما كانت مستوياتهم الثقافية والفكرية "[1].

الكتاب السابع: " التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح "

رسم فيه الأستاذ طريق الترقية السريعة المضمونة نحو معارج المعرفة الإلهية،لذلك خصصه للتصوف وأهم مفرداته عند أهل السلوك؛ حيث شرح مصطلحات المتصوفة التي قد تثير جدلا بين المتحدثين عن هذه المدرسة.

ويتميز حديث الأستاذ فيه بالتوجه إلى معانقة الحياة لإصلاح شؤونها وبناء الإنسان الكامل. يقول مقدم الكتاب أديب إبراهيم الدباغ : " هذا كتاب يرسم فيه مؤلفه طريق ارتقاء القلب الإنساني في معارج المعرفة الإلهية التي هي أرقى معارف الإنسان قاطبة، وكل معرفة دونها مدينة لها وظل من ظلالها وأثر من آثارها. وقد استعان الشيخ في رسم معالم هذه الطريق بتجاربه الذاتية وبتجارب جمهرة من فضلاء من سلك هذه الطريق نفسها من عظماء الصوفية الملتزمين بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم"[2].

---

[1] ترانيم روح، ص: 5 من مقدمة أديب إبراهيم الدباغ.

[2] التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح، محمد فتح الله كولن، ط 4، دار النيل، القاهرة 2011،ص: 5

ولذلك هناك من عده "مدونة شخصية تكشف عن الجانب التعبدي للأستاذ كولن وتعطي صورة لحياته التبتلية" [1]، ومن ثم فإن " قارئها لا يلبث من أول وهلة أن يكتشف الروح العملية والتطبيقية التي تخرجت فيها تلك المحصلة من المعرفة الروحية الرياضية والتي طرحها الأستاذ بين أيدينا، بحيث أمكننا أن نرى فيها انعكاسا سافرا لسيرته هو في مضمار التنسك والارتياض"[2].

وعلى غير عادته فقد أهدى المؤلف كتابه إلى أمه قائلا : " إلى والدتي رمز وجودي السيدة الفاضلة رفيعة كولن الموقرة ".

الكتاب الثامن : " القدر في ضوء الكتاب والسنة "

عبارة عن أجوبة لأسئلة طرحها الشباب على الأستاذ في أماكن عدة، ثم سجلت في أشرطة وأفرغت في هذا الكتيب الذي حرص فيه الشيخ على اعتماد الأمثلة بكثرة لتوضيح إشكالات تتعلق بالإرادة الإنسانية من حيث علاقتها بالإرادة الإلاهية .

الفصول الثلاثة الأولى لهذا الكتاب: (ـ الفصل الأول: القدر بأبعاده المختلفة ـ الفصل الثاني: علاقة القضاء بالقدر ـ الفصل الثالث: علاقة القدر بالإرادة والهداية) "جامعة لسلسلة المواعظ والدروس التي ألقاها ارتجالا؛ العالم الجليل محمد فتح الله كولن،وسجلت مباشرة على أشرطة التسجيل ثم حولت إلى أسلوب الكتابة وعرضت على الأستاذ المؤلف الفاضل، وبعد إجراء التصحيح والتشذيب خرجت الآيات والأحاديث الشريفة.

أما الفصل الرابع من الكتاب ـ (أسئلة وأجوبة حول القدر) ـ فهو فصل الأجوبة عن الأسئلة التي وجهت إلى الأستاذ الفاضل بوسائل مختلفة وفي مواضيع شتى"[3].

---

[1] هندسة الحضارة، ص: 146

[2] المصدر نفسه، ص: 30

[3] القدر في ضوء الكتاب والسنة، ص: 7 – 8 من مقدمة الكتاب لصفوة سنيح

الكتاب التاسع: " روح الجهاد وحقيقته في الإسلام "

هو مجموعة مواعظ ألقاها الشيخ قبل سنة 1980 في جامع (بورنوا) التابعة لمدينة إزمير حيث كان واعظا هناك. سجلت هذه المواعظ على أجهزة التسجيل أولا، ثم حولت إلى لغة الكتابة ونشرت في الصفحة الأكاديمية لجريدة (الزمان) في حلقات.

والكتاب تعريف بحقيقة الجهاد، ووظائفه، وحكمه ،وثمراته، وأهم عوائقه، ليختمه الأستاذ بنماذج من عشاق الجهاد على رأسهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

قدم أحمد قورجان الكتاب للقراء قائلا : "فهذا الكتاب هو جزء من سلسلة المواعظ التي ألقاها أستاذنا المحترم في جامع " بورنوا" التابعة لمدينة إزمير، حينما كان واعظا هناك، فهذا الكتاب ليس إلا ما يخص الجهاد من تلك المواعظ. سجلت هذه المواعظ على أجهزة التسجيل أولا ثم حولت إلى لغة الكتابة، وبعد إجراء التصحيح عليها من قبل الأستاذ نفسه نشرت في الصفحة الأكاديمية لجريدة "الزمان" متسلسلة، وعندما تحول الأمر إلى كتاب وضعت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة بنصوصها العربية بعد تحقيق أصولها ومصادرها "[1].

تتبين قيمة ما ذكره المؤلف عن قضايا الجهاد عندما تستحضر أسباب وروده. يوضح هذا الأمر أحمد قورجان بحديثه عن الكتاب بقوله: " فيه إرشادات للمستشعرين بعظمة الدعوة إلى الله تعالى، ولا شك أن لهذه الإرشادات أهميتها القصوى، ولا سيما إذا أخذت بنظر الاعتبار الفترة الزمنية التي قيلت فيها هذه الأقوال وطرحت فيها هذه المباحث؛ تلك الفترة التي ضرب الإرهاب أطنابه في البلاد قبل سنة 1980.

نعم في الوقت الذي كان فيه الإرهاب يصول ويجول في البلاد، والبؤر الداخلية والخارجية تؤجج نار الفتنة وعشرات من الشباب يقتلون يوميا، كان من العبث التحدث عن الأمان؛ أمان النفس والمال، وقد تعطلت التجارة حتى عجز التجار عن الذهاب إلى

---

[1] روح الجهاد، ص: 12

محالهم باطمئنان، واضطروا إلى غلقها خوفا من الأخطار. إن سعي أستاذنا المؤلف المحترم لإبلاغ هذه الإرشادات القيمة، أو بث أنفاس الآمال المشرقة في هذه الفترة بالذات من منصة الوعظ في جامع " بورنوا" بإزمير، ماهو إلا تعبير عن النية الخالصة لإقرار الأمن والنظام والسكينة في هذه البلاد "[1].

الكتاب العاشر: " أضواء قرآنية في سماء الوجـدان "

أورد فيه الأستاذ خواطره ونظراته حول آيات من سبع وأربعين سورة من القرآن الكريم. وفي هذه النظرات نفائس دقيقة وجدت فيها الكثير من جوانب منهجه في الإصلاح والتغيير الاجتماعي.

يصف عبد الحليم عويس الكتاب بقوله: " وهذه الخطرات أو النظرات التفسيرية التي انقدحت في ذهن الداعية الكبير ليست منبتة الصلة بطبيعة المرحلة التاريخية والحضارية التي تعيشها أمتنا الإسلامية ولكنها نتاج هذه المرحلة بما تعج به من علوم ومعارف وتوجهات دينية وفكرية واجتماعية، وكأني بالشيخ وضع نصب عينيه حين نظر في كتاب الله، مقولة النورسي: إن الزمان أكبر مفسر للقرآن"[2].

الكتاب الحادي عشر:" أسئلة العصر المحيرة "

يتضمن أسئلة طرحها الشباب الحائر الذي حظي باحتضان الأستاذ، وإصغائه إليها، ومناقشتها والإجابة عن الإشكالات التي كانت تهم شباب تركيا خاصة، ولذلك جاء فهرست الكتاب عبارة عن أسئلة متنوعة مباشرة.

يقول أورخان محمد علي: "وقد أخذ الأستاذ الشيخ محمد فتح الله كولن حاجة الشباب بنظر الاعتبار فصرف جهدا كبيرا في سبيل إزالة الشكوك من عقول الشباب،والإجابة على الاستفسارات والأسئلة التي تحير عقولهم. وذلك في خطبه في

[1] روح الجهاد، ص: 10

[2] فتح الله كولن رائد النهضة الراشدة في تركيا المعاصرة، د. عبد الحليم عويس، ط1، دار النيل،القاهرة 2013، ص: 250

المساجد وفي مجالسه التي تنقلب عادة إلى مجلس علم يطرح فيه السائلون ـ وأكثرهم من الشباب ـ ما يدور في أذهانهم من أسئلة لا يجدون لها جوابا... قام بعض طلابه بجمع هذه الأسئلة والأجوبة عليها في أربعة أجزاء، قمت باختيار ما يكفي لإصدار كتاب واحد بحجم مناسب "[1].

يرجع تاريخ هذا الكتاب إلى بداية التسعينات من القرن الماضي، فقد ورد فيه قول كولن: " وأنا الآن في عمر 53 سنة عند كتابة هذه السطور، ومع ذلك لا أزال أذكر كيف أمسكت معلمة الابتدائية بأذني قائلة: " وأنت كذلك !؟ كلما تذكرت هذا المشهد تذكرت تلك النصيحة والأثر النفسي الذي تركه هذا التنبيه في ضميري"[2].

الكتاب الثاني عشر: النور الخالد محمد صلى الله عليه وسلم مفخرة الإنسانية

هو " مجموعة من سلسلة الخطب والمحاضرات التي خصصها المؤلف لشرح فقه السيرة، ودلائل النبوة وشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم. وكانت الظروف آنذاك تستوجب هذه الفعالية لتذكير الناس برسولهم، وللوقوف أمام فتنة الهجوم على السنة التي ذرت بقرنها في تلك الفترة (أي الفترة من 1989-1990)، ونظرا لأهمية هذا الموضوع،وحاجة المجتمع التركي الشديدة لمثل هذا الكتاب قام طلابه بجمع هذه الخطب والمحاضرات، وعرضوها على المؤلف الذي قام بالتصحيح والتنقيح، ثم قاموا باستخراج المصادر والهوامش. صدرت الطبعة الأولى للكتاب سنة 1992 والطبعة الثانية سنة 1992 والطبعة السادسة سنة 1997، تجاوز مجموع الطبعات خمسمائة ألف نسخة"[3]،وقد بيع من الكتاب باللغة التركية سنة 2013 ما يقرب من مليوني نسخة[4].

الكتاب الثالث عشر : "القلوب الضارعة"

---

[1] أسئلة العصر المحيرة، ص: 5 من مقدمة المترجم.

[2] المصدرنفسه، ص: 180

[3] النور الخالد، ص: 12

[4] أرباب المستوى، د. محمد بابا عمي، ط 1، دار النيل، القاهرة 2013، ص: 127

"(القلوب الضارعة) هو كتاب جمع فيه الشيخ محمد فتح الله كولن مختارات من الأدعية من مراجع مختلفة، ولا سيما من الأدعية التي أدرجها الشيخ ضياء الدين الكوموشخانوي ـ وهو من علماء العهد الأخير للدولة العثمانية ـ في ثلاثة أجزاء وسماها (مجموعة الأحزاب).

ورغم كل جهود الشيخ ضياء الدين، فإن كتاب (مجموعة الأحزاب) لم يخل من أخطاء في الكتابة والشكل كان يجب القيام بتصحيحها. ونجد شروحات وتصحيحات في هوامش الكتاب الذي طبع في مطابع مختلفة بتصوير نسخته المخطوطة، ويحتمل أن مؤلفه قام ببعض تلك التصحيحات بنفسه ولكن بعض الأخطاء ـ نتيجة للمستوى التقني للكتابة آنذاك ـ مازالت موجودة. وعند إعداد (القلوب الضارعة) بذلت كل الجهود في تصحيح هذه الأخطاء وتلافيها قدر الإمكان.

وهناك أمر آخر روعي أثناء إعداد هذا الكتاب، وهو أن أوراد بعض المشايخ والأولياء لم تدرج في الكتاب لكونها تحتوي ـ بطبيعة الحال ـ على تعبيرات تعكس أذواقهم ومشاهداتهم الخاصة وأحوالهم الاستغراقية مما قد يؤدي إلى سوء فهم مراميهم السامية من قبل جيل اليوم الذي يعاني من ارتباك في الذهن وتشتت في الاهتمامات"[1].

الكتاب الرابع عشر : " نحو عقيدة صحيحة "

يندرج الكتاب ضمن سلسلة أسئلة العصر المحيرة وقد ترجمه إلى العربية أورخان محمد علي وعبد الله محمد عنتر وهو من أواخر ما طبع من أعمال الأستاذ سنة 2014. جمعت فيه قضايا أهمت الشباب التركي، متعلقة بالعقيدة، طلب من فتح الله إبداء رأيه فيها. يقول الأستاذ في مقدمته " يتضمن هذا الكتاب المتواضع سلسلة من الأجوبة الارتجالية على أسئلة وجهت في مناسبات مختلفة وقد حوفظ فيه في غالب الأحيان على

[1] القلوب الضارعة، إشراف محمد فتح الله كولن، ط 4، دار النيل، القاهرة 2009، ي من مقدمة الناشر

الأسلوب الخطابي الكلامي. ورغم أن الكتاب قد خضع فيما بعد لبعض التصحيحات الطفيفة فإن أسلوب الكتاب وصياغته الأولى لم يتعرضا لأي تغيير. والأحرى أننا آثرنا عدم القيام بهذه العملية لصعوبة إعادة صياغة كل شيء من جديد ، مما نجم عن ذلك وجود بعض الغموض والقصور في التعبير. ولذا نرجو من قرائنا الأعزاء أن يأخذوا كل هذه الملاحظات بعين الاعتبارعند مطالعتهم لهذا الكتاب وأن ينظروا بعين الصفح إلى ما بدر منا من سهو أو قصور"[1].

"**الكتاب الخامس عشر: الجرة المشروخة... شد الرحال لغاية سامية**

وهو آخر ما صدر عن دار النيل من كتب الأستاذ كولن المترجمة إلى اللغة العربية عام 2014. الكتاب عبارة عن مجموعة دروس وجلسات فكرية وعلمية وإيمانية،قام بتنزيلها وتلخيصها وترجمتها فريق من الطلبة والباحثين، إذ يوردون في مقدمة الكتاب ويلخصون منهج عملهم وبعض الصعوبات التي تلقوها، وشيئا من قصورهم في فهم أفكار الأستاذ فتح الله كولن فيقولون:"... ها نحن نسمّي سلسلتنا هذه بـ"الجرة المشروخة" اعترافًا بعجزنا عن فهمه كما ينبغي، وقصورنا عن تشرّب ما يطرحه علينا من حقائق، وتقصيرنا في تسجيلها والاستفادة منها وإفادة الآخرين بها؛ ومرادنا بعنوان السلسلة المذكور الإشارة إلى أن ما نقدمه ليس إلا مرآة أصغر بكثير من أن تعكس عِلمَ أستاذنا الجليل وحياتَه الروحية والقلبية وزُهدَه وتقواه"[2].

يحوي الكتاب مقالات متنوعة مبنية على أسئلة مختلفة المجالات والأساليب، يتم طرحها على الأستاذ فتح الله كولن، "فيجد القارئ نفسه حين اطلاعه على أجوبة الأستاذ مرتحلا جوالا بين عوالم الروح السامية، ومرتقيا في فضاءات الفكر الأصيل، ليحط رحاله

[1] نحو عقيدة صحيحة، ص: 7

[2] شد الرحال لغاية سامية، ص : 12-13

عند توجيهات عملية تعينه في قراءة الحياة وسلوك مسلك الأنبياء والصالحين والعلماء المخلصين"[1].

ومن أهم القضايا التي تمت معالجتها في هذا الكتاب: معية الله والتضرع إليه،واغتنام المواسم المباركة للتأهل لاستنزال التوفيق الإلاهي، حتى تتكون أجيال الفتوة وبناة المستقبل ومهندسو الفكر عن طريق إحياء وظائف التعليم. كما عالج هذا الكتاب قضايا منهجية تتعلق بتفسير السنة والدعوة إلى تكوين لجنة لتفسير القرآن الكريم، وتناول الدعوة إلى مراجعة الماضي وإنجاز مشاريع المستقبل، وأهمية النقد والاستعداد لأنواع الابتلاءات وبيان محورية الاستغفار وأهميته في ذلك.

[1] hiramagazine.com

الباب الثاني

أسس ومنطلقات الإصلاح

في فكر الأستاذ

محمد فتح الله كولن

الفصل الأول

منطلقات الإصلاح عند الأستاذ محمد فتح الله كولن

تقديـــم

يمثل الإصلاح هدفا مركزيا وغاية محورية لرواحل هذه الأمة من مجدديها ومربيها وفق سنة الله في تجديد المجتمعات وبناء الحضارات. في سبيل ذلك تنافس العاملون في عرض مشاريع النهوض وترسيخ موقع الأمة، وتطوير فاعليتها والحفاظ على بوصلتها حتى لا تفقد قبلتها.

إحدى هذه المشاريع حملتها مدرسة الأستاذ محمد فتح الله كولن الذي أصر على تحقيق الشاكلة الحضارية للمجتمع التركي ومن حوله أمة المسلمين والبشرية جمعاء عن طريق التبشير بعالم جديد يتأسس على مصادرنا الأساسية لميراثنا الثقافي، وأُسها كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومن ثم ضرورة فقه الخطاب القرآني والبلاغ النبوي.

المبحث الأول: أسس ممهدات في نظرية كولن في الإصلاح

المطلب الأول: الانطلاق من أنفسنا سبيل علاج أدوائنا

1. الاعتراف بالانهيار الكبير وضرورة الرجوع إلى أنفسنا للإصلاح

ما فتئ الأستاذ محمد فتح الله يئن من سقوط العالم الإسلامي بقيادة العثمانيين ويصرخ لأجل استعادة المجد المفقود مع تأكيده على صعوبة المهمة، يقول في هذا الصدد:"فلقد تراكمت على ظهورنا الضعيفة آثام كثيرة وكثيرة جدا. فالمسلم المدرك في القرن العشرين ينسحق تحت هذه الآثام. نعم إنها ليست مسألة هينة بل عسيرة وجادة. لأن في آذاننا صرخات انهيار منذ ثلاثة قرون، فلن تهدأ هذه الصرخات بمعاناة ربع قرن فحسب. ولاشك أن المسؤول الأول في تردينا إلى هذا الوضع هو أنفسنا نحن، فلا نجاة إلا بأنفسنا كذلك. فسوف نضغط على أنفسنا ونضرم مشاعلنا بأيدينا ونتوجه إلى عناية الله، ونحقق هذا التوجه قولا وفعلا"[1].

2. عمق الإصلاح شرط الارتفاع إلى مستوى قوة التحديات

إن الكسب الحضاري السيئ الذي ران على قلب الأمة، أورثها ركاما من الاختلالات يصعب علاجها إلا بأخذ كتاب الإصلاح بقوة والتمسك بمشاريعنا التي نبدعها بمصادرنا الأساسية، يؤكد الأستاذ هذا الأمر بقوله: "ويبدو واضحا أن إزالة واقعة الانحراف هذه المزمنة والمستمرة بهذه الدرجة المشهودة في مسلمي القرون الأخيرة، وفي المرشدين المسلمين خاصة لن يتحقق بافتتاح بضع مدارس، أو عقد بضع مؤتمرات وندوات، ولا بمواعظ ونصائح مسكينة. إن إزالة هذا الانحراف الهرم، الماد جذوره إلى عصور خلت، الممد بالعلم والتكنولوجيا في عصرنا، بحاجة إلى اكتشاف أنفسنا من جديد،والعثور على ذاتنا وتعرفنا كرة أخرى على الشعور الإسلامي، والمنطق الإسلامي

[1] روح الجهاد، ص: 102

وأسلوب محاكمته العقلية وإلى حِمْية طويلة وهمة أصيلة وزمان كاف وصبر غير نافذ وأمل حيوي وإرادة صلبة وتأن بعد تأن، وبخلاف هذا،إن لم نجد أسلوبنا الذاتي ولم نبرح تخبطنا في البحث عن سبل الخروج من الحفرة التي سقطنا فيها انطلاقا من مواقع ليست التي وقعنا فيها، فإننا نخدع أنفسنا ونعرض الأجيال القابلة إلى الانكسار مرة أخرى.

لذلك لا مناص من إحياء الفكر الإسلامي والتصور الإسلامي من أجل الاقتراب من الوجود والحوادث بسياق إسلامي، وتقييم الأشياء كلها بمنطق إسلامي"[1].

3. حصانتنا في مناعتنا ومناعتنا في إسلامنا ورفض سراب الإيديولوجيات

لا مجال لإصلاح أحوالنا وتحقيق نهضتنا ما لم نمتلك ترياق طرق التخلص من عللنا وما "لم نتخلص كأمة من أسباب ودواعي انهيارنا وانحلالنا الحقيقية، مثل الحرص والكسل وطلب الشهرة وشهوة السلطة والأنانية والميل إلى الدنيا، وغيرها من الأحاسيس والمشاعر، ونتوجه إلى الحق بما يعد جوهر الإسلام وحقيقته كالاستغناء والجسارة والمحوية والاهتمام بهَم الآخر والروحانية والربانية، ونُصَفى بمشاعر الحق ونُصَب في قالبه"[2]، وكل ذلك بواسطة امتلاك جهاز المناعة الحضارية الذي يمنحنا سدادا في رؤانا؛مما يجعلنا موقنين أننا "بتجهيز روحيتنا من جديد بمبادئ القرآن وتعاليم السنة، تتهيأ كينونتنا للانبعاث والإبداع والبناء. في هذا الإطار، لامندوحة لنا من العودة إلى الإسلام،اكتسابا للحصانة من الاختراق. الإسلام كحليب الأم، له الدور الأساس في ضمان وتنشئة جهازنا المناعي"[3].

وإن من مستلزمات الحفاظ على جهاز المناعة، وجوب التحرر من احتلال مفاهيم الآخرين ورفض الاستلاب الحضاري حتى لا نكون مستودعا للآراء المصادمة للفطرة ومقرا للتصورات الدهرانية. يقول فتح الله : "فإن كنا الآن نفكر في إعادة بناء الذات من

[1] ونحن نقيم صرح الروح، ص: 18-19

[2] المصدر نفسه، ص: 30-31

[3] ونحن نبني حضارتنا، ص: 98-99

جديد، ونبحث عن أسلوبنا الذاتي الحضاري فينبغي أن نتخلص من احتلال المفاهيم والأفكار الغربية في داخلنا، والمبرمجة على تخريب جذور الروح والمعنى فينا، وأن نتبع ـ بالضرورة ـ سبيلا يمكننا من العمل على طبع فكرنا الذاتي ونظامنا الاعتقادي الذاتي وفلسفتنا الذاتية في الحياة، على نسيجنا الحضاري الخاص"[1].

هذا النسيج الحضاري الخاص هو ما تتطلع إليه البشرية التي تقف على مفترق الطرق بعد أن وقعت "واقعة سقوط المذهب الشيوعي وبعد أن تبين سراب وأوهام ما وعدت به الليبرالية. ولأجل ذلك وجب علينا أن نضع جانبا بلبلة التكوينات الجديدة في العالم. نحن لا نصدق بولادة شيء جديد من الهندام الرأسمالي القديم، أو أحلام الشيوعية،أو تكسيراتها الاشتراكية، أو هجين الديمقراطية الاجتماعية، أو خرق الليبرالية البالية. الحقيقة هي أنه إن كان ثم عالم مشرع الأبواب لنظام عالمي جديد، فهو عالمنا نحن، وسيتناوله الجيل القادم على أنه عصر نهضتنا نحن"[2].

ومن نتائج هذه الحقيقة البحث عن قناة خاصة تمر عبرها من بين العالمين ألحاننا و سياقاتنا التي تميزنا، وذلك بأن "نجعل مطالبنا مطالب العالم ورغباته ثم نجد مجرى حركة لنا في عموم الوجود ونسيل بذاتنا في مجرانا الخاص ضمن مجريات عموم الكائنات، ويعني الحفاظ على خطنا الخاص إذ نتكامل مع الكائنات كلها"[3].

---

[1] ونحن نبني حضارتنا، ص: 13

[2] ونحن نقيم صرح الروح، ص: 28

[3] المصدر نفسه، ص: 58

المطلب الثاني: الذاتية الحضارية منطلق صياغة مستقبلنا

1. معنى الكينونة الذاتية وأهميتها في البناء والإصلاح

يؤكد الأستاذ محمد فتح الله كولن من خلال استعمال ضمير الجماعة(نحن)على أهمية الوعي بالذات الحضارية التي تمثل البوصلة المحددة لاتجاهنا وتؤطر حركة وجودنا وتهتف بآمالانا ونصنع بها مستقبلنا، وهي خميرة نهوضنا من جديد، يقول: "إن المعنى الذي نقصده من (الكينونة الذاتية)هو إبراز هويتنا الداخلية المنسوجة من ميراث حضارتنا الذاتية وثقافتنا الذاتية، وجعلها المحور الذي ندور حوله، فلربما يفهم بعض الأوساط في أيامنا هذه كلمة(الذاتية) على أنها العروض الفلكلورية التي لا علاقة لها (بالجذور المعنوية)لأمتنا و(الغرائز) التي تطفح حينما تحس الكتل البشرية بالحاجة إلى إشباع نزواتها(الجسمانية)والمراسيم التي تقام في مناسبات الأكل والشرب والأعياد والأعراس.. لكننا نحن نفهم من تعبير (الذات) معنى أوسع وأشمل وأعمق، فهي ظاهرة أجرت فاعليتها في كل شرائح المجتمع ونفذت من ذاكرة الأمة وشعورها ووجدانها على مر الزمان إلى أن وصلت إلى عصرنا هذا، وانعكست على مشاعر الأمة وأفكارها ولسانها وتصوراتها الفنية وتمثلت فيها، وعشناها في أعرافنا وعاداتنا وتقاليدنا باعتبارها أهم عمق من أعماق الحياة في كل آن... فنحن نحس ونشعر بها في كل وحدة من وحدات الحياة، وفي كل صفحة من صفحاتها وكل مرحلة من مراحلها، وفي كل محطة من محطاتها...قد لا يدرك البعض على المدى القريب الفوائد العملية أو الاجتماعية للعيش في أجواء (محور الذات)، لكن من الطبيعي والبدهي أنه على المدى البعيد وبالإصرار عليه سوف تبدو الأهمية الحيوية له في مراحل التقدم كلها. وعلينا أن نواصل السير في إطار ديننا وتراثنا وأعرافنا وعاداتنا وتقاليدنا، مع أخذ ما يستجد من تفسيرات الزمان بعين الاعتبار، وبمرور الزمان ستكون قيمنا الذاتية جزء لا يتجزأ من طباعنا، وما نقتبسه من الخارج سيصطبغ

بصبغتنا و سنتبناه فيكون لونا مهما من ألوان الخطوط في نسيج أطلسنا الذاتي، الفكري والثقافي"[1].

2. (الذاتية) شرط البيئة الصالحة ومحضن العبقريات

إن المجتمعات التي تعاني من تشاكس المرجعيات تعجز عن توحيد طاقات أفرادها وتوجيهها نحو الصلاح والإبداع، باكتشاف ما كمن فيها من عناصر الإيجابية والخير وتوظيفها لصياغة مستقبل راشد، يوضح الأستاذ فتح الله كولن هذه العلاقة بقوله: "إن الحديث عن الوسط والبيئة العامة ما زال يَرِد حيثما كان يرد ذكر همة أصحاب الاستعدادات السامقة وجِدهم وجهدهم، بل كثيرا ما يظهر الدهاء والقابليات لأصحاب المواهب العظيمة والعباقرة السامقين بقدر ما تسمح به البيئة العامة. وتوقع ما يخالف ذلك غير مجد اليوم أيضا...

فبدهي أنه ما من أحد يقوى على تغيير قواعد "الشريعة الفطرية"، فالذي يناطح السنن الكونية كلها فسيخر منهزما، عاجلا أو آجلا. إن العبقرية في أرض غير أرضها محكوم عليها أن تكون كعصف مأكول، كما يحكم على البذرة بالفناء في أرض لا ترعى فيها بالهواء والماء والقوة الإنباتية.

إذن علينا أن نبحث عما نأمله لغدنا، في نقطة تتلاقى فيها البيئة الصالحة وعشق العلم وعزم العمل والبحث المنهجي. فإذا ما أثارت البيئة الصالحة العشق العلمي، وألهبت العزائم على السعي والإنجاز، فستشعر القلوب الحساسة بذلك في أعماق كيانها بعملية امتصاص خارقة، ثم تقومه، ثم تضعه موضع التنفيذ في إطار منهجية معينة. وبعد ذلك،تعمل "الدائرة الصالحة"للارتقاء بإلهامات وتداعيات وتركيبات وتحليلات

[1] ونحن نبني حضارتنا، ص: 21-22

جديدة...تعقبها . باستمرار واطراد . الجهود الفكرية والنظم المنسجمة مع مقوماتنا الذاتية،والمتوافقة مع رؤيتنا ومبادئنا الحضارية"[1].

3. التمسك بالذاتية سبيل غيرنا ممن غادروا دائرة التخلف

إن الوهن الحضاري قدر المجتمعات عندما تفرط في عوامل قوتها وعناصر نهضتها، ولاسبيل إلى الهجرة منه إلى قدر القوة الحضارية والوجود المعنوي الحقيقي إلا باستكمال شروط نقلة نوعية. إحدى هذه الشروط: الانطلاق من أصولها وجذورها المعنوية واستثمار كنوزها القيمية من تراثها، ووضع برامج وصياغة مشاريع اعتمادا على طاقات أبنائها واستنارة بأسسها العقدية والفكرية، وبدراستها لتجارب غيرها ممن كانوا مثلها. يقول الأستاذ محمد فتح الله كولن: "إن تخلف عالمنا عن اللحاق بما بلغته الدول المعاصرة،وعجزه ـ مع كده وجهده ـ عن تحقيق النهضة المأمولة، ليس بسبب الوضع الجغرافي لبلادنا أو نقص الإمكانات أوضعف القدرات والقابليات لإنساننا، بل لقصور عن فهم كنه التحديث ونقص في الفكر، والاكتفاء بالقوالب الفكرية النمطية كبديل عن حب العلم وعشق الحقيقة.

اليابان، يزيح عن أنظارنا ستائر كثيرة لنطلع على نواقصنا...وقد ظلت اليابان حذرة وانتقائية ومخلصة لهويتها القومية إبان تحقيقها التحديثات المتتالية وتبشير شعبها بوعود المستقبل المرفه، وأثناء اقتباسها من العالم ما تقتبس وأخذها ما تأخذ أو تركها ما تترك، فلم تستخف بتاريخها، ولم تلعن ماضيها، ولم تنكر جذورها المعنوية والروحية.. بل ما فتئت تفكر مليا في المهاوي السحيقة بين حالها المتخلف وبين الذرى التي تصبو إليها،وتُقوم الحال بعقلانية وواقعية، فخططت مشاريع قابلة للتطبيق، وآمنت بأنها ستحل معضلات التخلف كلها، بمنظومة اجتماعية تقوم ـ إلى حد كبير ـ على الأسس الأخلاقية،وملأت الفجوات الناجمة من نقص القدرات وزيادة الحاجات، بالاعتزاز الوطني

[1] ونحن نبني حضارتنا، ص: 15

والانتساب القومي والعز والحركة المنظمة الهادفة، وتنظيم المساعي والجهود، فنجحت في الاحتفاظ بهويتها الذاتية، وصارت أنموذجا يذكره التاريخ كشعب أنجز عجائب العصر"[1].

وهكذا فعلت شعوب كثيرة أقامت تقدمها على أساس الإنسان والأخلاق والتعليم والثقافة[2]، بعد أن أتى عليها حين من الدهر لم تكن شيئا مذكورا، ولم يكن إنسانها منتجا مبدعا ولا مجتمعاتها قوية مؤثرة ولا اقتصادها مزدهرا، و "جاءتها أيام فتحت فيها أبواب التجديد على مصاريعها بفضل ما كانوا يتمتعون به من شوق البحث وعشق العلم وحثيث العمل ومكافأة من وفقوا بأجزل المكافآت. فتحقق النجاح إثر النجاح مما أدى إلى فوران العزم وشحذ الشوق. وصارت البيئة عندهم مشاتل تحتضن فسائل العبقرية...فتتابع الاختراع، من مكائن البخار إلى مصانع النسيج، ومن مختبرات الأبحاث إلى المطابع،وبلغوا بعد مدة عصر العلم والعقول الإلكترونية"[3].

[1] ونحن نبني حضارتنا، ص: 17-18

[2] المصدر نفسه، ص: 18

[3] نفسه، ص: 14

المبحث الثاني: مرجعية الكتاب والسنة في فكر كولن

المطلب الأول: المصادر الأساسية لميراثنا الثقافي

ينتقد كولن الأفكار الداعية إلى نبذ الأصول الممثلة لجذور الأمة ومنابعها الذاتية،لأن في ذلك تعطيلا لهويتها وإفناء لماهيتها، كما يعيب على الذين يغلقون أبوابهم في وجه ما ينجزه الآخرون من خير وحكمة، ويرى أن المنهج السليم هو الانطلاق من مصادر المسلمين الأساسية ومرجعيتها الثابتة نحو التفاعل الإيجابي مع معطيات العقل والعصر. يقول الأستاذ فتح الله كولن: "ونلفت النظر إلى خطإ وقعنا فيه ـ كأمة ـ دائما؛وهو أننا ، بدلا عن جعل القديم أساسا متينا ليقام عليه الجديد، وتطوير القديم بمعطيات الجديد ، فصلناهما في أكثر الأحوال إلى شريحتين ربطناهما بحقبتين منفصلتين؛فأحيانا استعدينا بعضهما على بعض، وأحيانا أخرى عارضنا بينهما، فأدينا إلى حصول معضلات في الأسس؛ فإما قلنا: الجديد يشم عطره ثم يرمى في النفايات، والقديم يفوح كالمسك و العنبر كلما رجحته يتضوع، فأفرطنا في (واردات) حقبة من الزمان.. أو قلنا: لا نفع في مكتسبات عتيقة لزمان ولى؛ الخير في العالم الزاهي للجديد، و أهملنا تماما ذلك الجانب للزمان فأغفلنا مفهوم "الزمان الذاتي"، وتغافلنا عن البعد العالمي الكوني.

والحال أننا ملزمون بإعداد البيئة الطيبة لزمان ثقافي جديد يطور حياتنا الفكرية بتفسير ثقافتنا تفسيرا معمقا، وتقويمها تقويما دقيقا ـ ليس من أجل منطقتنا الجغرافية وحدها ـ بل من أجل تأسيس جسر متين ودائم بيننا وبين العالم المتحضر...

وثم أسس راسخة نجد أنفسنا ملزمين بأن نربط كل مضمون ومفهوم وأسلوب فكري وتغيير ومقاربة، بتلك الأسس. حتى إن الثقافة بألوانها المختلفة تحوم وتدور في

محيطها،وتنهل من مناهلها، وتتغذى بغذائها وتنمو بها، ثم تتحول بفضلها إلى حال فوق الزمان والمكان.

وهذه الأسس ـ باختصار ـ هي الكتاب والسنة... وبالإضافة إلى هذين العمادين ـ وفي إطار مرجعيتهما ـ التفسير والحديث وأصول التفسير وأصول الحديث والفقه وأصول الفقه.. ونخص بالذكر الفقه وأصول الفقه فهما ـ من حيث إنهما ثمار مساع حثيثة وكدح مضن، ومن حيث إنهما من غير مثيل أو شبيه لهما في التاريخ ـ منبعان لا ينضبان ومصدران قابلان للتوسع والثراء الرحيب بحيث إن الشعوب التي تمتلك هذين المصدرين،تعد مالكة لأهم الأشياء الحيوية. إن كل حضارة تفخر بقيم تخصها بالذات.. فالفقه وأصول الفقه من أهم وأبرز قيم حضارتنا نحن. وأحسب أننا لو كنا نحتاج إلى أن نصِف حضارتنا ـ باعتبار ماضينا ـ بصفة، لكان من الأنسب أن نصفها بـ (حضارة الفقه وأصول الفقه). حضارة الفقه وأصول الفقه المنفتحة أبوابها على مصاريعها للفكر والحكمة والفلسفة"[1].

بعد ذكر الكتاب والسنة تحدث الاستاذ محمد فتح الله كولن عن بقية المصادر التي يتأسس عليها الإصلاح الشامل وخدمة الأمة والإنسان عموما وهي: [2] ـ الإجماع ـ القياس ـ الاستحسان ـ المصلحة ـ التصوف ـ علم الكلام ـ العرف ـ العادة ـ العمل.

المطلب الثاني: من شروط الانتفاع بالقرآن الكريم

إن تجديد العلاقة بالقرآن الكريم سنة علمية درج عليها أولو الألباب من أهل الإحياء والإصلاح، وذلك لأن هذا " الكتاب الذي لن يستغني عنه أحد، لا الملائكة ولا الروحانيون ولا الجن، هو مصدر ميراثنا الثقافي الأول الأهم الفذ، الأوسع الأندى،الأعمق

[1] ونحن نبني حضارتنا، ص: 79 – 80

[2] المصدر نفسه، من ص: 87 إلى 95

الأنقى الذي لا يهدأ تلاطم موجه كالبحار ولكن من غير تكدر" [1]، و"هو الذي يفسر حقيقة الإنسان والوجود والكائنات ويمحص حقيقة الإنسان تمحيصا بالغ الدقة.. ويقوم الأشياء والحوادث تقويما بالغ الحساسية ودقيق التوازن"[2] .

ثم إن هذا الكتاب استطاع أن ينشئ جيلا فريدا ومجتمعا أنموذجا وحضارة راقية إنسانية حيث "استهدف تنظيم حياة مجتمع محظوظ، فرديا واجتماعيا وسياسيا وإداريا واقتصاديا وروحيا وفكريا.. و ـ بالفعل ـ حقق هدفه بحملة واحدة ونفخة واحدة وصار مصدر إلهام فريدا لانقلابات متشابكة حصلت في مجتمع بدوي، لكنه يعد أنموذجا يقتدى به في الأمم الحضارية. وهو ـ لمن يلجأ اليه ـ لا زال حتى اليوم سندا قويا وثريا ومقتدرا على تحقيق الأمور التي حققها".[3]

إن القرآن الكريم يستوعب بكلماته الزمان والمكان لأنه فوقهما ومصدره خالقهما خالق الانسان وكافي حاجاته، "إن الكتاب المعبر عنه بالكلمة المقدسة "القرآن" هو المجلي للبصيرة والمعمق للشعور والموسع للفكرة، وهو المصدر الثر بشكل يأخذ بالألباب،والكافي بمرونته لكل عصر بما فيه من مختلف أنواع البيان؛ من محكمه ومتشابهه ونصه وظاهره ومجمله ومفصله، وأيضا بإيمائه وإشارته وتشبيهه وتمثيله واستعارته ومجازه وكنايته وغير ذلك.. لكن الاستفادة من عظيم خيره منوطة بمقدار ما تتسع له العقول المنصفة"[4].

---

[1] ونحن نبني حضارتنا، ص: 86

[2] المصدر نفسه، ص: 83

[3] نفسه، ص: 85

[4] نفسه، ص: 82

1. الإقبال على القرآن بوصفه كلمة الله المنزلة وبدون أحكام مسبقة

إن استحضار دلالات "التنزيل" منطلق لتصحيح العلاقة بين الإنسان ومنزل القرآن، الرحمان الذي علمه البيان، ومن ثم تتيسر سبل الاهتداء به. ذلك أن "القرآن كتاب فوق الزمان والمكان. لكن انحراف النية والنظر أحيانا قد يسحبه من مقامه المتعالي إلى سجن الفكر البشري الضيق. فالناظرون من هذه الزاوية أو المنحرفون في أفكارهم لن يتعرفوا أبدا على أعماقه الخاصة به والتي تأخذ بالألباب.

فإن الأرواح الأسيرة التي كبلت فكرتها بالأحكام المسبقة، لن تحيط علما بأسرار هذا الكتاب المعجز ببيانه، ولن تهتدي إلى أفقه الإعجازي أبدا في أي عصر من العصور عاشوا. إنه أبدا كتاب ذروة في العلاء يتعدى آفاق البشر، وبيان لا مثيل له بتنوع تفسيراته وتأويلاته بطول موجات مختلفة، وذلك إنما ينجلي لمن يفتح صدره له بإخلاص وصدق. إنه إكرام إلهي مهم للإنسان، والتعرف عليه ثم اللجوء إليه في كل مسألة حظ فوق الحظوظ وجَد فوق الجدود"[1].

كل من يتأدب بين يدي الكتاب يدرك أن مأدبة الله تعالى يستفاد منها عندما تستحضر قمة كرم القرآن الذي يغني العالمين، حيث إن من يعرف آياته لا يحتاج إلى "مصدر غيره في المواضيع الأساسية المتعلقة بالإنسان والكون، والله، إلا في تفصيل مجملاته وتدقيقها".[2]

وكم من أناس حرموا من كنوز القرآن الكريم بسبب وضع الحواجز بينهم وبين هداياته، إما بالغفلة عن ربانيته، وإما بالتحكم في مجالات اشتغاله أو التقدم بين يديه.

---

[1] ونحن نبني حضارتنا، ص: 82 . 83

[2] المصدر نفسه، ص: 84

2. القرآن يخاطبك الآن

عندما تقرأ آيات القرآن الكريم وكأنها خطاب مباشر، عندئذ "يستطيع القرآن التعبير عن نفسه، ونستطيع نحن الاستفادة منه"[1]، و لذلك فإن "كل فرد ـ وهو يقيم علاقات عقلية ومنطقية وشعورية ووجدانية مع نفسه ومحيطه في زمان أو في مكان معين ـ يستطيع تلقي رسائل غضة وجديدة من القرآن ويحسها في أعماق نفسه. و بتعبير آخر فعلى الفرد أن يقول لنفسه: صحيح أنني لست بنبي، ولكن أشعر أن آيات القرآن البالغة ستة آلاف ونيف وكأنها قد نزلت علي. وفي نهاية المطاف أليس هذا هو روح القضية وأساسها؟ وهل يمكن حصر الله تعالى ـ حاشا لله ـ في زمن أو مكان معين؟ إذن فالقرآن الكريم الذي هو تجلي صفة الكلام عنده تعالى كما خاطب الرسول صلى الله عليه وسلم فكأنه يخاطبك ويخاطبني كذلك، ويخاطب كل من يأتي بعدنا. أي هو يخاطب الإنسانية جمعاء. وهذا الأمر مهم من ناحية شمولية القرآن وكونه فوق الزمان والمكان. وإلا فإن الإنسان ينظر إلى هذه الحوادث الواردة في القرآن وكأنها قصص ماضية. ومثل هذه النظرة في قراءة القرآن تقلل نسبة الاستفادة منه كثيرا[2]".

3. ترجيح العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب

يدعو الأستاذ محمد فتح الله كولن إلى إبقاء النص القرآني عاما يستوعب الأزمنة والأمكنة حتى يتمكن كل جيل من اكتساب ما تيسر له من كنوزه وحكمه وحتى تتحقق عالمية كلمة الله الأخيرة وخاتميتها وحتى يبرهن المؤمنون بأنهم مهتدون بهذا الكتاب،ومعتصون به.

أثناء تدبره الآية الكريمة ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ ﴾ الآية 114. البقرة، يقول: "إن حصرنا معنى هذه الآية بسبب نزولها وقلنا أنها تشير إلى

[1] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، محمد فتح الله كولن، ط 5، دار النيل، القاهرة 2010، ص:253

[2] المصدر نفسه، ص: 291

النصارى الذين كانوا يمنعون الناس من الوصول إلى بيت المقدس واستخرجنا منها هذا المعنى نكون قد ضيقنا واسعا. لأن سبب النزول يعد خاصا، أما الحكم فيكون عاما. وذلك في العديد من الأمور. إذن فالذين حاولوا صلب المسيح عليه السلام سواء في ذلك العهد أو في ما بعد يعدون أظلم الناس، كذلك الذين وقفوا بوجه الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديبية ومنعوه من دخول الكعبة، والذين ظاهروهم عليه، يعدون كذلك من أظلم الناس. وكذلك من يعطل الجوامع ومساجد الله. فمن يتدخل في الحياة الدينية للناس إلى درجة وضع الحظر على المساجد هو أيضا من أظلم الناس .. ومادام القرآن كتابا كونيا إذن يجب تناول هذه الآية وتفسيرها من جميع الأوجه، فهذا هو الأنسب والأكثر ملاءمة لروح القرآن.

يجب القيام بتقييم كل شيء حسب قيمته الذاتية، فهذا هو ما يستلزمه الحق والحقيقة، لذا كان من الظلم تقييم أي شيء دون أو فوق قيمته الذاتية. لذا كان الإفراط في التقليل من قيمة الشيء أو الإفراط في إعطائه قيمة أكثر من حقه ظلما كبيرا. لذا كان الشرك بالله من كبائر الظلم وعظائم الانحراف، وكان هدم المساجد أو غلقها وهي أماكن ذكر الله حيث منها تنطلق الدعوة إلى توحيد الله والتصدي للكفر يعد ظلما يلي في ظلمه ظلم الشرك بالله.

ولا شك أن مثل هذا الاعتداء على المسجد الأقصى يعد ظلما أكبر من الظلم الموجه للمساجد الأخرى، ويكون الظلم أكبر لو كان هذا الاعتداء موجها للمسجد النبوي،أما إن كان موجها للمسجد الحرام فهو ظلم وكفر وإلحاد خارج حدود التصور.

فإن نظرنا إلى هذه الآية التي نزلت في حق المسجد الأقصى من هذه الزاوية علمنا المعاني التي تحتويها الكلمات المختارة بكل عناية في هذه الآية. ثم إن الكلمة هنا لم تأت بصيغة المفرد، أي لم تأت بصيغة مسجد بل بصيغة الجمع "مساجد" مما تومئ

إلى عموم المسألة. إن جميع الظالمين في الشرق والغرب من المتجاوزين والمعتدين على حرمة المعابد سيطالهم هذا الإثم والظلم"[1].

4. ضرورة فهم الآيات ضمن كليات الكتاب

حتى لا يضل الفهم وينحرف المعنى المستفاد من نصوص القرآن، يتعين تدبر الآيات في سياقها ومدارستها ضمن إطارها العام من دلالات السورة ومثيلاتها، وضمن حقائق الإسلام الكبرى الثابتة. لأجل ذلك يحذر كولن من انتحال المبطلين وتأويل الجاهلين وتحريف الغالين والوقوع في إثم تجزيء الآيات وعزلها عن سياقاتها العامة والخاصة، مما يؤدي إلى "ظهور تفاسير واجتهادات منحرفة وخاطئة وتناقضات"[2].

أثناء مدارسته لقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الآية 64 . آل عمران. قال: "إن عدم معرفة سعة دعوة الاسلام ودعوة التوحيد وعمقها وسمة التدرج فيها حق المعرفة بمثل هذا القياس وعدم معرفة استراتيجيتها في بناء الجسور مع مختلف طبقات الشعب وأقسامه، والوقوع في فهم خاطئ في هذا الصدد، أدى الى ابتعاد الكثيرين عن الإسلام. وكانت النتيجة مظهرا مختلفا بل مضادا ومخالفا تماما لروح هذا الدين الذي يملك قوة جذب قوية تجذب الناس إليه. فمن جانب تم تشويه الرأي العام وتطلعات الجماهير، وسادت العجلة ـ التي هي من سمات الضعف البشري ـ كل شيء وأهملت قاعدة التدرج، والأهم من هذا أنه أهمل ترتيب الخطوات المتتالية المذكورة في هذه الآية، حيث تم البدء من نهايتها ومن فقرتها الأخيرة. وكانت النتيجة التورط في اتجاه اعتبرته الجماهير اتجاها منحرفا. ومن جهة أخرى تم الادعاء بأنه حتى المنحرفين عن الطريق الأحمدي سيدخلون الجنة، وذلك نتيجة لعدم فهم وإدراك معنى ومضمون هذه

[1] أضواء قرآنية، ص: 62

[2] المصدر نفسه، ص: 103

الآية الكريمة حق الفهم وحق الإدراك. مع أن الآيات ـ ومنها هذه الآية ـ إن دققت جيدا تبين بأنها تقيم فقط الجسور مع أهل الكتاب وتفتح الأبواب أمامهم. أما ما يتم بعد دخول هذه الأبواب فلا يصرح به، بل تقوم آيات أخرى بذلك. لذا لا يجوز لأحد أن يقول مشيرا إلى هذه الآية بأن أهل الكتاب إن آمنوا بالله وبرسولنا ولكن لم يسلكوا سبيل الرسول صلى الله عليه وسلم سيكون كذا وكذا. لأن مثل هذه الآيات هي لدعوة أمثال هؤلاء إلى سبيل الرسول صلى الله عليه وسلم، وبعد دخول سبيله هذا والولوج من باب قصره فإن ما يجب عليهم اتباعه غني عن البيان.

ومن أجل فهم الإسلام والقرآن جيدا واستيعابه ما يجب النظر إلى القرآن والسنة نظرة شاملة وفهم الأجزاء ضمن هذا الكل ووضع كل شيء في محله الصحيح.

فكما تتوجه خلايا الجنين في رحم الأم كل إلى مكانها الصحيح دون أي انحراف أو خطإ فلا تذهب خلية العين إلى الأذن، كذلك كان من الضروري وضع كل شيء في مكانه الصحيح عند تشكيل وإنشاء طرز الحياة الإسلامية.

وهذا يتعلق بفهم القرآن والسنة ضمن إطارهما الشامل والكلي وفهم واستيعاب كل جزء ووضعه في مكانه الصحيح. وإلا كان من المحتوم ظهور تفاسير واجتهادات منحرفة وخاطئة وتناقضات، وكذلك مثل تشوه الجنين في رحم الأم أو مثل حدوث حالات الإجهاض عند الولادة"[1].

5. الإقبال الجمعي على الكتاب والاستماع بأذن القلب

من أهم وظائف الكتاب العزيز إحياء الأرواح وإثارة العقول وفتح القلوب، وتزكية النفوس وتربية الأفراد والجماعات، وصياغة حضارة الرشد، وصناعة الحياة وتزيين الوجود، وتشريع نظم تمكن الناس من فن إدارة معايشهم، وتؤهلهم لربح معادهم. ولكي تتم الاستجابة لمقتضيات هذه الوظائف يتعين الدخول إلى عالم القرآن بأدب وصدق

[1] أضواء قرآنية، ص: 102-103

ويقين،وقلب منيب، وجمعية على نوره وعشق لهداياته. يقول الأستاذ محمد فتح الله كولن: "القرآن الكريم كتاب وعظ وإرشاد وذكر وتذكير، لكن الشرط الأساس للاستفادة من القرآن من هذه الجهة هو انفتاح القلوب نحوه، لأجل ذلك على القارئ أن يسدد نظره ويلقي سمعه نحو القرآن. وأن يتوجه إلى القرآن الكريم بكيانه كله. إذ من المحال الاستفادة من القرآن على الوجه المطلوب باتباع سبيل آخر. حيث إن من لا ينظم أطواره وفق هذا النسق لا يستطيع أن يرى الجهة المعجزة المنورة للقرآن، فلا يميز كلام الله عن كلام إنسان ما. ومن هبط إلى هذا الدرك لا يرجى منه أن يؤدي عملا ما باسم القرآن، لأن القرآن يعقب بعد قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ ﴾ بقوله:﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾،أي أن كلام رب العالمين، لا ريب فيه، ولكن لا يستفيد منه على الوجه المطلوب إلا المتقون. والمتقون هم أفضل الناس معرفة بالشريعة الفطرية. فكما لا يكون المهمل متقيا، لا يستفيد من القرآن أيضا، حيث إن قلبه قد مات، والآية الكريمة تبين ذلك ﴿ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾الآية 20 . محمد.

ترى ماذا سيفهم من القرآن ومن كلام الرسول صلى الله عليه وسلم من ينظر إليه نظر المغشي عليه من الموت؟ لا شيء قطعا. ولكن الذي يسدد قلبه نحو القرآن يستشعر بالحوادث التي تجري في الكائنات كنبضات قلبه. لماذا؟ لأنه أوجد وحدة بينه وبين الكائنات؛ فالذين لا يملكون القدرة على جس نبض الحوادث لا يقال عنهم أنهم يعملون شيئا كثيرا للإرشاد، إذ أن هذا الأمر ذو علاقة بكيفية النظر إلى القرآن ككل"[1].

ويدعو الأستاذ محمد كولن إلى الترشح للنظر إلى الآفاق والأنفس بعدسة القرآن الكريم ومن ثم امتلاك أهلية السمو الروحي الذي يقود إلى التفاعل العميق مع نور الكتاب المبين، مما يفسح المجال واسعا أمام تحولات نوعية حدثت في الماضي ويمكن أن تقع مرة أخرى، فـ "في العالم النوراني للقرآن يتغير الوجود والأشياء والطبيعة فجاءة، وتتحول

[1] طرق الإرشاد، ص: 96- 97

هذه الأمور وتأخذ صورا مختلفة، ويبلغ الإنسان وأحاسيسه المادية والمعنوية إلى أعماق غير معهودة، ويسمو العقل ـ بفضل ذلك البيان المعجز ـ إلى رؤية الأشياء على حقيقتها، ويتمكن القلب في جوه النير من التفسخ تماما فينمو ويتطور، والروح إنما يحلق بأجنحة وارادته، فيعلو إلى"عرش كمال" (كمال الروح).. يعلو إلى أن يربط كل شيء ب"سلطنة القلوب".

هذا ما حصل أمس، وهذا ما يحصل اليوم، وهذا ما سيحصل غدا. ويكفي لتحقيق ذلك أن يستشعر المومنون القرآن ويتشربوه بعواطفهم وحسهم وشعورهم وإدراكهم.. فيستشعروه غضا طريا صافيا نورانيا يؤجج مشاعر مخاطبيه كما كان في عهد نزوله.

والواقع أن الذين لديهم استعداد وقوة إحساس ظلوا يجدون في القرآن نفحات العشق والإثارة والشوق والاشتياق، وأن من أنصتوا إليه بأذن القلب انتفضوا دائما بنداء (الانبعاث بعد الموت) المسموع منه عاليا."[1]

6. روح التجاوب وقصد التجدد واستمرار الانبعاث

يحيل الأستاذ محمد فتح الله كولن على عصر السعادة حيث الصحابة كانوا يجددون حياتهم باستمرار كلما اغترفوا من معين الوحي، وقد بلغوا ما بلغوا بتجاوبهم الحي العميق المتواصل مع كلمة الحق التي تمت صدقا وعدلا، لقد أيقنوا أن الكتاب هو الذي ينفخ فيهم من روحه وجماله وهدايته.

ولذلك ترى الأستاذ في أحاديثه يذكر ـ بقوة وأساليب متنوعة ـ بضرورة الارتفاع إلى مستوى التفاعل البليغ مع الوحي، حتى يتحقق الإصلاح المنشود وتترسخ الخدمة المتوخاة؛ " كانت كل آية في عهد النزول كأنها صوت شلال هادر، وماء كوثر عذب متدفق كفوارات دائمة الانبجاس، وبالأحرى، كالفواكه في تباشيرها الأولى القادمة من عالم الألوهية. فكان المشتاقون الطافحون رغبة يجنون هذه الفواكه فور ظهورها بمنتهى

[1] ونحن نبني حضارتنا، ص: 106

الحماس، ويقدمونها لتقدير القلوب والأرواح ويتتابع التقديم والتقدير كرة بعد كرة بلا فتور ،ويقعد ويقوم أولئك المحظوظون كل يوم على هذه المائدة السماوية الآخذة بالألباب. فبفعل هذه الخطوة، كان أولئك المخاطبون المتدفقون حيوية، يعيشون . بزخات غيث الوحي الهاطل كل يوم على آفاقهم . "انبعاثات بعد الموت" متشابكة ومتداخلة كأنهم سمعوا صوت الصور من اللانهاية، فيغدو كل منهم خضرا، فينفخ روح الحياة في كل من يمر به، وكانوا يتسلقون ذرى حظوظهم السعيدة (بانبعاثات) تترى، في حيوية عظيمة دائمة،واشتياق طافح لا يستكين، ورغبات جياشة.

الله تعالى يناديهم إلى الانبعاث في العواطف والفكر والروح والقلب بقوله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ الآية 24 .الأنفال. وهم بدورهم يردون على هذا النداء من دون تردد فيقولون، ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ الآية 193 . آل عمران، ويهرولون لتلبية هذه الدعوة الإلهية.

إن سر حيويتهم الدائمة فيهم كامن في الجو الذي كانوا يعيشونه، فأولئك كانوا يستمعون إلى القرآن بقلوبهم ومن غير حكم مسبق، ويؤمنون به بإخلاص تام، ويتوجهون إلى الله في نور هذا الكتاب الجليل، ويحبونه من أعماق قلوبهم... وكانوا لا يتوقفون عند حدود الحب، بل كانوا يسعون ـ بكل شوق عميق ـ في سبيل تحبيبه إلى كل الناس وجعله مقبولا لديهم... ولم يكونوا يجمدون عند العلم المجرد مطلقا، بل يردفون العمل بالعلم من فورهم، ويضعون "التمثل" قبل العلم، ويحولون المعلومات وما حصلوه من معارف إلى قوة محركة، فيحولون علومهم النظرية إلى واقع عملي بيسر وسهولة"[1].

[1] ونحن نبني حضارتنا، ص: 107 – 108

7. نبذ الإسرائيليات حفاظا على صفاء المنبع

لقد أخذ كولن على بعض التفاسير استنادها إلى بعض الإسرائيليات التي أساءت إلى عصمة بعض الأنبياء والرسل، وانتقدها بوضوح مع الاعتذار لأصحابها، يقول: "إن علينا ان نعترف بكل أسى بأن بعض المفسرين تأثروا بالتوراة أو بمعنى أعم بالإسرائيليات واقتبسوا منها فأسندوا إليها مالا يصح الإسناد إلى نبي معصوم"[1].

وقد بسط الأستاذ القول في عصمة الأنبياء ورد الكثير من الأباطيل التي وردت في التوراة والإنجيل وناقشها.[2]

لأجل ذلك يرى "ضرورة إعادة النظر في جميع التفاسير والشروح والتعليقات غير المستندة إلى الكتاب والسنة. ومثل هذا التصحيح سيرضي حتى أولئك المفسرين حسني النية الذين كانوا ضحية للإسرائيليات، فمن يدري كم من فيوضات حرموا منها بسبب أخطائهم هذه".[3]

المطلب الثالث: توظيف الإعجاز القرآني لترسيخ ربانية الكتاب

إن أهم خطوة في سبيل الانتفاع بالقرآن الكريم هو اليقين بأن هذا الكتاب من عند الله تعالى، وقد سرت في الأمة ـ في إطار سلخها عن أصولها وقطعها عن جذورها ـ لوثة نزع القدسية عن كلمة الله تعالى الأخيرة، وإشاعة التعامل مع الكتاب وكأنه نص تاريخي بشري، بغرض زعزعة ثقة الشباب والمثقفين خاصة بربانيته.

من بين وسائل ترسيخ العلاقة مع القرآن بوصفه تنزيلا من حكيم حميد، توظيف إعجازه وتجلية مظاهره حتى ينطلق إليه الإنسان بقوة، ويذكر ما فيه، فيكون من المفلحين.

---

[1] النور الخالد، ص: 548

[2] المصدر نفسه، خصص القسم الخامس منه لعصمة الأنبياء، من ص: 512 إلى ص: 606

[3] نفسه، ص: 552

1. الإعجاز البياني

يقول الأستاذ محمد فتح الله كولن: "إن القرآن ذروة في البلاغة، ولا ند أو مثيل له في هذا الأمر. لذا لا يمكن عزوه إلى إنسان. عندما أعلن الرسول صلى الله عليه وسلم نبوته كان هناك العديد من الشعراء وأساتذة في البلاغة والبيان ممن كانوا محل إعجاب وتقدير الكثيرين، وكان أكثر هؤلاء في الصف المعارض له. وكم تشاور هؤلاء حول كيفية التغلب على القرآن، حتى إنهم أحيانا راجعوا رهبان النصارى وأحبار اليهود لأخذ وجهات نظرهم، لأنهم كانوا قد عزموا على إيقاف سيل القرآن وتجفيف نبعه الفياض، وكانوا مستعدين لعمل أي شيء في هذا السبيل. وعلى الرغم من جميع هذه العوائق استمر الرسول صلى الله عليه وسلم في سبيله يكافح الكفار والملحدين، وسلاحه الوحيد هو القرآن حتى وصل إلى النصر المؤزر رغم أنف كل هؤلاء الأعداء.

وبينما كان بلغاء العرب في جبهة واحدة مع علماء المسيحية واليهودية يقيمون الدنيا ويقعدونها، كان الأسلوب البليغ للقرآن وبيانه الساحر وروحانيته الأخاذة تفتح القلوب وتغزوها... وقف في الميدان يتحدى خصومه أن يأتوا بمثله، فإن لم يستطيعوا فليأتوا بسورة من مثله، فإن لم يستطيعوا فبآية واحدة، وإلا فانكسوا رؤوسكم وانصرفوا ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ الآية 88 . الإسراء؛﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾الآية 13.هود؛﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ الآية 38 . يونس. ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ الآية 23 ـ البقرة.

وهكذا تعاقبت التحديات ولكن لم يستجب أحد لهذه التحديات أو يتجاسر على قبولها، إن استثنينا محاولة أو محاولتين كان الهذيان طابعهما. وهذا يبرهن أن منبع القرآن

ومصدره ليس بشريا. ذلك لأن التاريخ يشهد أن خصوم الرسول صلى الله عليه وسلم وأعداءه لم يتورعوا عن أي شكل من أشكال العداء والإيذاء والمحاربة، ولكنهم لم يفكروا في تقليد القرآن، ولو استطاعوا ذلك، أي لو كان ذلك في وسعهم لما تأخرو ا عنه أبدا،ولأسكتوا بذلك صوت القرآن، ولما كانت هناك حاجة للدخول في الحروب...

وبعد ثبوت عجز البلغاء العرب من الإتيان بمثيل للقرآن، فإن البحث عن منبع للقرآن ومصدره في علماء أهل الكتاب من يهود أو نصارى بحث عقيم ودليل على العجز. ولو كان في مقدورواليهود والنصارى الإتيان بكتاب غني بمحتواه مثل القرآن لم ينسبوه إلى شخص آخر، بل كانوا يفاخرون الناس بمثل هذا الكتاب الذي وضعوه"[1].

2. الإعجاز العلمي طريق إلى الإقناع في زمن الثورات العلمية

أصبح للعلم سلطان كبير على العقول، بل يكاد يكون المفتاح الأكيد للدخول إلى عقول الشباب والمثقفين والعلماء في مختلف الأعمار، ومن ثم تعين امتلاك هذه الوسيلة وتوظيفها في خدمة القرآن الكريم مطلبا لدى كثير من المصلحين.

يقول الأستاذ كولن: "كم من حقيقة علمية عبر عنها القرآن بجملة واحدة وكم من بحوث تمت في ساحات عديدة فتبين أن الحقائق العلمية المستحصلة منها توافق ما جاء في آيات القرآن، وشوهدت هناك بصمته. ليس هذا الذي نقوله ادعاءا فارغا لا أساس له،بل هو حقيقة أظهرتها التجارب العلمية"[2].

ثم أورد محمد فتح الله أمثلة كثيرة[3]، أقتبس منها اثنين:

المثال الأول : قال الله تعالى : ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ الآية 22 . الحجر. هذه الحقيقة العلمية التي لم يتم فهمها إلا في هذا العصر ذكرها القرآن قبل أربعة عشر قرنا؛ إذ تبين أن الرياح تسوق

[1] أسئلة العصر المحيرة، ص: 84 – 85 – 86

[2] المصدر نفسه، ص: 73

[3] أسئلة العصر المحيرة، ص: 73 – 74 – 75 – 79 – 80 – 81 – 82

الغيوم الحاملة لبخار الماء ويصطدم بعضها ببعض فيتم انسياب الشحنات السالبة والموجبة وتحدث البروق. وتقوم الرياح بإنزال الأمطار من الغيوم وفي الوقت نفسه تقوم بتلقيح النباتات أي حمل بذور الذكورة لتلقيح بذور الأنوثة في النباتات، فتساعد على إتمام عملية التلقيح في النباتات. وترد في الآية نفسها أن الأمطار الساقطة من السماء تخزن في باطن الأرض، وبواسطة الآبار والعيون تتم الاستفادة من هذه المياه في سقي الأحياء من نباتات وحيوانات وإنسان. وهكذا يشير القرآن إلى هذه القوانين الطبيعية قبل أربعة عشر قرنا فيبرهن على إعجازه"[1].

المثال الثاني: قال الله تعالى ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ الآية 47 . الذاريات. الجمل الفعلية في اللغة العربية تفيد التجدد، والجمل الاسمية تفيد الاستمرارية. وجملة "وإنا لموسعون" جملة اسمية لا تتعلق بالأزمنة الثلاثة "الماضي، الحاضر، المستقبل". بل تفيد الاستمرارية، أي لا تقول: إننا وسعنا في الماضي ثم تركنا ولا تقول: أننا نوسع الآن ولا أننا سنوسع في المستقبل، بل تقول: " إننا نوسع على الدوام ودون توقف". ففي عام 1922 ذكر العالم الفلكي"هوبل" بأن جميع المجرات ـ عدا خمسا أو ستا منها ـ تبتعد عن الأرض بسرعة تتناسب طرديا مع بعدها عنا. وحسب حساباته فإن كان هناك نجم على بعد مليون سنة ضوئية يبتعد عنا بسرعة 168 ألف كيلومتر في الدقيقة،فإن نجما على بعد مليوني سنة ضوئية يبتعد عنا بض عف هذه السرعة، وأي نجم على بعد ثلاثة ملايين سنة ضوئية ستكون سرعة ابتعاده بثلاثة أضعاف هذه السرعة،وهذا يؤيد فكرة العالم الرياضي والراهب البلجيكي "لامتري" الذي ذكر بأن الكون في حالة اتساع دائم Expansion.

هذا المفهوم العلمي القائل باتساع المكان والذي لا يزال محتفظا بثقله في المحافل العلمية، ذكره القرآن الكريم قبل أربعة عشر قرنا. أمام هذه الحقيقة العلمية التي أعلنها

[1] أسئلة العصر المحيرة، ص: 73

أمي، كان من المفروض على المحافل العلمية أن تنحني إجلالا وتقول له: نحن تلاميذك"[1].

إن هذه الأمثلة تؤكد أن "هذا الكتاب لا يمكن أن يعود لإنسان عاش قبل أربعة عشر قرنا، لأنه لو حاول مئات من المتخصصين وآلاف من العباقرة اليوم لما استطاعوا الإتيان بمثله.. أي بمثل هذا القرآن الغني جدا بمحتوياته وبياناته وأسلوبه الإلهي الجذاب والمعجز.

والآن لنسأل مخاطبنا: ممن تعلم هذا الأمي . الذي كانت أميته معجزة . كيفية تكون الحليب لدى الأحياء في عهد لم تكن المدرسة معروفة فيه ولا الكتاب؟ وكيف استطاع معرفة أن الرياح تقوم بتلقيح الغيوم والنباتات؟ وكيف عرف كيفية تشكل الأمطار والبرد؟ ومن أي مرصد ومن أي تلسكوب عملاق رصد توسع المكان والكون؟ ومن علمه أن شكل الكرة الأرضية شكل بيضوي؟ وفي أي مختبر تعلم مكونات الجو، وأن الأكسجين يقل في الطبقات العليا منه؟ وكيف شاهد ـ وبأي جهاز أشعة إكس ـ مراحل الجنين في رحم أمه؟ ثم كيف استطاع أن ينقل كل هذه المعلومات إلى مخاطبيه بكل ثقة واطمئنان ودون أي تردد وكأنه خبير متخصص في هذه العلوم؟"[2].

ونظرا لأهمية توظيف المعطيات العلمية في خدمة دلالات القرآن يدعو الأستاذ كولن إلى استكمال شروط التفسير إضافة إلى فقه ما ينشئه العلم المعاصر، مع الحذر من المبالغة في تأويل النص القرآني بعيدا عن روحه ومقاصده الأساسية[3].

---

[1] أسئلة العصر المحيرة، ص: 74

[2] المصدر نفسه، ص: 82 – 83

3 شد الرحال لغاية سامية، ص : 124 – 125 – 126.

المبحث الثالث: فقه الحديث عند كولن

المطلب الأول: قواعد منهجية في دراسة كولن للحديث النبوي

تحدث الأستاذ كولن عن السنة وأنواعها وحجيتها ووظائفها وعن كتابتها وتدوينها،ثم عن أوعية السنة من الصحابة رضوان الله عليهم، وعن عدالتهم وطبقاتهم،وركز على مجموعة من المكثرين منهم، يرد بذلك على ما أثير في حقهم من شبهات قديما وحديثا. وألحق ذلك بكتاب (النور الخالد) تحت عنوان (السنة النبوية تقييدها ومكانتها في الشريعة الإسلامية)[1].

وقد اعتنى الأستاذ محمد فتح الله كولن بفقه الحديث من خلال مجموعة من القواعد من أهمها:

1. الإبقاء على سعة النص الحديثي وعدم تقييده بمدركات العصر، وذلك حتى لا يتم تأويل الأحاديث بما يجعل "أبطال الإيمان والقرآن مقنعي رؤوسهم حياء وخجلا من تأويلاتهم الفاسدة، ومن ثم فعلى كل مؤمن أن يتحرى الدقة في كلامه وآرائه عند حديثه عن الكتاب و السنة ومسائلهما" [2]، ومن ثم يدعو كولن إلى عدم الاستعجال أثناء شرح حديث الرسول صلى الله عليه وسلم وعدم التضييق على ألفاظه؛ "إن بعض الناس يؤولون الآيات و الأحاديث على عجل دون تدبر مدعين أنهم يقدمون أمورا علمية نافعة، فنراهم يؤولون حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم "فر من المجذوم كما تفر من الأسد" [3]بأن جرثومة الجذام تشبه الأسد تماما، وهذا تأويل قيل على عجل، ولم يلحظ هؤلاء هل لهذا

---

[1] النور الخالد، من ص: 606 إلى: 729

[2] نحو عقيدة صحيحة، ص: 94

[3] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب الجذام، ح609، م4، ج7، ص: 238

الأمر ضرر أو نفع على الدين إذا ما تبين بالمجهر في المستقبل أن هذه الجرثومة لا تشبه الأسد، فتأويلهم للحديث طبع في أذهان الناس وكأن الحديث يقول بهذا، فإذا ظهر خطأ التأويل تحت المجهر فسينسب هذا التأويل المنافي للواقع إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيضرب بالحديث عرض الحائط حاشاه من ذلك.

ولذا من الضرر والخطإ أن نذكر أمورا كهذه دون معرفة جيدة بماهية الأمر، ولا يقتصر الأمر على مثل هذه التأويلات الواهية، بل علينا ـ حتى عند إخضاع القضايا الإسلامية لأسلم التأويلات وأحكامها ـ أن لا نغفل الاحتمالات الأخرى، وأن نفسح المجال لتأويلات بديلة يحتملها النص، خصوصا في يومنا الذي تزعزعت فيه الفلسفة الوضعية المنطقية، وغدت محل شك وارتياب. ومن أوسع الأفكار انتشارا في الغرب فكرة تلافي الأخطاء تدريجيا للوصول إلى علم لا خطأ فيه، عملا بمبدأ (كل شيء فيه شيء من الخطإ)، وهذه الفكرة أيضا خاضعة للنقد كبقية المناهج الفكرية الأخرى، لكنها مهمة من وجه ما، إذ أنها تعبير عن زلزال حل بسلطان المذاهب الوضعية والعقلية.

إذن، لما كان هذا القدر من الشك والريبة قد دخل العلوم التجريبية التي يظن صحتها وقوتها الآن، فمن الجناية على النصوص الشرعية تأويلها بنظريات لا وزن لها ولا قوة في حين ندعي أننا نعزز دلالتها ونقويها، وقد عالجت هذه المسألة في أيامنا كتب لا ثمرة ترتجى منها؛ أجل، ما أكثر ما كتب عن هذا في زمن يسير، لكن قريبا ستأتي أجيال تقرأ هذه الكتب، فتسخر منها وتنسب ذلك إلى عجزنا عن استيعاب هذه المسائل؛ أما من يبحث القضايا بمنظور أوسع واحتمالات شتى ويذكر أوجها عدة للمسألة الواحدة، فستغدو أبحاثه متجددة مبتكرة وستبقى غضة عذبة صافية نقية مهما طالت السنون ولو بلغت المئين. أجل، بين أيدينا آثار قديمة كتبت على هذا المنوال لا تزال غضة طرية"[1].

[1] نحو عقيدة صحيحة، ص: 92-93

2. شرح الأحاديث ـ وبخاصة خبر الآحاد ـ بالآيات "وهذا أصل مهم من أصول تفسير الآيات و الأحاديث، فالآية من كلام الله، فهي متواترة، فوجب رد الحديث الى الآية لتبيين إبهامه"[1]. ذلك أن "أحاديث الآحاد هذه تعرض على القرآن والسنة، فإن تماشت معهما قبلت وإلا عدت من الأحاديث التي فيها نظر وأصبحت موضع نقاش وحساب"[2].

3. ضرورة ملاحظة أسباب ورود الحديث ومقاصده "حيث من المهم ملاحظة السياق والسباق في الحديث"[3]، ومن "المهم إيضاح الأجواء المحيطة بهذا الحديث الشريف والقاعدة التي استند إليها، إذ يجب الانتباه إلى هذا الأمر"[4].

4. فهم الحديث وفق دلالات اللغة وفي إطار جمع روايات الموضوع الواحد.

المطلب الثاني: نموذج تجسيدي لفقه كولن للحديث النبوي

من الأمثلة التي تجسد هذه القواعد المنهجية في فقه الحديث، جواب الأستاذ محمد فتح الله كولن على السؤال التالي: يقال إن أمنا حواء خلقت من ضلع أبينا آدم عليه السلام. ما رأيكم في هذا الموضوع؟

ومما ورد في الجواب: "ورد موضوع الخلق من ضلع آدم في صحيح البخاري وصحيح مسلم ومسند أحمد بن حنبل ، وعلاوة على ورود خلق حواء من ضلع آدم في كتب الأحاديث هذه، فقد ورد أيضا في سورة النساء من القرآن الكريم، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ الآية 1 . النساء.

---

[1] نحو عقيدة صحيحة، ص: 120. أسئلة العصر المحيرة، ص: 123

[2] النور الخالد، ص: 653

[3] نحو عقيدة صحيحة، ص: 120

[4] أسئلة العصر المحيرة، ص: 123

هنا نجد ضمير (الهاء) الراجع إلى النفس وليس إلى آدم. ونرى هذا أيضا واضحا في آية أخرى: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾الآية 6 . الزمر. لنقف هنا حول هذا التعبير. إذن فالله تعالى لم يخلق حواء من آدم، بل من ماهية آدم، وهذه ناحية دقيقة جدا، فنفس آدم غير ماهية آدم. فمثلا يقال عن إنسان أنه بطول كذا وبوزن كذا وبملامح كذا.. ثم لهذا الإنسان ماهية وعالم ظاهري وعالم داخلي وفكر، وقرب من الله تعالى أو بعد منه. فإذا تم تناول الإنسان من زاوية ذاته فيجب تناوله من الناحية الثانية أي من ناحية ماهيته، لأن الناحية الأولى ليست سوى مجرد هيكل. إذن فذات الإنسان ونفسه بهذا المعنى شيء، وجسده شيء آخر. وعندما يتناول القرآن موضوع خلق حواء، يقول إنها خلقت "منها" أي من نفس آدم وليس من آدم.

كما أن الحديث الوارد في هذا الخصوص ليس متواترا بل حديث آحاد، لذا وجب شرحه بالآيات. وهذا أصل مهم من أصول إيضاح الآيات والأحاديث. فالآية هنا متواترة وهي كلام الله، لذا وجب إرجاع الحديث إلى الآية لشرح نواحيه المبهمة. ومن المهم إيضاح الأجواء المحيطة بهذا الحديث الشريف والقاعدة التي استند إليها؛ إذ يجب الانتباه إلى هذا الأمر.

فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره واستوصوا بالنساء خيرا، فإنهن خلقن من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه،فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيرا"[1].

إذن فسبب إيراد الحديث أو المناط هنا هو تربية النساء وسياسة البيت. أجل. فإن أردت إصلاح المرأة بسرعة واستعجال كسرتها، وإن أهملت إصلاحها بقيت كما هي. والرسول صلى الله عليه وسلم عندما يريد شرح هذا الموضوع يشير إلى ناحية مهمة وهي أن المرأة أكثر قابلية من الرجل للاعوجاج، وهي أكثر رقة وأكثر قابلية على الانكسار.

[1] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الوصاة بالنساء، ح 116، م 4، ج 7، ص: 49

إذن فإن الشيء الذي يريد الحديث الشريف شرحه ليس خلق حواء من ضلع آدم، بل الإشارة إلى أن المرأة إن تركت لحالها بقيت عوجاء، وإن تمت محاولة تعديلها بسرعة انكسرت.

ولا شك أن إيراد العبارة بهذه الصيغة له حكمة. فالرسول صلى الله عليه وسلم عندما يورد هذا الحديث يقول: (خلقت من ضلع)، ويأتي (من) في العربية أحيانا بمعنى التبعيض أي جزء من شيء أو بعض هذا الشيء. ويأتي بمعنى (البيان أحيانا)، أي من جنس الشيء. لذا فبما أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يحدد المسألة تماما فإنها تتحمل أوجها عديدة من المعاني.

هناك أمثلة عديدة متشابهة لهذا في الأحاديث النبوية الشريفة، فمثلا يقول صلى الله عليه وسلم: "لا تصلوا في مبارك الإبل، فإنها من الشياطين" [1]، أي كأنها فضلة من شيطان. يفهم من هذا الحديث بأن لكل إنسان شيطانا . كما ورد في حديث آخر: "ليس منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الشياطين"[2]. كذلك للحيوانات شيطان أيضا؛ فبعبارة أخرى: إن بعض الحيوانات تتصرف أحيانا كتصرفات الشياطين، أي يجلب انتباهنا إلى التصرف الشيطاني. عندما نرى شخصا غليظ الإحساس متبلد الشعور نقول عنه: هذا الرجل مخلوق من حطب، ولا شك أننا لا نعني أنه خلق من حطب، بل نريد التعبير بشكل رمزي عن تبلد أحاسيسه وقلة شعوره وفقره من ناحية العاطفة. وعندما نقول إن الشخص الفلاني شيطان فإننا نريد الإشارة إلى أنه يقوم بتضليل الناس وإغوائهم وجرهم إلى طريق الإثم.

والآن لنتأمل حديث الرسول صلى الله عليه وسلم في ضوء معنى الآية: المرأة خلقت من ضلع آدم عليه السلام، أي أن المرأة جزء من الرجل، أي من جنسه، أي من

[1] سنن أبي داود، ج 1، ص: 184

[2] مسند أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل الشيباني، مؤسسة قرطبة، القاهرة، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ج 1، ص: 257

نفس خواصه الوراثية. ولو لم يكن الرجل والمرأة من جنس واحد لما كان هناك إمكانية التناسل فيما بينهما، لأن الآية تستمر هكذا: ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ الآية 1 . النساء. أي لو كانا جنسين مختلفين لما حدث التناسل فيما بينهما، إذن يجب أن يكونا من الجنس نفسه. وكلمة (الضلع) الواردة في الحديث يفيد معنى الميل للعوج وسهولة الاعوجاج أكثر من الاعوجاج نفسه.

وقد اختار الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم هذا التعبير بعناية، أي أن المرأة أكثر قابلية من الرجل للاعوجاج. وهذا أمر لا يحتاج إلى نقاش، لأن حال العالم تشهد على هذا. فأهل الغفلة وأهل الضلال يستخدمون المرأة كمصيدة لإغواء الرجل. وقد ابتذلت المرأة في هذا القرن العشرين ابتذالا لم يشهده أي عهد وأي عصر. فاستخدامها في أكثر الإعلانات ابتذالا لكي تكون مؤثرة، وجعلها أداة طيعة، مؤشر لضعفها، هذا الذي ذكره الحديث الشريف ودلل عليه. إذ أيستطيع أحد تبرير استخدام صور المرأة في إعلانات إطارات السيارات وأثاث البانيو والحمام، وفي إعلانات اللحم المقدد والهامبرجر؟ وما العلاقة بين المرأة وبين هذه الأشياء؟ إذن فالرسول صلى الله عليه وسلم يخبرنا بأن المرأة خلقت من أعوج مكان للرجل، وكان استخدام المرأة ـ ولا سيما في هذا العصر ـ أداة في يد أهل الضلالة والغفل تأييدا لهذا الحكم. فكأن المرأة أصبحت رمزا لأكثر جوانب الجنس الإنساني اعوجاجا. ولا شك أنه لم يكن من الممكن استعمال تعبير أجمل في شرح هذا الأمر.

دعنا نتناول أمرا آخر في هذا الخصوص؛ فقد جاء في فصل (التكوين) في التوراة بشكل واضح بأن حواء خلقت من جنب آدم عليه السلام، ولا بأس من هذا، ذلك لأن الله تعالى خلق آدم عليه السلام بمعجزة. ولا محل هنا للاستغراب من أخذ جزء من آدم ـ وهو بين الماء والطين ـ لخلق أمنا حواء. فآدم وحواء عليهما السلام ليسا إلا أثرا من إعجاز الخلق الأول.

والعلم هنا لا يستطيع أن يدلي بدلوه حول هذا الخلق الأول، فهو هنا أعمى وأخرس وأبكم، لأننا نعد هذا الخلق معجزة ونسلم كل شيء لما قاله الله تعالى. ولا نسلم بهذا تسليما أعمى، بل تسليما بعد رؤية ومشاهدة ومعرفة إرادة الله تعالى وحكمه القهار وعلمه المحيط بكل شيء من نافذة العلم بدء من الذرة وانتهاء إلى الكون بأكمله"[1].

[1] أسئلة العصر المحيرة، ص: 122 – 123 – 124 – 125

الفصل الثـــاني

مركزية الإنسان
الفاعل والأسرة
البانية في الإصلاح

تقديـــم

يتأسس الإصلاح على ركائز أساسية متعلقة بمحورية الفرد واستراتيجية المؤسسات ومركزية الأمة، ومن ثم كانت العناية بالأفراد والأسرة مطلبا رئيسا حتى يتم تجديد نسيج الأمة الاجتماعي بفضل اتساع دائرة الإيجابيين القادرين على تجديد أنفسهم وتأسيس أسر بانية. ذلك أن الذين آمنوا بقدراتهم وصدقوا بوجودهم الذي يميزهم وأيقنوا أن هناك مجالات عديدة أمامهم للعطاء، ثم بحثوا من خلال تواصلهم مع معلميهم ومربيهم ومزكيهم عن لون جديد يفردهم، هم الذين كسبوا رهان حضورهم الإيجابي وفازوا بتوظيف ما آتاهم ربهم من نعم الإبصار والإبداع.

إن تلاقي مثل هذه النماذج يعبد الطريق لاستفراغ الجهود في إطار الوسع الفردي والحضاري للأمة في مختلف مراحلها الاجتهادية. ومؤدى هذا الكلام أن يتمكن الإنسان والأسرة من تحديد نسبة وحجم مشاركتهما في إصلاح ما فسد، فإن الله تعالى يحب من عباده المصلحين.

المبحث الأول: محورية الإنسان في الإصلاح

المطلب الأول: الإنسان ذلك المحور الأساس لأي إصلاح

لعل من أهمية تجليات الإفلاس القيمي الذي أفرزه بناء المجتمعات الحديثة ما تعلق بالإنسان فيها، من حيث التخلي عن كثير من الصفات الإيجابية التي سددت حركته في الحياة ووجهت إنجازاته نحو نفع الآخرين في إطار الارتباط الإنساني. يقول محمد أنس أركنه: " منذ أن أنشئت الدول الحديثة مدعومة بالجماهير المقيمة في المدن العصرية، زادت المشاكل المتعلقة بالإنسان والمجتمع والقيم الديمقراطية وتشابكت،فالمجتمع الحديث نتاج عقلاني، تسيطر المنفعة على كل جزء وعلى كل عنصر من عناصره، فمرض . النزعة النفعية . قد نفذ إلى نخاع الإنسان المعاصر، فكل نشاط أو حركة، سياسية كانت أم اجتماعية أم اقتصادية أم ثقافية، تريد أن تنال حصتها من المنفعة. ولا يتصور الإنسان المعاصر أن يكون هناك أي عطاء دون مقابل، فقد مال النموذج السابق للإنسان الذي نذر نفسه للمجتمع ولخدمته إلى الانقراض"[1].

لقد شكل هذا المأزق الحضاري تحديا كبيرا أمام تحقيق إنسان المجتمع، إنسان يتفاعل مع غيره بهذه الصفة؛ فقد " انقلب من كائن ـ هو هدف الكون ـ إلى مجرد آلة بسيطة وإلى متاع بسيط. والمشكلة الرئيسة للدولة المعاصرة هي هذا النوع من الإنسان. لذا فقد توجهت جميع النشاطات الروحية والمعنوية والثقافية لإنقاذه"[2].

من أهم ما ساهم في هذه البلوى ذلك السعي الحميم لمشاريع التحديث المعاصرة لتغيير بنية المجتمعات التقليدية ـ بما فيها من عناصر قيمية إيجابية ـ إذ "كان هدف (العصرنة) أو (الحداثة) هو إزالة أنموذج (الإنسان الاعتيادي المرتبط بالتقاليد). ولكي توفق في هذا اخترعت وسائل سياسية واجتماعية وثقافية معينة. كان الإنسان التقليدي

[1] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 25

[2] المصدر نفسه، ص: 25

أنموذجا شعبيا، أي لم يكن يعيش لنفسه فقط، بل كان إنسانا مستعدا للتضحية في سبيل المجتمع والأمة والدين والإنسانية .

ولم يكن يعمل بغريزة المنفعة الشخصية، بل كان يقوم بأعمال التعاون والتساند والمشاركة في ظل شوق ديني. كان يرعى الفقير و الجار والمحتاج، بل يهتم بالمشاكل الإنسانية والأخلاقية في أرجاء العالم ويستنكرها. ولكن الإيديولوجية العصرانية لم تكن تملك ولا تستوعب مثل هذا الأنموذج الإنساني المفرد الواسع القلب لأنها كانت مادية صرفة، وأنموذجها الإنساني لم يكن هو (الإنسان) كإنسان بل كـ(فرد) يعيش مع مصالحه ومنافعه دون الاهتمام بالآخرين"[1].

ومن الملاحظ أن الاهتمامات بحركات المجتمع تطورت وتنوعت بقدر ما أفرزته النظريات الاجتماعية من رؤى وتصورات ومفاهيم ارتدت على المجتمعات بِشَر لا يستهان به، الأمر الذي استدعى منظومة القيم الفطرية في الإنسان والمبادئ الدينية التي يؤمل فيها الكثيرون إيجاد مداخل للرد الحضاري، يشير إلى ذلك أنس أركنه بقوله: " إن الحركات الاجتماعية التي ظهرت بسرعة في الربع الأخير من القرن العشرين، كانت تختلف تماما عن الحركات الكلاسيكية التي ظهرت في القرن التاسع عشر، وكانت لها أشكال وأهداف أخرى. وعلاوة على هذا فمعظم هذه الحركات ظهرت في أواخر مرحلة العصرنة، وفي مجتمعات وصلت إلى الرفاه الاقتصادي. وهذه الظاهرة كانت تعني إفلاس النماذج التي أسستها تحاليل علم الاجتماع الكلاسيكي حول الإنسان وعلاقته مع المجتمع. ولاشك أن الحركات الاجتماعية الجديدة تختلف في أدواتها وفي أهدافها عن سابقاتها.

[1] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 29

وهكذا تظهر أهمية طراز الحياة الدينية التي بدأت بالظهور والانتشار في معظم بلدان العالم ضمن هذه المسيرة التاريخية والمادية والثقافية والاجتماعية. ونرى أن العنصر البشري هو أهم عنصر في أساس الأزمات الاجتماعية والسياسية الحديثة"[1].

وإذا كان الإنسان هو المصدر الأساس والعنصر الأبرز في الاختلالات الاجتماعية الكبرى، فإنه كذلك المنطلق الرئيس والفاعل المؤثر في أية عملية إصلاحية حقيقية ومن ثم يسوغ القول بأن"أنموذج (الإنسان الفاضل) الذي أكدت عليه الأديان السماوية، أصبح هو الأنموذج الذي تسعى وراءه المجتمعات الحديثة. ولاشك أن ترقية الإنسان كان يحتاج إلى جهد جديد، وهذا الجهد عبارة عن محاولة إقامة (الإنسان المجتمعي) بكل أعماقه. أي إنشاء الإنسان المضحي الوفي، والمجهز بالقوى المعنوية من جديد. الإنسان الذي يعبر عنه المثل القديم، ويصفه بأنه الناذر نفسه للمجتمع في (درب الحق)، وإنشاء جيل جديد بهذا النمط"[2].

إن تحقيق هذا الهدف الكبير يدفع المهتمين به إلى استفراغ وسعهم لصياغة الرؤى وتكوين المفاهيم وسن برامج ووضع مخططات تستنفر كل طاقات الإنسان الظاهرة والباطنة حتى يتحقق نوع الإنسان الذي يصنع الحياة اللائقة به. ولأجل هذا "يبذل علماء الاجتماع ومهندسو المجتمع جهودا كبيرة لإنشاء هذا النموذج الإنساني وتكوينه من جديد،ويحاولون تطوير خطط ونماذج جديدة في هذا الصدد. وهم يخشون خشية كبيرة لأنهم على علم بالمخاطر الكبيرة التي ستتعرض لها المدنية المعاصرة إن لم ينجحوا في هذا المضمار.

المدنية المعاصرة في حاجة ملحة إلى أشخاص يحملون روح التضحية، وينذرون أنفسهم للمجتمع من جهة، وتحتاج من جهة أخرى الى حوار جدي بين القيم الجماعية

[1] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 30

[2] المصدر نفسه، ص: 31

التي تنتجها الأمم التي تنتمي إلى ثقافات وحضارات مختلفة في هذا العالم. وفي هذا الجو أصبح الأستاذ فتح الله كولن يحظى هو وأهداف حركته بأهمية كبيرة " [1]، حيث كان يولي في سعيه الإصلاحي شطر النفوس ويستنفر طاقاتها مؤكدا على أنها مفتاح النهضة والتجديد. يقول محمد فتح الله كولن "إن لعلم الاجتماع قوانينه التي لا تتغير ولا تتبدل،فكما توجد لعلوم الفيزياء والكيمياء وعلم الفلك قوانينها الفطرية (أو شريعتها الفطرية)ومبادئها التي لا تتغير، كذلك توجد لعلم الاجتماع قوانينه ومبادئه التي لا تتغير إلى يوم القيامة. فإذا رأينا الناس يسمحون بتواجد الشر ونموه فما ذلك إلا لأنهم سمحوا لهذا الشر أن يستوطن قلوبهم وصدورهم، فكان من الطبيعي أن يداروا ويحكموا بواسطة الأشرار...ولو اجتمع الناس وتعاونوا ليكتبوا أفضل القوانين فليس هذا مهما، بل المهم هو مدى تطبيق هذه القوانين، لأن أخلاق هؤلاء الناس هي المعيار الأول، لأنهم إن كانوا على خلق، وحلوا مسائلهم وما يعرض لهم من مشاكل بصيغة أخلاقية فإن الذين سيأتون لإدارتهم لن يكونوا أشخاصا سيئين... إن على كل إنسان أن يبحث عن التقصير في نفسه. فمادام كل إنسان يحامي عن نفسه ويدافع عنها فقط، ويبحث عن التقصير عند غيره، فلن يمكنه إحراز أي تقدم إيجابي، فلو لم يغير الناس أنفسهم فإن الله لا يغير ما بهم. فإذا كان هناك فساد في الداخل فلا بد أن يسري ذلك الفساد إلى كل مكان حتى يصل إلى القمة. ويمكن أن نقول نفس الشيء حول صلاح الناس الداخلي و استقامتهم"[2].

المطلب الثاني: الإنسان الإيجابي ركن الحضارة

1. أهم أركان الحضارة هو الإنسان المؤهل

تقوم الحضارة على قواعد عديدة تستند إليها وعلى ركائز أساسية تقويها وتضمن لها البقاء، وحيوية مقوماتها وخصائصها، الشيء الذي يستدعي تسخير الطاقات

[1] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 31

[2] النور الخالد، ص: 191-192

والإمكانات لتفعيلها وتجديدها، يقول الأستاذ فتح الله كولن:"إن أهم أركان ظاهرة الحضارة هو الإنسان المؤهل وأقوى أسسها الحيوية هو دولة حرة ومستقلة، وأثمن رؤوس أموالها هو الزمن. ولا نشك أن الدول المتقدمة قد استغلت هذه المقومات بأحسن وجه، وعلاوة على استغلالها هذه المقومات استغلالا حسنا لم تهمل أبدا تقسيم الوظائف، واحترام الاختصاصات والاهتمام بالإنسان ومكافأة النجاحات واستثمار الإمكانات الأولية التي وهبها الله تعالى لها استثمارا مجديا، وفي المقابل إذا وقعت هذه المقومات التي تساوي قيما فوق القيم في يدي المجتمعات التي لم تنظم مساعيها تنظيما دقيقا، ولم توزع الواجبات والأعمال توزيعا جيدا، ولم تتعرف إلى أسرار ثرواتها المكنوزة والظاهرة، ولم تتفهم القيمة الحقيقية للإنسان ولم تستثمر الزمن استثمارا مجزيا.. ففي هذه الحالة ستكون هذه المقومات كالمتاع الذي يقع في يد بائع لا يقدر قيمته فيبيعه بثمن بخس دراهم معدودة"[1].

ولذلك وجب التأكيد على الوعي بوظيفة الإنسان وتبين مهمات وجوده حتى يسلك سبيله على بصيرة، وقد حدد علاقاته مع خالقه ومع الكون والناس والحياة. إنه لأمر ضروري لتجنب ثقافة العبث والهدم وهدر الأعمار وخراب العمران. "إن الوظيفة الأولى للإنسان هي اكتشاف نفسه ومعرفتها ثم التوجه إلى ربه بعد وضوح ماهية نفسه أمام عينيه. أما الذين لا يتعرفون على ماهية أنفسهم ولا يدركونها ولا يستطيعون تأسيس علاقة مع خالقهم الجليل، هؤلاء من ذوي الحظوظ النكدة، يمرون بهذه الدنيا ويفارقونها وهم لا يعرفون قيمة الكنز الذي يحملونه بين جوانحهم"[2].

ولقد ضل كثيرون وهم يتحركون في حياتهم دون أجوبة صريحة قوية على أسئلة وجودهم ومصيرهم وهويتهم الحقيقية، ظنوا أنهم يحسنون صنعا وهم أضل سبيلا، وأخطأ

[1] ونحن نبني حضارتنا، ص: 18-19

[2] الموازين، ص: 76

آخرون عندما لم يعتبروا في الإنسان قابليته المزدوجة للسمو والتسفل حسب اختياره عوامل الصعود والتزكية أو استسلامه لأسباب النزول والتدسية، حيث إن "الإنسان كائن يتردى إلى أسفل السافلين، بما فيه من أنواع الضعف، ويتسامى على الملائكة ـ بفضائله ومزاياه ـ فكل فكر تربوي لدى تقييمه للإنسان يبقى ناقصا وقاصرا مالم يأخذ بنظر الاعتبار هذه المزايا وأنواع الضعف معا"[1].

ويصدر كولن حكمه على الرؤى التي تناولت الإنسان من جهة واحدة بالإفلاس[2]،حيث حرمت الحياة من كنز "الإنسان" وحولته إلى مصدر من يفسد في الأرض ويدمرها، يوضح ذلك الأستاذ بقوله: " نتذكر خلاصة حكيمة هي أنه (إذا فسدت الأشياء الثمينة صار ضررها أشد من الأشياء المضرة) ونقول: إن هذا العمق العميق هو الفارق بين الإنسان وسائر الأحياء والجوهر الناصع الذي يصعد به إلى مقام المتلقي لخطاب الله تعالى...أما إذا انقطع عن الله تعالى وارتبط بالطبيعة أو النفس، فيكون حية تلسع وعقربا تلدغ في كيان الإنسان، وينقلب إلى سم يميته موتا أبديا بدلا عن أن يكون إكسير حياته الأبدية"[3].

2. بين الإنسان المتأله والإنسان المستسلم

يمكن الحديث عن صورتين كبيرتين للإنسان تشمل نسبة مهمة من العالم: الصورة الأولى فيها علو واستكبار واغترار إلى درجة التربب. والثانية فيها استسلام واستكانة وهوان وفقدان للفاعلية؛ "فالإنسان الغربي المعاصر ارتد به منطق الاغترار الإيديولوجي والجموح الفكري الى مستوى التربب الذي كانت عليه آلهة يونان، تلك الماهيات الوهمية التي جهزها الاعتقاد الضال بالقدرة الخارقة لكنه لم يعصمها من النزوة، فعدمت شرط النزاهة والعلو القدسي، فلذلك طفقت تعيش المأساة مع ذاتها وفي علاقتها بالكون وما

[1] طرق الإرشاد، ص: 11

[2] المصدر نفسه، ص: 11

[3] ونحن نبني حضارتنا، ص: 75

يعمره من قوى مضادة(أرباب) وظلت حال الإنسان الغربي . على مدار مسافة طويلة من الزمن المعاصر. هي حال آلهة أسلافه اليونان قديما؛ إذ تجبر واستعلى واجتهد لكي يكون على كل شيء قديرا، لكنه رغم المكاسب ظل يتصرف بسلوك الآدمي المتوحش، وبطيشه.

وعلى كل العكس من ذلك فقد استنام الإنسان المسلم لعوامل فكرية وثقافية وروحية محبطة، فقعدت به عن إتمام مقاصد الإسلام في نشر رسالته إلى العالمين، فنكس همته وأذعن للامتهان وانحدرت به المكانة إلى مستوى لا تقر به إلا عين الأعداء"[1].

لذلك تميزت جهود فتح الله كولن بالتذكير المستمر بأن الخسران المبين أو الفوز المبين متعلق إلى حد بعيد بالإنسان؛ "عندما تلج حيث يقيم في أمريكا تطالعك لوحة معلقة على الجدار كتب عليها "خدع الإنسان ما أخسره" وهي إحدى اللوحات التي تطالع من يأتيه زائرا، وكأنها تهيب بالناس أن ينتبهوا إلى ما في عواقب فعالهم من خسران، ولو أن الأستاذ فتح الله كولن كتب رواية لأسماها "خدع الإنسان ما أخسره" هكذا كان يقول"[2].

3. الإنسان الجدي

كتب على الإنسان أن يتحمل مسؤولية ضخمة عرضت على السم اوات والأرض والجبال وأشفقت منه وهابت جسامتها فاعتذرت. ولقد اختار الإنسان عن طواعية هذه الأمانة، والواجب أن يتذكرها ولا ينساها وأن يحيا من أجلها ولا يضحي بها، وأن يرتفع إلى مستوى مقتضياتها باستثمار الجهد والوقت للقيام بمتطلباتها. وأولو الألباب يدركون أن "على الإنسان أن ينشغل فقط بالمسائل العلوية بحيث إن كل مسألة منها تكون ذات فائدة له ولأسرته ولمجتمعه، وهذا في الحقيقة هو تعريف للإنسان الجدي....إن الشخص المشغول بما لايعنيه لا يجد الفرصة أمامه لكي ينشغل بما يعنيه حقا، إذ لا يجد الوقت

[1] الانبعاث الحضاري، ص: 137-138

[2] فتح الله كولن: قصة حياة ومسيرة فكر، ص: 10

الضروري والكافي لذلك. إن الشخص الذي لم يكتشف حقيقة نفسه بعد، ولم يجد الجو والاتجاه المناسب، لا يمكن أن يقدم على إنجاز إيجابي أوعمل جيد"[1].

4. إنسان التوحيد و الغاية

قال الله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادَا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ ﴾الآية 165 . البقرة. يقول ابن القيم: "أخبر تعالى أن من أحب من دون الله شيئا كما يحب الله تعالى، فهو من اتخذ من دون الله أندادا، فهذا ند في المحبة، لا في الخلق والربوبية...فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أندادا في الحب والتعظيم. ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ ﴾ وفي تقدير الآية قولان؛أحدهما: والذين آمنوا أشد حبا لله من أصحاب الأنداد لأندادهم، و آلهتهم التي يحبونها، ويعظمونها من دون الله.

والثاني: والذين آمنوا أشد حبا لله من محبة المشركين بالأنداد لله. فإن محبة المؤمنين خالصة ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها. والمحبة الخالصة أشد من المحبة المشركة...وقال أهل النار في النار: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الآية 97-98 . الشعراء، ومن المعلوم أنهم إنما سووهم به سبحانه في الحب والتأليه والعبادة، وإلا فلم يقل أحد قط: إن الصنم أو غيره من الأنداد مساو لرب العالمين في صفاته وفي أفعاله، وفي خلق السموات والأرض، وفي خلق عبيده أيضا. وإنما كانت التسوية في المحبة والعبادة"[2].

ولقد نبه كولن . وهو يتحدث عن الآية نفسها . إلى مثل ما ذكره ابن القيم، وبشكل أوسع وأعمق فقال: "أجل. هناك أناس يبالغون في تعظيم بعض الأفراد إلى درجة الألوهية

[1] النور الخالد، ص: 203

[2] التفسير القيم، ابن القيم، جمعه محمد أويس الندوي، حققه محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية،بيروت1978، ص:140-141

ويقولون "هو ربنا ومعبودنا وإلهنا"، ويتحدثون عن خلقه لهم ويطنبون في مدح إدارته ويضعونه موضع المعبود المطلق. ومع أن بعضهم لا يصرح بمثل هذه الأفكار والمشاعر، إلا أنهم بآمالهم المعقودة عليه وتوجههم نحوه وإبدائهم العلاقة والاهتمام نفسه يرتكبون الشرك نفسه...ثم إن هذه الآية تقوم تنشئ جسرا بين الألوهية والمحبة، وتجذب الأنظار إلى شعور المحبة الموجود بين الإنسان وبين ما يعتقد أنه معبوده وإلهه، فإن كانت القلوب تقبل الخضوع لهذه الآلهة وتطيعها، فإن عل ى المؤمنين أن يفتحوا صدورهم على سعتها، وقلوبهم على مصاريعها لحب الله تعالى، وأن يركزوا نظرهم على مرضاته وأن يعلموا أن القيمة الحقيقية لحياتهم متوقفة على الاستماع لأوامره وفعل ما يرضاه وما يحبه لنا، وأن تكون مرضاته هي الهدف. والذين لا يحبونه سيبقون على الدوام في قلق على مصيرهم وعلى عاقبتهم المجهولة وعلى خوف. أما المؤمنون الحقيقيون فهم على وعي بالمقياس الصحيح والمحسوب بدقة والذي وضعه للمؤمنين والأنبياء والأولياء والأصفياء ـ الذين كانوا السبب في إيمانهم وفي زيادة معرفتهم بالله تعالى ـ وأن يكون التوحيد ميزان هذا الحب ومحوره"[1].

ولأجل تحقيق مقامات إنسان التوحيد الذي حدد غايته في إرضاء الله سبحانه،كتب الله على عباده أن يجاهدوا أنفسهم ليهديهم سبله، ودعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإكثار من الاستغفار حتى لا يصيب إيمانهم لوثات خفايا الشرك. ترى إنسان التوحيد يستعير من كولن تساؤلاته التالية:

"كيف يمكنك الوصول إلى نقاء في الفكر وفي الأحاسيس، وكيف يمكنك تنمية ملكاتك الإنسانية وقابلياتك لكي تكون من الربانيين دون أن تتملص من الشهوات الجسمانية والشهوات البهيمية وتعلن عصيانك عليها؟...

[1] أضواء قرآنية، ص: 78-79

إن كنت ترغب الوصول في حياتك القلبية إلى "التوحيد" وتذوق اللذائذ الروحية وتغرق فيها..كيف يتسنى لك هذا وفي جوانحك تتراقص ألف رغبة وهوى؟ وكيف يتسنى لك هذا وأنت تستجيب في كل منعطف إلى رغباتك الجسدية؟

إن كنت تتمنى الانطلاق إلى الأعالي، وتسمو إلى عوالم وراءه هذه السموات.. إن كنت تتمنى هذا فكيف يليق بك التعلق بأوحال هذه الدنيا كطفل ساذج"[1].

5. الإنسان الكامل

يميز الأستاذ محمد فتح الله كولن بين حقيقة الإنسان الكامل المعصوم وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم وإخوانه الأنبياء والمرسلون وبين كونه هدفا للتربية والتزكية منذ عصر السعادة، حيث سعى الصحابة إلى الاقتراب من هذه الحقيقة يتغيون الإنسان الكامل في أنفسهم وفي غيرهم دون أن يعني ذلك حصول العصمة.

لقد صرح بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم "هو الإنسان الكامل الحقيقي المستودع الأمين على علم الذات والصفات"[2]. ويقرر بأن الصحابة "استطاعوا أن يوجهوا من خلال تفاعلهم مع القرآن الإنسان العادي إلى طريق الإنسان الكامل"[3].

وقد أفاض كولن في بيان حقيقة الإنسان الكامل محمد صلى الله عليه وسلم،فبالإضافة إلى كتابه(النور الخالد) خصص فصلا كاملا تحت عنوان (وخاتم المنبئين عن الغيب) من كتابه(ونحن نبني حضارتنا) [4]، أورد فيه إحدى عشرة خاصية من خصائص النبي صلى الله عليه وسلم[5].

---

[1] الموازين، ص: 53-54

[2] ونحن نبني حضارتنا، ص: 165

[3] ترانيم روح، ص: 22

[4] من ص: 143 إلى ص: 171

[5] ونحن نبني حضارتنا، ص: 160-161

لقد آمن محمد فتح الله كولن بالإنسان الكامل حقيقة وسعى إلى تحقيق كثير من مميزاته ودعا إلى ذلك وأصر عليه، وخطط له ومأسس أفكاره حول صياغته، فتراه في مؤلفاته وخطبه ومقالاته "يركز على إيجاد(الإنسان الكامل) ومن أجل ذلك استخرج من الوحي صفة (الإيمان الكامل) وملأ القلوب بـ(العشق الكامل) وبنى العقول بـ(التوجه الكامل)نحو العلم و(القراءة الكاملة) للكون والإنسان والحياة، وربى تلاميذه على"الحرية الكاملة" في التفكير و"الائتلاف الكامل" مع مكونات مجتمعهم و(الإتقان الكامل) للعلوم ولاسيما الفكر الرياضي"[1].

حدد الأستاذ محمد فتح الله كولن برنامج الإنسان الكامل، فهو بين الشحن والإفراغ يتحرك باستمرار، يستمد ليمد ويستند ليسند ويتلقى ليلقي و يستنير لينير، فهو واسطة يعرض نفسه بصدق للشحن الإيماني ليعبر به إلى إضاءة ما حوله وإنارة من حوله، كأنه وقف حياته على هذين المسلكين لا يتجاوزهما. ذلك هو "الإنسان الكامل الوارث للنبي صلى الله عليه وسلم لا يفلت من نور يفاض عليه من الفيض الأقدس حتى كأنه مركز استقطاب كبير لابتلاع الأشعة المنبعثة من الشمس. فلا يهدر ولو ذرة من كل فيض مقدس يفيض عليه بتجليات الأحدية، وينتقل إليه بتجليات جمالية لطيفة تلاطفه بإسباغ الرحمة عليه، فتكون جميع أركان قلبه في نشاط مستديم وفعالية دائمة، ساعيا ليكون مرآة عاكسة لهذه الفيوضات ...هذا . في الوقت نفسه . تعبير عن خشوعه العظيم وتوقيره الكامل لربه الجليل، وهو عملية شحن روحي مستمر. ولهذا؛ الشخص المشحون باستمرار له إفراغ أيضا، وهذا الإفراغ هو نشر ما في روحه من ضياء ونور وحقائق أخرى إلى من حوله. وليس هناك معيار لقياس عمله هذا حسب أعماق روحيته. إذن فمهما توغل العابد في عبادته لا يبلغ درجة عبادة عالم مؤهل لأن يكون إنسانا كاملا"[2].

[1] عبقرية فتح الله كولن، ص: 114

[2] طرق الإرشاد، ص: 91-92

وإن مما يساعد على إنجاز مشروع الإنسان الكامل قوة التفكر وعمقه وتحرره من الفوضى والتقليد، والحرص على قراءة الكون من خلال معطيات واضحة وممنهجة،يوضح ذلك الأستاذ فيفصله قائلا: " من أجل التأمل والتفكر يجب أولا توفر معلومات أولية،ومعرفة لحقيقة الوضع الحالي، وإجراء تراكيب فكرية ملائمة مع الذات ـ أي غير مُقَلِّدَة ـ وتوفر خزين فكري ورغبة ومعاناة للألم في سبيل البحث عن الحقيقة. والشخص الذي يستطيع التفكر على هذا النحو وبشكل مستمر يستطيع الوصول إلى أشياء وآفاق جديدة. وعندما يجعل هذه الآفاق الجديدة بداية لحملة فكرية أخرى يستطيع الوصول إلى نتائج جديدة وإلى عمق فكري أبعد. ثم يستطيع تحويل فكرة ذي البعد الواحد أو ذي البعدين إلى فكر ذي ثلاثة أبعاد أو أكثر، أي يصبح مع الزمن ـ ذا الجناحين ـ في عالم الفكر، فيصل إلى مستوى الإنسان الكامل.

إذن، فالأساس الأول للتفكر هو التعود على القراءة وعلى مطالعة كتاب الكون، ثم فتح صدره وقلبه للإلهامات الإلهية، وعقله لمبادئ الشريعة الفطرية والنظر إلى الوجود بعدسة القرآن الذي يعد الكتاب المقروء للكون. هذه هي شروط التفكر وإلا فإن النظر السطحي إلى الأشياء ومعرفة أن هذا النجم هو الزهرة، وأن مغيب الشمس سيكون هكذا،وأن المريخ في الموضع الفلاني..مثل هذا الجمع العشوائي للمعلومات الذي لا غاية له ولا هدف لا يمكن أن يكون تفكرا ولا يمكن أن يؤدي إلى نتيجة أو إلى غاية، ومن المشكوك استحقاقه لأي ثواب"[1].

[1] أسئلة العصر المحيرة، ص: 134

المطلب الثالث: الإنسان بين الفكر والحركة

1. إنسان الفكر و الحركة رأسمال الإصلاحات الكبرى

إن الإنسان خلق كريما، إذا قويت فكرته استقامت سريرته وصفت روحه وارتفع بذلك في توقير الحق وخدمة الخلق، وازداد منسوب شعوره بالمسؤولية إزاء مجتمعه لأن "رجل الفكر بطل للحب قبل كل شيء. فهو يحب الله حبا كحب مجنون، فيحس في ظل أجنحة الحب هذا بوشائج وثيقة تربطه مع الكائنات، فيحضن بشفقته كل إنسان، وكل شيء....ورجل الفكر الحقيقي، هو من أهل الحكمة أيضا، فهو من وجهة، يستوعب كل شيء بدنيا عقله المحيطة سائحا ومستطلعا، ومن وجهة أخرى، يزن كل شيء بموازين القلب المقدرة حق التقدير ويمررها عبر مقاييس المحاسبة والمراقبة"[1].

2. أصناف الناس

يصنف الأستاذ محمد فتح الله كولن الناس من حيث معيار الفكر والحركة إلى أقسام ثلاثة:

ـ صنف لا يفكرون، وهم لا يمتلكون قرارهم بشكل حر مستقل، وهم صدى لفلسفة حياة غيرهم، "ضحال فكرا وسطحيون رأيا إلى درجة كأنهم أطفال يقلدون كل ما يرون ويسمعون، وينجرون وراء الطغام هنا وهناك، ولا يجدون سانحة للإحساس بأنفسهم والإنصات إلى دواخلهم وتمحيص قيمهم الذاتية"[2].

ـ صنف يفكر ولكن لا أثر لذلك على واقعه، وقد يكون مرد ذلك اختلال في طريقة التفكير وفوضى وسطحية في المعرفة، ولذلك يؤكد كولن على أنه "من الضروري للإنسان أن يعرف الموضوع الذي يتأمله ويتفكر فيه معرفة جيدة، وأن تكون الأمور التي

[1] ونحن نقيم صرح الروح، ص: 111

[2] المصدر نفسه، ص: 120

ستكون موضعا للتأمل حاضرة وجاهزة في ذهنه، أي يجب أن يملك معلومات مسبقة حولها لكي يستطيع أن يفكر تفكيرا منظما ومنهجيا.

فإذا كان يعرف ولو شيئا معقولا حول الأقمار والنجوم وحركاتها وعلاقاتها بالإنسان، ويعرف شيئا عن الفعاليات المدهشة للذرات التي تشكل الإنسان، وعن حركاتها،في هذه الحالة عندما يفكر هذا الإنسان بهذه المواضيع يمكن أن نطلق على هذه العملية عملية تفكر وتأمل. ولا نستطيع أن نقول لمن يذكر شيئا عاطفيا أو شعريا حول حركة الشمس أو القمر أنه شخص مفكر، بل نقول عنه إنه شخص ذو خيال، وكذلك لا يمكن إطلاق صفة التفكير على بعض الطبيعيين، أي الذين يرجعون كل شيء إلى الطبيعة"[1].

ـ الصنف الثالث: يجمع بين خلق التفكر وعبادة التحرك؛ إنهم يحيون وهم يتفكرون، حركتهم أثر لأفكارهم، وفكرهم نابع من حركتهم، ينطلقون منها ليطوروا مجالاتهم ويستكملوا نقائصهم ويرتقوا إلى مستويات أعلى. إنهم "يعيشون حياتهم مفكرين،ويجعلون ـ حسب درجاتهم ـ كل يوم، أو كل ساعة، من حياتهم ميناء أو مرسى أو طريقا للأفكار المبتكرة، فهؤلاء يمضون أعمارهم في خوارق العيش ما فوق الزمان،ومفاجآته وسحره، فيتجرعون الماضي كماء نبع مبارك، ويتنفسونه نفحة رائحة في رئاتهم، ويطالعونه ككتاب، ويسيرون إلى المستقبل بهذه العدة...ويحضنون الزمن الآتي بحرارة قلوبهم، ويلونونه بآمالهم، ويصورونه بعزمهم وإرادتهم، ويحتسبون الزمن الحاضر مركزا استراتيجيا لتنفيذ أفكارهم المثالية ..وجسرا للعبور من النظري إلى العملي"[2].

[1] أسئلة العصر المحيرة، ص: 133

[2] ونحن نقيم صرح الروح، ص: 121

2. أهم ثمرات إنسان الفكر والحركة

أ . الفكر ينقل الإرادة إلى العمل

عندما يسكن هَم الفكر والحرية روح الإنسان ويهيمن عليه، يحييه ويجعله يمشي في الناس بنور برنامج منظم وفق تخطيط يعصم الطاقات من التبدد والجهود من التخبط ويعجل من تحقيق الأهداف بذكاء وإتقان، لأن "كل جهد حركي هو تحقق فكر وبرنامج،وكل فكر هو بداية ووتيرة للعثور على أطره الحقيقية وبلوغ مراميه في ثنايا التحركات الملتزمة به.

إن المرحلة الأولى للإرادة هو ميل داخلي، وحدها النهائي هو العزم والقرار والهم بالعمل، والفكر في هذه الوتيرة كخيوط لفائف تلقى من المبتدإ لتتعلق بالمنتهي، والأعمال الحسية كنقوش تزين هذه اللفائف. وإن التصرفات من غير فكر أو برنامج تؤدي في الأكثر إلى الفشل والفوضى، وإن الأفكار الجامدة من غير حركة، تعيق تشكل الأنموذج الذي يعد البعد النهائي للفكر، وتصدع روح الإرادة"[1].

ب . الحركية والفكر يمنع من الاستلاب والفناء الحضاري

إن التأمل في حركات المجتمعات التي حافظت على وجودها وماهيتها يكشف أنه ما من قوم أصروا على صياغة مشاريعهم وفق منظومتهم القيمية وصابروا وهم يفكرون لبناء حركيتهم الاجتماعية، ثم أصروا على خطهم في الحياة، وثبتوا في مجراهم الحضاري، إلا كونوا لأنفسهم ذاتا مستقلة وموقعا وازنا بين الناس، مقاومين أساليب التنميط والتحنيط. ولأجل ذلك يؤكد كولن على استمرار الحركة والفكر والتضحية المتواصلة في هذا السبيل إذ يقول: "فإن لم نتحرك نحن فسندخل في تأثير الدوامات الفكرية والبرنامجية لأمواج هجمات الآخرين وأعمالهم الحركية، ونضطر إلى تمثل فصول حركاتهم.

[1] ونحن نقيم صرح الروح، ص: 80

إن السكون الدائم يعني إهمال التدخل فيما يحدث حولنا، وترك المشاركة في التكوينات المحيطة بنا، والاستسلام للذوبان الذاتي رغما عن أنفسنا كقطعة جليد سقطت في الماء. وتعاجزنا عن حماية جزيئاتنا الذاتية في هذا الذوبان يعني التسليم لأي تكوين أو حادث يناقض ذاتنا ويضاد جوهرنا"[1].

ج . ضمان التأثير الكبير

تمتلك لغة الفكر قوة ذاتية وجاذبية للعقول الحية النابضة بالحيوية، وعندما تقترن بلغة الحركة المترجمة الصادقة، تصبح قادرة على إحداث نقلة نوعية في الأفراد والمجتمعات، والذين تركوا بصمات قوية في العالمين خلفوا وراءهم آثارا عملية ما زالت البشرية تستلهم منها مقومات انبعاثها ونهضتها وهذا ما يؤكد أن "الحال و القال أو القول أو الفعل لغة بجبهتين لنصرة الحق وتمثيله، فإن تكلمت هذه اللغة ذات الصورتين والمظهرين باسم الحق وصرخت به كان تأثيرها عظيما. لأنه يجب على الإنسان أن يطبق على نفسه أولا ما يدعو الآخرين إليه، وألا يكون هناك تناقض بين أقواله وأفعاله،وبين مظهره ومخبره...وأن يؤمن وأن يفكر وأن يعيش وأن يبلغ. وما عداه لغو وثرثرة تذهب بهيبة المتحدث، وهذا يعني أنه نسي نفسه تماما"[2].

د . صناعة الإمامة وصياغة القيادة

إن التفاعل الإيجابي بين إرادة الفكر وإدارة الحركة كفيل بإغراء ذوي الفطر الصافية والأرواح النقية لاحتضان مشروع الإصلاح وإلحاق الخير بالخلق. كل ينفق مما عنده؛ فمنهم ذوو البصائر والعرفان ومنهم أصحاب بسطة في المال والحكمة، ومنهم من يجمع هذا وذاك. إن إنسان الفكر والحركة "ولي الحق اللدني الذي يُعِدُّ قادة أركان الروح ومهندسي العقل وعمال الفكر، بدلا عن استخدام القوة المادية لفتح البلاد ودحر

[1] ونحن نقيم صرح الروح، ص: 57

[2] أضواء قرآنية، ص: 50-51

الجيوش،وينفخ بلا كلل نَفَس البناء والإعمار فيمن حوله، ويرشد أعوانه إلى سبل عمران الخرائب.

وقد تجد إنسان الفكر والحركية ابنا بارا للوطن أو إنسانا حركيا ذا بعد فكري أو رجلا متفانيا في العلم، أو فنانا مبدعا داهية، أو رجل دولة، أو رجلا يجمع كل هؤلاء فيه"[1].

[1] ونحن نقيم صرح الروح، ص: 63

المبحث الثاني: أهمية التوازن في بناء و صياغة الإنسان

المطلب الأول: الحاجة إلى الإنسان المتوازن لصياغة القرار الإيجابي

1. الإنسان الذي تشتد الحاجة إليه

يراهن الأستاذ محمد فتح الله كولن على الاستثمار الحضاري في أكبر ثروة(الإنسان) ومن ثم لا يمل من التذكير بمحورية الفرد ضمن أي إصلاح منشود ويكثر من التفصيل أثناء حديثه عن نوع الإنسان الذي تناط به مهام التجديد والبناء، خصوصا أن عمليات الهدم التي حدثت في تركيا مست أعماق المجتمع، ومن ثم يؤكد على أن "الشخصية التي يحتاج إليها شعبنا أمس الحاجة، هي شخصية الإنسان المخلص المتحمس المتوازن الذي يحركه الشعور والإدراك والمسؤولية ويهيمن على تصرفاته وأعماله التفكير في الأيام القادمة في خططه و برامجه بقدر التفكير في ضرورات الحاضر. شخصية مهندس الفكر والروح، المنفتح على الوجود بقلبه، العامر عقله بشعور العلم، المقتدر على تجديد ذاته كرة أخرى في كل آن، المتتبع للنظام في كل وقت،والمصلح لتخريب آخر في كل لحظة"[1].

هذا الإنسان بوصفه الهدف المنشود تتجسد فيه أنوار أسماء الله الحسنى وبخاصة الرقيب والحفيظ والسميع والعليم والخبير، لأنه "بطبعه رباني في كل أحواله، وبكل ذاته وهو في مناسبة دائمة مع الوجود باعتباره خليفة لله. وحركاته وأفعاله كلها مراقبة ...فلا يقوم بعمل إلا بحس من يعرضه على التفتيش. حتى يكون الله سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ...

[1] ونحن نقيم صرح الروح، ص: 83

كذلك هو إنسان المحاسبة و المراقبة الرحيب. الخير والشر والجمال والقبح في مرآة روحه منفصلان عن بعضهما، ولكل شيء موقعه الملائم فيها، كاختلاف الليل والنهار والضياء والظلام...

هو قاصد في حياته الشخصية أن يبلغ آفاق الإنسان المثالي، يسابق ويباري الأولياء والأصفياء في تمثله بالأوامر والنواهي الإلهية...إنه قبل كل شيء، وبعد كل شيء، هو إنسان المعرفة اللدنية والواجب اللدني"[1].

إن الحاجة لهذا الإنسان عظيمة عظم مسؤولية خدمة الرسالة وإنقاذ الإيمان وإحياء الآخرين به ، فهو الوحيد الذي تتترس به الأمة لأنه رائد أهله لا يكذبهم، وطليعة المسير يتعرض للحرائق وهو يواجهها حماية لغيره. تأسيسا لهذا المعنى وتأكيدا له يقول محمد فتح الله كولن: " إن تحقق هذه الرسالة الحيوية لن يكون إلا على أيدي ربايين لا يولون أهمية لأشخاصهم، ولئن اهتموا بأشخاصهم، فلا يرون خلاصهم إلا في خلاص الآخرين.

وعندنا ـ كما هو في حقيقة الإسلام ـ الخلاص من المسؤولية أمام الله تعالى مرتبط بالجهد والهمة في البحث عن طرق هذا الخلاص. نحن نرى سلامة مستقبلنا البعيد والقريب في أن نكون ملجأ للأرواح الأخرى، وفي ضخ النور في الإرادات الأخرى، وفي إعلاء القلوب الأخرى إلى الذرى.. ونرغب دائما إلى إشغال مكان بين الذين يتلقون الحرائق بصدورهم ويولون للمنافع الذاتية أدبارهم. ولن يدرك الخلاص البتة أولئك الذين يديرون ظهورهم للوجود كله وللنظام العام، فيهدرون أعمارهم في ظلمات متاهات الأنانية. ودع عنك إدراكهم الخلاص... فكم تسبب هؤلاء حتى في هلاك الذين أحسنوا الظن بهم،فالطريق الوحيد للتحول من الفردية إلى الجماعة، ومن قطرة إلى بحر، وبلوغ الخلود بهذه الوسيلة، هو الفناء بالذوبان في الآخرين والاندماج بهم بالانصهار فيهم من أجل

[1] ونحن نقيم صرح الروح، ص: 83- 84

إحيائهم والحياة معهم. ومن مقترب آخر، أن يكون الإنسان "إنسانا" وفق المعنى الذي يجعله إنسانا حقا "[1].

2. أهمية التوازن في بناء الإنسان و صياغة قراراته

تكاد تشكل كلمة التوازن مساحة واسعة ملحوظة من أحاديث كولن عن الإنسان،وهي المفتاح إلى شخصية ذات تكوين متوازن، وهي سمة بارزة لمشروع " الخدمة " الذي يعرض من خلال مؤسساتها المتنوعة، ولأجل ذلك نرى فتح الله ينبه إلى أن " الحياة الحقيقية هي حياة القلب، والإنسان الذي يحيا بحياة القلب يصبح كيانا فوق الزمن. ويستطيع دق أبواب الماضي والمستقبل ويراهما وجهين لعملة واحدة يمكن فتحهما. فمثل هذا الإنسان لا يأبه بآلام الماضي ولا بتهديدات المستقبل.

أما الذين لم يجدوا أنفسهم في قلوبهم فتراهم ـ وهم يتقلبون في حياتهم الضحلة ـ في شكوى دائمة، وتشاؤم مستمر، فالماضي في نظرهم قبر رهيب، والمستقبل بئر لا قعر لها...فهم في عذاب مستمر سواء أعاشوا أم ماتوا.

والمحظوظون الذين يكونون تحت إمرة الروح يتوجهون دوما للحصول على رضا الله وعلى الفضائل الإنسانية، وبوصلتهم تشير على الدوام نحو المحراب نفسه، ونحو الدرب نفسه.

قد يحدث عندهم أحيانا انحراف ضئيل عن الطريق، ولكنْ ندم من أعماق النفس،وأنين من أعماق الروح يكفيان لإذابة الآثام المحيطة بالقلب..إذابة هذه الآثام في أرواحهم ثم الاستمرار على الدرب نفسه وعلى الطريق نفسه... هؤلاء المحظوظون الذين يقومون بأداء جميع واجباتهم وفرائضهم حتى أدق تفاصيلها بكل عناية واهتمام، لا ينسون وهم يوفون حق أعمالهم الدنيوية ويقومون بوظائفهم فيها بكل عناية ونظام ودقة..

[1] ونحن نقيم صرح الروح، ص: 85-86

لا ينسون عالمهم الداخلي حيث يسمون ويرتفعون ارتفاع عطر البخور حتى كأنهم يشاركون الملائكة كل يوم بضع مرات في مجالسهم "[1].

المطلب الثاني: من تجليات التوازن

1. التوازن بين العقل والقلب والروح

من أعظم ما ابتلي به الإنسان في هذا العصر تشيؤه بتغليب ماديته على روحه،بل بإنكار الجانب الروحي في مساحات واسعة في بناء الأفراد والمجتمعات الحديثة، وباءت بسبب ذلك البشرية بهزائم منكرة في كينونتها الإنسانية ، ولم يغن عنها ما كسبته في دنيا العقل والمادة . من نقلة نوعية وثورات علمية. شيئا، وحاق بها قدر من الشقاء والتعاسة الخطيرة، يقول عبد الحليم عويس: " لقد قدم العقل ازدهارا ماديا وشيئا لا ريب فيه، لكنه ـ مع ذلك ـ لم يستطع أن يقدم (البديل) عن(الروح)، وكلما ارتفع منسوب عالم الأشياء،هبط منسوب الروح، وفقد الإنسان كثيرا من أركان سعادته، لقد تقدم عالمه الخارجي، أما عالمه الداخلي فهو يتداعى في كل يوم آيلا للسقوط دون أن تكون هناك تيارات روحية قادرة على إيقاف الانهيار ومنع السقوط .

إن كل الوسائل الخارجية تفقد فاعليتها ما دام داخل الإنسان متناقضا، يتآكل روحا وقلبا ويعيش تعاسة لا تنفع في علاجها الماديات الخارجية "[2].

وفي سبيل معالجة تلك الاختلالات يدعو الأستاذ فتح الله كولن إلى إعادة التوازن في داخل الإنسان لأنه إن لم يستطع العقل "الترابي" أن ينقلب إلى عقل"سماوي" فلا مناص من وقوع أقوى منطق إلى وهدة اللامنطق، لقد قاست الإنسانية منذ ظهورها حتى

[1] الموازين، ص: 26-27-28

[2] فتح الله كولن رائد النهضة الراشدة في تركيا، ص: 300

الآن من صخب النزاع بين العقل والقلب. ولو فشلنا في إقامة جسر بين العقل والقلب،ولقاء بينهما، وتأمين التناغم والتلاؤم بينهما، فإن النزاع و الخصام سيستمر"[1].

2. ميلاد جديد يأذن به تزاوج العقل والقلب

تمر البشرية بمخاض تنتظر معه مولودا جديدا، يجسد لقاء حقيقيا بين العقل والقلب، يترتب عنه عالم جديد أبرز تجلياته "الإنسان الجديد" الذي يضع عنه إصر تراكمات المادة التي حاصرت القلب وحشرته في زاوية في انتظار الإجهاز عليه أو تقييده بالأغلال على الأقل لتنطفئ فاعليته و يغيب نوره. يبشر كولن بهذا الميلاد بقوله: "فمتى استضاءت القلوب وتنورت العقول بالأنوار التي ينشرها الأنبياء، وانكفأت الجسمانية والمادية في زاويتيهما، واستقرت الفيزياء والميتافيزيقية في مكانهما الصحيح، وتقدم العقل السماوي(بتعبير مولانا جلال الدين الرومي) وعقل المعاد (بتعبير الإمام الغزالي) على "عقل المعاش" و"العقل الترابي" فقد تحقق– حينئذ– تز اوج جديد بين القلب والعقل وميلاد جديد...وميلاد خلاص الإنسان من التناقضات"[2].

لقد سعى كولن إلى تحقيق هذا التوازن في نفسه وفيمن حوله، وأصر على أن يكون مشروع (الخدمة) . بمؤسساته المتنوعة؛ تعليمية،إعلامية، فنية وغيرها. مثالا يغري المتأملين ليعجبوا من الزراع وقد استوى ما غرسوه على سوقه، يقول فؤاد البنا : " نجح كولن في إعادة الروح إلى العقل الإسلامي، وتمكن من روحنة العقل وعقلنة الروح، بحيث أعاد طاقتيهما إلى دائرة "التكامل" بعد أن انزلق بها التخلف إلى دائرة "التآكل" فكانت الثمرة غثائية مرغت وجه الأمة في أوحال الهزائم والمذلات. ولأن مشاريعنا هي انعكاس لشخصايتنا، فأول ما ظهر هذا الدمج في شخصية كولن نفسه فقد امتلك عددا من

[1] ترانيم روح، ص: 14

[2] ونحن نبني حضارتنا، ص: 67

"الموازين" الدقيقة بين مكوني الفاعلية الفردية والاجتماعية، حيث جمع بين استنارة "المفكر" و"حرارة" الداعية، وجمع بين بصر العقل و بصيرة القلب.

وبهذه المساوقة الدقيقة امتلك هذا الرجل "فكر الإرادة "و "فعل الإدارة "، فكان في كليهما سديدا ورشيدا، وكلما ضيق المسافة بين العقل والقلب ازداد ولوجا إلى عالم الإنسان حيث حقوق الناس، ليزداد عروجا في سماوات الله، لأن الله يوجد حيث البطون الجائعة والأكباد الظامئة والأجسام العليلة والأبدان العارية "[1].

لقد تمكن كولن ـ بفضل ذلك كله ـ من تبسيط قضايا فكرية وعقدية شائكة مثلت أسئلة محيرة للشباب، حيث خاطبهم بشأنها بلسان العقل ولغة القلب ونور الروح، وتلك خاصية من خصائص الأستاذ في دراساته الفكرية. يقول عبد الحليم عويس: " تحتل قضايا الروح ومسائل الوجدان مساحة كبيرة من فكر محمد فتح الله كولن وتستحوذ على النصيب الأوفى من الدروس التي يلقيها و المجالس التي يعقدها.

وقد أوتي الأستاذ قدرة على أن "يعالج أعقد المسائل الفكرية وأصعب القضايا التي تؤرق عقول الشباب وتحول بينهم وبين الإيمان الواثق العميق معالجة روحية، تحس فيها نبض قلبه و اختلاج مشاعره وحركة ضميره ولا تفتقد في الوقت نفسه صفاء العقل ودقة النظر وبراعة الاستدلال"[2].

3. المتوازن رجل إرادة وروح

يمتلك الإنسان المتوازن فن إدارة غرائزه وتوجيه صفاته نحو ترقيته ، يحمي بذلك نفسه من آثار ما ابتلي به، عندما ينتبه إلى كنزه العظيم الذي يقول عنه كولن : " إن القلب هو مرآة صقيل تتجلى فيها الحقيقة العظمى، فما أثراه من مكتبة! وما أعظمه من سجل! وما أسماه من حافظة ! لكن لمن يفهم لغته فحسب." [3]، فمن عقل هذه اللغة أوتي

[1] عبقرية كولن، ص: 87

[2] فتح الله رائد النهضة، ص: 229

[3] نحو عقيدة صحيحة، ص: 54

حكمة تحويل صفاته المضرة إلى وسيلة خير كثير لنفسه ولمن حوله، متجنبا إهدار ما آتاه ربه من قدرات؛ حيث " إن الله تعالى وضع مثلا بعض الصفات المضرة في فطرتك كالغضب والحقد والنفور والشهوة.. ولكن إن لم تستطع أي من هذه الصفات المضرة أن تتحكم فيك في أي وقت، بل على العكس من ذلك كنت قادرا دوما على التحكم فيها بإرادتك القوية، وعشت رجل إرادة وروح مؤديا الفروض والسنن متبعا طريق القلب والروح دون أن تتصيدك المظاهر البراقة الجذابة الداعية إلى طريق جهنم، كما استطعت تحمل مصاعب سلوك طريق الجنة، إذا بك ترى نفسك وقد حشرت مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين...وخصوصا في مثل هذا العصر العاصف بالفتن، والذي أصبحت فيه الأسواق والشوارع والميادين وكل المظاهر الاجتماعية الأخرى تموج بالفتن وتبتلع الإنسان و تذيبه في جوفها "[1].

المطلب الثالث: التوازن سبيل إلى الإيجابية

1. المتوازن لا يكتفي بالحديث عن الإسلام وإنما يحيا به

لقد ابتليت بعض المجتمعات المعاصرة بفريق من المتحدثين عن الإسلام،يحرصون على أن يعجب قولهم الناس، ولا يفوتون فرصة الكلام عن الدين والعلم والإيمان إلا اغتنموها مع أنهم لايسجدون لله تعالى، يصفهم كولن قائلا: " هذا النمط من الناس ينتجون الكلام دون انقطاع في شاشات التلفزيون وأعمدة الصحف والمجلات ويتكلمون عن الدين والإيمان والقرآن بينما جباههم ملوثة لم تر السجود، خاوية قلوبهم من الإخلاص، ومشوبة بالشؤم، خالية من الصدق، فهذه الأرواح البائسة لا تعلم أن تسعا وتسعين بالمائة من الدين ذات علاقة بالفرد نفسه، فإذا لم يراع الفرد هذه الأمور يعد ثرثارا

[1] النور الخالد، ص: 217

مهذارا أو مجادلا عنيفا...عليم اللسان في الماضي والحاضر ممن يتمشدقون باسم الدين والأمة والوطن من دون أن يؤدوا شيئا يذكر"[1].

إن التوازن هو الذي يمكن الإنسان من التمسك بما يذكره للناس من خصال الخير، وأهلا للثبات على مواقف الحق والإيمان، من خلال الحياة بالإسلام ومن أجله،أما من يستخدم دينه لهواه أو أهواء غيره فإنه مرشح للقيام بالأدوار المتناقضة، يقول عنهم الأستاذ: " كثيرون جدا من يمثلون الجانب الفكري للإسلام، أو يشرحونه بأسلوب أكاديمي، حتى إنه ينتج أفكارا في هذا الميدان، ولكن لأنهم لا يحيون بما يقولون، أصبحوا أثرا بعد عين، ذلك لأن سلوكهم ما كان مستقيما، وكلامهم ما كان نابعا من صميم إيمانهم، علما أنهم كانوا يشرحون "الصراط المستقيم" للناس ويدعون أنهم يرشدونهم، ولكن ما إن هب نسيم خفيف حتى اهتزت الأوساط، فكان ذلك كافيا لينتهوا كليا، بل نسوا ما كانوا يقولونه للناس، وكذبوا بكل ما يقولونه وأصبحوا في صفوف الجبهة المعادية مدافعين عنها بقوة، وفي النهاية هلكوا وانخرطوا مع المعدومين، ولكن يا للأسف مسحوا حضارة كاملة من الوجود" [2].

من الناس من تقر أ كلامه فيعجبك مضمونه، أو تسمع حديثه فيجذبك لسانه ومنطقه حتى إذا ظهرت لك مواقفه وبرزت لك حياته صدمتك بانحرافها وهبوطها وإسفافها، أولئك فقدوا التوازن في حياتهم وأولئك أفسدوا وما كانوا من المصلحين

2. التوازن بين لوثة الرياء ومصيبة الانزواء

ما دخل الرياء في عمل ـ مهما صغرأو كبرـ إلا أفسده، ولقد علمنا كتاب ربنا أن حبوط العمل مصير من أشرك. قال الله تعالى :﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ

[1] طرق الإرشاد، ص: 128 – 129

[2] المصدر نفسه، ص: 125

أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ الآية 65 . الزمر.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله تبارك وتعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه.[1]

وما ينتجه الرياء، مهما بدا قائما جميلا، سرعان ما يخبو وينتهي ولا يؤتي ثمارا طيبة. كما أن من ينزوي عن الناس ويتجنبهم ويتخلى عن واجباته، يصير آثما ويحرم نفسه ومن حوله من خيره وصالحات أعماله وحسن مواقفه. يتحدث كولن عن الفريقين فيقول : " الذين لم يحسموا الأمر مع أنفسهم ولم يلجموها بالمراقبة الدائمة، ولم يرغموا أنف الرياء ولم يسحقوا روح الافتخار ولم يجعلوه تحت أقدامهم، ولم يقلعوا من أرواحهم الكبر على الآخرين و التظاهر أمامهم...فأعمالهم لا تنفع شيئا سوى كونها مصدرا لإحداث القلاقل والاضطرابات.

ومن جهة أخرى فالذين ينسحبون من الميدان و يقبعون في زاويتهم آخذين نصيبهم من الجهاد من جهته المعنوية وحدها و يقولون: لا يصح الانشغال مع الغير قبل جهاد النفس، فهؤلاء الذين يرون إحراز درجات معنوية لأنفسهم وبلوغ المراتب الرفيعة التي يرونها فوق كل أمر، ويعزفون عن إرشاد الناس، هم بلا شك على خطإ واضح حيث يخلطون الإسلام بالروحانية الصوفية ...فما أسعد أولئك الذين يبحثون عن وسائل لإنقاذ غيرهم مثلما يبحثون عنها لإنقاذ أنفسهم، وما أسعد الذين لا ينسون أنفسهم في خضم العمل لإنقاذ غيرهم.

[1] أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الزهد والرقائق ،باب من أشرك في عمله غير الله، ح7666، م4، ج8، ص: 223

الجهاد ماض إلى يوم القيامة، لأنه مهما بذلنا من جهد في سبيل إنقاذ الإنسانية فلا بد أن يظل كفار يصرون على كفرهم. وهذا يعني استمرار الجهاد؛ إذ نحن مكلفون بتعريف ربنا الجليل إلى الناس كافة، فإن اعترض أحد سبيلنا في التبليغ وأراد أن يصرفنا عن مهمتنا الخالصة النقية فلا مفر من اللجوء إلى الجهاد المادي"[1].

3. التوازن بين تأليه الأسباب و تعطيلها

يضل الفكر ضلالا مبينا عندما يبالغ في النظر إلى الأسباب فيسند إليها كل شيء وكأنها تملك كل شؤون الخلق وليس هناك قوة توقف فاعليتها وتحول مجراها وتقدر مسراها، حيث تصبح آلهة بيدها التدبير و القرار. كما أن الإنسان يخطئ خطأ بينا حينما يهمل سنن الحياة والاجتماع الإنساني والتدافع الحضاري، ويعطل أدوات صناعة الأحداث وصياغة التحولات الفردية و الجماعية. مع العلم أن الخطاب القرآني ينبه إلى سنة الله التي شاء لها أن تؤدي إلى نتائجها الطبيعية، ولذلك علينا – كما يقول كولن " أن نقر أولا بمراعاة الأسباب لأننا نعيش في عالم محاط بها، نحن نعيش في عالم الأسباب، فإهمالها محض "جبرية" وضلالة بالحاصل، وليست مراعاة الأسباب وحدها، بل العناية بين السبب و النتيجة(قاعدة تناسب العلية) من أهم لوازم التكليف، فإن لم نعين أسس الأفكار المضرة و التيارات المفسدة بمشاعر مسؤولية جادة لنقاومها منذ اليوم، فسوف نرى في المستقبل أبعادا مختلفة للبؤس الأخلاقي والنكبة الاجتماعية والانحرافات الأخرى "[2].

وحتى نتجنب مثل هذه المآلات المحزنة وجب على الإنسان إدراك حدود واجباته وتوقير مقامات الألوهية والتسلم بعظمة الربوبية، وذلك بتحديد طبيعة العلاقة بين الخلق وخالقهم وإرادة الله تعالى المطلقة ومشيئته النافذة التي جعلت للإنسان إرادة مسؤولة تترتب عنها واجبات الاستخلاف و المحاسبة، "إذ ينبغي على الإنسان أن يقوم بوظيفته وواجبه

[1] روح الجهاد، ص: 36-37-39

[2] ونحن نقيم صرح الروح، ص: 98

ولا يتدخل في لوازم شأن الربوبية. الوظيفة مسؤولية تقع علينا، والتوسل بالأسباب هو مراجعة في حكم الدعوات المرفوعة إلى أبواب الحق تعالى. إن قبول هذه المسألة على هذا الوجه من لوازم الصفات الإلهية الجليلة، وأننا مخلوقون وهو الخالق. لكن الوجه الآخر للمسألة هو أن الله تعالى قد أمر بقبول شيء يرجع الينا، شبيه ب أمر اعتباري،كداعية إلى إرادته ومشيئته، وجعل لها أهمية، ووعد بتحقيق أعظم الأعمال بناء على هذا المخطط، وحققها...وقد خلق هذا الشيء الاعتباري وسيلة للإثم والثواب وجعله أساسا للجزاء عقابا ومكافأة، وقبله فاعلا في إسناد الخير والشر.. ومع أن هذا الأمر الاعتباري ليس معبرا عن أي قيمة في ذاته، لكنه سبحانه وتعالى أرجع إليه . باعتبار النتائج المترتبة عليه . قيما فوق القيم. ولو لم يكن كذلك لتوقفت الحياة تماما و سقط الإنسان إلى درك الجماد، وبطل التكليف وذهب كل شيء انجرارا إلى العبث، فلا بد من إيلاء الاهتمام به، ومراعاة متطلباته"[1].

إن من مقتضيات ذلك أن مسبب الأسباب لا تقيده هذه الأسباب، وأن اعتمادها من قبل الإنسان تجسيد لمعنى الإيمان بالله الذي أمر بذلك، وأن ربط النتائج المأمولة بخوارق العادات ليس مفروضا بمنطق الوحي الذي رتب الجزاء على الكسب الإنساني. يقول الأستاذ محمد فتح الله كولن :"ان حكم الأسباب أو أي شيء آخر لا يجري على الله تعالى، ولايقيد إرادته ومشيئته الإلهية. الله يحكم كل شيء. الله هو الحاكم الأحد المطلق،ومراعاة الأسباب وعد العلل وسائل صغيرة ليس إلا بأمر الله تعالى. فنؤمن بهذا الاعتبار بأن الإنسان سيعاقب إن خالف الشريعة الفطرية بسنة الله عقابا معظمه في الدنيا وقسم منه في الآخرة... وما أحكم جواب الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه "نفر من قدر الله إلى قدر الله" حينما استشكل تأليفه امتناعه عن دخول مدينة انتشر فيها الوباء مع الرضا بالقضاء و التسليم للقدر.

[1] ونحن نقيم صرح الروح، ص: 21

وإن تعطيل الإرادة والاختيار، وانتظار النتيجة بسلسة من الخوارق في عالم لا يأبه بالمعتاد هو قناع الأحلام و المسكنة. ألا ينذرنا القرآن الكريم مرارا وتكرارا ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ ـ ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾. وأن ما يلقاه الإنسان من خير و شر هو بعمله وفعله و تصرفه؟"[1].

إن الإيمان بكرامات أولياء الله وأصفيائه معتقد سليم ما لم يتحول إلى عائق عن القيام بواجب استكمال الأسباب واحترام سنن التأهل لهذا اللطف الإلهي، يؤكد على ذلك محمد فتح الله بقوله: "ومعلوم أن على المؤمنين أن يؤمنوا بإمكان وقوع ألطاف الحق تعالى منة منه وفضلا..لكن عليهم أيضا أن لا ينسوا البتة أن الوسيلة إلى استمداد هذه العناية هي الهمة و المجاهدة، وقد تفضل الله تعالى بتذكيرنا في الآية الكريمة : ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ الآية69 العنكبوت، بأن الألطاف التي يخلقها ويظهرها تقترن بعزم الإنسان وإرادته، فنبهنا إلى أهمية الجهد و المثابرة في نفس الوقت الذي قطع فيه السبيل أمام الشرك، فكأن السعي و الجهد من أمارات توفيقه و توجهه الخاص"[2].

4. التوازن بين أهل الفقه و التصوف

يدعو الأستاذ محمد فتح الله كولن إلى تكامل مدارس الأمة و تياراتها، و يرى ضرورة الجمع بين الفقه والتصوف والعلم والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،لأن هدفه الذي يسعى إليه هو تكوين "أطباء منفتحة قلوبهم على الروح والمعنى،منطلقون في مساحات العلم والذكاء والعرفان والواردات والفيوضات كلها، من الفيزياء إلى الميتافيزيقا، ومن الرياضيات إلى الأخلاق، ومن الفنون الجميلة إلى

[1] ونحن نقيم صرح الروح، ص 21 – 22

[2] ونحن نبني حضارتنا، ص: 186

التصوف، ومن الكيمياء إلى الروحانية، ومن الفضائيات إلى الأنفسية، ومن الحقوق إلى الفقه، ومن السياسة إلى السير و السلوك."[1]

وللفقه مجاله الذي لا ينوب عنه غيره فيه وهو يحدد الجواب الشرعي لحركة الأفر اد والمجتمع والأمة ويعين الموقف السليم الواجب اتخاذه انطلاقا من مصادر الشريعة المعتمدة، كما أن للتصوف مهامه في التركيز على نيات المتعبدين وبواطنهم ودوافعهم وقلوبهم لتحقيق جوهر ومقصد مطالب الشريعة من المكلفين، فالأول يعلم الإنسان "كيف يتعبد و يتطهر للعبادة، وكيف يقيم الصلاة وكيف يصوم وكيف يزكي وعلى أي أساس يستند في معاملاته، بينما الآخر . فضلا عن هذا . يؤكد و باهتمام بالغ على علاقة جميع العبادات والطاعات والمعاملات بالقلب والروح، فيبحث عن طرق رقي الإنسان "الصورة" إلى الإنسان "السيرة" أي المعنى، ويوصي بالطرق المؤدية إلى الإنسان الكامل، وعلى هذ ا الأساس فلا يمكن إهمال أي من الجهتين"[2].

يعترف الأستاذ بأخطاء صدرت من بعض مكونات الفريقين، ويدعو إلى تجاوزها وعدم الالتفاف إلى المتعصبين والمنحرفين فيهما [3]. ويشيد بمن حاول الجمع بين المدرستين و يؤكد السير على نهجه، كما فعل أبو حامد الغزالي حيث "آلف مرة أخرى بين هذين التيارين المباركين من خلال كتابه القيم :(إحياء علوم الدين) "[4].

[1] ونحن نبني حضارتنا، ص: 26

[2] التلال الزمردية، ص: 20

[3] المصدر نفسه، ص: 22-26

[4] نفسه، ص: 21

المبحث الثالث: مركزية مؤسسة الأسرة في الإصلاح عند كولن

المطلب الأول: نظرة كولن إلى الزواج والأسرة

1. الزواج شيء فطري وهدفه سام

من آيات الله سبحانه أن خلقنا من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها،ومن خلالهما يستمر النسل ويتكاثر ليعمر الأرض ويؤدي وظيفة الاستخلاف، قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ الآية 1. النساء.ذلك أنه " عندما خلق الإنسان خلق مع أليفه وصديق حياته. ولم يبق وحده إلا مدة قصيرة. لذا فإن خلقه مع زوجه يدل على أن الزواج شيء فطري للإنسان،وأهم هدف لهذه الوظيفة الفطرية هو التناسل. لذا فإن لم تكن الذرية هدفا للزواج،كان ذلك الزواج عبارة عن مغامرة وتسلية وبقصد اللذة فقط. أما الأطفال الذين يأتون من هذا الزواج فليسوا إلا ضحية للحظة لذة "[1].

ويرى الأستاذ أن ما يحصله الزوجان من لذة السكينة الجنسية ليس هدفا مقصودا لذاته بل وسيلة لتحقيق أهداف سامية مرتبطة بالإنسان والعمران: "ليس الزواج من أجل الحصول على اللذة، بل هو لتشكيل أسرة، ولتأمين بقاء الأمة ودوامها ولإنقاذ أحاسيس الفرد وأفكاره من التشتت، وللسيطرة على أهوائه وغرائزه الجسدية. وكما في مسائل فطرية عديدة، فإن اللذات ليست إلا جوائز للترغيب "[2].

ولأجل ذلك ينبه إلى عواقب الإعراض عن الزواج، ويقرنه بالزواج الذي لم يحقق هدفه فيقول:" إن كانت فائدة الزواج بالنسبة للفرد فائدة واحدة ففوائدها للأمة جمة، لذا فإن

---

[1] الموازين، ص: 50

[2] المصدر نفسه، ص: 145

أضرار عدم الزواج عديدة، مثله في ذلك مثل الزواج الفاشل حيث تصبح الفتاة بائسة والشاب ضائعا. وهو مرض ينخر في جسد الأمة كالكوليرا"[1].

وقد اعتذر كولن لعائلته ومحبيه عندما نصحوه بالزواج، بأنه لا يرى أنه قادر على الجمع بين ما ابتلي به من هم الأمة والخدمة وبين القيام بحقوق الزوجة والأسرة.

2. ضرورة الإعداد الجيد لإنجاح الزواج

إن تحقيق أهداف الزواج السامية رهين بالخطوات التي تم سلوكها والإجراءات المتخذة من أجل ذلك، ومن ثم ينصح الأستاذ محمد فتح الله كولن بوجوب الارتفاع إلى مستوى جدية هذه العلاقة المقدسة(الميثاق الغليظ)، وتجنب التعلق بالمظاهر والأشكال؛"يجب ألا يكون هم المقبلين على الزواج المظهر الخارجي لرفيق العمر أو ملابسه وقيافته و ثروته أو جماله الخارجي، ففي هذا الأمر الجدي والخطير يجب أن يتم اتخاذ القرار على أساس من الفهم لجمال الروح والفضيلة والأخلاق والسلوك العالي"[2].

وعندما لا يؤخذ هذا المشروع العظيم بقوة وحكمة وتبصر مع استشارة أولي الأبصار واستخارة الله الكريم المتعال، لن تتلو خطوة الزواج إلا آلام وندم وحسرة، لأن "الذين لم يقوموا بالتدقيق والبحث الضروري قبل الزواج، أو لم يجدوا الفرصة لذلك لن يفيدهم شيء ولا أي إرشاد عندما يصل الأمر إلى مرحلة الطلاق.

أجل! فالمهم هنا ليس إنقاذ الأسرة من الحريق بأهون الأضرار، بل المهم عدم إدخال ما يسبب الحريق إلى البيت"[3].

لأجل ذلك يدعو كولن إلى عدم التسرع في الزواج إلا إذا كانت المعطيات المتعلقة بالطرفين واضحة بحيث يتم الاقتران عن بينة ويتأسس الاجتماع في عش الزوجية على بصيرة، فلا مجال للمغامرة بخطوة رئيسة في الحياة في جو من الجهل والغموض؛ ومن ثم

[1] الموازين، ص: 146

[2] المصدر نفسه، ص: 145

[3] نفسه، ص: 145

يتعين " أن لا نعطي أي بنت لمن لا نعرفه، ولا نطلب يد أي بنت لا نعرفها، فأي عقد نكاح يتم في ظل مثل هذه المجاهل سيكون مصيره إما الطلاق الذي هو أبغض الحلال إلى الله، وإما أسرة محكومة بحياة معذبة طوال العمر.

كم من أسرة مباركة أسست من اللحظة الأولى ـ باللجوء إلى الحق تعالى ـ على أساس سليم من العقل والمنطق فأصبحت طوال حياتها بمثابة مدرسة تخرج طلابا نافعين يعدون ضمانا لبقاء أمتهم ودوامها " [1]، وكم من "زواج لا يتم بتفكير وتمحيص لا يخلف وراءه سوى أزواج بعيون دامعة وأطفال في ملاجئ الأيتام وجرائم تفتت القلوب والأكباد"[2].

ومن ثم لابد من التأسيس لهذه العلاقة بالتخطيط المحكم يقول الأستاذ "ولو أن لي من الأمر شيء لما أذنت بالزواج لأحد دون أن يلم ببعض الكتب ويشارك في بعض الدورات حول هذه المسألة، ولألزمته بدورة تدريبية شهرا أو شهرين على الأقل ليتعلم أهمية الحياة الزوجية، ومهامها وحقوقها وواجباتها[3]

3. صلاح الأسرة جسر رئيس لإصلاح المجتمع والأمة

ينطلق فتح الله كولن من فكرة مركزية في الإصلاح مؤداها أن المجتمع والأمة سلسلة مترابطة من العائلات ذات العلاقات المؤسسة على قواعد أصيلة ومتينة وعميقة،كل فرد فيها وكل بيت فيها عنصر من عناصر الصلاح. إن "الأمة عبارة عن مجموع العائلات والأسر. لذا فالأمة التي تملك بيوتا صالحة تكون صالحة، والتي تملك بيوتا فاسدة تكون فاسدة. ويا ليت الذين يرومون صلاح الأمة يبدءون بإصلاح الأسر والبيوت قبل كل شيء آخر"[4].

---

[1] الموازين، ص: 145-146

[2] المصدر نفسه، ص: 146

[3] شد الرحال لغاية سامية، ص:91

[4] شد الرحال لغاية سامية، ص: 146

والبيت محطة أساسية يجلي فيه المرء صدق وفائه وولائه للقيم الأخلاقية التي يؤمن بها، ومجال يترجم فيه بوضوح قناعاته بل هو فرصة لتطوير إبداعاته في تنزيل ما يرفعه من شعارات التجديد والإصلاح وخدمة الأمة. يقول الأستاذ محمد فتح الله كولن: "البيت يكون بيتا حسب الأفراد الذين يعيشون فيه. أفراد البيت يكونون سعداء بنسبة ما يتحلون به من صفات ومن قيم إنسانية. أجل ! نستطيع القول بأن الإنسان بفضل بيته يستطيع العيش كإنسان. والبيت يكون بيتا بالأفراد الذين يعيشون في ظله"[1]

ومن أهم مقاييس الأهلية لحسن إدارة المؤسسات نجاح الإنسان في قيادة مؤسسة الأسرة وفن إدارة شؤونها؛ "إن البيت أمة صغيرة، والأمة بيت كبير. والشخص الذي ينجح في إدارة بيت . كبيرا كان أم صغيرا . إدارة صحيحة ويرتفع بأفراد ذلك البيت إلى المستوى الإنساني اللائق، يستطيع ببذل جهد صغير القيام بإدارة مؤسسات أكبر إدارة ناجحة "[2].

ولقد وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السبيل الأقوم كل من يريد بصدق التحلي بالخيرية والخلق فقال:"خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهل ي"[3]، فما أيسر أن يتكلف المرء الظهور بالخلق الحسن بين الناس، لأن ذلك مؤقت، وما أعظمه عندما يكون ذلك سمتا ثابتا مع أهله وولده.

ومن ثم يشعر الجو العام للبيوت بطبيعة ساكنيها ف ."الفوضى الموجودة في بيت يدل على فوضى ساكنيه وعلى بؤس البنية الروحية عندهم. كما أن وساخة الشوارع

[1] الموازين، ص: 147

[2] المصدر نفسه، ص: 147

[3] سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، تحقيق صدقي جميل العطار، ط1، دار الفكر،بيروت 2005، كتاب الزهد، باب فضل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم،ح 3921، ص: 1101

والأزقة والدكاكين والبيوت في أي مدينة وعدم انتظامها إشارة إلى اعتلال أمزجة كادر مؤسسة البلدية فيها"[1].

ونظرا لأهمية الأسرة ومحوريتها في احتضان أفرادها فإن كولن يحذر من هدمها لأتفه الأسباب أو عن طريق قرار متسرع اندفاعي بالطلاق: "كل طلاق مزاجي ندم للمطلق وظلم للمطلقة ومصدر شقاء لأفراد الأسرة يدوم طوال الحياة كنزيف جرح غير مندمل"[2].

ذلك أن مؤسسة الأسرة هي المحضن السليم لتنشئة ورعاية وتأهيل صانعي الحضارة الراشدة، وخزان إمداد الأمة برواد الإصلاح والتجديد والبناء، ومنبع إنتاج رواحل الانبعاث من جديد، فكيف يتم التهاون في وسيلة هذا شأنها؟!

ولقد أكد الأستاذ محمد فتح الله كولن على الرهان على قوة الأسر وصلاحها إذا أراد المنادون بالإصلاح خدمة أمتهم خدمة حقيقة، ذلك أن "الأسرة المؤسسة على أسس متينة منذ البداية هي عش ترفرف عليه السعادة المادية والمعنوية وحجر الزاوية لبقاء الأمة ودوامها على أساس متين ومدرسة مباركة ومثمرة، وجعلت مدارسها بدف ء البيوت تكون قد أنجزت أفضل حركاتها الإصلاحية، وأمنت سعادة وطمأنينة أجيالها القادمة"[3].

[1] الموازين، ص: 147

[2] المصدر نفسه، ص: 147

[3] نفسه، ص: 146

المطلب الثاني: نحو أسرة بانية

1. تنوع أفراد الأسرة وتكاملهم شرط أساس لكل أسرة نواة للإصلاح

التنوع من آيات الله تعالى التي يف قهها أولو الألباب ويوظفونها لتحقيق التكامل وإنجاز الأهداف المشتركة، خصوصا بين المرأة والرجل، عندما تحترم أدوارهما ويؤهل كل منهما وفق خصائصه ليحقق ما يسر له، وإلا فإن خلط مواقعه ما وعدم مراعاة إمكانيتهما وطبيعة تكوينهما، سيؤدي إلى فوضى في الحياة. يقول كولن:"خلق الله تعالى الأشياء كلها على أساس الموجب (+) والسالب (−)، فالأشياء المتشابهة تتنافر، وفي أجزاء الذرة لولا وجود قوة كبيرة تمسك هذه الأجزاء لكان من المفروض أن تتنافر الأجزاء المتشابهة. وهذا القانون نراه جاريا اعتبارا من أجزاء الذرة ووصولا إلى المجرات. أما الإنسان المتآلف من ذرات فهو عنصر توازن بين العالم الصغير(الذرة) وبين العالم الكبير(الكون)، فيتبع القانون نفسه. أي يجب أن يكون فيه زوجان مختلفان اثنان لكي يتم التجاذب بينهما. فالضعف والحنان من أحدهما والقوة من الآخر، هو الذي أدى إلى تآلفهما وتكوينهما العائلة.

إن تحويل المرأة إلى رجل، أي صنع امرأة مسترجلة لم يعد اليوم يقابل إلا بالسخرية أو بالامتعاض. وبعد أن أخرجوا المرأة من أنوثتها وجعلوها مسترجلة بدأت المرأة تخاصم الرجل، ففقدت العائلة رئيسها وطمأنينتها، وفقد الأبناء جو العائلة، لأنهم وضعوا في المحاضن وفي دور رعاية الأطفال. أما الآباء والأمهات فهم في جو آخر يركضون وراء متعهم"[1].

ينتقد كولن ثقافة تشييء الأنثى واستغلالها من قبل أهل الغفلة وأهل الضلال الذين يستخدمونها "كمصيدة لإغواء الرجل. وقد ابتذلت المرأة في هذا القرن العشرين ابتذالا لم

[1] أسئلة العصر المحيرة، ص: 93

يشهده أي عهد و أي عصر.فاستخدامها في أكثر الإعلانات ابتذالا لكي تكون مؤثرة وجعلها أداة طيعة مؤشر لضعفها"[1].

ويرى الأستاذ أن "حقوق المرأة المقدمة من قبل أنصار المرأة FEMINISM لا تفيد إلا في الهبوط بمنزلة المرأة من مكانتها السامية وإهانتها وجعلها تحت الأقدام. واسترجال المرأة عملية حمقاء تشبه تجول أحدهم عاريا في الشتاء ولبس المعاطف في الصيف. فالمرأة عزيزة ما بقيت في موقعها الصحيح، والرجل يستحق الاحترام ما بقي داخل حدوده ولم يتجاوزها. والذين يريدون تبديل مواقعهم يتعرضون إلى لعنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأنهم يصادمون الفطرة " [2]، ولأنهم "لا يفعلون بنا سوى دفع المرأة إلى طريق الرغبات الجسدية وطعن حياتها المعنوية والروحية" [3]. وهذا لا يؤدي إلا " إلى تهوين شأنها ونزع برقع حيائها وتشويه طبيعتها، هذا مع العلم أن المرأة حلقة مهمة جدا في سلسلة الوجود، وأهم جانب عندها هو ضرورة احترامها لطبيعتها وفطرتها والبقاء ضمن إطارها "[4].

2. القوامة والتفاضل التكاملي بين الزوجين

إن إسناد مسؤولية إدارة مؤسسة الأسرة إلى الرجل تكليف وفق مكوناته وخصائصه لأنه "يفضل المرأة في نواح عديدة، ولكن يجب تقييم هذا التفاضل والنظر إليه كالتفاضل الموجود بين أعضاء الجسم الواحد. فإذا كان الرجل مثلا في موضع العين كانت المرأة في موقع الأذن، وإذا كان الرجل في مرتبة الدماغ كانت المرأة في مرتبة القلب، أي هناك رابطة وثيقة بينهما، فالقلب يضخ الدم ليعيش الدماغ، وإذا حدث نزيف في الدماغ مات القلب. فحياة كلا العضوين متداخلة، وهما يشكلان عضوين مختلفين ولكن لجسد واحد.

---

[1] أسئلة العصر المحيرة ، ص: 125

[2] المصدر نفسه، ص: 183

[3] الموازين، ص: 140

[4] المصدر نفسه، ص: 141

ومع هذا لا نستطيع إنكار تفوق الرجل على المرأة إن نظرنا إلى الموضوع نظرة كلية وشاملة. الرجل يقضي عامه كاملا في فعالية ونشاط، ويقوم أحيانا بأشق الأعمال، وهو أقوى من المرأة من الناحية الجسدية والنفسية، وتسند أشق الأعمال إلى الرجل حتى في الغرب، فعمال المناجم من الرجال على الدوام. أما المرأة فهي تحيض ـ بحكم طبيعة تكوينها ـ أياما معدودات في كل شهر، وفي حالة النفاس تبقى ملازمة للفراش ما يقارب الشهرين وهي أضعف من ناحية القوة الجسمية وقوة الإرادة، ولا تستطيع حضور جميع المحافل الاجتماعية في جميع الأوقات...

ومع ذلك فإن من نافلة القول أن المجتمع يحتاج إليهما معا. المرأة تسبق الرجل في حدسها وشفقتها وحنانها لذا وكلت إليها رعاية الأطفال، والأب لا يستطيع القيام بهذا ولكنه أقوى تحملا ضد الضغوط الخارجية للأحداث، لأنه مؤهل للقيام بأشق الأعمال.

المرأة هي التي تربي النشء الجديد. فبتربية وتعليم جيدين ترفع هذا النشء إلى أوج الإنسانية. والرجل يقضي أكثر أوقاته خارج البيت. أما المرأة فهي في البيت منذ الصباح وحتى المساء مشغولة بأطفالها وتربيتهم التربية الصحيحة. والأمهات هن مربيات الأبطال والرجال العظام ومفاخر الإنسانية. فإن قامت المرأة بالعمل ضمن المجال الذي تظهر فيه ميزاتها وقابليتها وقام الرجل ضمن ساحة قابليته كانت الأسرة جنة من جنات النعيم.

وإذا كان لعمل الرجل جوانبه الصعبة فيجب أن نقول الشيء نفسه بالنسبة لعمل المرأة، ولكن قوامة الرجل في البيت المستندة إلى قاعدة(المغانم بحسب المغارم) تضع على كاهل الرجل مسؤولية ثقيلة أخرى،لذا كان الإنفاق على المرأة والأولاد وتحمل جميع مصاريف البيت ضمن واجبات الرجل ومسؤولياته "[1].

[1] أسئلة العصر المحيرة، ص: 181-182-183

3. محورية المرأة الصالحة في صياغة الأسرة البانية

يقرر الأستاذ محمد فتح الله كولن أن "المرأة هي المعلمة الأولى لمدرسة الإنسانية،فهي التي تقوم بتعليم الأطفال وتربيتهم وبتأمين النظام والسعادة والتفاهم في البيت"[1].

ويؤكد على أن "المرأة الواصلة إلى النضوج الروحي تستطيع إدامة الأجواء العطرة لبيتها بالخلق الصالح لها. لذا يظل بيتها مكانا فوق كل وصف، مكانا يشبه الجنة في أجوائها وعطرها وسعادتها" [2]، بل يعتبر "البيت الذي توجد فيه امرأة شريفة وذات تربية ومتعلقة ببيتها وعشها هو قطعة من الجنة " [3]، وخصوصا عندما ترتقي في سلم العلم والتزكية والوجدان لأن "المرأة التي فتحت قلبها لنور الإيمان، وعقلها للعلم وللتربية الاجتماعية تضيف كل يوم جمالا جديدا لبيتها وكأنها تنشئه من جديد، أما السفيهة فتقوم بهدم البيوت القائمة وتحويلها إلى خرائب ومقابر"[4].

ويحذر كولن من إهمال تربية الأنثى لما في ذلك من عواقب آثمة ومهلكة للأسرة والمجتمع قائلا: "مع أن المرأة لم توسع ملكاتها الروحية مع نمو جسدها تبدو كزهرة تزين الرؤوس مدة من الزمن، إلا أنها سرعان ما تذبل ذبول أوراق الخريف، فتقع على الأرض وتدوسها الأقدام فما أفجعها من نهاية للذين ضلوا طريقهم فلم يجدوا الطريق الموصل إلى الحياة الأبدية"[5].

إن الأصل في الأنثى البانية الإيجابية تزكية روحها وتطهير عالمها الذاتي وتحلية سلوكها ومواقفها بالحياء لأن "الشيء الذي يرفع بالمرأة إلى مستوى أعلى من الملائكة

---

[1] الموازين، ص: 137

[2] المصدر نفسه، ص: 140

[3] نفسه، ص: 137

[4] نفسه، ص: 140

[5] نفسه، ص: 139

ويجعلها أثمن من الماس هو عمق عالمها الداخلي وعفتها ووقارها. فالمرأة غير العفيفة تشبه عملة زائفة، والخالية من الوقار لعبة وموضوع استهزاء. وفي الجو الخانق لأمثالهن لا يمكن الحديث عن عش صحي ولا عن جيل صحي"[1].

إن المشكلة الأساس تتجلى في التركيز على المرأة (الشيء) و(المتاع المادي) وعدم الاهتمام بعفتها وشرفها وتأهيلها للارتفاع إلى مستوى وظيفتها وتحمل مسؤوليتها في بناء أعظم ثروة(الإنسان). يقول كولن:" إن الإنسان عندما يرى أحيانا امرأة مسحوقة تحت مظاهر الزينة لا يملك إلا أن يتساءل: ترى هل تلقى العفة والشرف والفضيلة التي هي زينتها الداخلية كل الاهتمام لديها؟"[2].

لذلك ينبه الأستاذ محمد فتح الله كولن إلى استرجاع المرأة دورها الحضاري،ومهمتها المركزية في البناء والإصلاح والتجديد، من خلال استلهام مساهمتها الرئيسة في بسط نور الوحي على مساحات غير يسيرة من الأرض، يوضح ذلك بقوله: "المرأة عندنا أساس متين في شرف الأمة ونجابتها. وحصتها في إنشاء تاريخ أمتنا المجيدة لا تقل بحال عن حصة المجاهدين الذين قاتلوا الأعداء وفتحوا البلدان"[3].

المطلب الثالث: وجوب رعاية جيل البناء والمستقبل

1. صياغة مستقبل الأمة تبدأ من رعاية الطفولة

إن الذين يريدون صياغة حياة جديدة ومستقبل بديل لواقع مرفوض ، ملزمون بالتفكير في إطار زمن جيل كامل، ليتم الإعداد الجيد لإعادة الشاكلة الثقافية، وغد المجتمعات يصنعه أبناء اليوم، كما أن حاضرها صاغته أجيال الأمس، ومن هنا تأتي

[1] الموازين، ص: 138

[2] المصدر نفسه، ص: 137-138

[3] نفسه، ص: 140

أهمية العناية بالطفولة حاضنة مشاريع الأمة القادمة. يقول كولن: "أطفالنا الحاليون سيكونون بعد (30–40) سنة أكثر شرائح المجتمع تأثيرا وإنتاجا وفاعلية. وعلى الذين ينظرون إلى الأطفال نظرة استصغار واستهانة أن يدركوا مدى استهانتهم بعنصر هام من عناصر الأمة وأن يخجلوا لذلك.

ما نراه اليوم من سوء في أجيالنا الحالية، ومن عدم قابلية في بعض الإداريين عندنا وما تعيشه أمتنا من مصاعب...المسؤولون عن هذه المشاكل هم الإداريون عندنا قبل ثلاثين سنة. أما المسؤولون الحاليون عن التربية وعن التعليم فسيكونون هم المسؤولين عن كل مشكلة أو فاجعة، وكذلك عن كل فضيلة وكل خير"[1].

إن معاناة المجتمع ستتضاعف في المستقبل إذا لم يتم تدارك الموقف ومعالجة النزيف، ذلك أن "الذين يعدون الآن وصمة عار في جبين المجتمع من الأشرار والسكيرين والفوضويين ومدمني المخدرات هم الذين تم إهمال ترتبيهم عندما كانوا أطفالا. وأمام إهمالنا الحالي لا أدري هل فكرنا بنوعية الجيل القادم الذي سيملأ ساحاتنا وشوارعنا غدا؟"[2].

وفي سياق التحذيرات من إهمال الطفل تظهر خطورة إسناد تربيته وصياغة تفكيره وصناعة أحلامه إلى أيدي الغرباء عن ميراث الأمة وجذورها المعنوية، فالطفل "يمثل بالنسبة لنسل الإنسان ما تمثله البذرة لاستمرار نوع ونسل الشجرة. والأمم التي تهمل أطفالها محكوم عليها بالانقراض. والأمم التي تدع أطفالها في أيدي الأجانب وتحت تأثير الثقافات الأجنبية سرعان ما تفقد هويتها "[3].

إن المجتمعات التي لا تملك حاضرها يستحيل أن تقدر على صناعة مستقبلها،وإذا أهملت خميرة نهضتها الحضارية لن تتمكن من صياغة انبعاثها من

[1] الموازين، ص: 82–83

[2] المصدر نفسه، ص: 83

[3] نفسه، ص: 82

جديد،ولذلك وجب العناية بتنمية قابليات الأطفال والصبر على ذلك حتى تؤتي ثمارها،ذلك أنه "عندما تقلم الأشجار، أو عندما تراعى تربية الحيوانات رعاية صحيحة نحصل على ثمرة هذا الاهتمام، ويستمر نسل تلك الشجرة وذلك الحيوان. ولكن عندما تترك الأشجار أو الحيوانات دون رعاية واهتمام لا نستطيع الاستفادة منها الاستفادة المطلوبة. إذن ألا يستحق الإنسان المرسل إلى الدنيا بألف قابلية بذل الاهتمام والرعاية التي نبذلها لشجرة؟"[1].

وعندما يقوم الآباء والأمهات بواجبهم على نحو صحيح نحو أبنائهم ويربونهم "تربية صالحة بحيث يكونون ذوي فائدة لأنفسهم ولمجتمعهم فإن الأمة تكون قد ملكت ركنا قويا ومهما. أما إن كان العكس؛ أي أهملوا تربية مشاعر وأحاسيس أبنائهم تربية صالحة فكأنهم يدفعون إلى المجتمع حشرات ضارة "[2].

إن طبيعة النشء وروح التنشئة الاجتماعية السائدة هي المحددة لصلاحية أمة من الأمم، ويتحدد انتهاء تاريخها أو يمتد حسب مواصفات الأطفال والثقافة التي تؤطرهم. يقول كولن: " إن بقاء أمة ودوامها مرتبط بالأجيال التي تنشئها... بالأجيال الصالحة المتشربة بروح الأمة. والأمة التي تفشل في تنشئة الأجيال الصالحة التي تستطيع إيداع مستقبلها بين يديها...مستقبل مثل هذه الأمة مستقبل مظلم"[3].

إن الحيلولة دون هذا المستقبل المظلم هدف كبير يستدعي نفيرا تربويا عاما ومضاعفة الجهود وتركيزها في عا لم الطفولة، وعدم صرفها إلى جهات أقل شأنا في صياغة الغد. فعلى "كل أمة تريد ضمان مستقبلها توجيه بعض عنايتها إلى تربية وتنشئة أطفالها الذين سيكونون رجالها في المستقبل بدل تبذير طاقتها وسنواتها هنا وهناك. ومع

---

[1] الموازين، ص: 51-52

[2] المصدر نفسه، ص: 51

[3] نفسه، ص: 51

أن الكثير من الجهود المبذولة هنا وهناك ستذهب أدراج الرياح، إلا أن أي جهد مبذول في سبيل تربية الأجيال يكون مصدرا لا ينضب من الخير"[1].

يربط الأستاذ محمد فتح الله كولن بين مستقبل الأمة وبين مؤسسة الأسرة وشكل التربية التي يتلقاها الأطفال أكثر من ربطه بالتطور التقني والتقدم العلمي، ويجزم بأنه "لن تكون الأمم المتقدمة في التقنية وفي التكنولوجيا هي الأمم المسيطرة في المستقبل بل ستكون هذه السيطرة في يد الأمم التي تهتم بمؤسسة الزواج ومؤسسة العائلة والتي تنجح في السمو بأجيالها الى مستوى الإنسانية الحق. أما الأمم التي لا تعير أهمية لمؤسسة الزواج والولادة ولا تهتم بتربية أجيالها حسب فلسفتها في التربية والتوجيه فمحكوم عليها بالتحلل والذوبان بين فكي الزمان الذي لا يرحم" [2]، وهذا يقتضي ربط الأطفال بجذورهم المعنوية وتمكينهم من حسن التعامل مع القرآن من خلال استحضار عظمة المنزل سبحانه وحضور رسول الله صلى الله عليه وسلم.[3]

2. الشباب قوة لابد من توجيهها

الأصل في مرحلة الشباب هو القوة والاندفاع والمغامرة والطموح، ومتى تمكن الموجهون والمصلحون من تسديد حركته وترشيد طاقاته استطاعت المجتمعات الاستفادة من خيراته. يقول كولن: "الرجل الشاب مصدر أمل للقوة والقدرة والذكاء. فإن تم الاهتمام بتربيته وتنشئته أصبح (هرقلا) يتغلب على المصاعب ورجل فكر ينير القلوب ويعيد ترتيب الأمور وتنظيمها "[4].

من أهم ما يحتاجه الشباب أن تيسر له القدرة على الترجيح حتى يتمكن من حسن الاختيار بين الهدى والهوى خصوصا وأنه يمر بمرحلة يصعب فيها مقاومة إغراء

---

[1] الموازين، ص: 83

[2] المصدر نفسه، ص: 81

[3] L'Education religieuse de l'enfant, M. Fethullah Gülen , Editions Du Nil 2011, p 15

[4] الموازين، ص: 81

الشهوات المدعمة بالشبهات، يقول كولن: "والأهواء تشبه الحلويات، أما الفضائل فتشبه أطعمة فيها بعض الملوحة. لذا أهناك حاجة لتخمين الصنف الذي سيختاره الشباب والصنف الذي سيتركه إن أعطيت له حرية الاختيار كاملة؟ هذا مع العلم بأننا مضطرون لتنشئتهم بحيث يكونون مع الفضائل وضد الرذائل وضد السقوط الأخلاقي" [1]، و"حتى اللحظة التي نصل فيها بالتربية إلى نجدة الشباب نراه في المحيط الذي نشأ فيه يحوم بجنون حول الأهواء والشهوات بعيدا عن البصيرة وعن العلم والمنطق. ولكن إن أعطيت له تربية تربطه بجذوره وتهيئه للمستقبل انقلب إلى شباب يعكس شعور الأمة وفكرها ويمثلها"[2].

وكما ربط الأستاذ كولن بين الطفل ومستقبل الأمة، يركز على أهمية رعاية الشباب ومتلقياته الثقافية، والعلمية والتربوية، فيقرر "أن تقدم الأمة إلى الأمام أو تراجعها إلى الوراء وانحطاطها مرتبط بالتربية والروح والشعور الذي تتشربه أجيالها الشابة، فطريق التقدم مفتوح دوما أمام الأمم التي تعد شبابها إعدادا جيدا. أما الأمم التي تهمل شبابها فلا تستطيع أن تخطو خطوة واحدة إلى الأمام"[3].

ومن أهم مؤشرات معالم مستقبل المجتمع والأمة مواصفات جيل الشباب الحالي وطرائقه في التفكير والتصرف والسلوك والمواقف، فعلى "الذين يرغبون في معرفة مستقبل أي أمة والتنبؤ به القيام بالنظر إلى التربية المعطاة إلى شباب تلك الأمة؛عند ذلك يستطيعون التأكد بأنهم يستطيعون هذا وأن أحكامهم ستكون صحيحة مئة بالمائة"[4].

ينطلق الأستاذ كولن من قاعدة قوة الشباب ويوجه أنصاره ومحبيه إلى إتاحة الفرصة للشباب لكي يقتنعوا ويفهموا، لأنهم إن يفعلوا تفتح لهم القلوب والعقول، وسيتم

---

[1] المصدر نفسه، ص: 81

[2] نفسه، ص: 82

[3] نفسه، ص: 82

[4] الموازين، ص: 82

اختصار الجهود. يقول كولن: " لقد عجزنا أن نعرض الحقائق لشبابنا بصورة مقنعة،وأهملنا شبابنا وشباب العالم أجمع، وهم بحاجة إلى الرسالة التي نحملها أكثر من حاجتهم إلى الهواء والماء. وعندما نقارن ما نحن عليه بما كان عليه الصحابة الكرام الذين حملوا مشعل الهداية إلى أنحاء الأرض كافة في مدة قصيرة، وبجهود الذين اتبعوهم بإحسان، يظهر بوضوح مدى كسلنا وخمودنا وجمودنا. كان ديدنهم البحث عن القلوب والأنفس المتعطشة للهدى والنور وجعلوا حمل هذا النور للناس غاية حياتهم"[1].

خلص كولن من خلال حواراته وتجاربه الدعوية مع الشباب إلى "أن افتقار هؤلاء الفتيان إلى العاطفة الصادقة التي تتفهم أوجاعهم ومشاكلهم وما يعانونه من إحباطات،هو الذي يحول دون إصغائهم لمخاطبيهم مهما أوتوا من بيان وقوة وإقناع. وقد دفعه ذلك إلى الإنصات إليهم، ومشاركتهم آلامهم وآمالهم والانكباب على دراسة مشاكلهم، فلما أحسوا منه صدق التوجه إليهم، آثروه بالإصغاء، واختاروه معلما ومرشدا"[2].

[1] نحو عقيدة صحيحة، ص: 185

[2] الضاربون في الأرض، ص: 32-33

الفصل الثالث

العمل الجماعي:

ضوابطه وتفعيله

تقديـــم

يكتسي عمل الصالحات ضمن فريق الصالحين أهمية خاصة في عمليات التجديد المعاصرة، حيث يرتقي بذلك جهد الأمة الجماعي إلى مستوى مقتضيات الخطاب الشرعي الذي يستهدف بناء الفرد والجماعة وتأهيلهما لإنجاز واجبات المرحلة.

ولقد أفلح من تزكى وذكر حالة المجتمع وترقى، وطهر نفسه وسعيه من أنانيته وهواه، وبذلك يتحقق البعد الجماعي لجهود الأفراد.

إن الذين فقهوا محدودية جهودهم الذاتية ـ مهما سما قدرها ـ أدركوا أن الله تعالى يمكّن للعمل الجماعي، ويوفق العاملين الذين صبروا فاستطاعوا احتضان الجهود المتنوعة وتسخير الطاقات المختلفة.

من أجل ذلك كُتب على الجادين في إيجابياتهم العازمين على تحقيق نقلة نوعية لمجتمعاتهم، أن يشحذوا هممهم بتفعيل شعائرهم التعبدية، ويسيّجوا أنشطتهم بضوابط جماعية، ويصونوا علاقاتهم ومواقفهم وخدمتهم لمن حولهم بتثمير النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المبحث الأول: أهمية العمل الجماعي عند كولن و أهم ضوابطه

المطلب الأول: أهمية العمل الجماعي

1. موقع المجتمع في تطوير قطاعاته وتحقيق حاجياته

مما أفرز عنه نشوء الدولة الحديثة ازدياد حاجات الفرد والمجتمع فيها وعدم قدرتها على إيفاء هذه الحاجات، مما اضطرها "إلى الرهان على الحراك المجتمعي بعد تراكم مشاكل الخلل والتراجع" [1]. وذلك بعد أن أصبحت "تتخفف من بعض وظائفها التقليدية وتقلص من مساحات تدخلها في المجالات الاجتماعية التي ظلت الدولة الشمولية أو الدولة الحارسة تعتبرها مجالا حيويا توجه من خلاله الشأن الاجتماعي على خلفية إبقاء كل المستفيدين منه في مربع الاحتياج الدائم إلى الدولة"[2].

تميزت بنية المجتمعات الإسلامية ـ عندما ارتقت إلى مستوى الخطاب القرآني والنبوي ـ بأنها كانت دائما قادرة على تلبية معظم حاجياتها، فقد "عول الإسلام فعلا على حركة المجتمع وفوض إليها إنجاز الكثير من المهمات التي منها حفظ الهوية،وإقامة المصالح العامة، وتقديم المعونة لمن هم في حاجة إليها.

وقد أنشا الإسلام مفهوم الفرض الكفائي، وهو مفهوم مجتمعي بامتياز، أصيبت الأمة إصابة بليغة لما أضاعته أو قصرته على جوانب تقع على هامش الحياة، فارتحل الفرض الكفائي من المدن والمجتمعات ومن الحركة والحياة إلى زاوية الموت، وما تتطلبه من تغسيل الموتى وتكفينهم والصلاة عليهم"[3].

---

[1] العمل الاجتماعي في الإسلام، د. مصطفى بنحمزة، سلسلة دفاتر المركز، مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، وجدة 2013، ص: 14

[2] المصدر نفسه، ص: 13

[3] نفسه، ص: 15

لأجل ذلك ارتفعت صيحات المصلحين بضرورة تفعيل حركة المجتمعات الإسلامية المعاصرة وتصحيح المفاهيم، ومنها مفهوم الفروض الكفائية "التي هي واجبات اجتماعية تتسع بسعة الحياة الاجتماعية وتؤديها المجموعة بكيفية تضامنية إذا قام بها البعض سقط التكليف عن الباقين، لا استخفافا بحقها، وإنما لداع موضوعي هو انتهاء الحاجة إليها ما دام البعض قد قام بها فكفى الآخرين، ولأن في المجتمع تكاليف أخرى تنتظر أن يتفرغ لها أفراد آخرون مؤهلون للقيام بها. وحين تهمل الأمة الفرض الكفائي يأثم الجميع، لأن المسؤولية الجماعية تتجزأ حينئذ فيصير الكل مسؤولا وفق موقعه الاجتماعي"[1].

مما يستند إليه المصلحون وهم يؤسسون لثقافة مجتمعية بانية جديدة وحراك اجتماعي قوي ما أنجزه النسيج الاجتماعي الإسلامي من مستويات راقية في سياق استغناء المجتمع عن جهاز الدولة، فـ"عبر تاريخ المسلمين ظل المجتمع الإسلامي قويا وفاعلا، فتمكن من تغطية أكثر الوظائف الاجتماعية، وأرسى لنفسه ممارسات وتقاليد قيمة في الفعل الاجتماعي، فأصبح بإمكان كل تجمع مهما صغر وفي أبعد نقطة عن الحواضر أن يوفر لأفراده فرص التعليم، وأصبح قادرا على أن يلبي حاجات الفئات الضعيفة بما أصله من أعراف في الزراعة والسقي والحصاد والدياسة والبناء و غيرها من الوظائف الاجتماعية"[2].

وبذلك أضحى من البديهي أن يحس المسلمون عندما يعون حقيقة دينهم "أن العمل الاجتماعي ليس مجرد تطوع قد تسخو به النفس وقد لا تسخو، وإنما هو جزء من الفرائض الشرعية التي يخشى المسلم أن يأثم إن أضاعها المجتمع، فيكون هو أيضا من جملة المحاسبين عن تلك الإضاعة"[3].

---

[1] العمل الاجتماعي في الإسلام، ص: 15

[2] المصدر نفسه، ص: 20

[3] العمل الاجتماعي في الإسلام، ص: 16-17

2. العمل الجماعي طريق استحقاق التوفيق الإلهي

تتبوأ الجماعة مكانة متميزة في الإصلاحات الكبرى في المجتمعات، وذلك لأنها أداة لجمع الطاقات وتسديد القدرات ووسيلة يتكامل من خلالها الفرد مع المجموعة من حيث إن " الجماعة هي وحدة عقلية ومنطقية وقلبية وروحية، واختيار شخصي. والجماعة في الوقت نفسه تكتل وتجمع أخلاقي، لا تقوم بأي دعوة إجبارية لأنها مرتبطة بالإرادة الحرة للأفراد... وهي الوعاء المعنوي الذي تذوب فيه أنانيات الأفراد ونوازعهم النفعية. والحقيقة أن كل شكل من أشكال الأنانية و التهالك على المصالح والمنافع الشخصية أمر لاأخلاقي. ومع أن للإنسان شخصيته وفطرته الفردية فهو مخلوق اجتماعي، حيث تتبلور شخصيته وأخلاقه داخل المجتمع"[1].

يرى الأستاذ محمد فتح الله كولن أن "الجماعة عامل فعال ووسيلة كبيرة للحصول على التوفيق الإلهي، فلو قضى إنسان حياته منعزلا في مكان ما أو على قمة جبل وقضى وقته في الصلاة والصيام و أنفق كل ما في يده على المساكين وأدى الحج وذرف الدموع على الحجر الأسود وصلى صلواته في مكة أو في الروضة المطهرة التي أجر الصلاة فيها يحسب أضعافا مضاعفة إلا أن الأجر والثواب الذي يناله من الله تعالى يبقى أيضا في المستوى الفردي"[2].

لذلك يدعو الأستاذ إلى التأليف بين همم النفوس العالية حتى يتنزل لطف الله تعالى حيث إن "كرمه سبحانه الذي ينهمر فوق رؤوسنا و ينفذ إلى أعماق كياننا، إنما يأتي باسم الجماعة، إذ لا يستطيع أحد أن يدعي أنه صاحب الفضل في هذا "[3].

العمل الجماعي والعبادة الجماعية ترشح أهلهما للقبول ونزول الرحمة، وتدرج جهد الفرد وصالحاته ضمن حركة جماعية قوية مؤثرة مفيدة، وما ينتجه المرء في هذا السياق

---

[1] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 314

[2] أسئلة العصر المحيرة، ص: 226

[3] أسئلة العصر المحيرة، ص: 227

يفوق بكثير ذلك الجهد المنعزل وتلك العبادة المنزوية؛ حيث إنه "مقابل ثمرة العبادة الفردية المعطاة لكل فرد فإن الأيدي المرفوعة إلى السماء بالدعاء في العبادة الجماعية ونبض القلوب معا والمعاناة الجماعية وطلب الشيء نفسه جماعيا يؤدي إلى تنزل الرحمة الإلهية الشاملة على الجماعة بأسرها، وهذا ما لا يمكن الوصول إليه فرديا في الحركة الفردية.

كل ما يستطيعه الفرد هو أن يصبح رئيسا لأسرته، ولكن إن استقامت صفوف الجماعة و تساندت أصبحت قوة مؤثرة بمقياس المجتمع، و يشعر كل فرد ضمن مئات الآلاف من الأفراد الموجودين تحت قبة هذه الجماعة بأنه يمثل قوة أمته، وتتم المحافظة عليه ضد القوى الخارجية وبهذه القوة فإن انفصل الفرد عن هذه الوحدة وعن هذا الصف وحاول تشكيل ملجإ فردي خاص به، زالت القبة من فوق رأسه وتحولت إلى مظلة صغيرة يرفعها الفرد فوق رأسه"[1]

المطلب الثاني: من أهم ضوابط العمل الجماعي المؤثر

1. محورية الذات واندماج الجزء في الكل

يتأسس المعنى الحقيقي للعمل الجماعي من خلال تماهي أفراده مع هدف الفريق المشترك والتضحية بكل هدف خاص يتعارض أو يؤخر تحقيق المتفق عليه، ومن ثم يفترض في عناصر الجماعة التفكير والسعي جماعيا بعنوان(نحن) بدلا من (أنا)؛ "ففي اللحظة التي يتقاسم فيها جميع المشاركين هذا الهدف واقعيا وفي إطار من الإقناع - مع إدماج أهدافهم الشخصية أو قبولهم الصريح بوضعها جانبا - يتم المرور من مجموع الإفراد إلى جماعة حقيقية"[2].

---

[1] المصدر نفسه، ص: 225 – 226

[2] نصوص في دينامية الجماعات، ترجمة وإعداد الحسن اللحية، ط1، دار الحرف، القنيطرة 2007،ص: 8

لقد حرص الأستاذ محمد فتح الله على تشكيل جسم متناغم داخل المجتمع التركي،يتمثل في حركة (الخدمة) بعبارة (نحن) حتى إن بعض مؤلفاته صيغت عن اوعيها بكلمة (نحن) كـ" ونحن نقيم صرح الروح " و" ونحن نبني حضارتنا "، وإنه "يقسم الأنانية إلى قسمين: أنانية فردية و أنانية جماعية، ولطالما ذكر أن كليهما مهلك. وقد رسخ الأستاذ فتح الله مبدأ إعلاء الشعور ب . (نحن) على إذكاء الشعور بـ (انا) وجعله في المقدمة مهما يكن، وكذلك يؤكد على عملية الوصول إلى (هو)، وإلا فيستحيل التعلق بـ (نحن) إلى أنانية جماعية تنذر بالخطر. نعم يجب تجاوز الإحساس بحب الذات وجعل الشعور ب(نحن) في المقدمة"[1].

وفي سبيل تأكيد اندماج الفرد في الجماعة والتحدث باسمها كأنها هو، ومقابلة الآخرين بسعي واحد وخطة واحدة جمعت عقولا وخبرات متعددة، يتعين استحضار أن الزمان زمان الجماعة أو المؤسسات، ومن ثم يجب أن يكون الواحد "فردا في جماعة وجزءا من كل، لأن الجهد الفردي يظل حصريا، وربما لايجد من يقدر أهميته، ولا من يوظفه ـ التوظيف النافع ـ فحياة المسلمين تحتاج اليوم أيما احتياج، إلى النهضات الجماعية، ومطامح الأمة تتحقق بالترابط، فالعصر عصر جماعة، لقد حلت الشخصية المعنوية والتشاور والشعور الجمعي محل الدهاء الذي كان للفرد، وأن رهان ضمان الإقلاع الذي ينتظرنا كأمة منبعثة للتو من رماد الهزيمة، لن تقدر على الاضطلاع به إلا جماعة تتحمل دعوة مشبعة بالدهاء"[2].

إن قدرة أي حركة على الامتداد رهينة بربط تحول تصوراتها إلى برامج و تمثل برامجها في مؤسسات قائمة يحتضنها المجتمع، لأنه لكي تستمر الحركة و تنمو "لابد أن

[1] فلسفة الخدمة لدى الأستاذ محمد فتح الله كولن، د. أركون جبان، مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي، خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية، القاهرة 2009، ص: 261

[2] الانبعاث الحضاري، ص: 77

تتحول إلى مؤسسات مدنية فاعلة نشطة وتقابل احتياجات الأفراد والمجتمع في منحى تكاملي يحقق إشباعا عقديا ودنيويا"[1].

إن هذه القدرة متوقفة كذلك على استيعاب طبيعة الإنسان الاجتماعية والرغبة في الظهور مع الآخرين، ولذاك يحتاج الأفراد إلى توجيهم في هذا السياق ليتم ذلك على بصيرة نافعة للمجموع.

يقول الأستاذ فتح الله: " الرغبة في التجمع داخل مجموعات إحساس موجود في فطرة الإنسان. و لابد من ظهوره، و المهم هنا جعل هذا الإحساس مفيدا دون ضرر في الأقل. فإن لم يوجه هذا الإحساس توجيها حسنا تطور ونما بشكل يضر الإنسان وبطبيعته. فان غذي هذا الإحساس والشعور بأمور سلبية في الإنسان كالجهل والتعصب وضيق الأفق فانتظر عند ذلك النزاعات الدموية.

وعلى العكس من ذلك إن كان العلم وسعة الأفق والتسامح والمرونة موجودة في المجتمع ظهر التفاهم والتعاون بين الجماعات ووصلت إلى رسم خط السلام فيما بينها،وسكنت ردود أفعالنا الغاضبة الموجودة في فطرتنا وسيطرنا على مشاعرنا"[2].

ومن أبرز تجليات "المحوية" امحاء التمحور حول الذات ، ونسبة الفعل للآخرين حتى لو كان الفرد هو صاحب هـ ذا الخير الكبير؛ "ثمة كلام للأستاذ فتح الله كولن نفسه يقول: افتح إسطنبول ـ أي كن فاتحا ـ ثم انس أنك فتحت إسطنبول. وليقل الناس: أحدهم فتح إسطنبول فتقول أنت : من الذي فتح إسطنبول ؟!"[3].

---

[1] شهادة عن المرئي في حركة فتح الله كولن التركية، د. حسن أبوطالب، مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي، ص: 526

[2] الموزازين، ص: 69

[3] مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي، نوزاد صواش، ص: 326

2. انتهاج سبيل التلطف و تجنب استرضاء الجماهير

مما يعيبه الأستاذ كولن في العمل الجماعي وهو يستهدف خدمة الناس حرصه على استرضائهم في جميع الأحوال وجذبهم بأي طريقة ليكون له موقع داخل المجتمع. إن هذا الخطأ لا يقل خطورة عن الاصطدام مع الآخرين وفتح جبهات الصراع معهم؛ إنه "من الخطأ مخالفة الجماهير. ولكن شرط أن تكون الجماهير جماهير بحق وحقيقة، وإلا فإن من الخطأ موافقتها. فكما أن مخالفة رأي المهندسين في حق مريض لا تعد خطأ،كذلك لا يعد خطأ عدم أخذ رأي الأطباء في حسابات الأبنية والمشاريع الإنشائية" [1]. وأشد من ذلك نكرا، أن تجد طبيبا يستشير المريض الجاهل في الدواء الذي جاء يطلبه عند أهل الذكر، أو أن تجد قادة الإصلاح يحاولون إرضاء أهواء من كلفوا بإصلاح شأنهم وتدبير طريقة علاج اختلالالتهم النفسية والتربوية والسلوكية.

لقد دفعت بعض الحركات ضرائب فادحة لأنها عجزت عن التأثير في اندفاعات الجماهير وحماستها غير المقدرة تقديرها العلمي السليم، ووقفت حائرة بين التريث لإصلاح حقيقي هادئ ـ فتفقد بذلك رضى الجماهير الفائرة ـ ومسايرة ثقافة الاستعجال والغضب غير المنظم، فيحدث مزيد من الاختلالات وتراكم الحواجز والعقبات.

يقول كولن وهو يحذر من عواقب البحث عن استرضاء الناس: "وككل خصلة رديئة فإن الخروج لاصطياد الجماهير تحت عناوين تحبها هذه الجماهير هو مما ورثناه عن الغرب. ويرى الذين يتبنون هذه الفكرة اللقيطة أن من الطبيعي إحداث ضوضاء في كل حركة كالضوضاء التي تطلقها الدجاجة وهي تضع بيضة واحدة بينما، نرى نحن أن كل نشاط يجب أن يجري في سكون وصبر يحاكي سكون وصبر المرجان الذي يتكاثر بهدوء ودون ضوضاء في أكثر الأماكن هدوءا وبعدا عن الأنظار"[2].

---

[1] الموازين، ص: 160

[2] الموازين، ص: 17

3. مركزية التخطيط :

ما أكثر الأفكار التي أبدعها الأفراد أو الجماعات، وقد يكون منها السديد والرشيد،ولكنها لم تجد لها سبيلا إلى واقع المجتمعات أو أنها عند التنزيل تشوهت بترجمة غير مدروسة وبعمل غير مبرمج بالدقة المطلوبة، أو لم توفر أثناء ذلك الظروف المناسبة وفق رؤية واضحة بصيرة.

والناظر إلى حركة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام يسترعى انتباهه حضور التخطيط في مجالات دعواتهم وهدايتهم.

لقد سعى كولن إلى تحقيق مشروعه الإصلاحي بتخطيط واضح في مختلف مراحل حركة الخدمة. وعمق بين تلاميذه ومحبيه ثقافة برمجة الأعمال والمشاريع المتنوعة، وهو الذي يقول: " لا يرتفع أي فكر أو مبد إ عظيم إلا بنظام فكري موزون ولا يجد الحياة والأنصار إلا ضمن تخطيط صحيح. وعند ذلك يتحول إلى محراب تتوجه إليه أنظار مؤيديه وأنصاره. والمبدأ الذي لا يجد هذا العون وهذه القاعدة من الأنص .ار والمؤيدين يموت ويزول قبل ولادته" [1].

من مقتضيات ثقافة التخطيط فقه السنن وحسن اختيار الأسباب ودراسة النتائج المتوقعة ووضع الاحتمالات الممكنة وإدراك حجم الإمكانات المتوفرة وتصور واقع العوائق القائمة والحواجز المنتظرة، ذلك لأن "سمو الفكرة ومتانة التخطيط وإخلاص الأفراد الذين يمثلون تلك الفكرة إخلاصا قلبيا عميقا عناصر مهمة في نجاح أي دعوة. ولكن يجب التأكد من عمل الأسباب والعوامل التي يتم اختيارها عند التخطيط لأي بناء بحيث تؤدي إلى النتائج المرتقبة.

[1] المصدر نفسه، ص: 52

والذين يعقدون آمالهم على أسباب غير مجربة ولم يتم تأييدها من قبل ديوان أو مجلس عال، يصابون هم وكذلك الذين عقدوا آمالهم عليهم بخيبة أمل شديدة."[1]

وقد يتيسر وضع خطة ذكية ونهج أسلوب دقيق ببرمجة قائمة على معطيات واضحة، ودراسة جدوى الأسباب المتبعة، ولكن الإمكانات والقوى التي تم الاستناد إليها لم تكن ذاتية أو مستقلة أو لا يمكن توجيهها نحو الأهداف المرسومة، وحينئذ لا يمكن توقع تحقيق الأهداف المرجوة لأن "القوى التي لا تعتمد في وجودها وعدمها، أو تجمعها أو تفتتها علينا، ولا نؤثر نحن فيها، فمن العبث قيامنا بعقد أي أمل عليها. والذين عقدوا تحقيق آمالهم عليها عرفوا أنهم مخدوعون. والذين أسسوا مستقبلهم و بنوه عليها انسحقوا تحت أنقاض ما بنوه"[2].

لأجل ذلك يصر الأستاذ محمد فتح الله كول ن على أن يتم إنج از المشاريع والمؤسسات على أكتاف أهلها وبأموال أصحابها ووفق أهداف أهل الذكر فيهم واتكاء على إمكانيات حواريها ومحبيها ؛ "فكما لا يصح لك أن تؤسس أهم مؤسساتك وأكثرها حيوية وأهمية فوق جزيرة عائمة وسابحة في البحر كذلك لا يصح لك تسليم إدارة ودفة أمورك إلى نظم هي في يد الآخرين"[3].

---

[1] الموازين، ص: 52-53

[2] المصدر نفسه، ص: 52

[3] نفسه، ص: 53

4. تحديد الهدف والمرابطة على التوجه إلى تحقيقه

إن تحديد الهدف مطلب أساس للعمل الجاد، وعنصر رئيس لتحقيق نقلة نوعية للمجتمعات، وركيزة أساسية لإنجاز المشاريع الكبرى والصغرى، المتوسطة أو البعيدة المدى. والذين يمشون في الأرض بدون أهداف محددة و يظنون أنهم على شيء يخطئون السبيل و يفشلون فشلا كبيرا. ومن ثم "قبل القيام بأي نشاط أو عمل يجب تحديد الهدف والغاية لكي لا تغل الوسائل يد الإنسان و تربطه بها، فإن لم يتم عند القيام بالنشاطات في سبيل الله توجيه الروح نحو الهدف فإن الأفكار ستختلط وسيبقى هؤلاء الناشطون أسرى لها دون أن يتقدموا خطوة واحدة "[1].

وحتى لا يقع تشاكس الأعمال وتضارب المبادرات يجب توحيد الهدف والتولي شطره لئلا تضيع الجهود، أوصى بذلك كولن قائلا: "يجب أن يتوضح الهدف والغاية في مستوى الفكر ويحتل المركز الأول فيه، و إلا تعددت الأهداف و ظهر الاضطراب والفوضى. فكم من حملة نشاط واعدة فشلت في إعطاء أي نتيجة إيجابية و أي ثمرة بسبب الفوضى في تعيين الهدف و الغاية" [2].

من أعظم الأهداف وأسمى الغايات التي يتعين تولية الطاقات والجهود شطرها،والحرص على المرابطة في عدم الإعراض عنها، والاستعداد للتضحية بكل هدف آخر لأجلها، ابتغاء رضى الله عز وجل، فـ "يجب أن يكون الخالق العظيم وابتغاء مرضاته هدف صاحب كل دعوة، وإلا دخلت إلى الساحة الكثير من الأصنام وتلبس الباطل بلباس الحق وظهرت الأهواء والشهوات في مظهر الفكر وارتكبت جرائم عدة باسم الجهاد."[3]

---

[1] الموازين، ص: 22

[2] المصدر نفسه، ص: 22

[3] نفسه، ص: 22

وعندما يمشي القائمون على المؤسسات على نور من هدفهم الكبير وإضاءة من أهدافهم التي برمجوها لها، وتمت أجرأتها وتحيينها، يتمكنون من ضبط سيرها ووقايتها من فقدان وجهتها. ولذلك يجب "على مؤسس كل مؤسسة أن يتذكر على الدوام هدف تأسيسها ووجودها لكي لا ينحرف النشاط عن الهدف، ولكي يكون العمل مثمرا ومفيدا، وإلا تم نسيان هدف الإنشاء والتأسيس، فتنحرف المؤسسة مدرسة كانت أو قسما داخليا أم عائلة عن خط سيرها مثلما ينحرف الإنسان الذي نسي الغاية من وجوده وخلقه ويعمل ضد نفسه و يضرها"[1].

ثم إن توحيد الأهداف وسموها ييسر الطاقات لليسرى ويجنبها العسرى التي تحبط الأعمال فتشقى بذلك الجماعة التي تسعى بدون وحدة الهدف، مما يؤدي إلى عواقب أقسى عناونيها سراب حسبه الظمآن إلى الإنجازات شيئا فلما فحصه عن قرب لم يجده شيئا فارتد نظره حسيرا. يقول محمد فتح الله كولن: "توحيد الهدف وسموه يحول دون تبدد الطاقات و تصادمها وأحيانا قد تبيد الأعمال بعضها بعضا بـ(التعارض) و (التساقط) وإن كان كل عمل من هذه الأعمال بمفرده خيرا و صالحا، فعندما يحاول أفراد النمل أن تنقل مادة إلى خليتها فتتشوش بموجات الحس المؤقت أو باختلاف الأهداف في برنامجها الانسياقي المشترك، يسحب بعضها المادة إلى جهة وبعضها إلى جهة أخرى فتتبدد طاقتها كلها ثم لا تتقدم إلى الهدف... كذلك المجتمعات التي لا توجد لها أهداف سامية ومثل عليا، أو وجدت ولم تملك معها جاهزية ذهنية تناسبها، فإنك تجدها تتحرك باستمرار، لكنها لا تقطع شوطا، لأن قطع الأشواط يتطلب ـ منذ البداية ـ تعيين هدف سام يوقره الوجدان ويرغب فيه الانسياق الداخلي في نشوة كنشوة العبادة، ثم تفعيل منظومة سليمة حسب معطيات الظروف والبيئة العامة ثم توجيه مختلف دورات الطاقات

[1] الموازين، ص: 22

إلى نقطة واحدة معينة، ويعني ذلك تسخير التراكم العلمي والتجريبي والطاقة الكامنة لأمر ذلك الهدف السامي والغاية المنشودة"[1].

كم من طاقات بخس الناس حقها وزهدوا فيها وفي أهلها لأنها لم توجه نحو هدفها السامي المحدد، و كم من قدرات تم إغفالها وإهمال أصحابها لأنها وضعت في سياق التنازع بدل التناغم فحرم المجتمع من خبراتها، وكم من جهود لو ضمت إلى بعضها لكان وراء ذلك قوة كبيرة عجلت البشرى. ذلك أن "الهمم و المبادرات الفردية، إن لم تنضبط بالتحرك الجماعي ولم تنظم تنظيما حسنا، فستؤدي إلى تصادم بين الأفراد لا محالة... وبالتالي سيختل النظام وتنهض كل حملة في عكس اتجاه حركة أخرى، وتنقص كل عملية من قيمة الناتج حتى يقرب من الصفر...وتجب العناية الرفيعة حتى لا تهدر ذرة واحدة من تلك الطاقة، و توجه نحو تحقيق الهدف المنشود الذي تم تعيينه سابقا، ويزاح خلق المصادمة في النفوس، ويستبدل بروح التوافق، بل يطبع كل إنسان بهذا الطبع مهما أمكن"[2].

5. سياج الانضباط

من أهم مايمكن العمل الجماعي من محافظته على توجهه الجماعي وسيره وفق الوعي الجمعي التزام أفراده بقواعد التشاور والاستماع إلى ذوي الخيارات والكفاءات والتسليم بما يسفر عنه تبادل الرأي والسعي لتطبيق ما اتفق عليه حتى لو خالف بعض وجهات النظر، بل إن المخالف لا يقل حماسة عن إنجاز ما أوصلت إليه الشورى، فتراه يمثل رأي الفريق أو المؤسسة ويدافع عنه، وهذا كله بفضل قاعدة الانضباط التي تميز هذه المجموعة والمؤسسة .

[1] ونحن نبني حضارتنا، ص: 39

[2] المصدر نفسه، ص: 44

يقرر الأستاذ فتح الله أن "على المؤمنين أن يتشاورا في كل أمر متعلق بالخدمة الإيمانية والإسلامية وأن يصلوا في النهاية إلى حكم ما، أو يرضوا بحكم شخص موثوق بعقله وتجاربه وإخلاصه. ثم يبدأ فصل الطاعة والانقياد. فإن كان العكس وتصرف كل شخص حسب رأيه فالنتيجة النهائية هي الفوضى. وبما أن القلوب لم تتحد، ولم تتفق فإن الله تعالى سيحرم هؤلاء من الفضل الذي يسبغه على الجماعة.

إن الفرد قد يهدف شيئا معينا بفضل كفاءاته ومزاياه وقد يحقق الله هدفه ويعطيه ما يصبو إليه ولكن هناك أشياء وأفضال لا يعطيها الله إلا للجماعة. فإذا كان الناس قد أفسدوا بنية الجماعة و شتتوها، وبدأ كل واحد منهم يتصرف تصرفا فرديا فإنهم سيحرمون من النعم و الألطاف التي يرسلها الله تعالى للجماعة"[1].

ولقد أورد خوجة أفندي [2] نماذج وصورا عديدة من السيرة النبوية تبرز محورية الطاعة والانضباط في حركة الصحابة بقيادة النبي صلى الله عليه وسلم [3]، يريد بذلك أن يرسخ قيمة الالتزام بمقررات العمل الجماعي، لأن "الطاعة أمر خاص بأحوال الجماعة، فما إن يبدإ الناس بالتصرف بشكل جماعي حتى تكتسب الطاعة والانقياد أهمية كبيرة في كل ساحة صغيرة كانت أم كبيرة"[4].

6. الإيجابية والعكوف على الإمكانيات الذاتية

يستهدف العمل الجماعي تحريك الطاقات وتوجيه القدرات ودمجها لإنجاز مشاريع محددة، وهو مدعو إلى محطات تأمل ذاتية للتقييم وقياس المراحل التي تم عبورها نحو

---

[1] أسئلة العصر المحيرة، ص: 246-247

[2] لقب (خوجة أفندي) يعني (السيد الأستاذ) أو (حضرة الأستاذ)، أفندي من ألقاب الشرف والتعظيم. ويحب تلامذة فتح الله كولن إطلاق هذا اللقب على أستاذهم، انظر: معالم في سيرة خوجة أفندي، مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي، د. إبراهيم البيومي غانم، ص: 252

[3] المصدر نفسه، ص: 247-248-249-250

[4] نفسه، ص: 247

الأهداف، وإلى وقفات إلزامية عندما يصطدم بعوائق ترجع إلى فريق العمل أو عناصر المؤسسة أو هياكل الجماعة، أو تعود إلى المحيط الذي لا يرحب بهذه المشاريع ويرى فيها خطرا يهدد وجوده و يناقض كيانه.

وقد تتجاوز عمليات الصد عن أعمال وأنشطة العمل الجماعي مجال النقد والتشهير والسخرية إلى مستوى المنع المادي والحصار والإغلاق، حينئذ لا يجوز أن تتوقف حركات الخدمة والبذل ومحاولات التدافع السلمي الهادئ البصير وفق روح منهج (التلطف) و(عمل المرجان)، وذلك بتنويع وسائل العمل وتجديد مجالاته الممكنة، من هنا كانت وصية كولن لأتباعه: " إن كانت الظروف والشروط غير ملائمة ولا تسمح بالعبادة العلنية فاجعلوا بيوتكم معابد سرية! وعليكم أن تقيموا معابد لذكر الله تعالى في كل حال من الأحوال"[1].

وما الهجرات المتتالية عبر تاريخ النبوات و الدعوات الإصلاحية إلا تعبير عن إصرار هؤلاء العظام على الإيجابية والتمسك بالهدى والحق والخير تحت شعاري نور قوله تعالى: "ولنصبرن على ما آذيتمونا " الآية 12ـ إبراهيم. و "وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب "الآية 10ـ الزمر.

لأجل ذلك كان لابد من امتلاك القدرة على التفاعل الإيجابي مع الظروف المتعددة ورفض الاستسلام لها، عن طريق الإبداع في صياغة البدائل الممكنة وتجديد المناهج للانطلاق في سياقات متطورة. والذي ينظر إلى الواقع المناقض للإيمان بعدسة الإيجابية يرى آثام الآخرين وانحرافات المجتمع مشاريع لاغتنام الحسنات عن طريق الصبرعليها وعدم التأثر بها، وعن طريق البحث الجماعي لإصلاح ما يمكن إصلاحه ووضع خطط لخدمة هؤلاء بهداياتهم و نصيحتهم.

[1] أضواء قرآنية، ص: 164

ولطالما نبه الأستاذ في خطبه ومواعظه وكتبه إلى وجوب امتلاك هذه الروح الإيجابية لتحويل الأزمات إلى مجال اكتساب المنح و الترقيات الإيمانية و الدعوية، ومما قاله في ذلك: "إن الآثام التي تزعجنا الآن كانت موجودة أيضا في عهد الصحابة؛ فالنساء كن يطفن حول الكعبة عاريات. وكان الخمر و الرشوة و الميسر والربا ينخر في جسد المجتمع. و لكن الصحابة أداروا ظهورهم لكل هذه الفواحش وتوجهوا إلى الإسلام. كانوا بشرا يحملون مشاعر وغرائز البشر. ألم تكن تضحيتهم بكل أهواء النفس هي التي سمت بهم وجعلتهم أعظم العظماء؟ لقد هجروا الفواحش جميعها واختاروا سلوك حياة طاهرة،وساروا خلف رسول الله صلى الله عليه على الرغم من جميع المخاطر التي كانت تحف بهم. فاكتسبوا فضائل كبيرة واستحقوا بذلك أن يكونوا نجوم هداية لمن جاء بعدهم.

وهذه المهالك والمخاطر موجودة اليوم أيضا. لذا فقد دعي مفكر القرن العشرين بديع الزمان سعيد النوري يوما بـ (رجل عصر النكبة والفتنة والهلاك). ولو نادى الرسول صلى الله عليه وسلم جيل هذا القرن لقال: تعالوا! يا جيل المهالك والمخاطر. لأننا إن تفحصنا السوق والشارع والحياة الاجتماعية والتجارية والفرد والعائلة والمجتمع والمدرسة المكلفة بإسناد كل هذه الوحدات الاجتماعية، وتناولنا جميع الهيئات والمؤسسات واحدة واحدة، وقمنا بإصدار تقييم حولها، لكان هناك وصف واحد فقط ينطبق على الجميع وهو وصف (سيء جدا)... ومع كل هذا فإننا نتقبل هذه المغارم من أجل مغانمها ونجد السلوى في المغانم التي تكسبها لنا، بل نفرح، ذلك لأننا في الوقت الذي نستطيع فيه تجاوز هذه المصاعب تكون مكاسبنا بنفس النسبة. فإن كان الصحابة وفقوا إلى تجاوز تلك الشروط الصعبة، فاستحقوا أعلى المراتب، فإننا نأمل من صاحب الرحمة الإلهية سبحانه وتعالى أن يوفق المؤمنين الحاليين ويعينهم لكي يصلوا إلى السعادة نفسها"[1].

[1] أسئلة العصر المحيرة، ص: 174– 175

وحتى يتم الحفاظ على هذه الإيجابية يقترح كولن التمسك بالجماعة وعدم البقاء وحيدا و الحذر من الاستمرار في الذنب بدون توبة، واغتنام آناء الليل للتهجد [1]، ويوصى بما يلي ـ في إطار وصفة جماعية للحفاظ على إيجابية الجسم الجماعي ـ:

ـ "ما أحسن أن نقرأ كل يوم بضع صفحات عن الصحابة والتابعين وتابعي التابعين ممن عاشوا الإسلام بصدق. ونلون حياتنا بهم، ونخرج إلى الشارع وإلى السوق بهذا الروح الممتلئ. فإن فعلنا هذا استقام عالمنا الداخلي من جهة ووجدنا فرصة مقارنة أنفسنا برجال القلب والروح الحقيقيين من أمثال الصحابة والتابعين وتابعي التابعين. ونقول لأنفسنا: لقد كان هؤلاء مسلمين، ونحن أيضا مسلمون، فلماذا كانوا هكذا؟ ولماذا أصبحنا نحن هكذا ؟.

ـ حضور مجلس شخص يستطيع بث الخشوع في قلوبنا، وطلب النصيحة منه وتذكر رسولنا صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

ـ علينا أن نلجأ إلى كنف مرشد يستطيع بجوه الروحي أن يذيب كل الشرور ويرينا طرق وسبل تجديد أنفسنا" [2].

ـ تجنب الفراغ والاشتغال بعمل من أعمال الخدمة؛ لأن "الشيطان يتعرض أكثر ما يتعرض للأشخاص العاطلين الذين لا يقومون بأي نشاط ديني ولا يحملون هم الدعوة إلى الله. لذا علينا أن نبدأ من نقطة البداية هذه ونبحث عن طرق النشاط والبعد عن العطل والفراغ "[3].

ـ ملازمة الأصدقاء الجيدين واختيار الصحبة الصالحة الناصحة المؤثرة.[4]

7. الاعتزاز بالعمل الجماعي ونسبته إلى الله عز وجل

---

[1] أسئلة العصر المحيرة ، ص: 176-177

[2] المصدر نفسه، ص: 253-254

[3] نفسه، ص: 251

[4] نفسه، ص: 252-253

لقد تقارب العالم وأصبح أكثر اتصالا وإن كان التواصل فيه يعاني اختلالا وتنوعت وسائل الأمم في عرض أوفرض أنماطها الحضارية، وقد "تمدن وتحضر في معظمه، لذا فالغلبة الآن تتم عن طريق الإقناع وعن طريق العلم وعن طريق المحاورة والكلام أكثر مما تتم عن طريق القوة والعنف. وفي مقابل هذا فقد نمت الفردية بين الناس و ضعفت العلاقات الرابطة بينهم. وبما أنه أصبح الدور الآن هو دور الجماعة والشعور الجماعي أكثر من دور الأشخاص والأفراد المتميزين والفريدين، فإن المطلوب ليس التصرف برحمة وشفقة نحو المؤمنين بل بأسلوب أكثر لينا وتواضعا" [1].

لذلك يدعو الأستاذ إلى إدراك أن ما يقوم به أهل الخدمة عمل جليل يندرج ـ مع عموم جهود الأمة كلها ـ في سياق إحياء السنة النبوية طريق الحصول على مرتبة الشهداء الكرام، يؤكد ذلك بقوله: "من الطبيعي أن يكون إحياء السنة عند انتشار الفساد،أي إحياء الطريق الذي يبين الفرائض والواجبات والسنن، والقيام بأي خدمات وجهود لجعله سالكا من جديد ومضمونا وآمنا حتى يوم القيامة، تعد خدمات وجهودا مقدسة ترفع أصحابها إلى مرتبة الشهداء، بل هناك العديد من بين هؤلاء من يحصل على أجر عدة شهداء في كل يوم من أيام عمره، أما الذين يحاولون من بين هؤلاء إحياء أركان الإيمان فهم يكسبون ثوابا أكثر من ثواب مائة شهيد" [2].

وهو يرجح حمل هم الأمة بصدق وعمق وإخلاص على الكثير من التطوعات في أطهر بقعة في الأرض؛ عندما يقرر "أن العيش في آلام هذه الأمة المنكوبة البائسة،والتفكر في أحوالها، والتألم لآلامها، دعاء عظيم وتضرع كبير قد يفوق أجره أجر ألف ركعة من الصلاة حتى في مكة المكرمة، وأفضل من الطواف حول الكعبة."[3]

---

[1] أضواء قرآنية، ص: 127

[2] أسئلة العصر المحيرة، ص: 138

[3] النور الخالد، ص: 426

يصل مستوى صدق حمل هم الآخرين بصاحبه إلى " تلك اللحظة التي يحس فيها المؤمن بصداع في رأسه ويضع يده على خاصرته وهو يتلوى من الألم، كأنه يكون آنذاك مع إخوانه الذين يقلق من أجلهم، ومع إخوانه الذين يفكرون مثله"[1].

ولا يخفي الأستاذ سعادته بحواريه من أهل الخدمة من الذين ينبههم إلى الاعتزاز بما يبذلونه من جهود. وأن يستمروا على ذلك، وأن ينسبوا الفضل في كل ذلك إلى المولى النصير، فهو ولي النعمة والفضل الكبير؛ قال:"نسأل الله تعالى أن يجعل من نصيبنا الاستمرار في هذا الطريق بشكل دائم وأن يوفقنا إلى الخدمة بإخلاص.

نحن سعداء ومحظوظون جدا. فعندما يتم ذكر خدماتنا نقول: إن الوظيفة الملقاة على عاتقنا إنما هي فضل وإحسان إلهي. أجل، فقد وظفنا في هذا العهد الذي اختلط فيه الحابل بالنابل بوظيفة مقدسة وغالية. وإن إحياء هذا الدين بكل مؤسساته وبكل كادره وبكل جماعته عمل لا نظير ولا مثيل له في العالم، وهو من جانب آخر استمرار لوظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم ومتابعة لدعوته. وإن ظهور فخر الكائنات صلى الله عليه وسلم تنزلا منه في رؤى العديد من تلاميذه المعاصرين وزيارته لبعض مؤسسات الخدمة الإيمانية والقرآنية ليست إلا من كرامات السنة السنية وخدمة هذه السنة، وليس نتيجة أي ميزة شخصية لأي شخص... وكم نتمنى أن يستمر أصدقاؤنا حتى يأتيهم اليقين بنفس الهمة وبنفس الحماس والوجد في خدمة القرآن والإيمان، هذه الخدمة التي تكسب في كل آن ثواب شهيد"[2].

[1] المصدر نفسه، ص: 427

[2] أسئلة العصر المحيرة، ص: 139

المطلب الثالث: التكامل بين الفرد و المجتمع

1. الصلاح بين الفرد و المجتمع

يرى الأستاذ محمد فتح الله كولن أن الإنسان الفاضل هو أول لبنة من لبنات المجتمع، وأي جهد يبذله الفرد في اتجاه تجسيد القيم والفضائل الإيمانية والأخلاقية يؤدي إلى تحريك الراكد الاجتماعي، وينبه إلى ضرورة احتضان الخير والإيمان، لأن المؤمن "في الوقت الذي ينفذ ما هو الواجب عليه من مهام ليملأ حياته بالفضائل، يحاول أن يملأ مجتمعه الذي يعيش فيه بها كذلك . وعندها يمكن التحدث عن الإنسان الفاضل بمعنى الإنسان الكامل والمجتمع الفاضل الناشئ من هؤلاء الأفاضل والأمة الفاضلة "[1].

عندما يتأسس مثل ذلك المجتمع القوي، يكون مصدر تأثير على غيره من المجتمعات، ومنطقة مركزية تجذب إليها الآخرين لأنه من " المعلوم أن المجتمع المنور يتكون من أفراد منورين، ومثل هذا التشكل لا يقتصر على جذب الأفراد إليه فحسب، بل يجذب أيضا التكتلات والشعوب الأخرى"[2].

لذلك ينتقد الأستاذ الرهان على أي إصلاح اجتماعي دون وجود الركن الأساس؛وهو الفرد الصالح المصلح، الذي إن لم يوجد فإن " انتظار نشوء مجتمع فاضل لا يعني غير الخيال. وذلك للعلاقة الوطيدة بين الفرد والمجتمع، حيث إن المجتمع يتشكل من الأفراد، ولهذا فالمجتمع الفاضل هو الذي يتحلى أفراده بالفضائل. ومن جهة أخرى فكما أن الأفراد مضطرون إلى صيانة الفضائل التي كسبوها، فالمجتمعات أيضا مضطرة إلى صيانة الفضائل التي كسبتها من قبل "[3].

---

[1] طرق الإرشاد، ص: 50

[2] المصدر نفسه، ص: 52

[3] نفسه، ص: 55

من أجل ذلك وجب التأكيد على أن طبيعة علاقات المجتمع الإسلامي المتعددة قائمة على النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل إن هذا من أبرز مميزاته،لأن به يتمكن الفرد والمجتمع من حماية مكتسبات الخير والإيمان، ومضاعفتها والحيلولة دون انهيار العلاقة السليمة بينهما، ودون تفشي أسباب النخر الداخلية والسقوط في الفخاخ الخارجية .

يقول كولن: " إن الفضائل التي يكسبها الأمر بالمعروف للفرد والمجتمع تدوم ويحافظ عليها بالأمر بالمعروف أيضا. وبخلافه سيبدأ التقهقر والتراجع تدريجيا حتى ينتهي بانتهاء ذلك المجتمع القاصر. وللحيلولة دون بلوغ هذه النتيجة لابد من إذكاء القوة المعنوية وجعلها في حيوية مستمرة. وهذا يحصل أيضا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. بمعنى أن هذه الوظيفة المقدسة حياة للفرد والمجتمع على السواء، وفي الوقت نفسه شرط للحفاظ على الحياة. ولعل هذا هو السبب في اشتراط سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم الأمر بالمعروف عند قبوله البيعة من بعض الأشخاص"[1].

للمجتمع تأثير قوي على الأفراد، من خلال مؤسساته المتعددة، ولامناص من حدوث الأثر على الفرد سواء أكان إيجابيا أم سلبيا، مما يستدعي العناية بمهندسي المجتمع وصناع قراره الثقافي والأخلاقي والتربوي.

من ثم يتوجه المصلحون إلى مراكز التأثير الاجتماعي والثقافي ويقومون بإعادة صياغة الأجهزة المفاهيمية التي تصنع إرادات وقرارات المجتمع الصالحة المصلحة.

يؤكد فتح الله كولن ذلك بقوله: " ومن الحقيقة أن لبنيان المجتمع من حيث صحته أو عطبه، وجوانبه الإيجابية أو السلبية تأثيرا بينا على الأفراد، وإن لم يتمكن العقل ـ دائما ـ بالنظر الظاهري السطحي من إدراكه والشعور به، فالأفراد هم أبناء المجتمع

[1] طرق الإرشاد، ص: 56؛ ومن ذلك قول جرير بن عبد الله: بايعت النبي صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم.(صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، ح 209، ج1، ص: 54)

الذي يوجدون فيه، ويحسون بكل شيء ويعيشونه ويتقبلونه في بيئة مجتمعهم. فالواجب على أهل العلم والمعرفة عموما وعلى المسؤولين خاصة أن ينقوا ويغربلوا الأفكار الغريبة والضارة والمنكرة التي تؤثر على المجتمع سلبا وتضاد العقل والمشاهدة والتجربة والفكر الديني.

إن أعظم الأبطال الذين قاموا بهذه الغربلة في التاريخ هم الأنبياء، ثم من بعدهم الأصفياء المتحفزون بالإلهام، ورجال الفكر الذين تكاملت قلوبهم وعقولهم، ورجال العلم الموقرون لعالم الغيب مع عالم الشهادة، وللحس الوجداني مع التفكير العقلاني وللوحي السماوي مع التجربة"[1].

2. ضرورة التكامل بين الفرد والمجتمع

قدم كولن من خلال ما كتبه ومن خلال ما تجسد في أبناء (الخدمة) أنموذجا للتوفيق بين الفرد والمجتمع، من خلال طبيعة البنية الداخلية للحركة حيث عمل الفريق والمؤسسة هو المهيمن، وحيث تفوق الأفراد وظهور إبداعاتهم وبطولاتهم هو الوقود للحركة، ومن خلال تقوية علاقات حركة الخدمة بالمجتمع وعدم التصادم معه، وفي ذلك يقول أنس أركنه: " تقوم حركة كولن بتشجيع أفرادها بتقوية علاقاتهم مع المجتمع، صحيح أن المجتمع يبتعد أحيانا عن بعض القيم الأخلاقية. ولكن الحل لا يكمن هنا في إقصاء هذا المجتمع والابتعاد عنه بل بإصلاحه"[2].

إن مشاريع الخدمة المتنوعة هي البوابة الواسعة إلى المجتمع إذ "بجوانبها الاجتماعية و التعاونية و الازدهارية تفتح آفاقا جديدة و مفاهيم غنية للبنية الاجتماعية.

[1] ونحن نبني حضارتنا، ص: 28-29

[2] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 117

فهذه الحركة تقوم بدور المحرك الباعث إلى تضامن الأفراد بالمجتمع وزيادة المساهمة فيه، ولاسيما في هذه الأيام التي زادت فيها أنانية الأفراد وتهالكهم على منافعهم الشخصية وانكفاؤهم على أنفسهم، وتناقص المشاركة الجماعية في المجتمع"[1].

هذه الأنانية تحطم الجسور الرابطة بين الفرد والمجتمع، وتؤدي إلى هلاك الجميع، ولذلك يسعى كولن إلى صياغة إنسان (الثقة) و(الأمان) ليعبر إلى إنسان (الخدمة) والبذل والعطاء، عندما يقول: " الأفراد في هذه الدنيا التي نرغب في إنشائها ونطمع أن نراها يسعى كل منهم ليفيد الآخرين، وتحاول الأمة أن تجعل الدنيا جنة نعيم لها وللأمم الأخرى. والمنافسة في الفضائل هي الأساس في هذه الدنيا، والمجتمع والعالم الذي تتسابق فيه الفضائل، يسيطر فيه "نحن" بدلا من "أنا" فتقتل فيها الأنانية التي يعبر عنها الشاعر:(إذا مت ظمآن فلا نزل القطر)، وتدفن هذه الأنانية المحضة إلى غير بعث،وتنشأ وتزهر فيها (إذا مات أحدهم ظمآن فلأكن أنا) "[2].

شيوع ثقافة (نحن) بدلا من (أنا) هي عنوان التوافق بين الأفراد ومجتمعاتهم، وهو أمر ضروري يسعى إليه دعاة التعاون بين مكونات الأمة لتحقيق أهدافها. ولذلك لابد من تأسيس علاقة الأخوة والإيمان لتحقيق الانسجام المطلوب. واستحضار لقاء الله تعالى باستمرار كفيل بتيسير إنجاز مثل هذه المواقف والأحوال، ذلك لأن " الإيمان الجازم بالآخرة هو أول شرط وأهم عنصر في تكامل الفرد والمجتمع، واتباع الطريق الذي يقتضيه هذا الإيمان هو أرشد سبيل وأهم سلوك، فانحراف الإنسان في قناعاته وتصوراته وسلوكياته كارثة وباعث على الفشل" [3]، ومن أخطر تجليات هذا الفشل وأشدها ضررا وفتكا بنسيج المجتمع " تصرفات الزعماء والمرشدين التي لا توحي بالثقة فتوجد التذبذب والشك، أو ضعف قدراتهم وأهليتهم، أو ضيق أفق المثقفين أحيانا إلى درجة العجز عن

[1] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 118

[2] طرق الإرشاد، ص: 50

[3] نحو عقيدة صحيحة، ص: 59-60

رؤية مواطئ أقدامهم، بله إبصارهم لمواقع نقل الأمة إلى آفاق جديدة، أو ضعفنا كأمة عن الإحاطة بواقع حالنا، أو نقص التحفيز فينا، أو تقديم التفكير الميكافيلي النفعي على القيم الدينية وقيم الأمة "[1].

[1] ونحن نبني حضارتنا، ص: 40

المبحث الثاني: تفعيل الشعائر التعبدية لتجديد الإيمان

المطلب الأول: عبودية الله تعالى طريق الحرية والتصوف جسر إليها

إن المطلب الأساس في أية عملية بناء وإصلاح جاد عميق هو الثقة التي لا حدود لها بقدرة الإسلام على صبغة الفرد والمجتمع بصبغة الحياة الحقيقية، وبالثقة الصادقة في قدرات الإنسان وبما آتاه الله من وسع يحتضن تكاليف الخطاب الشرعي ومقتضياته، ومن ثم يقرر محمد فتح الله كولن أن الوصول إلى روح الإسلام " وتمام الاستفادة منه يتطلب تثبيتا للنية و تسديدا لزاوية النظر، وعلوا في الهمة وثباتا في المثابرة، وصدقا في التوجه وثقة بالأصل الذي ينتمي إليه.

ومهما كان الروح هذا كاملا وربانيا وفعالا، فلن يستفيد منه منتسبوه وممثلوه استفادة تامة، مع عظم ثرائه وسعته، إلا بنية سليمة متمادية، ونظر وتقويم صائب وعزم ثابت على الكشف والاجتهاد، واعتقاد واطمئنان إلى أن كل مطلوب ومنشود هو فيه "[1].

يقود النظر إلى الأفراد والمجتمعات من خلال عدسة التحرير القرآني إلى تصنيف الإنسان إلى :

أ . حر من خلال عبوديته للواحد الذي يستحقها وحده دون سواه، لا إله إلا هو خلقه وهو عبده، ومن ثم ترى الأحرار يتذوقون لذة هذه الحرية وحالهم وقالهم يهتف: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك، ووعدك ما استطعت، وأعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

ب . وإلى عبد لغير الله تعالى يضع نفسه في موضع لا يليق به ا، يعذب به ويشقى به لأنه يفقد أهم عنصر في دنياه (حريته)، فلا " مرتبة ولامنصب أعلى من

[1] ونحن نبني حضارتنا، ص: 97-98

العبودية، فإن كانت؛ فهي الحرية التي هي بعد آخر من أبعاد العبودية أيضا، حيث يشعر بها المبتدئ ويحيا بها المنتهي ويتذوقها. وهي تجرد القلب من كل سوى الله والعلاقة معه والارتباط به. وأعتقد أن الحرية الحقة هي هذه من حيث القيم التي جهز بها الإنسان"[1]،يؤكد كولن مضمون هذه الحرية بقوله: " فعبد الله لا يمكن أن يستعبده أي شيء سواه تعالى، فلا تستطيع متع الحياة الدنيا أن تستعبده ولا التقاليد الفاسدة التي تجلب للفرد التعاسة وتسبب لروحه الشلل، ولا العلاقات المجتمعية التي تحاصر العقل الإنساني تستطيع ذلك، ولا اعتبارات المصالح الشخصية، ولا الطمع ولا الحرص على المزيد والمزيد من المكاسب المادية، التي تنسف الأخلاق"[2].

يرى الأستاذ محمد فتح الله كولن أن اختصار المسافات لبلوغ هذه المرتبة مطلوب لقصر عمر الإنسان، وأن التصوف هو الجسر المتين الذي يعبر الفرد من خلاله إلى ما ينشده من حياة قلبه وروحه التي يأبى أن تعلق بغير خالقها، فهو يؤكد على ما يلي:

ـ " التصوف هو الانسلاخ من الصفات البشرية . في معيار . والتدثر بالأوصاف الملكية والأخلاق الإلهية، والعيش في مدار معرفة الله ومحبته تعالى والتذوق الروحاني.

ـ إن أساس التصوف هو الرعاية لآداب الشريعة ظاهرا والوقوف على تلك الآداب باطنا "[3].

ـ " التصوف طريق مفتوح إلى المعرفة الربانية وعمل دائب جاد "[4].

ـ " أصل التصوف هو الاعتصام بأسس الدين بقوة، ومراعاة أوامره ونواهيه بدقة،ومجانبة حظوظ النفس قدر المستطاع بملازمة الجوع واليقظة. ويهدف إلى رفع

[1] التلال الزمردية، ص: 98

[2] السلام والتسامح في فكر فتح الله كولن، ص: 118

[3] التلال الزمردية، ص: 14

[4] المصدر نفسه، ص: 14

الإنسان إلى مستوى الحياة القلبية والروحية وتصفية القلب وتوجيه اللطائف إلى مرجعها الأصلي"[1].

ـ " الصوفي يسير نحو الأفق المثالي لكل إنسان: الإنسان الكامل" [2].

1. تفعيل الشعائر التعبدية

تتأكد الحاجة إلى تفعيل الشعائر التعبدية عندما يتأمل المرء أمرين أساسين:

أ. لقد ربط الخطاب الشرعي ما أمر به عباده من هذه الواجبات بمقاصد كبرى وأهداف عظيمة تتجسد من خلال معالم الإسلام ومعاني الإيمان وجمال الإحسان.

ب . طغيان الاعتياد على التعبد في هذه الشعائر لدى نسبة عدد غير يسير من المسلمين، مما أفقدها آثارها المنتظرة و بركاتها المأمولة.

لأجل ذلك كان لابد من" الابتعاد عن أثقال النفسانية ودوافعها كافة، والانفتاح على الروحانية، والنظر إلى الدنيا والعلم بها كصالة انتظار إلى الأخرى، وبإفادة أخرى يتحقق هذا بتعميق الكمية في عباداتنا إلى النوعية، وبإطلاق النقص الحاصل في رياضية الأوراد والأذكار إلى الآفاق اللامتناهية بالنية و الخلوصية، و بالمعرفة والاعتبار واليقين في دعواتنا و مناجاتنا و بثنا إلى الذات الإلهية الأقرب إلينا من أنفسنا. ولا يعي هذا المعنى إلا الذين يحسون الصلاة كالطائف في المعراج، ويستلذون من أداء الزكاة كحافظ الوديعة أو موظف التوزيع، ويعيشون الحج كندوة عالمية لتداول معضلات العالم الإسلامي، وفي أرضية يرصدون فيها نورانية و مهابة الروح و القلب و الأبعاد الأخروية "[3].

وممن يسند إليهم تحقيق هذه المهمة فريق من حواريي الإيمان يسميهم كولن: مهندسي مستقبل الضياء، ورثة الأرض، أطباء المعنويات القادرين على

---

[1] التلال الزمردية، ص: 15

[2] المصدر نفسه، ص: 27

[3] ونحن نقيم صرح الروح، ص: 60-61

التشخيص،مرشدين صادقين مشدودين إلى الأخرويات من غير انقطاع، ممثلين لحركات الإعمار والإحياء الآتية غدا [1].

2. عبد الله وليس عبد "الجنة" أو "النار"

ذهب الأستاذ كولن إلى أن الهدف الذي يجب أن يسعى إليه المتعبدون هو نيل رضى الله فقط، ولا يركز على دافع الرغبة في دخول الجنة أو الرهبة من النار، بل يتجاوز ذلك إلى التزام الواجبات لأن الله تعالى أمر بها، يقول في ذلك :" يجب ألا يكون الحصول على المراتب المعنوية هدفا للعبودية. لذا قال جنيد البغدادي حول الذين يقومون بإيفاء وظائف العبودية من أجل الجنة، أن عبادتهم هي عبادة الجنة. أي هم عبيد للجنة،بينما لا يمكن أن تكون الجنة هدفا وغاية للعمل والعبادة. فالعبادة تؤدى لأن الله تعالى أمر بها، أي من أجل الحصول على رضائه.أجل، فالسبب الحقيقي للعبادة هو أنها أمر الله تعالى، أي أننا نؤدي فروض العبادة لأن الله تعالى أمرنا بها. فإن قام أحدهم ووقف يصلي لله تعالى، وهو يرتجف خوفا من جهنم فإن مثل هذا الشخص {عبد النار} أي عبد جهنم. إذن فكيف يمكن أن يكون عبدا لله تعالى؟ إن على الإنسان ألا يؤدي عباداته طمعا في الجنة أو خوفا من النار بل لأنه عبد لله تعالى ولأن الله أمره بها "[2].

قد يكون من المفيد إبداء الملاحظات التالية حول ما قرره الأستاذ وذهب إليه:

ـ لقد أثنى الله تعالى على عباده بأنهم يدعونه خوفا وطمعا. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ الآية 90. الأنبياء. وذكر الله تعالى عباده بعذاب جهنم ثم دعاهم إلى أن يخافوه؛﴿ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ الآية .16 الزمر.

[1] ونحن نقيم صرح الروح، ص: 60-61

[2] أسئلة العصر المحيرة، ص: 307

وأعظم عقد أبرمه الله مع عباده كان من أولى ما تضمنه الجنة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾الآية 111 ـ التوبة.

إن تفاصيل القرآن الكريم حول الجنة والنار، وثناء الكتاب العزيز على من يتسابق ويسارع إلى الجنة ويخاف عذابه، كل ذلك يدعو إلى فحص تلك الفكرة ومناقشتها.

ـ ليس هناك تناف بين من يرجو جنة ربه ومن يتطلع إلى رضى الله المطلق عليه فيها، والنظر إلى وجه الله الكريم.

ـ لقد كان رسول الله صلى الله عليه و سلم ـ وهو القدوة المعصوم ـ يربي أصحابه وهم خير القرون، وفي أقدس العبادات –الجهاد– بترغيبهم في جنة عرضها السموات والأرض. بل إن حديث رسول الله صلى الله عليه و سلم عن الجنة وما فيها من نعم ولذات حديث مستفيض وحاضر في مختلف مراحل صياغة جيل عصر السعادة

المطلب الثاني: فقه مقاصد الشعائر التعبدية من خلال الصلوات

سعى الأستاذ محمد فتح الله كولن إلى تفصيل أهم مقاصد الشعائر التعبدية حتى يربي أنصاره ومحبيه على التركيز على روح هذه العبادات وجوهرها [1]، وذلك لأن العلم بهذه المقاصد وإدراك هذه الأهداف يساعد على استجماع الطاقات وشحن الأرواح وشحذ العزائم والإرادات لتحقيق التزكية، والترقية والتجديد ، فـ "الصلوات الخمس التي نسعى فيها للمثول بين يدي الله تعالى تجدد إيماننا، كما تجدد عهدنا الذي عقدناه مع الله تعالى

[1] ترانيم روح، من ص: 79 إلى ص: 88 عن الصلاة، من ص: 65 حتى 78 عن الحج، من ص: 134حتى138 عن الصيام . أضواء قرآنية، ص: 278–279 عن الصلاة . النور الخالد، ص: 220 عن الصلاة . أسئلة العصر المحيرة، ص: 156 – 307– 310

وتقويه. ولكن بشرط أن نستشعر آيات القرآن عند تلاوتها والتسابيح عند قراءتها في كل ركن من أركان الصلاة. وإذا تسربت العادة والإلفة إليها وأدت إلى ذبولها وأفقدتها روحها،فإن هذه الصلاة لن تعني سوى إسقاط للفرض فقط، دون أن نحصل من ورائها على الفيوضات المترقبة"[1].

وحتى تتم الاستفادة بشكل أفضل وأوسع وأعمق، يدعو كولن إلى التأمل المستمر في محطات هذه العبادات ـ خصوصا ـ الصلوات، بدءا من الاستعداد لها بالوضوء والاستماع للأذان بصوت جميل ندي ينفذ إلى قلب مفتوح خاشع عن طريق عقل واع وفهم سديد لكلمات الأذان، ومرورا بالخطوات المباركة إلى بيوت الله تعالى ثم مقدمات التطوع انتظارا لصلاة الجماعة، يقول محمد فتح الله كولن:" التهيؤ للوضوء هو التنبيه الأول، أما الوضوء فهو التنبيه الثاني، وسماع الأذان هو التنبيه الثالث للصلاة.. فإذا أتبع هذا بصلاة السنة، فإنه يكون قد تهيأ تماما لصلاة الفرض.

أجل كل شيء في جو الصلاة يذكرنا بالصلاة بدءا من الأذان المرتفع من فوق المآذن الذي يمس قلوبنا ويذكرنا بعظمة الله. فنقوم ونسرع إلى المسجد تلبية لنداء الأذان،وعندما تنتهي آخر كلمة في الأذان نحس وكأن قلوبنا وأرواحنا قد ذابت معها. ثم نذهب إلى المسجد نصلي النافلة، وكأن كل فرد منا يقول لله تعالى: يا رب إنني أريد أن أتوجه إليك وحدك. أن أعيش بك وحدك. ذلك لأن النظر إلى ما سواك، ومشاهدة غيرك والانشغال بسواك جهد ضائع وعمل خاسر، بينما أرغب أن أبتعد عن الأمور الفارغة وأتوجه إلى الأمور المهمة المثمرة.

وهكذا فإن صلاة النافلة تكون وسيلة مهمة في الاقتراب من باب الله، والتهيؤ لصلاة الفرض بوعي كامل وتركيز كاف. الوضوء يؤدي دوره..والأذان كذلك..والخطوة الثالثة التي تؤديها هي صلاة النافلة..في هذه الأثناء يقوم مؤذن جميل الصوت متوجها

[1] أسئلة العصر المحيرة، ص: 156

إلى الله ويقيم الصلاة. هنا يكون الانفعال قد بلغ مداه واشتعلت العواطف والتهبت المشاعر.

إن لم تلتهب هنا العواطف، ولم يتم التوجه الكامل لله تعالى، ولم يحن الإنسان إلى محرابه فمعنى ذلك أن هناك نقصا ما في مكان ما.

عندما تتم الإقامة يكون المؤذن قد أنزل الضربة الأخيرة على كل ما يشغل الإنسان عن الله فيدخل العبد إلى الصلاة يقول: الله أكبر، في مثل هذا الجو وبهذه النية، ويكرر هذا القول وهو يركع، وهو يسجد، فيعلن في كل ركوع وفي كل سجود عظمة خالقه: يا رب أنت كبير، عظيم الشأن، وأنا ضعيف عاجز. أي يقف أمامه وقفة العبد المعترف بعبوديته وبضعفه، فيصل إلى لب العبودية وجوهرها.

يصل الإنسان في الصلاة إلى الله. يصل إلى درجة أنه يوجه التحية إلى الله تعالى مباشرة، هذه التحية التي وجهها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الله تعالى أثناء المعراج"[1].

لقد بسط محمد فتح الله كولن الكلام عن محطات هذه الصلوات المباركة بشكل لافت للنظر، يؤكد رهانه عليها لإحداث تحول نوعي عميق الأثر في المصلين بهذه الروح وبتلك النية والهمة، أنقل من كلامه بعض فقراته من كتابه {ترانيم روح وأشجان قلب} :

ـ " الصلاة معراج المؤمن، ودليله النوراني وبراقه، وسفينة السائرين من أصحاب الإيمان وطائرتهم، وأقرب المنازل والديار لعوالم وراء هذه الدنيا للسائرين الذين يبتغون الوصال ويبتغون القرب، وآخر خيمة لهم، وأقرب الوسائل لبلوغ الغاية والمرام "[2].

ـ " إن هذه العبادة المباركة ذات الأبعاد الشاملة وذات الطابع المعراجي تقوم بنقل الإنسان إلى سماء اللانهاية لتصل به إلى عالم الملائكة. والإنسان يدع نفسه في لجة هذه

[1] النور الخالد، ص: 220

[2] ترانيم روح، ص: 79

العبادة خمس مرات في اليوم وكأنه يتطهر ويغتسل في جدول دافق، وفي كل مرة ننغمر فيه في هذا الجدول نشعر بأننا تطهرنا أكثر. ثم ينقلنا هذا الجدول إلى بحر واسع ويتجول بنا بين نقطتي البداية والنهاية، وهذا يعني تمرينات لنقلنا إلى نقطة من عالم الآخرة والخلود هي خارج أبعادنا الاعتيادية "[1].

ـ " وبعد أن يتم بالأذان التهيؤ المعنوي والإشباع الروحي، وقبل الإبحار في بحار القرب من الله قبل صلاة الفريضة، تعد صلاة النافلة، ثم إقامة الصلاة فترة استقبال لنسائم الرحمة الإلهية الهابة على الأرواح، وزيادة في التركيز المتزايد بشكل تصاعدي حتى تلك الدقيقة، ويتم فحصه والتثبت منه مرة أخرى، ويعاد النظر مرة أخرى في حالة التهيؤ والتوجه والسكينة النهائية. وهكذا يتم الإقبال على الصلاة وكأن الإنسان مقبل على العروج إلى السماء "[2].

ـ " وبعد الوقوف للصلاة يود هؤلاء العباد الصادقون أن يعلنوا عن طريق الركوع مدى انفعال أرواحهم الصافية، وعن ارتجافات ورعشات أفكارهم النيرة المستقيمة التي لا عوج فيها ولا التواء، وبشعور خليط من الإحساس بأنهم تجاه عظمة وجبروت، وأمام رحمة ولطف ينحنون مثل انحناء عصا... ينحنون وهم يتمتون بصوت خافت وبشعور من العبودية يلف كل كيانهم.. يتمتمون دوما عن العظمة الإلهية، ويدقون باب الحضرة الإلهية بالركوع الذي يعد أسلوب توجه أهل السماء وإبداء خضوعهم له، وبنسبة انفراج ذلك الباب يستطيعون الوصول إلى أعماق عالمهم الروحي"[3].

ـ " ينفث الركوع الذي يأتي بعد خطوة واحدة من الوقوف في الصلاة نفحاته علينا،ويهمس في أرواحنا همسات أجمل من الحياة نفسها، وأثمن من الأذواق

---

[1] ترانيم روح ، ص: 80

[2] المصدر نفسه، ص: 82

[3] نفسه، ص: 85

الجسمية،وعن رؤيا لا يمكن أن نتخيلها أو نتصورها، ولا يمكن أن تتحقق في هذه الدنيا أبدا، و يعد قلوبنا أمورا تتجاوز بكثير ما ننتظره أو نتوقعه"[1].

ـ " الركوع ببعده الذي يحمل معنى الانحناء أمام الحق تعالى توقيرا وتعظيما له،لذا فهو يأخذ معنى الانحناء من كل من أحنى ظهره، وأحيانا يقول: رب إني مسني الضر،أو إنما أشكو بثي وحزني إلى الله. فنشعر برائحة قميص يوسف من عالم يوسف عليه السلام أو صوت خرير ماء الحياة. يسمعنا هذا و يهيج مشاعرنا بالخوارق المنتظرة من وراء الحقائق، يهيجنا إلى درجة أن شعورا بالحمد والثناء يلف كياننا فنعتدل في الوقوف لكي نهدي له تعالى عرفاننا بالمنة له. وهذه الوقفة القصيرة تختلف عن الوقفة الأولى، فهي مرحلة جديدة من مراحل الرحلة والسير نحو الله تعالى، وشاطئ آخر من هذه الرحلة"[2].

ـ " ومن الصعب معرفة مقدار اللذة والخشية ومشاعر التوقير التي تلف كيان الذين يشعرون بالصلاة في ركوعهم وقيامهم في أعماق ضمائرهم، وكيف ينفعلون بالأمل،ويرتجفون من الخيفة. هذا الشعور، وهذا الإحساس العميق هو أول الخطوات التي يخطوها الإنسان نحو الوصال، وأكثرها جدية، والسجود هي الخطوة الثانية.

السجدة هي أرضية وخلفية الشكر، ووعاء المهابة الذي تصهر فيه العبودية وتسكب إلى قلب وقالب الواصلين، وعرصة وخليج مشاعر وأفكار الوصال المتوجهة للذات الإلهية ونقطة اللقاء.

وكلما شعرنا بالسجود على وجهه الحقيقي، وتفاعلنا معه نحس ـ ونحن ننتقل من القيام في الصلاة إلى الركوع ثم إلى القيام ـ وكأن هناك عصارة من الإيمان ومن الإسلام ومن الإحسان تنسكب إلى التلال الزمردية لقلوبنا وتنساب إليها.

---

[1] ترانيم روح، ص: 85

[2] المصدر نفسه، ص: 86

عند السجود تلتقي جبهتنا وأقدامنا في المستوى نفسه، ونشكل نصف قوس، ونتوتر مثل وتر القوس، وننقلب إلى نفس وإلى صوت أنين، فنحس أن وسعة آمالنا تسبق أعمالنا، وتكفي كل شيء، وأن رحمة الله تسبق كل شيء عندما تتحد مع إيماننا وتكون وحدة معها، فنشعر وكأننا نمر من تحت أكاليل سماوية يقع طرف منها في عالمنا والطرف الآخر في دار العقبى محاولين تغيير حظوظنا.

وعندما ينظر الإنسان من موقع ونقطة ذروة حظه التي يسمو إليها بمشاعره في السجود، ويتطلع ويتأمل الحقيقة، ويشرح بلسان قلبه جميع الكلمات المعبرة عن أحاسيسه يوجه دنياه قليلا نحو الآخرة، ويعكس بعضا من عالمه البعيد إلى عالمه الروحي،فيستطيع الإحساس بمناخ عبوديته والعيش فيها وكأنه يقرأ ويطالع مناقب هذه العبودية ومآثرها "[1].

ـ " وبعاطفة لا تعرف الارتواء ولا الشبع يتوجه بطل الصلاة بهذه المشاعر الفوارة . خارج حدود الكم والكيف، والمتعمقة بالنية الخالصة التي يخلد بها يقينه ويرتبط بها بالله تعالى . لأداء فرض الشكر للحق تعالى على كل نعمه من حياة ومال وسائر نعمه الأخرى، فيذكر الله بكل مشاعر كيانه ويئن...يذكر النبي، فيمتلئ داخله بالانشراح ...ويفكر بالمؤمنين الذين يشاطرونه السعادة نفسها فيدعو لهم بالخير...ثم ينهي صلاته التي بدأها بالتكبير بالشهادة التي هي أساس الدين، وأساس رحلة المعراج هذه"[2].

من أهم ثمرات هذا النوع من الصلاة أنها تمثل مركز تقويم وتسديد لحركة المصلين وأحوالهم ومواقفهم وسلوكهم، ورصيدا من الطاقة يقويهم للارتقاء المستمر ،ومصدرا للشحن يسندهم للارتفاع إلى مستوى ميثاقهم الذي عاهدوا به ربهم بحيث " إذا أدى الإنسان صلاته بمعناها الكامل تتوسع عنده فترات النور، وتقل عنده فترات الظلام والعتمة. وتنمو عنده حالات البسط، وتكاد تنمحي عنده حالات

[1] ترانيم روح، ص: 86-87

[2] المصدر نفسه، ص: 88

القبض،تضيق في عالمه الداخلي المنافذ المفتوحة للنفس وللشيطان، وتنفتح الأبواب الروحانية والملائكية على مصاريعها. ولكن كل هذا مرتبط بأداء الصلاة عن وعي، أي مرتبط بالصلاة التي تحرك القلب وتغذي المشاعر، وتهز الإحساس حد الارتجاف. أي أن الصلاة الواردة في الآية ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ الآية45 ـ العنكبوت،هي الصلاة بمعناها الكامل. أما الذين لا يبلغون في صلاتهم هذا الأفق، فلا مناص من وقوعهم في الأخطاء.

إن نهي الصلاة للشخص عن المنكر وتوجيهه نحو المعالي مسألة تركيز جدي. فمثلا عندما نصوم رمضان في أشهر الصيف، ونمتنع عن الطعام والشراب ما يقارب 16 –17 ساعة ثم عندما نفطر ونتناول كوب ماء نحس بهذا الماء وهو يتوزع في كل جزء من أجزاء جسدنا. ونظير هذا يجب أن يحس وجداننا بكل كلمة نقولها في أثناء الصلاة وبكل ركن نؤديه من أركانها، وأن تهز هذه الصلاة قلوبنا وتذكرنا أننا أمام الله تعالى. مثل هذه الصلاة هي الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر. إذن نستطيع هنا أن نقول: إننا بدرجة المستوى الذي نبلغه في الصلاة نكون بعيدين عن المنكرات، وبمرور الوقت تكون مثل هذه الصلاة بأبعادها العميقة عاملا مهما في توجيه سلوكنا"[1].

لأجل المحافظة على فاعلية هذه الصلوات الحية تتدخل المحاسبة الذاتية والصارمة والتقويم المستمر لكل محطاتها والتساؤل المتواصل عن قبول الله تعالى لها. فعلى المصلي " أن يكون حذرا وأن يقول لنفسه على الدوام: ماذا لو ردت علي هذه العبادات، وماذا لو رميت صلاتي بوجهي كخرق بالية، ولكن يقول هذا بالنسبة لنفسه وليس بالنسبة للآخرين، لأن هذا حرام بين ويعد سوء ظن. أجل.. لنكرر هنا قولا مأثورا كثيرا ما نكرره وهو: يجب أن يتصرف الإنسان مثل مدعي عام ـ أي ممثل اتهام ـ أمام

[1] أضواء قرآنية، ص: 278

نفسه، ومحاميا عن الآخرين: أي يرى زلاته الصغيرة ذنوبا كبيرة ويتصرف بشفقة وحنان الأم أمام الأخطاء الكبيرة للآخرين. وحتى عندما ينبه المذنب ينبهه بحنان قلبي "[1].

وفي سبيل تحقيق فاعلية الصلاة يأخذ بآراء الفقهاء القائلين بوجوب الطمأنينة والاعتدال في الصلاة، يقول فتح الله كولن: "أكثرية الفقهاء يرون أن تعديل أركان الصلاة فرض. وباستثناء الإمام أبي يوسف فإن علماء المذهب يرون أنه واجب. ومعنى تعديل الأركان هو أداء أركان الصلاة بهدوء ودون عجلة وبجوارح مطمئنة حتى نهايتها. وهذا مرتبط بوضع الجسد المادي في الصلاة. ودون رعاية هذا الوضع لا يمكن عد الصلاة كاملة وتامة. وأنا أرى أن من الحيطة الاشتراك مع وجهة نظر الذين يعدون تعديل أركان الصلاة فرضا. فما دام هؤلاء العلماء الذين يقولون بهذا قد نذروا أنفسهم لفهم القرآن والسنة، لذا وجب الاقتراب باحتياط شديد في الأمور التي اختلفوا فيها "[2].

نافلة الليل اختصار المسافات

يؤكد الأستاذ محمد فتح الله كولن على ضرورة اغتنام الليل للعبادة والدعاء والتضرع. ويرى ذلك وسيلة أساسية لتسريع خطوات الترقية في مقامات الإيمان، يقول: " فالذي يقطع المسافات يقطعها ليلا، وفي الليل تبتل سجادته بالدموع عندما يخر للسجود...هنا يستطيع روحه أن يرتفع ويقطع المسافات..والذي تعودت جدران بيوته على سماع تأوهاته يستطيع التسلق إلى آفاق تقصر دونها المسافات. أمثال هؤلاء يقطعون هذه المسافات في الليل.. أما الذين ناموا في الليالي فقد بقوا في وسط الطريق، فإن كنتم تريدون الخلاص من عذاب البرزخ فلا تدعوا لياليكم دون تهجد، لا تدعوها لأن الرسول صلى الله عليه و سلم لم يدعها "[3].

المطلب الثالث: الكهفية وسيلة الشحن والتجديد الإيماني

[1] أضواء قرآنية، ص: 279

[2] أسئلة العصر المحيرة، ص: 310

[3] النور الخالد، ص: 464

مصدر هذه الوسيلة قصة أصحاب الكهف الذين " قرروا الالتجاء إلى الكهف والبقاء فيه حتى يموت الملك ويزول ظلم الدولة وإرهابها ليرجعوا بعد ذلك إلى الناس من جديد، والدعوة إلى دينهم الحق، فإن مدة بقائهم في الكهف بمثابة عبادة لهم، ينالون ثوابها بسبب نيتهم الصالحة وعمق هذه النية، لذا يعدون فائزين على أي حال من الأحوال. لأن الشخص المتعب الذي ينام على نية القيام لأداء صلاة العشاء بشكل أفضل وفي حالة راحة فإن نومه يعد له عبادة. لذا يجب النظر إلى قيام أصحاب الكهف بالاختفاء بأن نيتهم كانت الرجوع مرة أخرى إلى نشر دعوتهم بعد انكسار حدة الكفر. فلو كنت متعودا على الحياة المرفهة للقصر والنوم على الفرش الوثيرة الناعمة، وتركت تلك الحياة وفضلت عليها النوم على الصخور الصلدة، وفضلت صحبة كلب على صحبة أناس عديدين رجالا ونساء يقفون لك تحية وتبجيلا...إن كنت هكذا، أليس من الطبيعي أن تنتظر مثل هذا الثواب؟..بلى...لذا فمن الطبيعي أن يهبهم الله تعالى جزاء مكافئ عمق نيتهم الصالحة.

والحقيقة أن الكهف هو مكان لإتمام عملية الشحن، وموضع لاكتشاف الإنسان لنفسه ...لم؟ ذلك لأن النضال ضد الكفر (ولاسيما في الأوقات التي لا يوجد هناك أي توازن بين قوة الكفر وقوة الإيمان) وهزه ثم الانتصار عليه لا يتم إلا بعزم يقارب عزم الأنبياء.

تأمل حياة الرسول صلى الله عليه وسلم. ألم يقض مدة ستة أشهر في تأمل وتحنث في مغارة لأجل استكمال الاستعداد اللازم لتلقي الوحي؟ ونجد أن من جاء من بعده صلى الله عليه و سلم ممن ساروا على نهجه لابد وأن في حياتهم فترة غار أو كهف... فترة شحن، وفترة رجوع إلى النفس... فترة انزواء لتجميع الطاقة والقوة لمواجهة الإلحاد والكفاح ضده. أما مقدار هذه الفترة فقد كان ستة أشهر عند رسولنا صلى الله

عليه وسلم وخمس سنوات أو عشر سنوات عند الأولياء والأصفياء، بل كان منهم من عاش حياة انزواء مدة ستين سنة.

والحقيقة أن الشيء نفسه وارد بالنسبة للجماعات التي تقوم بحركات التجديد وبإعادة الإنسانية إلى رشدها وإلى خط سيرها الصحيح في الحقب التاريخية المختلفة "[1].

وروح الكهفية هي الخلوة والعزلة وما يصاحبهما من رياضات نفسية وروحية إذ يعد ذلك تجسيدا " للمحاورة والصحبة مع الحق تعالى بلسان اللطائف منغلقا كليا تجاه جميع ما سواه تعالى، وذلك بتصفية القلب من الاعتقادات الباطلة، والأحاسيس المظلمة،والتصورات السيئة، والتخيلات التي تبعد عن الله سبحانه" [2]، وهذا الأسلوب في التخلية والتحلية من أهم ما يميز جميع الطرق الصوفية تقريبا، و يؤدي إلى صياغة جيل النصر المنشود ورثة الأرض المشحونين الأقرب إلى التأثير في الوجدان الاجتماعي[3]،تتأسس هذه الخلوات على ركنيين أساسين بدونهما أو أحدهما تفقد فاعليتها وتأثيرها:

أولهما: التفكر، به يتمكن الإنسان في ساعة واحدة من " تغذية أسس إيمانه وتقويته فتبرق في نفسه أنوار المعرفة وتومض في قلبه المحبة الإلهية. فيصل إلى الأشواق الروحية و يطير في أجوائها. وهكذا فإن أي إنسان يسلك هذا الطريق من التفكر يستطيع الوصول إلى مرتبة لا يصل إليها شخص آخر ـ محروم من هذا الأسلوب في التفكر ـ في ألف شهر. أي يحصل هذا المتفكر على مكاسب كبيرة "[4].

ثانيهما: الذكر، فقد أثنى الله تعالى على عباده أولي الألباب الذاكرين الله كثيرا والمتفكرين في آيات الله تعالى المتوجهين إلى ربهم يدعونه تضرعا وخيفة. وقد سئل

---

[1] أضواء قرآنية، ص: 196-197

[2] التلال الزمردية، ص: 48

[3] أضواء قرآنية، ص: 203

[4] أسئلة العصر المحيرة، ص: 134

الأستاذ :أيوجد هناك ورد أو ذكر خاص يشكل أساسا أو وسيلة للتفكر؟ فأجاب: " يتعلق هذا أيضا بمقدار الشعور والفهم والإحساس الذي يتم به هذا الورد أو الذكر، مثله في ذلك مثل مطالعة كتاب الكون. فالدعاء الذي يتم بشعور وإحساس، والمناجاة الضارعة المملوءة عاطفة ووجدا تستطيع فتح أكثر المفاتيح صدأ داخل الإنسان. غير أنني لا أستطيع ذكر من أين وكيف يتم اختيار مثل هذا الورد أو الذكر. ذلك لأن هذا الأمر يختلف حسب القابليات وحسب الاستعدادات، كذلك حسب إيمان الأشخاص وقناعاتهم "[1].

وقد ألف الأستاذ كولن كتابه:"القلوب الضارعة" جمع فيه أدعية وأوراد مختارة ختمها بصلاة جامعة لمحمد فتح الله كولن خوجة أفندي.

[1] أسئلة العصر المحيرة، ص: 135

المبحث الثالث: مركزية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في منهج كولن الإصلاحـي

المطلب الأول: حاجة الفرد والمجتمع إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

1. وجود الإيمان رهين بالأمر بالمعروف

يربط الأستاذ محمد فتح الله كولن وجود الإنسان المؤمن بقيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويقرر بأن: "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر طريق يؤدي إلى الغاية من خلق الوجود. فقد فتح الله سبحانه وتعالى قصر الكون لأجل هذه المهمة السامية والوظيفة الجليلة، وبوأ الإنسان منزلة الخلافة في ذلك القصر المنيف لأجلها. وأسست سلسلة النبوة لهذا السبب "[1].

إن الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام كانوا نصحاء أمناء يأمرون بالمعروف ويدعون إلى الخير والنور وينهون عن المنكر والفساد، وقد خلفوا لمن بعدهم منهجا واضحا في الدعوة والتبليغ، يسيرون عليه على بصيرة، ولذلك فإن" كل خطوة يخطوها المرء في سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تكسبه ثواب وراثة النبوة، لأن هذه الوظيفة الجليلة هي أساسا وظيفة الأنبياء والرسل عليهم السلام. فأيما إنسان يخطو فيها خطوة فقد دخل تحت عبء هذه المهمة النبيلة، أو وهب له المولى الكريم هذه الوظيفة فضلا منه وكرما، أي يغنم ثواب هذه الوظيفة حسب نيته ودرجته... إن على المؤمن أن يوفي هذه الوظيفة الملقاة على عاتقه ـ أي التبليغ ـ حقها ضمانا لقبوله مؤمنا لدى الرب الجليل وبقائه على الإيمان به، وذلك للعلاقة القريبة بينهما. فلا يثبت الأفراد وكذا الجماعات وجودهم ولا يمكن أن يديموه إلا بإيفاء هذه الوظيفة حقها "[2].

---

[1] طرق الإرشاد، ص: 17

[2] المصدر نفسه، ص: 21

يرى كولن أن العنوان الصحيح للإيمان الحق هو حركة المسلم الجادة المستمرة ليحيى ويُحيي بالإيمان ويربط مصيره بمصير الإسلام، وأن قربه من الله تعالى يتوقف على مدى ما يبذله لإظهار دينه؛ حيث " إن سر وجود المؤمن وشرط بقائه مؤمنا حقا هو: تمثل الحق والحقيقة في حياته، وعدم السكوت كالشيطان الأخرس أمام الظلم، وعد الحياة غير ذات أهمية والاستهانة بالموت، والبقاء دوما في دائرة مفاهيم الصحابة الكرام،واعتبار هذه الوظيفة السامية غاية الحياة. فما أضيع الأيام التي مرت دون معايشة هذه الأمور. فينبغي على كل مؤمن أن يلوذ إلى كنفه سبحانه ويستعيذ به من مجتمع لا ينهض بها.

ويجد المرء إمكانية ترجمة أفكاره - التي يؤمن بها ويضحي في سبيلها - إلى الحياة في أثناء أدائه هذه الوظيفة، فضلا عن أن ما يحمله من إيمان لا يبقى في فراغ. إذ الإسلام حقيقة هو معايشة وحياة، فلا يفهم ما لم يكن معيشا. والإنسان الذي جعل الإيمان والدعوة مركزا لكل شيء، ينسج جميع فعاليات حياته حول هذا المركز. إذ أن أول أساس من الأسس الخمسة التي يجب على المؤمن أن يحافظ عليها هو الدين، فهو بلا شك يحافظ على عرضه وشرفه وماله وحياته ونسله وعقله، ولكن عليه أن يحافظ على دينه أولا. وهو علامة على ما يوليه لدينه من أهمية، بل أجلى موقف يعبر عن مدى ارتباط الفرد بالله سبحانه هو ما يبذله من جهد وغيرة على الحفاظ على دينه "[1].

2. ازدياد حاجة المجتمع إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

تزداد قيمة التضحيات والجهود المبذولة كلما اشتدت الحاجة إلى إصلاح ما فسد،وخصوصا عندما تتوسع مجالات غربة الإسلام المعاصرة في أوطان المسلمين؛ يقول محمد فتح الله كولن: " إنساننا اليوم بحاجة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أكثر من أي وقت مضى، فالنبوة قد ختمت بخاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم، فسد ذلك الباب

[1] طرق الإرشاد، ص: 22

سدا نهائيا. والحال أن عصرنا الحاضر يموج كفرا وعصيانا يفوق مجموع ما في العصور التي خلت. لذا يتعرض الذين تعهدوا هذه الوظيفة الجسيمة في يومنا هذا إلى مضايقات ومشقات أشد ممن تعرضوا لها في العصور السابقة. فهذه الظروف العسيرة جدا هي التي تؤهل مرشدي عصرنا ومبلغي الدعوة فيه أن يسبقوا الذين أتوا من قبلهم، ونأمل أن يتسنموا موضعا خلف الصحابة الكرام مباشرة. فالنفس مهما كانت أدنى من الكل إلا أن الوظيفة أسمى من الكل. واللطف الإلهي سبحانه يرد بقدر حاجة الناس"[1].

إن شيوع العصيان وانتشار الفسوق والتمرد على شريعة الله تعالى، وكثرة السيئات وعلو الشر، وفشو الفواحش، وهيمنة الغفلة، كل ذلك حافز إلى صياغة مشاريع الإصلاح وخدمة المجتمعات عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقول كولن: "إن الذنوب الناجمة من النظر من منافذ أجواء شتى، وما تترك من انطباعات في أذهاننا قد اقتحمت حتى أغوار قلوبنا بل جعلتنا مشلولي القوى، فباتت لياليا خالية من الأشواق ومحاربنا محرومة من الدموع. ولا أدري ماذا ننتظر من مصائب بحالتنا هذه الشبيهة بجثة هامدة خاوية من العشق والمحبة؟ وربما المصيبة التي هي أدهى منها هي الطرد من رحمة الله الذي أصاب الشيطان ـ والعياذ بالله ـ.

نعم، نحن أناسي القرن العشرين نصبح ونمسي مع الذنوب، فلو رفع الحجاب عن أبصارنا وشاهدنا ماهيتنا المعنوية لكنا أول من يولي فرارا من حالتنا تلك. وعلى الرغم من كثرة إجرامنا وانهيارنا وسقوطنا، فان إيداع ربنا الكريم وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلينا ليس إلا من حاجاتنا الشديدة إلى رحمته تعالى. فنحن في منتهى الضعف والعجز والله سبحانه في منتهى العلو والرحمة. ولو عبرناعما يختلج في وجداننا بـ(الحمد لله) ألوف المرات لكانت زهيدة أيضا تجاه رحمته الواسعة هذه"[2].

[1] طرق الإرشاد، ص: 24

[2] المصدر نفسه، ص: 25

3 . الأمر بالمعروف مؤشر سلامة تدين الفرد والمجتم.ع

إن من طبيعة الإيمان متى وقر في القلب أن يحول حياة الفرد والمجتمع إلى برنامج عمل طموح يمشي بين الناس، يود لو توسعت أنواره إلى الآفاق، ومن ثم يصبح هم المؤمن هو كيف يحيي مؤسسات المجتمع وعلاقاته بنور الإيمان. بل هو "بمثابة معيار ومقياس لكل شيء، حيث يقيس أفراد ذلك المجتمع جميع شؤونهم وفق ذلك المقياس وينظمون أوقات يومهم وفقه، ويمضون لياليهم تحت أنات هذه المسؤولية. لذا لا يكون معيارا مجيء شخص إلى المسجد أو عودته من فريضة الحج، أو مشاركته في احتفالات المولد النبوي وما شابه، بل المبلغ الجيد يتجنب كليا من كل ما يومئ إلى تحويل الدعوة إلى مراسيم وطقوس وشكليات، تلك التي تفني روح التبليغ والإرشاد. ولكن ربما تكون هذه الأمور والأساليب مسلية لبعضهم إلا أنها بعيدة كل البعد من أن تكون معيارا في المجتمع.

والحقيقة أن في مقدمة الأسباب لتردي المجتمع وسقوطه وجعل قوته المادية والمعنوية عقيمة بائرة هو عدم القيام بـ(الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) بشعور كامل، وبخطة تامة "[1].

ولذلك يربط كولن بين قوة الإيمان وبين الأمر بالمعروف، وينصح بالابتعاد عن الموسمية والسطحية في أمر التبليغ وخدمة الإيمان قائلا: " نعم، نؤكد تأكيدا جازما أن هذا الأمر أمر إيماني قبل كل شي، ولم يزل الذين نصروا هذا الدين إلى الوقت الحاضر وتبنوا قضيته هم الأقوياء إيمانا، وهكذا كان الأمر وهو كذلك اليوم نفسه، وسيكون غدا أيضا على المنوال نفسه. إن ما قام به ثلة مخلصة قوية الإيمان من حركة الإرشاد والتبليغ في مجتمع كبير، إذا بها قد لاقت في وقت قصير قبول وجدان جم غفير من

[1] طرق الإرشاد، ص: 123

الناس وتكون همهم الأول. ولا يمكن إيضاح هذا إلا أن الصفة المميزة لهذه الحركة هي بعدها عن الأمور الشكلية والمراسيم"[1].

4. الأمر بالمعروف ممارسة رسالية وليس مهنة للاحتواف

يتكون فريق العاملين بالأمر بالمعروف من عناصر ربطوا وجودهم وأنفاسهم بما يحققونه من إنجازات دعوية وإصلاح للمجتمع، ترى الواحد منهم "ينظم كل حركاته وتصرفاته وسلوكه وفق حياته الإرشادية، فإذا ما أراد الذهاب إلى مكان يذهب إليه متفكرا بالإرشاد. أي يتحرك ويسكن ويقوم ويقعد متفكرا بالإرشاد والتبليغ.. فلا مكان للتنزه الخاص في حياته، بل يسعى لتنسيق حاجاته الفطرية وفق استقامة دعوته السامية. إذ يعيش تحت وطأة يوم يسأل عن عدد أنفاسه "[2].

لا يستوي هذا الصنف من المسلمين الإيجابيين ـ الذين ملأ عليهم الدين حياتهم وأشربوا في قلوبهم محبته، وصدقوا بحالهم ووجدانهم مقالهم وخطابهم ـ مع من يتحدث عن الإسلام بلغة تفتقد إلى عمق الإيمان وصدق الولاء للإسلام وعشق تعاليمه، فهؤلاء "يمثلون الجانب الفكري للإسلام، أو يشرحونه بأسلوب أكاديمي، حتى إنهم ينتجون أفكارا في هذا الميدان، ولكنهم لأنهم لا يحيون بما يقولون. أصبحوا أثرا بعد عين، ذلك لأن سلوكهم ما كان مستقيما، وكلامهم ما كان نابعا من صميم إيمانهم، علما أنهم كانوا يشرحون(الصراط المستقيم)للناس ويدعون أنهم يرشدونهم، ولكن ما إن هب نسيم خفيف حتى اهتزت الأوساط، فكان ذلك كافيا لينتهوا كليا، بل نسوا ما كانوا يقولونه للناس وكذبوا بكل ما يقولونه وأصبحوا في صفوف الجبهة المعادية مدافعين عنها بقوة. وفي النهاية هلكوا وانخرطوا مع المعدومين، ولكن يا للأسف مسحوا حضارة كاملة من الوجود"[3].

---

[1] طرق الإرشاد، ص: 124

[2] المصدر نفسه، ص: 124

[3] طرق الإرشاد، ص: 125

التحذير من هؤلاء الذين يغيرون مواقعهم وينوعون أدوارهم المتناقضة، أمر لابد منه، لأن المصير الذي يؤول إليه حالهم مصير بئيس، وعاقبة دعوتهم داخل المجتمع البوار، يقول فتح الله كولن:" فالتبليغ غير المقارن بالإخلاص والعمل لا تأثير له، أو قليل التأثير مهما أحرز من نجاح. ومن جهة أخرى فإن هذا العمل (التبليغ) له وجهه الآخر المتعلق بالآخرة، وهوعذاب الله تعالى. يقول الرسول صلى الله عليه وسلم موضحا لوحة من الآخرة على الصورة الآتية: "مررت ليلة أسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار ـ قال ـ قلت: من هؤلاء؟ قالوا: خطباء من أهل الدنيا كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون"[1].

نعم، اللوحة ماثلة أمامنا. وهذا هو موقف الذين نسوا أنفسهم ولا يعملون بما يقولونه للناس. فالوقت الحاضر بحاجة إلى الذين يفعلون بما يقولون وليس إلى المجادلين والمتحذلقين. فهؤلاء يمكنهم أن يحلوا العقد المستعصية في أفق نجاتنا وخلاصنا وليس غيرهم. فالذين حملوا أسفارا، أو يولدون الكلام ليل نهار صفر اليدين أمام مهمة نجاة الأمة. فعندما انهارت الدولة العثمانية كانت خزانتها مليئة بمئات الألوف من الكتب ولكن هذه الكتب لم تتمكن أن تحول دون سقوط دولة عظيمة. فوجود تلك الكتب في رفوف المكتبات، والمعلومات المخزونة المصففة في حافظة الإنسان لا فرق بينها من حيث الكيفية. فالأصل هو العمل بما علم. فقد قال الرسول الله صلى الله عليه وسلم سيد الكائنات في حديث شريف هذا المعنى كالآتي: "إن أخوف ما أخاف على أمتي ثلاث: زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن، ودنيا تفتح عليكم " [2]. نعم إذا ما نافق العالم وخادع

[1] مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق حسين سليم أسد الداراني، كتاب الإيمان، باب في الإسراء، دار المأمون للتراث، دمشق، ج1، ص: 422، بعبارة: "تقرض شفاههم وألسنتهم بمقاريض من حديد كلما قرضت عادت كما كانت، لا يفتر عنهم من ذلك شيء. قال: يا جبريل، ما هؤلاء؟ قال: خطباء الفتنة"

[2] المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير أبي القاسم الطبراني، ج15، ص: 57

وتحذلق المنافق، فقد حقت نهاية هذه الأمة. فكل من كان في موضع المرشد أو المبلغ لابد أن ينتبه بدقة إلى هذه النقطة، إذ كثيرا ما يغفل عنها، ونقطة ضعفنا في وظيفة الإرشاد، سواء أفرادا أو مؤسسات هو هذا مع الأسف. ولنتذكر هذا عندما نفكر في معاملة الله سبحانه"[1].

المطلب الثاني: نحو تجرد الأمر بالمعروف نصرة للدين

1. الاستغناء عن الناس والزهد جناحا الناصح القوي الأمين

هناك من يخدم دعوته ويضحي في سبيلها، وهناك من يستخدمها للتضحية بها من أجل مآربه، الأولون عقدوا مع الله تعالى ميثاقهم عندما عزموا على إبتغاء الأجر منه وحده سبحانه. يشيد كولن بهذا الفريق ويوجه تلاميذه شطره، فيقول: " إن المبلغ لا يريد جزاء ولا شكورا من أحد عوضا عما يؤديه من وظيفته المقدسة، ماديا كان ذلك الأجر أو معنويا وروحيا، لأن طلب الأجر يذهب صفاء الإخلاص والصدق وحالما يتكدر الصدق والإخلاص تتلاشى قوة التأثير، بل المبلغ يقلق حتى على ما يورثه تبليغه من ذوق معنوي ولذة روحية أن يكدر صفو الإخلاص، ناهيك عن الأجر المادي الذي يجرح التبليغ. وإذا تداخلت منافع مادية في التبليغ رفع الإخلاص كليا. ولا يقال لهذا العمل إنه تبليغ ولن يقال. وأوضح دليل على ما ذكرناه ما يقوله القرآن الكريم نقلا عن لسان جميع الأنبياء عليه السلام،﴿ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٩ ﴾ الآية 109. الشعراء.

وفي الحقيقة يمكن أن نستنشق تحت عبارة الأنبياء هذه أنينا كهذا: (إنني أتقلب لأجلكم في ألم وقلق، وأنتم تهينوني وتطلقون علي اسم مجنون، وتحاولون إبعادي عن الناس وترجمونني، وأنا أسعى لأبلغ الحق بيتا بيتا. بينما أنتم توصدون كل باب علي.

[1] طرق الإرشاد، ص: 139-140

وأنتم تحاولون بكل وسيلة أن تضيقوا الخناق علي وتصيبوني بالأذى. وأنا لا أطلب منكم شيئا، لا في الدنيا ولا في العقبى. إن أجري إلا على الذي أرسلني وقلدني في هذه الوظيفة)" [1].

2. ضبط ميزان العلاقة مع رجال المال والدولة

ولأجل بقاء أهل الأمر بالمعروف ـ والتبليغ خاصة ـ بمنجاة من تلوث نياتهم،وتكدر صفائها، وحتى لا تزيغ أهدافهم عن قبلتها التي حددودها بارتباط مع ربهم وحده، ينصح كولن بضبط العلاقات بموازيين دقيقة مع أرباب المال والسلطان ويرجح خيار الابتعاد عنهم إلا لضرورة، ويضرب لمحبيه أمثلة لمن آثروا تجنب من بيدهم الإدارة أو المال،يقول في ذلك: "وفي يوم آخر سار (حاتم الأصم) إلى الإمام الطنافسي [2]، وهو من العلماء الأعلام في زمانه. وكان في بحبوحة من العيش لعلاقته القوية مع رجال الدولة. فدخل عليه فقال: رحمك الله أنا رجل أعجمي أحب أن تعلمني أول مبتدأ ديني ومفتاح صلاتي كيف أتوضأ؟ قال: نعم وكرامة. يا غلام: إناء فيه ماء. فأتي بإناء فيه ماء فقعد الطنافسي فتوضأ ثلاثا، ثم قال: يا هذا هكذا فتوضأ. قال حاتم: مكانك يرحمك الله حتى أتوضأ بين يديك فيكون أوكد لما أريد. فقام الطنافسي فقعد حاتم فتوضأ ثلاثا ثلاثا حتى إذا بلغ غسل الذراعين غسل أربعا، فقال له الطنافسي: يا هذا أسرفت. قال له حاتم: في ماذا؟ قال: غسلت ذراعيك أربعا. قال حاتم: يا سبحان الله أنا في كف من ماء أسرفت وأنت في هذا الجمع كله لم تسرف.. فعلم الطنافسي أنه أراده بذلك. لم يرد أن يتعلم منه شيئا.

---

[1] طرق الإرشاد، ص: 99

[2] الإمام علي بن محمد بن إسحاق أبو الحسن الطنافسي الكوفي الحافظ، توفي سنة 230هـ، انظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي، تحقيق عبد القادر الأرنؤوط ومحمود الأرنؤوط، دار بن كثير، دمشق، 1986م، ج2، ص: 68. الثقات، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، تحقيق السيد شرف الدين أحمد، ط1، دار الفكر، 1975م، ج8، ص: 467

والطنافسي عالم جليل القدر إلا أن ارتباطه برجال الدولة ساقه إلى هذا النمط من الحياة، وحاتم الأصم نبهه إلى ما لا يليق برجل الإرشاد من نمط الحياة "[1].

سار كولن على نهج الأصم، واختار طريقه بعيدا عن الاغتناء بالدعوة، ولم يستخدم مشاريع الخدمة وسيلة للثراء، وتجنب الارتماء في أحضان المال أو السلطان،لأنه يرى أن "المتكاملين بشخصياتهم يترفعون عن مثل هذه الوسائل البسيطة، والمبلغ أو المرشد هو الإنسان المتكامل بشخصيته، لذا لا يرد بالبال استشرافه لمثل هذه الحياة المرفهة.

إن إنكار الذات علامة الوقار والعظمة، ومتى أدرك المرء أنه واحد من الناس يدرك كونه إنسانا، والذين يعظمون بأسباب عرضية ما إن ترفع تلك الأسباب حتى يتلاشوا وينتهوا. فإن كان الغنى والمال والملك والمقام أسبابا لكبرهم وعظمتهم، فذهاب هذه الأعراض من أيديهم يعني اضمحلالهم نهائيا. والحال أن قيمة الإنسان نابعة من غنى ذاته، فتغير الأحوال والأطوار لا يزيد في هذا الغنى ولا ينقص منه ولا يبدل شخصيته بل يبقى بذاته وشخصيته، إذ لا تعرف الأعراض من كان متكاملا في ذاته، ولا ينتهي بموته ومفارقته للناس. بل ينصب خيامه في قلوب مئات الألوف. وليكن لا مسكن و لا مأوى له هنا ولتمض حياته على حصير فهو موضع تزاحم الزوار إليه هنا وهناك، وليكن حتى قبره مجهولا وليس له شاهد قبر"[2].

3. التبليغ والإرشاد مقياس لنصرة الدين

لقد وعد الله تعالى بحفظ الإسلام وإظهاره على ما سواه وتمكين الإيمان وهيمنة نور الإسلام، وقد ربط الخطاب القرآني والهدي النبوي ذلك بمدى نصر المؤمنين لهذا الإيمان ومدافعتهم خصومه وإصرارهم على مقاومة عمليات الصدود عن سبيل الله

[1] طرق الإرشاد، ص: 143. القصة وردت في: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، ط4، دار الكتاب العربي، بيروت 1985، ج8، ص: 81

[2] طرق الإرشاد، ص: 144

تعالى،يؤكد كولن على هذا الأمر بقوله:" الدين الإسلامي محفوظ من قبل الرب الجليل،وسيحافظ على طرواته ونضارته إلى يوم الدين. فقد وعد الله سبحانه بحفظ دينه. ولكن هذه المحافظة والدفاع عن الدين وصونه تتوقف على همة المؤمنين به ومدى تمسكهم وولائهم لهذا الدين، أي أن الله قد جعل نصرة المسلمين لدينهم شرطا عاديا لحمايته وحفظه، أي سيظل الدين محفوظا ما دامت المشيئة الإلهية وتحقق الشرط العادي. هكذا يفهم الوعد الإلهي، لا غير.

أجل على المؤمنين أن يكونوا حراسا للدين، فلو لم يكونوا ذابين عن حياضه وناشرين له في الآفاق يحرمون من فيض دينهم وبركته، وهذا لا يعني قطعا أن الله تخلى عن حفظ دينه، بل إن المسلمين لم يرجعوا إلى الله سبحانه في طلب حفظ دينه، أي لم يدخلوا في الحفظ بإرادتهم التي تعد شرطا عاديا من حيث تعلق الإرادة الإلهية. ولهذا شتتهم الله سبحانه وأذلهم، أو حرمهم من بركات الدين ويمنه، وهكذا يفهم سبب الانقراض الحالي في الحياة الدينية؛ إذ بمدى تمسك المسلمين بالدين ونصرتهم له يحافظ عليه،وبمقدار ما يبذلونه من جهد في نشره في الآفاق يتعالى وتتفتح أزاهيره اليانعة"[1].

إن سعي العاملين لخدمة دينهم من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس أمر نافلة أو شيئا ثانويا، إنه مؤشر على كلمة الإيمان وسمو تعاليمه، وبطاقة العبور على الصراط وعلامة استحقاق الرضا الإلهي، لذلك "تلقى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم هذه النصرة للدين والحفاظ عليه أعظم قضية من القضايا، وسعى حثيثا لإيقاظ الأمة، حيث السعادة الأبدية في العالم الآخر متوقفة على مدى معايشة المسلمين لدينهم،والشيء الأساس الذي ينفع في المحشر والصراط والجنة ورؤية جمال الله هو خدمة الدين والعمل الصالح والقلب السليم "[2].

[1] طرق الإرشاد، ص: 79

[2] طرق الإرشاد، ص: 79

المطلب الثالث: نحو توسيع دائرة الآمرين بالمعروف

1. شمولية خدمة الدين فئات المجتمع

لأن نصر الدين وحفظه مرتبط بجهود المسلمين، ولأن الأمر بالمعروف وسيلة أساسية لإنجاز هذا الواجب، فإن المكلفين مطالبون بالقيام بخدمة دينهم مع تفاوت مواقعهم ومؤهلاتهم وكفاءاتهم وقدراتهم وتفاوت نسبة مساهمة كل فريق في ذلك، على اعتبار أن خيرية الأمة تشمل عموم المجتمعات الإسلامية وأفرادهم. ولذلك رفض كولن حصر نصيحة الدين والمسلمين في فئة معينة تنفرد بها قوى البغي والإثم والعدوان وتحاصرها وتعزلها عن بقية الناس، يقول: "ليعلم جيدا أن الدين لا يحصر على فئة قطعا. فلا يمكن في أي وقت من الأوقات أن يكون الدين ملك فئة معينة، حيث هو ملك جميع من ينتسب إليه، إذ أن كل فرد ذو علاقة ورابطة مع ربه. فلا يمكن إزالة هذه الرابطة بين العبد وربه كما لا يمكن الحيلولة دون نصرتهم لدينهم ودفاعهم الشخصي عنه، إن حصر الخدمات الدينية على فئة خاصة غفلة عظيمة وخطأ جسيم لا يغتفر. ولن ننجو مما نحن فيه من وضع أليم إلا بالخلاص من هذه الغفلة، وعندها يجد الفرج إلينا طريقه. وبخلاف هذا نكون مانعي ظهور الدين.

ولاشك أن حصر الخدمات الدينية على مؤسسة معينة لعبة من لعب الأجانب، ذلك لأن مثل هذا العمل لا علاقة له مع مفهوم الجهاد والتبليغ في الإسلام؛ إذ الإسلام كدين لا يمكن حصره بين جدران المسجد، فقد بعثه الله سبحانه إعمارا للدنيا والآخرة، فهو كل لا يقبل التجزئة.

ففي اليوم الذي نقيم الدين ككل وتألفه أر واحنا، نتحرر من الذل وننجو من الهوان،حيث ستتوضح المسائل الفردية والاجتماعية والإنسانية بشعاع الوحي المنير. وعندئذ ينجو الإنسان من القلق والاضطراب في الظلمات".[1]

2. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين كسب الحسنات وحفظ المجتمع من العقوبات

تتعدد الطرق إلى الله تعالى ونيل الحسنات وهذا من رحمة الله تعالى، ومن حكمته سبحانه أن جعل بعضها يكسب المؤمن أجرا مضاعفا وحسنات متميزة، ذلك شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عبادة الرسل والمصلحين التي فضلوها على غيرها،خصوصا عندما تنحصر مساحات المعروفات وتتمدد مجالات المنكرات، ولذلك يقرر خوجة أفندي أن "القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مجتمع فاسد آسن،عبادة أفضل من انكفاء المرء على نفسه متفرغا للتعبد في زاوية قصية بعيدا عن المجتمع، ولو لم تكن هذه الوظيفة أفضل من العبادة الشخصية لكان الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم لا يغادر بيته ويمكث منشغلا بالفيوضات والتجليات الربانية وما كان يخالط الناس قط، وكذا لو لم تكن هذه الوظيفة أفضل من غيرها من الأعمال ولاسيما اعتزال الناس لما خوطب بـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ الآية 1-2 المدثر.

الدين كله نصيحة، الدين أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وقد قال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: «الدين النصيحة. قلنا: لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئم ة المسلمين وعامتهم»[2]. وعلى هذا فالمؤمن يعرف بالله دون توقف، وهذه القضية قضيته الأساس. بل يفرغ نفسه لهذا العمل حتى يجافيه النوم ويفقد شهية الطعام في يوم لم يتمكن من تعريف الآخرين بالله ولا يعد ذلك اليوم من حياته.

[1] طرق الإرشاد، ص: 82-83

[2] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، ح205، ج1، ص: 53

وكذا سيكون التعريف بالرسول صلى الله عليه وسلم شغله الشاغل فيسرد ما تحمله صلى الله عليه وسلم في سبيل هذه الدعوة من مشاق ويتحدث عن هذا حتى يضمن أن يتخذه السامعون قدوة في أعمالهم كافة.

وكذا سيكون تعريفه بالقرآن الذي أنزله الرب الجليل دستورا وهاديا للعمل. وأن عزنا وكرامتنا منوطتان باعتصامنا به. هذا ما نفهمه من شهادة التاريخ، إذ ما إن اعتصم به العالم الإسلامي وعمل بأحكامه إلا وجال في الذرى، وبخلافه، ما إن أرخى يده عنه حتى تفرق شذر مذر".[1]

عندما يتحرك المسلم بنية إنقاذ خلق الله تعالى، وإصلاح ما فسد من أحوالهم،وهدايتهم ودلالتهم على الخير، يكون قد ادخر لنفسه رصيدا هائلا من الحسنات وحظوظا قوية من القربات إلى رب الأرض والسموات. يقول كولن: "إن الإنسان في المستوى الفردي من جراء قيامه بهذه الوظيفة المقدسة يصبح وسيلة لإيقاظ الأشخاص على صوت الإيمان، ينال ثوابا مثل جميع ثوابهم.

يعني: أنكم أصبحتم وسيلة لإقناع شخص ما إلى أهمية الصلاة ووجوب الزكاة وحكمة الصيام وضرورة الإرشاد وما شابهها من الأمور، فالثواب الحاصل مما يفعله وسيفعله ذلك الشخص من هذه الأعمال يكتب لكم مثل ثوابه دون نقصان. ذلك أن (الدال على الخير كفاعله)[2]، كما قال من أوتي جوامع الكلم صلى الله عليه وسلم. فضلا عن ذلك فإن الثواب الحاصل بما يغنمه ذلك الشخص الذي هداه الله إلى الإيمان بإرشادكم،يكتب لكم مثل ثوابه أيضا. وهذا يبين لنا مدى أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حيث العمل الصغير في هذه السبيل يورث الإنسان أثوبة إلى هذا الحد. يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: « من سن في الإسلام سنة حسنة وعمل بها بعده كتب له

[1] طرق الإرشاد، ص: 58

[2] صحيح ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ج1، ص: 526

مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء »[1].

فكل من سار في ضوء هذه السنة يأخذ ثوابه، سواء أكان من الأقارب أو البعيدين. لأن فتح نهج جديد وسن سنة حسنة كنفخ حياة في حياتنا الاجتماعية الميتة، وحتى إذا فارقنا هذه الحياة ورحلنا من هنا: فإن تلك الحسنات تظل في سجل حسناتنا...

تأملوا في سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقد ارتحل إلى العالم الآخر منذ أربعة عشر قرنا من الزمان، ولكن من ينعم بالحياة مثله ومن هو حي مثله؟ إذ يفتح يوميا ولا يغلق أبدا سجل حسناته بجميع صحائفه وتكتب له الأثوبة. ثم يليه من وضع لبنة من ذهب في بناء الحياة الاجتماعية. وهم يربون على الملايين وكلهم أخذوا ثوابهم بنسبة ما أصبحوا وسيلة لسنة حسنة... وفي تاريخ الإرشاد والتبليغ من نثر ملايين من بذور الإرشاد ثم ارتحلوا دون أن يشموا رائحة وردة منها. ومن بذر تلك البذور وشاهدوا اخضرار الأرجاء بالربيع الزاهر بعد خمسين سنة. فأثوبة جميع هؤلاء حولت قبورهم إلى مركز إشعاع ومنبع نور...إن هؤلاء قد ماتوا بجسمانيتهم فحسب، وهم أحياء من حيث الثواب،بل أكثر حياة ممن يسمون أحياء ولم يوفقوا إلى مثل هذا العمل "[2].

وفي سياق آخر يذكر كولن أن العقاب الذي ينزل بالمجتمع والأمة يعم إذا كثر الخبث ولم يوجد من يقوم بالاحتساب الاجتماعي، آمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر، ولم تكف جهودهم في تحقيق إعادة التوازن بين الحسنات والسيئات ومن ذلك العقاب " تسلط الأشرار على الأمة وتوليهم أمرها بالقوة والقهر، حتى غدا هذا العقاب عقابا عادلا استحقه المسلمون، ذلك لأن الله سبحانه يمهل ولا يهمل قط، فيؤخر ويؤجل عقاب عدم الإيفاء بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن ما إن يحين موعد العقاب حتى

[1] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب من سن سنة حسنة أو سيئة، ج8، ص: 61

[2] طرق الإرشاد، ص: 59- 60- 61

يأخذهم أخذ عزيز مقتدر... وفي هذه الأثناء لو ملأ الأخيار والأبرار المساجد وتضرعوا إلى الله بدموع غزيرة ساخنة حتى تبتل سجاجيدهم بها وقاموا بهذا إلى الفجر فلا يرفع عنهم هذا العقاب ولا يفلتون منه إلا باكتمال مدته، وهذا قانون إلهي لا يحيد ولا يتبدل في أي زمان"[1].

ويستغرب الأستاذ فتح الله كولن من اعتماد البكاء على الذنوب والآثام العامة والاكتفاء بذلك بدلا من توبة حقيقية أبرز عنوانها الرجوع إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتجديد الحياة به، يبين ذلك بقوله: "هذا الجمع من الشعوب العريقة دون حظ ولا سعد يكابدون ويعانون تحت مخالب القوى السرية الأجنبية، ولا يجدون الخلاص والفكاك منها. ترى ماذا حل بالأدعية المرفوعة في الكعبة المشرفة؟ لم لا تسعف الدموع التي تسكب في المساجد؟.. ذلك لأن كفارة ذلك الذنب ليست هذه، فلقد حلت بنا هذه الطامة بتركنا وظيفة جليلة..ولنأت البيوت من أبوابها. فالخروج من الهاوية السحيقة هو من موضع السقوط فيها. ولئن أدينا تلك المهمة على وجهها نجونا من هذه الحالة الرهيبة بإذن الله تعالى، ولهذا فالأدعية المرفوعة بالألسنة لا تجدي وحدها مع أن لها فوائد أخروية للداعي بلا شك، ولكن النجاة من الذل والهوان في الدنيا ليس إلا بأداء مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أفضل أداء... يمكن أن يكون في الجماعة والمجتمع أشخاص أفاضل كثيرون. ويمكن أن يكونوا مقربين إلى الله، ولكن إن لم يكن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤدى، ولم تؤسس مؤسسات لتوفي هذه المهمة حقها بصورة منظمة، فالله سبحانه وتعالى لا يؤاخذ الجميع لذنب ارتكبته ثلة منهم؛ فلا يؤاخذ المجتمع بما يرتكبه المترفون الضالون، إلا أن القادرين على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إن لم ينطلقوا إلى الميدان فالعذاب يحيط بالجميع.

[1] طرق الإرشاد، ص: 68

يروي أحمد بن حنبل حديثا شريفا حول هذه القضية: "إن الناس إذا رأو المنكر فلم ينكروه أوشك أن يعمهم الله بعقابه" [1]، والأمر نفسه تبينه الآية الكريمة الآتية: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱ للَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥ ﴾ الآية 25. الأنفال"[2].

ويؤكد الأستاذ "أن الذي يحول دون هلاك أمة من الأمم المؤمنة هو قيامهم بهذه المهمة الجليلة بما أسسوه من مؤسسات للإرشاد"[3] .

[1] مسند أحمد بن حنبل، ج1، ص: 2

[2] طرق الإرشاد، ص: 69-70

[3] المصدر نفسه، ص: 70

الفصل الرابع

فقه الجهاد والحوار عند كولن

تقديـــم

من المصطلحات والمفاهيم التي كثر حولها الحديث:الجهاد والحوار والائتلاف. وكان لمدرسة الأستاذ محمد فتح الله كولن حظ وافر من ذلك، تنظيرا وتقعيدا وتطبيقا وتجسيدا.

لقد تقارب العالم بشكل كبير وضاقت مسافات التباعد المكاني فأصبح الناس أقرب إلى التواصل أكثر من أي وقت مضى.

ومن هنا تزداد الحاجة إلى ترسيخ الحوار وتعميق أسسه وفقه شروطه، والتمكين لثقافة الائتلاف والبحث عن المشترك الفكري والإنساني. الأمر الذي يستدعي إنشاء القنوات المناسبة لإنجاز التقارب وتحقيق التعارف من خلال مأسسة الحوار، وتطوير جهود الأفراد نحو عمل جماعي منفتح.

إلى جانب هذه الثقافة الحاضنة لمختلف الأجنة الحضارية، يشهد العالم مظالم فظيعة وانتهاكا صارخا لحرمات المستضعفين، مما استدعى تفعيل قيم الكرامة والعزة والمقاومة ورفض الاستكبار. وهنا تتعدد مشارب تحقيق هذه السيادة للأمة، وتتنوع المفاهيم المتعلقة بالجهاد من حيث تنزيله على واقع مجتمعات المسلمين المعاصرة.

المبحث الأول: مفهوم الجهـاد عند كولن

المطلب الأول: شمولية مفهوم الجهـاد

1. سعة مفهوم الجهاد وأنواعـه

حظي مفهوم الجهاد باهتمام خاص من قبل الأستاذ محمد فتح الله كولن، فقد خصص أربع عشرة صفحة[1] من كتابه:(النور الخالد)، في القسم الرابع:(الجانب العسكري للرسول صلى الله عليه وسلم)، للحديث عن أهداف الجهاد، وللاستعداد للقتال، بل إنه أفرد كتابا خاصا بالموضوع: (روح الجهاد وحقيقته في الإسلام) تحدث فيه في فصول ستة عن: مفهوم – الجهاد – وظائف الجهاد –علاقة جهاد المؤمن بالكون – مكتسبات الجهاد – عوائق الجهاد – نماذج من عشاق الجهاد.

يعرف كولن الجهاد بأنه كل جهد يبذله المسلمون فرادى وجماعات من أجل حمل أنفسهم على الاستقامة على هدي الرسول صلى الله عليه وسلم وخدمة ميراث النبوة ونشره والدفاع عنه، يقول في ذلك: " الجهاد: كلمة مشتقة من جذر (ج . هـ . د) وهي تعني بذل الوسع. والكلمة تحمل معنى آخر وهو بذل الإنسان كل ما في وسعه وطاقته وتحمله المشاق في سبيل الوصول إلى هدف معلوم، وهذا التعريف أقرب إلى معنى الجهاد في معناه الشرعي.

إن مفهوم الجهاد قد كسب ميزة أخرى بظهور الإسلام، إذ صار علما على تحقيق إيصال الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى بإزالة العوائق بينه وبين الله تعالى، وحيثما يذكر الجهاد في الوقت الحاضر يرد هذا المعنى على البال"[2].

---

[1] النور الخالد، ص: 391-404

[2] روح الجهاد، ص: 21

يقسم الأستاذ الجهاد إلى نوعين، ويحدد له مجالين كبيرين، لا يكتمل إلا بهما لتحقيق غاية وجود الإنسان في الأرض حيث " إن الجهاد في سبيل الله يجري في جبهتين اثنتين؛ الأولى: موجهة إلى الداخل والأخرى موجهة إلى الخارج، ويمكننا أن نعرف كلا من الجهادين بالآتي: إن بذل الجهد إلى الداخل عبارة عن عملية إيصال الإنسان إلى ذاته وإلى ربه. أما الجهاد الآخر الموجه إلى الخارج فهو عملية إيصال الآخرين إلى ذواتهم وإلى ربهم. ويطلق على الأول (الجهاد الأكبر) وعلى الثاني (الجهاد الأصغر). حيث إن الإنسان بالأول يبلغ معرفة نفسه بعد اجتيازه العقبات بينه وبين نفسه حتى يبلغ معرفة الله ومحبة الله والذوق الروحاني، أما بالثاني فتتحقق بإزالة الموانع بين الإنسان والإيمان بالله سواء بالنضال أو القتال، لإيصاله إلى الله تعالى، ومن ثم التعرف عليه والعروج في معرفته "[1].

وينتقد محمد فتح الله كولن تضييق دائرة (الجهاد الأصغر) وحصره في جبهة القتال في الميادين؛ ذلك أن " الجهاد الأصغر ليس هو شكل الجهاد المادي الذي يؤدى في جبهة القتال فحسب، فهذا النمط من الفهم يقلص أفق الجهاد، حيث إن ميدان الجهاد واسع جدا يمتد من الشرق إلى الغرب، وعلى سعته وشموله قد يكون كلمة واحدة أو سكوتا وصمتا أو تبسما وطلاقة وجه أو امتعاضا ونفورا أو تركا لمجلس أو مشاركة فيه.. وباختصار هو القيام بأي عمل من الأعمال لوجه الله، وتقويم الحب في الله والبغض لله في هذا السبيل...ومن هنا فإن كل جهد يبذل لإصلاح المجتمع في أي ميدان كان من ميادين الحياة ولأي شريحة من شرائح المجتمع، كل ذلك هو من مضمون الجهاد الإسلامي، بمعنى أن ما يؤدى في ميدان العائلة والأقارب، القريبين والبعيدين والجار الجنب والصاحب بالجنب، كل ذلك هو من الجهاد الأصغر. فهي كدوائر متداخلة واسعة سعة الأرض كلها.

[1] روح الجهاد، ص: 21

نعم إن الجهاد الأصغر في معنى من معانيه جهاد مادي. أما الجهاد الأكبر الذي يشكل الجانب المعنوي من الجهاد فهو جهاد الإنسان لنفسه وعالمه الداخلي. فمتى ما أوفي حق هذين الجهادين معا فقد تأسس التوازن المطلوب. وبخلافه، أي إذا ما نقص أحد هذين الجهادين معا، اختلت الموازنة الموجودة في روح الجهاد.

فالمؤمن هو الإنسان الذي يجد هدف حياته ضمن هذه الموازنة في أدائه الجهاد ويدرك أنه متى ما ترك الجهاد فقدت الحياة. نعم، المؤمن كالشجرة المثمرة تحتفظ بحيويتها طالما تثمر، وإذا انقطعت عن الإثمار يبست وفنيت "[1].

2. الجهاد المعنوي والأعداء المعنويون

مع إقرار الأستاذ محمد فتح الله كولن بحقيقة الجهاد وأنواعه، وضرورته إلا أنه يشير إلى وجوب حسن تنزيل مفاهيمه باستحضار طبيعة التحديات المعاصرة للأمة وأشكال الاعتداء المتطورة على قيمها وإنسانها ومجتمعاتها، يتضح ذلك من خلال ما يلي:

أ ـ إن تقارب الأمم والشعوب واتساع وسائل التواصل وكثرتها يستدعي امتلاك القدرة على الحوار والإقناع لإنجاز الشهود الثقافي والظهور الفكري وقوة عرض المشاريع المجتمعية، فقد " كسب الجهاد في عصرنا الحاضر خواصا متميزة حيث تحولت دنيانا إلى ما يشبه القرية العالمية وتوسعت فيها وسائل الاتصال والنقل توسعا هائلا قد لا يتصوره خيالنا، وقد أثر توازن القوى العالمية ـ إلى حد ما ـ بمعناه ومفهومه. لذا فلا شك أن شكل الجهاد سيكون أيضا مختلفا في هذا العصر.

ولا يعني هذا تغير معنى الجهاد ولا مضمونه، وقد أضاف بديع الزمان سعيد النورسي بعدا آخر جديدا لمصطلح الجهاد، وذلك بقوله [2] (الظهور على المدنيين المثقفين إنما هو بالإقناع وليس بالضغط والإجبار) "[3].

---

[1] روح الجهاد، ص: 26

[2] كليات رسائل النور، سيرة ذاتية، ص: 95

[3] روح الجهاد، ص: 13

ب . كثرة الأدواء التي تهدد كيان الأمة وتشكل تهديدا حقيقيا لوجودها الحضاري،فقد " كان الجهل والفقر والتفرق والتعصب وما يشبه ذلك، هم أعداؤنا في زمن ماض. واليوم زيد عليهم الخداع والتسلط والسفاهة والخلاعة واللامبالاة وضياع الهوية"[1]،والمطلوب مقاومة هؤلاء الأعداء " بالجهاد المعنوي الذي يمكن تسميته بكفاح العلم والأخلاق والحق والعدل أيضا "[2].

ج . التأمل في القرآن الكريم يقود إلى التذكير بعمق مفهوم الجهاد في النفس الإنسانية وضرورة المرابطة الدائمة على مساحاتها لرفعها إلى مستوى الإيمان، " نعم، إن القرآن جاء بمفهوم مختلف لـ(الجهاد) من حيث كنهه ونكتته، جهاد تحفيز الناس ليتعرفوا على أنفسهم وذواتهم.. وجهاد إنشاء العلاقة مع الوجود كله..وجهاد التمرد على الجسمانية والنفسانية..وجهاد أن ينتصر المؤمن على نفسه ويفتح قلعة ذاته من الداخل..وجهاد الاستعداد المستمر واتخاذ الموقف الواضح ضد كل العواطف والغرائز التي تهبط بالإنسان من أمثال: العداوة والحقد والكراهية والشهوة والضغن والحرص والحسد.. وجهاد أن يربط كل أحد نفسه بفكر سام وهدف عال.. وجهاد تخطي كل المخاوف والتطلعات.. وجهاد اعتبار الدنيا غرفة انتظار للآخرة "[3].

المطلب الثاني: بين الجهاد (الأكبر) والجهاد (الأصغر)

1. الجمع بين الجهاد (الأصغر) و(الأكبر) طريق صياغة مناخ (الخدمة)

يتبوأ الجهاد بمفهومه الواسع موقعا مركزيا في منهج كولن الإصلاحي، وهو يسعى لصياغة تيار الخدمة وتفعيل حيويته وتحريضه على المسارعة إلى بذل الجهود لخدمة المجتمع، وحثه على التسابق للتزود من عالم الإيمان الداخلي لإثمار ما حولهم بالخيرات

---

[1] ونحن نقيم صرح الروح، ص: 92

[2] المصدر نفسه، ص: 94

[3] ونحن نبني حضارتنا، ص: 106-107

والصالحات. من أجل ذلك يدعو الأستاذ كولن إلى الجمع بين الجهاد (الأكبر) و(الأصغر)، " كان أناسي خير القرون ـ عصر النبوة ـ كالأسد في الوغى، ولكن ما أن يرخي الليل سدوله حتى تراهم كالرهبان المتبتلين يقيمون الليل كله في عبادة وذكر وتسبيح إلى الفجر، وكأنهم كانوا فارغين في النهار وليسوا أولئك المجاهدين الذين اقتحموا المهالك، بل زهادا منقطعين للعبادة وحدها. نعم هكذا شاهدوا الأمر من رائدهم ومرشدهم ونبييهم الكريم صلى الله عليه وسلم"[1].

وبعد أن عرض الأستاذ كولن نماذج من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ومواقف أصحابه الذين لم يشغلهم جهادهم الخارجي عن مجاهدتهم النفسية[2]، يقول: " وفي حديث آخر يجمع الرسول صلى الله عليه وسلم هذين الجهادين معا فيقول:(عينان لا تمسهما النار؛ عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله)[3].

نعم، إن جهاد من يسهر على الحدود والثغور ويرابط في ميدان الحرب، وفي أخطر المواقع جهاد مادي، فالذي يؤدي هذا الجهاد لا تمس النار عينه. وعين أخرى تحقق الجهاد المعنوي الأكبر، عين تبكي من خشية الله. فهاتان العينان ـ في هذه البشرى النبوية ـ سواء في عدم مسهما النار.

نعم، محال لدى الرحمة الإلهية ووعد الله القاطع أن تمس النار هاتين العينين كمحالية عودة اللبن إلى الضرع ! وواقع من يجاهد في سبيل الله أشعث أغبر لا يختلف عن هذا، فقد بشر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة أن النار وهذا الغبار والتراب في سبيل الله لا يجتمعان.

---

[1] روح الجهاد، ص: 29

[2] المصدر نفسه، من ص: 29 إلى ص: 35

[3] مسند أبي يعلى، أحمد بن علي بن المثنى أبي يعلى الموصلي التميمي، تحقيق حسين سليم أسد،دار المأمون للتراث، ط1، دمشق 1984، ج7، ص: 307

نعم، لا تمس تلك العيون التي تذرف الدموع ساخنة من خشية الله، وتحرس وتراقب مواقع دخول العدو مرابطة في الثغور والمواقع الخطرة. فالذي ينذر نفسه لهذه الأمور يجابه المهالك التي تحدق بالبلاد ويتصدى لها بإنشاء مؤسسات يتربى فيها أبناء أمته بمستوى يليق بالإنسان، ويتجافى عن حظوظ نفسه وأذواقها لأجل الآخرين ويهتم براحة الآخرين وعيشهم الهنيء.. فهؤلاء لا تمس عيونهم النار. وعلى هذا فالذين يرون الجهاد جدالا ونقاشا هنا وهناك، إن لم يراقبوا أعمالهم ويقوموها بموازين الجهاد الذي ينادون به،فإنهم لا يعملون إلا لقتل الوقت وخداع أنفسهم. فالذين لم يحسموا الأمر مع نفوسهم ولم يلجموها بالمراقبة الدائمة ولم يرغموا أنف الرياء ولم يسحقوا روح الافتخار ولم يجعلوه تحت أقدامهم، ولم يقلعوا من أرواحهم الكبر على الآخرين والتظاهر أمامهم.. فأعمالهم لا تنفع شيئا سوى كونها مصدرا لإحداث القلاقل والاضطرابات "[1].

2. انتقاد فكرة التولي عن الخدمة بدعوى التفرغ للجهاد الأكبر

إن فقدان التوازن يحرم من أهلية إعطاء خطابات القرآن الكريم والسنة المطهرة المساحات المناسبة من الالتزام والتفعيل في حياة الأفراد والمجتمعات، وكم فرطنا في مجالات مطلوبة شرعا وأحجمنا في رفع أنفسنا إلى مستوى الإسلام فيها، وقد تكون المشكلة الكبرى هي عندما يتم إضفاء الشرعية على هذا النقص وتغطية هذا العيب مما يؤخر عملية النهوض ويعوق الإصلاح الحقيقي الشامل.

ومن ذلك قوم " ينسحبون من الميدان ويقبعون في زاويتهم آخذين نصيبهم من الجهاد من جهته المعنوية وحدها ويقولون: لا يصح الانشغال مع الغير قبل جهاد النفس"[2]، هؤلاء ممن " يهون من أمر الجهاد– ولاسيما بعض المشتغلين بالتصوف غير الملتزم– بترويج حديث استندوا إليه، وعولوا عليه، وشهروه بين أتباعهم، وهو أن النبي

[1] روح الجهاد، ص: 35–36

[2] روح الجهاد، ص: 36

صلى الله عليه وسلم قال بعد رجوعه من إحدى الغزوات (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس)"[1].

قبل إيراد مناقشة الأستاذ محمد فتح الله كولن لهذا الموضوع، يحسن ذكر ما كتبه الدكتور يوسف القرضاوي، إذ أبطل هذه الدعوى من أربعة أوجه فقال:

" الوجه الأول: إن الحديث لم يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بإجماع أئمة هذا الشأن. ولا وجود لهذا الحديث في كتب السنة ودواوينها المعروفة من الصحاح والسنن والمسانيد والمعاجم.

قال الحافظ ابن حجر في (تسديد القوس): هو مشهور على الألسنة، وهو من كلام إبراهيم بن أبي عبلة.

ورواه الخطيب البغدادي في تاريخه بلفظ آخرعن جابر قال: قدم النبي صلى الله عليه وسلم من غزاة له، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قدمتم خير مقدم،وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، قالوا: وما الجهاد الأكبر، يا رسول الله ؟ قال: مجاهدة العبد هواه).

وفي سنده خلف بن محمد بن إسماعيل الخيام، قال الحاكم: سقط حديثه. وقال أبو يعلى الخليلي: خلط، وهو ضعيف جدا، روى متونا لا تعرف. وقال الحاكم وابن أبي زرعة: كتبنا عنه الكثير، ونبرأ من عهدته، وإنما كتبنا عنه للاعتبار.

وفيه . أيضا. يحي بن العلاء البجلي، قال الإمام أحمد عنه: كذاب يضع الحديث. وقال عمرو بن علي والنسائي والدارقطني: متروك الحديث. وقال ابن عدي: وأحاديثه موضوعة.

وقال الإمام ابن تميمة رحمه الله: (وأما الحديث الذي يرويه بعضهم، أنه قال في غزوة تبوك: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، فلا أصل له، ولم يروه أحد

[1] فقه الجهاد، يوسف القرضاوي، ط1، مكتبة وهبة، القاهرة 2009، ج1، ص: 515

من أهل المعرفة بأقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله. وجهاد الكفار من أعظم الأعمال، بل هو أفضل ما تطوع به الإنسان).

وروي عن إبراهيم بن أبي عبلة رحمه الله . وهو تابعي صغير ثقة . أنه كان يقول لمن جاء من الغزوة: قد جئتم من الجهاد الأصغر، فما فعلتم في الجهاد الأكبر؟ جهاد القلب.

قال الدارقطني: إبراهيم بن أبي عبلة، ثقة في نفسه، والطرق إليه ليست تصفو. ومعنى هذا أن نسبته إلى هذا العالم الكبير ليست صحيحة، ولو صحت فلا حجة فيها،لأنها مقولة بشر غير معصوم.

الوجه الثاني: إن الجهاد بمعنى القتال في سبيل الله لا يخلو من جهاد النفس، وإن النفس عادة تجنح إلى السلامة ـ تحب الحياة وترغب عن الموت ـ فلا بد للمؤمن الذي يختار طريق الجهاد أن يقاوم نزعات نفسه، ولاسيما مع تثبيطات المثبطين من حوله،وشيوع الوهن في الأمة.

الوجه الثالث: إننا لو سلمنا بصحة هذا الحديث جدلا، لكان علينا . بمنطق الحديث نفسه . أن نبدأ بالجهاد الأصغر، متدرجين إلى الجهاد الأكبر، كما هي سنة الله في الأشياء والأمور كلها؛ البداية بالصغير انتهاء إلى الكبير.

ومادام القتال في سبيل الله وفق منطق الحديث هو الأصغر، فليكن البدء به.. ولا يجوز تأخيره. ومنطوق الحديث المزعوم أنه عليه الصلاة والسلام قاله، وهو راجع من الغزو والقتال.

الوجه الرابع: إن ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بين لنا أن القتال في سبيل الله هو أعلى مراتب الجهاد؛ فعن عمرو بن عبسة أن رجلا قال: " يا رسول الله،أي الإيمان أفضل؟ قال: الهجرة. قال: وما الهجرة؟ قال: أن تهجر السوء. قال فأي

الهجرة أفضل؟ قال: الجهاد. قال: وما الجهاد؟ قال: أن تقاتل الكفار إذا لقيتهم. قال: فأي الجهاد أفضل؟ قال: من عقر جواده، وأهريق دمه.

وعن عبد الله بن حبسي الخثعمي: أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل جملة من الأسئلة، كان منها: فأي الهجرة أفضل؟ قال: من هجر ما حرم الله. فقيل فأي الجهاد أفضل؟ قال: من جاهد المشركين بنفسه وماله. قيل: فأي القتل أشرف؟ قال: من أهريق دمه، وعقر جواده. فدل هذان الحديثان على أن الجهاد الأفضل والأكبر هو: أن يجاهد الإنسان بنفسه وماله في سبيل الله. وأن أعلى مراتب الجهاد؛ أن يسفك دمه في سبيل الله،ويعقر جواده في سبيل الله، أي أنه ضحى بنفسه وماله جميعا في سبيل الله" [1].

أما الأستاذ محمد فتح الله كولن فقد ناقش المسألة من زاويتين اثنتين:

أ ـ تسمية الجهاد المادي أو القتال بالجهاد الأصغر ليس تهوينا من شأنه، ذلك أن القتال في سبيل الله تعالى من أفضل العبادات الجهادية، وأهله أحياء عند ربهم يرزقون،فرحون بما آتاهم ربهم، وحالهم تهيب بالأجيال التي بعدهم أن يستمروا على الخط نفسه لأنه طريق الرسل والأنبياء.

يقول كولن: " إن الجهاد الموجه إلى الخارج ـ مهما بلغت فيه التضحية والفداء ـ فإنه بمجموعه يعد ضمن الجهاد الأصغر، وكونه جهادا أصغر إنما هو بالنسبة للجهاد الأكبر، وإلا فليس فيه جهة صغيرة قط. بل العكس هو الصحيح، لأن ما يكسبه من نتيجة هي عظيمة للغاية، وكيف لا تكون عظيمة وهي ترشح المجاهد للدخول إلى الجنة،وإذا ما استشهد فله الحياة الكاملة في البرزخ. ولاشك أن المقصود هو نيل رضى الله في ختام الجهادين. وكيف يكون صغيرا جهاد له هذه النتائج الجليلة؟.

فالجهاد الأصغر إذن، هو تنفيذ أوامر الدين عمليا وأداء ما كلف به الإنسان. أما الجهاد الأكبر فهو إعلان الحرب على جميع العقبات والعوائق الكامنة في النفس الإنسانية

[1] فقه الجهاد، من ص: 515 إلى 520

التي تعيقه عن الكمالات من حقد وحسد وأنانية وغرور وكبر وفخر وأمثالها من الأمور التي جبلت عليها النفس الأمارة بالسوء. فهذا الجهاد عسير وشاق ولهذا سمي بالجهاد الأكبر.

إن دوران الحياة في فلك الأنانية خطر جسيم، والإنسان طالما هو في حومة الجهاد المادي لا يجد فرصة . في أغلب الأحيان . للإنصات إلى مطاليب نفسه، فيكون قد تجاوز هذه الخطورة، ولكن ما أن يترك الجهاد المادي حتى تشرئب النفس بعنقها وعندها يداهم الخطر صاحبها حيث يعني هذا ضمور حياته القلبية والروحية .

فالشخص المعرض لمثل هذا الموقف تحيط به الأفكار الفاسدة من جهاته الأربع وتتعرض حياته المعنوية إلى الشلل. ولهذا يصبح من الصعوبة بمكان أن يحافظ الإنسان على نفسه من دون القيام بالجهاد المادي "[1].

ب . إن التولي عن خدمة الأمة بدعوى التفرغ لإصلاح النفس، خطأ مبين؛" فهؤلاء الذين يرون إحراز درجات معنوية لأنفسهم وبلوغ المراتب الرفيعة التي يرونها فوق كل أمر، ويعزفون عن إرشاد الناس، هم بلا شك على خطإ واضح حيث يخلطون الإسلام بالروحانية الصوفية (ميستيزم).

إن الفكر المهيمن على القائلين بإصلاح أنفسهم قبل دعوة الآخرين مكتفين بالجانب المعنوي من الجهاد فحسب وهو أن كل إنسان يحاسب بمفرده(فكل شاة برجلها ستناط) أو (كل شاة معلقة من عصبتها)، كما هو المثل العامي المشهور. وإن من لم يصلح نفسه أعجز عن إصلاح غيره. لذا على المرء أن يلتفت إلى إصلاح نفسه أولا.

فنقول لمن يستغرقه هذا الفكر: اعلم أن الإنسان حينما يظن أنه أنقذ نفسه فقد وقع في فوره في أخطر دوامة، فمن يطيق أن يدعي خلاص نفسه والقرآن الكريم يقول: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ الآية 99. الحجر.

[1] روح الجهاد، ص: 27-28

نعم إن الإنسان مكلف بالعبادة حتى الرمق الأخير، فلا يستطيع أن يحجم عن أي عمل كان في معنى العبودية لله، حتى يرفع الستار ويدعى إلى العالم الآخر. فكيف يمكن لمن تستمر عليه مهمة التكليف هكذا، أن يقول: أكملت إنقاذ نفسي. إذن فإن جهاد الإنسان مع نفسه وسعيه لتطهيرها وتزكيتها من الأخلاق الرذيلة، ومحاولة إصلاحها وتقويمها سيدوم ما دامت فيه الحياة ".[1]

المطلب الثالث: حسن الجهاد من خلال الخدمة الإيمانية

1. متى يكون الجهاد حسنا لغيره؟

يقسم الأستاذ كولن الحسن والجمال إلى قسمين: " حسن لعينه وحسن لغيره،فالحسن لعينه هو بذاته حسن، أما إن لم يكن حسنا بذاته ولكن بنتائجه، فهو حسن لغيره. والجهاد ضمن هذا القسم الثاني. وهذا يعني: أن الجهاد ليس جميلا بذاته، لما فيه من قتل وخراب، ولكن الذي يجمل الجهاد ويحسنه أنه وسيلة لأمور حسنة "[2]، لأنه لا يوجد في المفهوم الحقيقي للإسلام سفك دم امرئ لمسلم بغير حق؛ حتى في زمن الحرب لا يقتل الأطفال ولا النساء ولا الأشخاص المتفرغين لكنائسهم[3].

ومما يحسن الجهاد كونه وسيلة أساسية للدفاع؛ " فقد أباح الإسلام للأفراد وللأمم حق الدفاع عن النفس ضد من يهدد كيانها ووجودها ضد القوى المعادية لها، بل حث

[1] روح الجهاد، ص: 37

[2] المصدر نفسه، ص: 54

[3] TERROR AND SUICIDE ATTACKS: AN ISLAMIC PERSPECTIVE, Edited by Ergün Çapan, New Jersey 2005, p 1

على ذلك في بعض الأحيان. فإن أراد أحدهم التعرض لك ولمالك ولحياتك ولدينك ولعرضك تصديت له وجها لوجه، ودخلت معه في صراع مرير. لنفرض مثلا أن أي دولة من الدول تجاوزت الحدود الفاصلة بينك وبينها ودخلت أراضيك، فماذا تعمل؟ وإذا قامت بتحريض بعضهم في بلدك وأطلقتهم عليك فماذا سيخطر على بالك؟ وإذا تعرض أبناء دينك في مكان ما إلى ظلم وإلى غدر فكيف ستتصرف؟ لاشك أنك لن تكتفي بالقول (لاشيء، لن أعمل شيئا) "[1]. ومن ثم سيكون المنطلق دائما هو" ضرورة استعمال القوة إن اقتضى الأمر بجانب الحكمة، واستعمال التهديد بجانب الإرشاد إن أراد المسلم أن يحيا حياة كريمة وحياة عزيزة. أجل، على المسلم أن يكون قويا، وأن يستعمل القوة في سبيل الحق، وأن يسمع صوته للعالم، وأن يقطع الأصوات المنكرة، فيكون بذلك ممثلا للتوازن الدولي "[2].

ومما يزين الجهاد أنه ضروري لردع الظلم وإنجاد المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يصرخون حتى يغاثوا مما هم فيه من القهر والذل والهوان، ولذلك " يجب أن تكون هناك دولة إسلامية بحيث يحسب الكل حسابها، وعندما تقطب حاجبيها أو عندما تغضب قليلا يرجع الآخرون إلى صوابهم ويعرفون حدودهم، وهذه القوة التي ترهب الآخرين يجب أن تكون متوفرة وموجودة على الدوام لكي يتسنى الإسراع لنجدة المظلومين والملهوفين ولإحقاق الحق وإزهاق الباطل، وهذا يكون بإظهار هذه القوة الكبيرة أحيانا كلما استوجب الأمر. وقد تم هذا في الماضي بهذه الصورة، فعندما كنا نقوم بمهمة تمثيل هذه الوظيفة في التوازن الدولي، كان يكفي أن نعلن (أن الأسطول العثماني السلطاني متوجه الآن نحو المحيط الهندي) كان هذا الإعلان كافيا لكي يخيف إنكلترا التي كانت تبيت

[1] النور الخالد، ص: 391-392

[2] المصدر نفسه، ص: 392

النية لاحتلال الهند ويجعلها تتكص على عقبيها. أجل، لقد كان ثقلنا كبيرا في التوازن الدولي في تلك العهود. وبفضل هذا الثقل الكبير، وبفضل دور الحكم الذي كنا نلعبه كان المظلومون والذين أصابهم الحيف أو الغدر يهرعون إلينا لإحقاق الحق وإبطال الباطل في عالم واسع يمتد من فرنسا إلى الهند.

أجل، لقد شرعت الحرب في الإسلام من أجل نجدة المظلومين والمستضعفين والمساكين، فإن لم يسرع المؤمنون للنجدة فمن غيرهم يسرع إذن؟ لقد أناط بنا الله سبحانه وتعالى مهمة إحقاق الحق في العالم. لذا علينا أن نفهم أن احتلال مثل هذا الموقع هو هدف وجودنا، وأن نفهم هذا ونحاول الوصول إليه وتحقيقه وإلا فإن الظلم سوف يستمر"[1].

ومما يجعل الجهاد المادي حسنا لغيره أنه طريق لتأمين حرية الدعوة، حيث إنه لا يجوز لأحد أن يقف في وجه عرض مشاريع النبوة وإيصال نور الوحي إلى البشر الذين من حقهم أن يستمعوا إلى كلمة الله تعالى، حتى إذا فهموا وأدركوا رسالة ربهم اتخذوا قراراتهم بكل حرية، إن شاءوا آمنوا وإن شاءوا كفروا، فلا إكراه في الدين ولا يسمح بوضع الحواجز بين الخلق والحق. يقول كولن: " إن حيل بيننا وبين حريتنا في نشر الحق والحقيقة والفضيلة والاستقامة، فإن الإسلام يبيح لنا الحرب من أجل الحفاظ على تلك الحرية وتأمينها. يرجى الانتباه هنا رجاء..نحن لا نقول بأن الحرب تكون من أجل نشر الحق والحقيقة، بل نقول: إن تمت الحيلولة دون حرية نشر الحق والحقيقة، عند ذلك يتم إعلان الحرب. فإن كانت لك جيوش لنشر رسالة الإسلام إلى كل فرد، فإن قام الآخرون بالحيلولة دون هذا، عند ذلك يجب عليك رفع هذه الحوائل والعوائق، ذلك لأنهم يحولون دون سلوك الآخرين طريق الجنة بإرادتهم الحرة. لذا تقع عليك وظيفة المحافظة على حرية

1 النور الخالد، ص: 392-393

التفكر وإزالة الموانع وكل أشكال المقاومة ضد هذه الحرية. وبنسبة نجاحك في تأمين هذه الحرية تكون نسبة نجاحك في نشر دينك "[1].

تزداد الحاجة إلى التزام الجهاد الإسلامي الذي لا يبيح قتل الشيوخ والأطفال والنساء والرهبان الذين تفرغوا للمعابد ولا يبيح قطع الأشجار وتخريب الثمرات؛ عندما يستحضر الإنسان ويلات حروب الآخرين؛ " إن مجموع من استشهد في جبهة الإسلام في العهد النبوي كان مائة ونيفا من الشهداء فقط. بينما تجاوز عدد ضحايا الحرب العالمية الثانية أربعين مليونا من القتلى نتيجة الصراع الوحشي بين الطرفين.. ولكي يستقر نظام باطل في روسيا قتل ما يقارب مائة مليون إنسان. كان من الممكن إبحار سفن على الدماء المراقة هناك وبناء بنايات من جماجمهم "[2].

إن هذا الوضع الأليم يستدعي وجود قوة وازنة لحماية الإنسان، ولذلك يتألم كولن له قائلا: " إن الحسرة تملأ قلب الإنسان وهو يشاهد الفراغ الكبير الحاصل في التوازن الدولي نتيجة لعدم وجود الناس المؤمنين ضمن هذا التوازن. ولو كنا نحن إحدى القوى الكبرى لما كان هناك كل هذه المظالم، وكل هذه الآلام. وأنا أسألكم الآن: ألا تبرر هذه النتيجة وحدها الجهاد وتجعله ضروريا ؟"[3].

2. خدمة القرآن والإيمان جهاد كبير

لقد أوضح الأستاذ كولن لحوارييه ومحبيه أهمية ما يبذلوه قائلا: " فنحن نعتقد يقينا أن من اشترك جزئيا أو كليا في هذا العمل ـ العمل للإيمان والقرآن ـ سينال ثواب الجهاد

[1] النور الخالد، ص: 393

[2] المصدر نفسه، ص: 398

[3] نفسه، ص: 394

كاملا، ونسأل الرب الكريم ألا يخيبنا في يقيننا هذا " [1]. وكل ما يجاهد به فدائيو المحبة عنوان بركة أعمارهم ، ورمز زمان العطاء المتجدد؛ " فالذي نذر نفسه وحياته للخير وأوقفها لعمل الخير فإن يومه ليس أربعا وعشرين ساعة، بل سنين طوالا، لأن ساعات يومه الأربع والعشرين تسجل كلها حسنات له في دفتر أعماله، فإذا هو وهب نفسه لدعوته وعاش في حب الحقيقة والهيام بالحق فإنه يحظى باللامحدود في هذا العمر المحدود،حتى في أثناء نومه ويقظته وفي مشربه ومأكله وفي حله وترحاله.

وإن الله سبحانه وتعالى ينير النقاط المظلمة في حياته جزاء نيته الحسنة وتخطيطه المتقن لأجزاء حياته وفق تفكيره الحسن لدعوته، ويوصله بفضله وكرمه إلى آفاق منيرة. فلا تبقى نقطة سوداء في حياة من وهب نفسه في سبيل الله، فليله كنهاره. نعم، إن كل ثانية من عمره بمثابة سنين من العبادة، كيف لا وهو في طريق الخير؛ إذ كل ما يبذل في سبيل الباقي الحقيقي له ثواب عظيم مهما طال أو قصر، ولهذا فإن لحظة واحدة منه خير من ألوف السنين من حياة ميتة عقيمة "[2].

وكل ما يسخره من أجل خدمة الإيمان والقرآن ودعم مؤسسات الخير يكتسي طابعا مميزا، حتى السيارة التي " ينتقل بها صاحبها من قرية إلى أخرى يصطحب فيها المرشدين والوعاظ إلى مواضع المحتاجين إليهم. فكل قطرة وقود تحرقها هذه السيارة، وكل قرش يصرف عليها، وحتى الغازات العادمة الخارجة منها، والأصوات الصادرة منها،والطين الذي التصق بعجلاتها.. كل ذلك يكتب حسنات في سجل حسنات صاحبها،وكأن حركة العجلات تولد الحسنات وتسجلها كتروس المعمل. فكل ما يدخل

[1] روح الجهاد، ص: 68

[2] المصدر نفسه، ص: 56

فيها وما يخرج منها وحتى الآثار التي تتركها على الأرض تؤدي وظيفة قلم يكتب الحسنات باستمرار.

فنحن ـ يقول الأستاذ ـ نقدر فائق التقدير ذلك المحظوظ الذي نذر سيارته لخدمة الإيمان والقرآن وحملها أعباء دعوة الحق، ولسان حاله يقول: إن الغاية من شرائي هذه السيارة هي نشر الحقائق. وغني عن التعريف أن هذا تهيئة وتحضير ومقدمة للأعمال الجليلة التي تتحقق بإذنه تعالى في المستقبل "[1].

[1] روح الجهاد، ص: 70

المبحث الثاني: فقه الائتلاف عند كولن

المطلب الأول: أهم سبل علاج الاختلاف وتحقيق الائتلاف

1. نحو التآلف العقلي

حظي موضوع الائتلاف وعلاج الاختلاف والفرقة باهتمام كبير لدى الأستاذ محمد فتح الله كولن، حيث عايش فترة عصيبة من التشتت والفوضى والاغتيالات في السبعينات، وكتب " مقالا بعنوان (نقاط الالتقاء والاتحاد) عني بالمساهمة في التغلب على هذه الفوضى، نشر عام 1978 كمقدمة لكتاب تحت عنوان(مسار الصلح) الذي تناول أمر كيفية تأمين وحدة البلاد "[1].

وقد بين كولن خطورة الانسياق وراء المشاعر غير المهتدية بالعقل وروح الوحدة،وأن عواقب هذا المسلك مدمرة للبناء الاجتماعي ومحطمة لركائز الأمة الواحدة ومعيقة لأي إصلاح ونهضة؛ " إن هذه الفرقة والاختلاف الذي لا مبرر له والذي دفعت الأمة بسببه ثمنا باهظا ولعدة عصور، بلغ درجة مقلقة في هذه الأيام التي باتت القيادة في يد الأحاسيس والمشاعر وليس العقل. ويمكن القول دون أي تردد إنه لا يوجد ولا يمكن تصور وجود خطر أكبر من هذا الخطر الداهم أمام نهضتنا من جديد "[2].

وعندما تحرم المجتمعات من الإمامة الراشدة والقيادة الحكيمة العاقلة، وتعاني من اختلال السير المتوازن القائم على سداد الرأي وصفاء السريرة وحياة القلب فإنها تتعرض للتفكك والشحناء والتضارب، يقول كولن :" إن مجتمعنا اليوم ضعيف من ناحية بنيته العلمية والفكرية وفقير من جهة حياته الروحية والقلبية ومحروم من القيادة والتوجيه إلى درجة يرثى لها.

---

[1] الموازين، ص: 61، والكلام للمترجم

[2] المصدر نفسه، ص: 62

وما لم يتم القضاء على مثل هذه الأجواء التي تغذي التعصب وعدم المسامحة فمن العبث الحديث عن الاتفاق والاتحاد. ذلك لأن التفاهم والتوافق مسألة عقلية ومنطقية،والوحدة التي تستطيع الاستمرار والبقاء هي الوحدة المبنية على العقل وعلى المنطق وعلى القلب، بينما الإخاء والوحدة الموجودة حاليا إخاء ووحدة قائمة على الأحاسيس والمشاعر في الأغلب. ومثل هذه الوحدة تكون ضعيفة وناقصة وغير كافية وقصيرة العمر. وهي عبارة عادة عن تجمعات ضد مجموعة معينة، أو اجتماع ولدته مشاعر الانتقام أو اتفاق من أجل هجوم أو لصد هجوم... مثل هذه التجمعات القائمة على أساس من أحاسيس ومشاعر فوارة ليست إلا تموجات وحركات وقتية سرعان ما تزول، وهي بعيدة من أن تكون كافية؛ لا من الناحية الكمية ولا من الناحية النوعية لبلد ولأمة محاطة بالأعداء من جميع الجهات. أما من زاوية مبادئنا المقدسة فبعيدة جدا عن التصويب أو التجويز كما لا تعني شيئا بالنسبة لمستقبل أمتنا "[1].

2. القلوب الاجتماعية حافظة للمجتمع من أدواء النخر الاجتماع-ي

يؤكد كولن على وجوب تجنب عبادة طاغوت النفس والنزعة الفردية والإنابة إلى الإنسان المجتمعي، ذلك لأنه " لكي يتم الوصول إلى نعمة وفضل الوفاق الاجتماعي على القلوب أن تكون اجتماعية وتبتعد عن الأنانية وتكون مليئة بحب الإنسانية والشهامة والمروءة. وما لم يتم الابتعاد عن الأنانية وعن عبادة النفس وإرجاع كل شيء وكل الوسائل والأهداف إلى سلطان النفس الذي هو شرك خفي...إن لم يتم التخلص من مثل هذه العقلية التي ترى أن الحق فقط معها وتابع لها، والتي تكفر وتضلل وتجرم كل من لم يتبعها، وإن لم يتم تخليص القلوب من مثل هذا التعصب الأعمى فلا يمكن الوصول - حسبما أرى - إلى أي تفاهم أو اتفاق "[2].

[1] الموازين، ص: 62-63

[2] المصدر نفسه، ص: 64

2. التركيز على المشترك من الأصول والمبادئ والأهداف الكلية

إن النظر إلى ما يجمع الأمة يقود إلى إدراك سعة مساحات التقاءات أفرادها وتعاونهم وتناصرهم، وإلى الخطإ المبين الذي يقع فيه من يضيق منها ويوسع ما يختلف فيه الناس، ثم إن التنوع ـ داخل مرجعية الأمة الكبرى ـ عامل إثراء واغتناء للخطاب الإسلامي.

ولذلك ما فتئ الأستاذ كولن يؤكد على معاني وحدة الأمة، قائلا: " لما كانت الدعوة واحدة والحق بجانبها والأهداف والمبادئ الأساسية واحدة فإن الاختلاف في الوسائل والطرق يجب ألا يكون سببا للخلاف والفرقة. ويجب أن يكون الوعي من الرسوخ والثبات بحيث لا يعطي مجالا لهذا الخلاف. وإلا فإن ظهور بوادر الخلاف والفرقة بمعاذير واهية يعد مزاجا صبيانيا ودليلا على عدم وجود المروءة أو الإحساس بالحق والسعي من أجله. والحقيقة أن الطرق المؤدية إلى الله تعالى متعددة بتعدد الأنفس والأمزجة بشرط بقائها ضمن دائرة أهل السنة والجماعة. ويجب أن يحترم كل طريق من هذه الطرق وتؤيد كل خدمة مقدمة.

إن النظر إلى الآخرين وكأنهم كفار أو ضالون أو آثمون أمر خطير ولا فائدة ترتجى منه حيث يستطيع كل واحد أن يدعو إلى طريقه ويعلن عنه ويعيش بحبه. فهذا هو طريق المنطق والعقل ومنطق الإيمان والقرآن كذلك. هنا ينشغل كل واحد بطريقه وبمسلكه بكل حب، ولا يحمل في قلبه حقدا وضغينة للجماعات الأخرى، ولا يكون نقده لها نقدا عدائيا وهداما ولاذعا، ولا يرى صعود جماعته وتقدمها مرتبطا بإنكار وتضليل الجماعات الأخرى، بل يشعر بأن شعور الأخوة يربطه معها، فلا يبحث عن هفواتها وأخطائها. وعندما يرى فضائلها وخدماتها يفرح ولا يتأخر عن تهنئتها. والخلاصة، يرى نفسه في سباق خير مع الآخرين، ولا ينسى لحظة واحدة أنه مشترك مع الآخرين في حمل كنز ثمين وأمانة غالية. وعند ذلك يعد الآخرين الذين يسيرون معه في الاتجاه نفسه

وللغاية نفسها أصدقاء ومعاونين له، فيعظم كل نجاح، ويصفق لكل سعي مشكور. ويقبل كل يد تمتد بالمعونة.

في العهد النبوي الكريم كان هذا هو الفهم السائد بين الناس، وكان الواقع العملي المعاش على هذا النمط. فالجو العام كان مشبعا بروح الأخوة وروح التآلف. ولم يتعرض أصحاب القابليات المختلفة والمتعددة لأية ضغوط "[1].

3. الأصل هو الإسلام والحركات وسائل لابد من حمايتها من الأخطار الذاتية

إن المطلوب من جميع العاملين تولية وجوههم وتوجيه جهودهم نحو تقوية الأمة وترسيخ مقومات انبعاثها وعزتها ووحدتها، ومن ثم كانت المساعي الصادقة البانية عاملا أساسيا في صياغة مستقبل واعد، ذلك أن "الأمة التي تكون فيها العلاقات الموجودة بين أفرادها علاقات قوية كقوة العلاقات العائلية تكون مرشحة للسير نحو الأمام بثبات، أما إن كان الود مفقودا بين أفرادها، والثقة معدومة فيما بينهم، والعداء ساريا، فمثل هذه الأمة لن تكون أمة بالمعنى الصحيح، ولا تملك أملا للمستقبل" [2]. وحتى تكون مجهودات الناذرين أنفسهم لخدمة الأمة، مجهودات محققة لأهدافها المرجوة، ينبه الأستاذ فتح الله إلى أمرين:

أ ـ الحذر من العدو الخارجي الذي قد يستغل اختلاف مذاهبهم وتنوع مدارسهم وأعراقهم لتدمير مجتمعاتهم؛ "إن القوى الخارجية كثيرا ما تمد يدها إلى المفاهيم المذهبية أو المدارس التصوفية أو إلى نبش المسائل العنصرية والعرقية، لذا يجب الانتباه والحذر.

صحيح أنه لا يوجد دليل جدي على انخداع الجماعات الدينية بمثل هذه الإيحاءات أو أنها تمول وتدار من قبل القوى الخارجية (رغم ورود مثل هذه الادعاءات والشائعات في حق بعض الجماعات)، إلا أن الشواهد على أن الجماعات القرآنية والإيمانية لا يمكنها تلقي الأوامر من الخارج، أرجح وأقوى. غير أننا لا ننسى أن ظهور

[1] الموازين، ص: 69-70

[2] المصدر نفسه، ص: 75

التعصب في بعض الجماعات التي لم تصل إلى النضج الفكري والروحي المطلوب،شيء واقعي وموجود، مما يؤدي إلى احتكاكات داخلية، وهذا يخدم الآمال الشريرة للأعداء دون قصد منها"[1].

ب . ضرورة الوقاية من أدواء تحول الجماعات إلى أصول معبودة وغايات يضحى من أجلها بالمسلمين ومصالحهم الكبرى الجامعة، وذلك عندما تصبح الذوات الحركية محور اهتمام أهلها ولا تعود مركزية الأمة هي المؤطرة لأعمالها وخدماتها، لأجل ذلك ينصح الأستاذ محمد فتح الله كولن بالانتباه إلى مآلات الانغلاق والتعصب الأعمى،قائلا: "إن الجماعات الإسلامية في تركيا وفي العالم الإسلامي معرضة في كل لحظة للأخطار التالية بكل تأكيد :

- استغلال حب الجاه والشهرة لدى بعض زعماء هذه الجماعات ودفعهم إلى التنافس مع الجماعات الأخرى .
- ظهور محاولات هدم الجماعات الأخرى تحت دعوى العمل باسم الإسلام.
- ترقب ثمرة آنية في الدنيا من كل عمل صغير أوسعي قليل، مع أن استحصال ثمرة العمل يكون في المستقبل البعيد عادة، وربما في الآخرة.
- من أجل كسر المساعي والجهود الإيجابية المثمرة والمستمرة لجماعة ما؛يتم تشكيل وتكوين جماعة أخرى لكي تكون بديلة عنها، ثم إحداث احتكاك بينهما وإنتاج الشقاق والفرقة واستهلاك جهود تلك الجماعة.
- بدلا من قيام الجماعات الناذرة نفسها لخدمة الأمة بالعيش في ظل المحبة التي من المفروض أنها شعار طريقهم ومشربهم... يتم انشغالها بالعداوة مع الآخرين،وإضاعتها بهذا وسيلة مهمة للتوفيق الإلهي"[2].

---

[1] الموازين، ص: 66

[2] المصدر نفسه، ص: 66-67

المطلب الثاني: احترام تنوع الاجتهادات

1. مشارب متعددة وهدف واحد

الوسائل إلى خدمة الإيمان والقرآن متعددة لأنها ثمرات اجتهادات وأفهام متنوعة،ذلك أن مجالها الظنيات لا القطعيات، والجزئيات لا الكليات، وهي محكومة بالنظر الاجتهادي إلى دلالات النصوص ومستوى استيعاب طبيعة المجتمعات التي يتم فيها تنزيل مفاهيم الإصلاح ومقتضيات الخدمة، يؤكد كولن على ما يشترك فيه كل العاملين وعلى أساسه يتوحدون عندما يقول: "ما يعنينا في هذا الموضوع من وجهة نظر دعوتنا هو أننا جميعا باختلاف مشاربنا وأذواقنا نؤمن برب واحد، ورسولنا واحد، وكتابنا واحد، وقبلتنا واحدة،وطريقنا واحد. إذن نستطيع أن نقيم وحدتنا على هذه الأسس المنطقية السليمة وليس على أساس عاطفي مجرد. فهذه الأسس القوية المشتركة فيما بيننا تقضي وتوجب الوحدة بيننا. أما الزعم بخلاف هذا فليس إلا همسات النفس الأمارة ومعاذيرها"[1].

ولكي تتحقق ثقافة الإشادة بمختلف الخدمات التي يقدمها العاملون للأمة ولقضايا الإيمان والقرآن لابد من "النظر إلى اختلاف الوسائل والطرق في طرق الدعوة إلى الإسلام والى الإيمان وإلى القرآن على أنها مشارب مختلفة، أي أن الهدف واحد ولكن الطرق الموصلة إليه مختلفة.

لذا يجب تأييد ومساعدة كل من يخدم الإيمان وهذا الدين ويعمل على إعلاء شأن الإسلام وسواء أكان في المشرق أم في المغرب، ومهما كان مشربه. صحيح أن الطرق والمسالك قد لا تكون نفسها، ولكن المهم هو الهدف والغاية"[2].

إن من آيات الله تعالى اختلاف ألسنة الخلق وألوانهم وطبائعهم وطرائق رؤيتهم إلى من حولهم وسبل إصلاح ما يلاحظونه من اختلالات في الأمة، ومناهج تربيتهم للفرد

---

[1] أسئلة العصر المحيرة، ص: 149

[2] المصدر نفسه، ص: 145

والمجتمع وتأهيل الرواحل لخدمة الإيمان والإنسان، ولذلك أسباب عديدة، "فالبيئة التي نشأ فيها الإنسان، والثقافة التي يأخذها لها تأثير كبير عليه، كما أن لكيفية تجلي أسماء الله الحسنى تأثيرا عليه. لذا فظهور مشارب مختلفة أمر طبيعي، وقد ظهرت في السابق ولا تزال تظهر.

لم يكن مشرب علي كرم الله وجهه كمشرب أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ولم يكن مشرب الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه كمشرب أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، بل كان هناك اختلاف كبير بينهما، مع أنهم كانوا تلاميذ المدرسة النبوية نفسها؛فعمر رضي الله عنه كان رجل دولة ورجل إدارة وتنظيم من الطراز الأول، بينما كان أبو ذر رضي الله عنه شخصا انفراديا. ويفهم من هذا أنه حتى في العهد النبوي الذي تم فيه توحيد الدين والتأليف بين المشارب لم تتمح الأذواق والمشارب المختلفة، ولم يحاول أحد القيام بمثل هذه المحاولة.

والحقيقة أن محاولة توحيد المشارب يصادم الفطرة الإنسانية. ذلك أن الذين خلقوا بطبائع مختلفة لا يمكن أن يفكروا بالطريقة نفسها. وطبعا هناك احتمال قوي لظهور مصاعب وتعقيدات ومشاكل عديدة عند محاولة فرض القوة في محاولة التوحيد "[1].

يستحيل إذن إزالة الاختلاف بين الناذرين أنفسهم لخدمة الإيمان والقرآن "ولكن من الممكن دائما الاتحاد في الهدف والغاية مع اختلاف الطرق والمسالك، أي يمكن أن تختلف التعابير والألسن، ولكن الحقيقة التي يتم شرحها حقيقة واحدة، قال الشاعر:

عباراتنا شتى وحسنك واحد ❄ وكل إلى ذاك الجمال يشير[2]

الكلمات مختلفة والتعابير شتى والأجواء متعددة، ولكن الجمال الذي تصفه هذه الكلمات هو الجمال نفسه. أجل ! فما دام الهدف الأساسي رضا الله تعالى، ومحبة

[1] أسئلة العصر المحيرة، ص: 145

[2] تزيين الأسواق في أخبار العشاق، داود بن عمر الأنطاكي، ج1، ص: 152

الشريعة الأحمدية صلى الله عليه وسلم موجودة في القلوب، والروح تتحرك بهذا الشعور وتعده أساسا وقاعدة، وإن وجدت الاختلافات والاحتكاكات فإن التفاهم والاتفاق ممكن في كل حين"[1].

2. الحذر من تنميط أساليب خدمة الأمة

من مقتضيات ما سبق يتعين تجنب تنميط خدمة الأمة والابتعاد عن قسر العاملين على صيغة واحدة من صيغ العمل والإصلاح، فلا يجوز أن "يقوم أحد بإكراه الآخرين على سلوك طريقه. بل لندع كل واحد يعمل بالطريقة التي يفضلها ويراها أصلح من غيرها، لأنه من المعروف أن من الصعب على الكثيرين تغيير أفكارهم، بل يستحيل ذلك في كثير من الأحيان. وبما أن الإجبار ليس طريقا سليما، بل يؤدي إلى مشاكل وانشقاقات لا يمكن التئامها، بينما التسامح واللين والتفاهم بالحسنى هو الطريق الذي أوصانا به القرآن. والذين يتبعون طريق الحكمة والموعظة الحسنة يحلون مشاكل مستقبلية مهمة "[2].

ولذلك تحظى المدارس الإصلاحية التي تتسع رحمها لمختلف الأجنة الفكرية بامتداد واسع لقدرتها على توفير مساحات كبيرة للإبداع في وسائل خدمة الحق ونفع الخلق. يقول الأستاذ فتح الله كولن: " شيء آخر يجب الوقوف عنده وهو: بما أن المشارب والأذواق المختلفة لا تتحد، لذا فإن كل من يعمل في سبيل الإيمان والقرآن يؤدي في الحقيقة خدمة مهمة. فهناك مثلا كثير من الأقلام اللامعة التي تقوم بتناول حياتنا الاجتماعية ومشاكلها بالتدقيق و بالبحث عن حلول لها. والإسلام بحاجة إلى مثل هذه

[1] أسئلة العصر المحيرة، ص: 147

[2] المصدر نفسه، ص: 149-150

الحلول. لذا فلندع هؤلاء يقومون بحل المشاكل الاجتماعية والاقتصادية، ولنقم نحن بما نستطيع القيام به"[1].

إن الفكر الذي ينفر من تنوع مدارس الإصلاح والخدمة، يؤدي إلى حرمان الأمة من تعدد الخيرات وكثرة جهود المخلصين في السعي إلى تحقيق النهضة المنشودة،ويضفي ـ من حيث قصد أو لم يقصد ـ العصمة على خيار واحد من خيارات الجهاد الإسلامي العام. ذلك "أن كل مشرب يحوي جانبا من الحقيقة. لذا فمن الخطإ تناسي أن الله تعالى خلق الناس بمشارب مختلفة وأذواق مختلفة. ومن الخطإ محاولة التصدي والعمل ضد الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ومحاولة جمع جميع المياه المتدفقة في جداول مختلفة في جدول واحد، فهذه محاولة خيالية. بل على كل واحد منا محاولة نشر الأنوار القرآنية والإيمانية، كل في ساحته، ولا يصرف جهده في النزاع مع الآخرين. فإن لم يستطع الاتفاق مع الآخرين فعليه في الأقل ألا يثير نزاعا. ويجب أن يحذر تماما من النزاع والخصام مع المسلمين وانتقادهم واغتيابهم، بل عليه أن يتعلم كيف يثني على كل عمل خير وأن يكون ظهيرا لكل من يذكر الله" [2]، وأن يرحب بالجهود الصادرة ممن يقول "إن كل من يذكر الله تعالى ويسعى من أجله ويبجل رسولنا صلى الله عليه وسلم فهو أخي" [3]، ذلك أن " كل خدمة في طريق الحق تستحق الثناء. فكما يتقبل أرباب المهن المختلفة وأصحاب الفنون المختلفة بعضهم البعض الآخر ويتداولون ثمار جهود الآخرين ويتعاونون في سبيل هدف مشترك، كذلك على أصحاب المشارب والأذواق

[1] أسئلة العصر المحيرة، ص: 150

[2] المصدر نفسه، ص: 151

[3] نفسه، ص: 149

المختلفة إبداء الفهم نفسه والمرونة نفسها، والابتعاد عن التصلب في فرض طرق معينة ما دام الهدف المنشود مشتركا "[1].

المطلب الثالث: النقد الإيجابي حصن الائتلاف

1. حسن الظن

إن تربية المجتمعات على إشاعة ثقافة النصيحة سمة رئيسة للأمم القوية، ومعلمة واضحة على طريق استثمار طاقات أفرادها وتقويم وتسديد حركاتهم، ومن ثم ترى الواثق من نفسه يتقبل الانتقادات، بل يطلبها ويسعى إليها، بل يوفر لها مناخا فكريا سليما للاستزادة منها. وهذا ما يحفظ للجسم الاجتماعي ائتلافه، وارتقاء الناذرين أنفسهم لخدمته وتقويته.

يقول الأستاذ محمد فتح الله كولن: " يجب أن يكون النقد الصادر من الذين نحبهم ونثق في حبهم لنا أحب شيء عندنا، وإلا فإن الإنسان علاوة على فقده العديد من أصدقائه يبقى جاهلا بالكثير من نواقصه، ومحروما من إمكانية تعديلها "[2].

ولكي يؤدي النقد وظيفته الإيجابية عليه أن يبتعد عن سوء الظن بالآخرين،" فسوء الظن هذا ليس من أخلاق المؤمن، لأن على الإنسان أن يتصرف كمدعي تجاه نفسه وكمحام تجاه المؤمنين الآخرين. فنقول عن أنفسنا: (إنني أصلي كثيرا، ومع هذا لا أستقبل من صلاتي فيضا أو بركة، فهل تقبل صلاتي وأنا في هذه الحال؟) ثم نبدأ بتذكر ذنوبنا.

أما بالنسبة للمؤمنين الآخرين فيكون حسن الظن بهم شعارنا، لأن هذا كان تصرف وسلوك النبي صلى الله عليه وسلم وسلوك الصحابة والتابعين من بعدهم، فلم يؤولوا أحوال

---

[1] أسئلة العصر المحيرة، ص: 149

[2] الموازين، ص: 74

المؤمنين تأويلا سيئا، ولم يقوموا بتجريم أهل الصلاة وأهل القبلة استنادا إلى بعض تصرفاتهم السيئة، بل يجب حسن الظن بهم والتأكيد على الجوانب الجيدة من تصرفاتهم وعلى حسناتهم. فمن دخل إلى حديقة أو إلى بستان لم يلتفت إلى وجود بعض الأشواك فيها، بل يجب حصر نظره على الأزهار وعلى الثمار الموجودة فيها، وشعاره: (خذ ما صفا، دع ما كدر)"[1].

2. من فقه الائتلاف فن التعامل مع من تولى عن الخدمة

الأصل في علاقات المسلمين الأخوة بالإيمان الذي يوحد وجهة قلوبهم وأرواحهم؛قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ الآية 10. الحجرات. وكل ما يرسخ هذه الأخوة ويعمقها ويحميها مما يجرحها مطلوب شرعا، وقد أفلح جيل السعادة في صياغة مجتمع أخوي فريد.

وكلما اقتربت مجتمعات المسلمين ومؤسساتهم وجماعاتهم من هذا النموذج، كلما ذاقوا حلاوة الاجتماع والسير ضمن عمل الفريق القوي.

ولذلك ركز كولن على هذا الجانب وقرر أن "المطلوب ليس التصرف برحمة وشفقة نحو المؤمنين بل بأسلوب أكثر لينا وتواضعا، أي أذلة على المؤمنين، لا يقابل الشتم منهم إلا بالسكوت ولا يقابل عدوانهم إلا بالصبر، أي يضع رأسه تحت أقدام المؤمنين. ودرجة الرحمة المطلوب تأسيسها بين المؤمنين أعلى بكثير من درجة الشدة المطلوبة نحو الكافرين والملحدين. علما بأن أول شرط في تأسيس الوفاق في هذه الخدمة المدنية بعد حب الله وابتغاء رضاه هو تأسيس جو هذا التذلل بين المؤمنين، أي حال التواضع الشديد. ومهما بذلنا من جهد في هذا السبيل فلن يغلى على هذا الهدف. ونستطيع أن ننظر إلى نصيحة الأستاذ النورسي بضرورة قراءة رسالة الأخوة والإخلاص

[1] أسئلة العصر المحيرة، ص: 310-311

كل أسبوعين مرة في الأقل من هذه الزاوية. ويحتمل أن أكثر امتحان لنا سيكون في موضوع علاقات الأخوة الموجود فيما بيننا "[1].

وفي سبيل التمكين لهذه العلاقة السامية يوصي كولن بمقاومة جاذبية المواقع والمكتسبات المادية والمعنوية قائلا: " رجحنا في طريق خدمتنا الإيمانية عدم الالتفات للجاه أو المنصب أو البزات الرسمية أو العناوين أو الرتب، بل اعتبرنا الإسلام السبب الوحيد للعزة، لأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين "[2].

ومن ثم لابد من الاستناد إلى ركن الشريعة الشديد عند وقوع ما يمكن أن يشق صف العاملين للقرآن والإيمان أو يعيق مجهودات خدمة المجتمع، وخصوصا أثناء تخلي بعض الأفراد عن الخدمة وتوليهم عنها، بل ربما تحولهم إلى جبهة خصوم الأمة ومشاريعها .

سئل الأستاذ محمد فتح الله كولن: كيف نتصرف تجاه إخوتنا الذين انحرفوا عن الدعوة وأصبحت علاقتهم بها باردة؟ فكان جوابه تذكيرا بحقوق الأخوة وتنبيها إلى منهج الإعذار وحماية الصف من عواقب مثل هذه التصرفات، يحسن قراءة بعض الفقرات التالية من هذا الجواب:

" ● هناك إخوان لنا فترت علاقتهم بالدعوة لأسباب شتى. ويمكن أن يقع هذا الأمر في كل وقت، ولكنهم مع ذلك يبقون إخوة مؤمنين بالنسبة لنا. وكل ما يستحقه المؤمن من منزلة واحترام حسب تعاليم القرآن والسنة يكون جاريا بالنسبة لهم وينطبق عليهم. إذن فالمقياس هنا . كما في كل شيء آخر . هو القرآن والسنة. لا نستطيع أبدا أن نغتابهم، لأن الغيبة حرام.

[1] أضواء قرآنية، ص: 127-128

[2] المصدر نفسه، ص: 128

● إن ما نقوله بحق ذلك الأخ سيصل إلى أذنه في يوم من الأيام، فيكون هذا سببا في ابتعاده عنا أكثر فأكثر. ولكوننا نحن المتسببين في هذا فالمسؤولية تعود إلينا... وقد لا يكتفي هذا الشخص بالابتعاد عن الدعوة التي كان في السابق يفديها بروحه، بل ينقلب عدوا لها.

● كثيرا ما يقوم بعض الناس بنقد الدعوة أو الخدمة التي لا يكونون ضمن دائرتها،ويستهينون بها. فإذا أخذنا هذا بنظر الاعتبار فإن من الحكمة توقع جميع التصرفات من هؤلاء الأشخاص المبتعدين عن الجماعة وذلك بنسبة ابتعادهم، فذلك هو قدرهم المر وحظهم التعس. وهذه نتيجة مؤلمة ولا نستطيع إلا الشعور بالرثاء والشفقة على أمثال هؤلاء ووظيفتنا هي أن نتصرف كما كنا نتمنى أن تتصرف الجماعة نحونا لو كنا في موقفهم.

والرسول صلى الله عليه وسلم كان يفعل الشيء نفسه، إذ لم يقل شيئا ضد من وقع في الزلل . في ذلك العهد . أو في الوهم، أو فقد قابليته على العمل وعلى أداء الخدمة، ولم يغتب أشخاصا كان يعرف نفاقهم أمثال عبد الله بن أبي سلول، وقبل ظاهرهم.

● وإذا نظرنا إلى العلامة المفكر بديع الزمان سعيد النورسي نرى أنه عندما ابتعد عنه بعض تلاميذه لفترة من الزمن ثم عادوا ورجعوا إليه مدحهم وركز على رجوعهم فقط وأثنى على مستواهم أثناء الرجوع، وهذا هو ما بقي في ذاكرتنا عنهم. بقي في ذاكرتنا أنهم رجعوا. ولكن كان من الطبيعي أن هذا الرجوع سبقه فراق وبعد، ولكن ذلك الزعيم الكبير الذي كان دقيقا جدا في جميع كلامه وتصريحاته ركز فقط على رجوعهم، ولم يكتب سطرا واحدا عن مفارقتهم وابتعادهم. ومع أن العديد من الأشخاص في عهده افتروا عليه وهاجموه، إلا أنه لم يقل كلمة واحدة صريحة تفيد الغيبة ضد أحد منهم، ولم يذكر بصراحة اسم أحد منهم، لأنه عد هؤلاء الأشخاص إخوانا له من جهة الإيمان ولم يقابل تهجمهم عليه بكلمة واحدة.

من الممكن النظر إلى المسألة من زاوية أخرى؛ فالعقوبات التي تطبق في الظروف الاعتيادية في الإسلام لا تطبق في جبهة القتال، أي أن من يسرق أو يزني أو يفتري في جبهة القتال لا تطبق عليه عقوبات هذه الأفعال. والحكمة من هذا الحيلولة دون لجوء ذلك الشخص ـ وهو يحاول إنقاذ نفسه ـ إلى الأعداء. ماذا يحدث إن التجأ إلى الجبهة المعادية؟ أما هو فيقع في خسران أبدي، أما نحن فنكسب عدوا يعرف جميع أسرارنا، وكلا الأمرين خسارة لنا. لذا كان من الضروري التعامل مع هؤلاء في منتهى الحكمة بأجمل أسلوب.

مثلا قد يبتعد عنا أحد إخواننا بسبب الخوف أو بسبب الرغبة في منصب. لمثل هذا الشخص نستطيع أن نذكر بأننا نتفهم دواعيه وأنه أراد الحيطة، ونعم ما فعل، ولكننا لا نستطيع مجاراته في هذا. وهكذا فإننا لا نسد المنافذ إزاءه، فقد تتجدد علاقاتنا معه بعد سنوات. وقد يفهم الحقيقة فيما بعد ويرجع إلينا، فإن اعترف بأنه كان على خطإ وأننا كنا على صواب، عندئذ نقول له" أنت محق الآن أيضا".

- ثم يجب علينا ألا ننسى أن الشخص الذي يغتاب إنسانا آخر يفقد ثقة المستمعين له، والجماعة التي تهتز فيها الثقة بين أفرادها لن تستطيع أبدا حمل أمانة الحق الثقيلة.

ثم قد يوجد أشخاص لهم علاقات مع ذلك الشخص الذي تتم غيبته كوجود قرابة أو مودة أو فكر مشترك، عند ذلك تثير هذه الغيبة حساسية لدى هؤلاء، وهذا لا يؤدي إلا إلى خسارة في جبهتنا. ثم إننا لا نقول اليوم كل ما نريد قوله، فلنا كلام نقوله في الغد،فلا فائدة من قوله اليوم.

قد يقوم هو بالإساءة إلينا باغتيابنا، ولكن علينا ألا نقابله بالمثل. إذ يجب أن نكون بعيدين جدا عن الانتقام لكرامتنا الشخصية، أو نتورط في مسائل شخصية. يجب أن نفدي كل شيء في سبيل دعوتنا السامية. ففي الوقت الذي يهاجم فيه رسولنا صلى الله عليه وسلم ويفترى عليه وعلى الإسلام، لا نستطيع جعل كرامتنا موضوع الساعة. بل لا

نستطيع أن نجد الوقت حتى لمجرد التفكير في ذلك. إن أفضل معونة يمكن تقديمها اليوم لأي إنسان هي المعونة المقدمة لإنقاذ حياته الدينية. ووظيفتنا نحن هي الإسراع لنجدة إخوتنا وإعانتهم" [1].

[1] أسئلة العصر المحيرة، ص: 166-167-168

المبحث الثالث: أهمية الحوار في منهج كولن الإصلاحي

المطلب الأول:الحوار سمة أساسية في مدرسة كولن الإصلاحية

من أهم ما يلفت نظر الدارسين لحركة فتح الله كولن قيامها على التسامح وإشاعة المحبة وتقوية العلاقات الاجتماعية والإنسانية، فهو"يدعو للتعاون والتعايش بين الحضارات كبديل للصراع من خلال الحوار والتفاهم المتبادل والالتقاء حول القيم المشتركة"[1] يقول أنس أركنه: "يعد الحوار وقبول الآخر أهم سمة من سمات حركة فتح الله كولن و ديناميكيتها. وهذان المفهومان اللذان تطورا بمقياس صغير في العالم، بدآ ينقلبان إلى سمة ثقافية على نطاق عالمي؛ إن العيش معا دون نزاع أصبح من الأهداف ومن المشاكل التي تبحث الدول الحديثة عن وسائل تدعيميه ووضع فلسفته، ولم يكتسب الحوار وقبول الآخر في أي عهد من عهود التاريخ أهمية كأهميته الحالية، ولا كانت ثقافة الحوار ضرورية كضرورتها الآن" [2]، حيث استدعى تقارب الأمم والشعوب المختلفة والمتضاربة في مصالحها وجوب إرساء فكر التعايش المشترك والتعارف الإنساني خصوصا وأن "العلوم وتكنولوجيا السلاح بلغ من التقدم مبلغا يهدد مستقبل المجتمعات الموجودة على سطح الأرض. ولا ينبع هذا التهديد فقط من وجود أسلحة الدمار الشامل ومن العلاقات بين قوى الحكم، بل إن ظاهرة الحداثة والعولمة تهدد التعددية الثقافية والدينية والاجتماعية." [3]

حاولت شعوب كثيرة التفاعل بشكل إيجابي مع هذه الهيمنة المتكبرة، ومن ذلك ما أبداه المجتمع التركي الأصيل من مقاومة للجهود التي امتدت لقطعه من جذوره

---

[1] تقارب الشعوب موعد الحضارات: دعوة المفكر الإسلامي التركي فتح الله جولن نموذجا، د. هدى درويش، ط1، دار السلام للطباعة، القاهرة 2010، ص: 108

[2] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 51

[3] المصدر نفسه، ص: 227

المعنوية وفي الوقت نفسه المشاركة في نقاش قضايا الحريات والحقوق؛ فقد "تأثرت تركيا بهذه العولمة بصورة مباشرة أو غير مباشرة، فالفرد والتعددية والدين تشكل القضايا الأساسية للديمقراطية في تركيا.

فالصراعات الأيدولوجية التي عاشتها تركيا لعشرات السنوات قبل ثمانينات القرن الماضي أضفت التوجه فيها نحو التعددية، لأن التفرق بين معسكرات مختلفة هيأ أرضية ملائمة للنزاع والصراع، إذ ذهبت ثلاثة أجيال قبل الانقلاب العسكري في 1980 ضحية الصراعات الإيديولوجية... فهذه الأجيال لم تستطع ـ مع الأسف ـ جعل التعددية مصدرا للغنى والتفاهم، ومع بقاء بعض الآثار الأيدولوجية حاليا، فإن الأجيال الحالية تبحث في مستوى معين عن طرق لتحويل هذه الصراعات إلى نوع من التفاهم والحوار. وتعمل على توسيع أشكال التعددية وترسيخها على أساس من التفاهم في مستوى الإنسان والفرد"[1]،وتستند هذه الأجيال إلى مقومات المجتمع التركي الأصيل، "إذ تملك تركيا ثقافة حوار وتفاهم خاص بها، وفي أساس هذه الثقافة يوجد عنصر الإنسان، فهنالك في أساس مفهوم الإسلام . عند المسلم التركي . يوجد الإنسان والتسامح المستند إلى التصوف"[2].

كما أن تجربة العثمانيين الممتدة في الزمان والمكان تلهم دعاة التسامح والحوار،فلقد "طبق المسلمون الأتراك المسامحة والتفاهم في مساحة واسعة طوال عدة عصور. وقد تم تفسير الإسلام بهذه الروح التسامحية منذ ألف عام في هذه المنطقة. ولولا هذا لما استطاع العثمانيون البقاء كل هذه المدة الطويلة في رقعة واسعة "[3].

تكتسي حركة الحوار التي شجع عليها الأستاذ محمد فتح الله كولن صبغة خاصة إذ جاءت في سياق ظهور نظرية الصراع الحضاري التي ترسخ للاستكبار والعلو في الأرض بغير حق والاستفراد بسفينة المجتمعات الإنسانية وإحلال الإفناء المتبادل محل

[1] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص:227-228

[2] المصدر نفسه، ص: 228

[3] نفسه، ص: 229

التعارف والعيش المشترك في ظل احترام التنوع والخصوصيات الفكرية والمجتمعية، وفي سياق "عولمة تضم القيم" بفعل الهيمنة السياسية والاقتصادية والثقافية والعسكرية لم تعمل إلا على تقليص حظوظ التواصل الثقافي المرتكز على احترام متبادل لأساليب الحياة"[1].

"وعندما كتب هنتنكتون(huntungton)كتابه (صراع الحضارات) أشعل فتيل نقاش كبير وتعرض لنقد شديد من قبل الآلاف من المفكرين وعلماء الاجتماع والمثقفين في أنحاء الأرض. وقد اتهمت هذه النظرية بأنها تيسر عمل أصحاب القوة من أنصار الهدم و التخريب و تؤيدهم. وعلى أية حال فإن النقاش حول صدام الحضارات كان أهم نقاش عالمي في السنوات العشر الأخيرة وأعمقه وأوسعه انتشارا، ولا يزال تأثير هذه النظريات و صداها وتأثيرها ظاهرا في المحافل وفي العلاقات الدولية والسياسية .

وعندما ندرك أهمية هذا الخطر القريب ندرك مدى أهمية حركة الحوار التي بدأها فتح الله كولن بين الأديان والحضارات.

ولاشك أن هذه الحركة ستتسع في المستقبل وسيقوى تأثيرها وينتقل إلى الجماهير العريضة، وأن حركة الحوار هذه لا تقدم أفكارا غير قابلة للنقاش، لأن هذه الأفكار ستتم مناقشتها من قبل مختلف المفكرين والعلماء والمثقفين الذين ينتمون إلى ثقافات وأيدولوجيات وقطاعات مختلفة" [2]. الأمر الذي جعل آثارها تمتد رغم أنها "لا تحمل أي صبغة سياسية مباشرة، ولكنها تستطيع في المدى البعيد التأثير إيجابيا على مستقبل المجتمعات. لأنها حركة حوار جدية ذات مستوى رفيع، وقد استقطبت الاهتمام والتجاوب لكونها حركة مدنية" [3] تيسر السبيل ليحاول كل مشارك في نقاشاتها " شرح كيفية العيش في المستقبل في مجتمع يسود فيه التسامح المتبادل والحوار، وكيف يمكن تقديم مثل هذا الأنموذج للإنسان والمجتمع. وسواء أشاهد علماء الاجتماع في هذه الحركة محاسبة

[1] قيمة القيم، المهدي المنجرة، ط1، 2007، ص: 8

[2] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 246-247

[3] المصدر نفسه، ص: 239

للحداثة أم مشروعا اجتماعيا طابعه اللين والتسامح، فإنها حركة إيجابية وفي صالح الإنسانية.

من جانب آخر ـ ولعله الجانب الأهم ـ فليس الأمر مقصورا على دعوة فتح الله كولن طبقة من المثقفين إلى مجرد نقاشات فكرية. بل قيامه ـ بواسطة المئات من المؤسسات والمدارس التعليمية التي أنشأتها حركته في داخل تركيا وخارجها ـ بوضع مشروعه هذا موضع التنفيذ العملي. ففي هذه المؤسسات يرسي القواعد الاجتماعية لحركته في التسامح والحوار من جهة، ويحاول من جهة أخرى سد النقص في "الإنسان النموذجي"، فهو يحاول في هذه المدارس تنشئة الإنسان الناضج الذي يستطيع حمل أعباء المستقبل، أي أن الأمر ليس مقصورا على محاسبة الحداثة وما بعد الحداثة. فعملية المحاسبة هذه جارية من قبل العديد من النوادي الفكرية والمثقفين والمفكرين وعلى أسس فكرية ومنهجية مختلفة، فهم يعبرون بحرارة عن المشاكل الناجمة عن التغييرات الاجتماعية ويقومون بمحاسبة أسس العناصر الهدامة التي تهدد الإنسانية، ولكن مثل هذه المحاسبة ليست كافية من ناحية إزالة المخاوف المتعلقة بمستقبل الإنسانية، بل يجب أن تنقلب هذه المحاسبة إلى مشروع ذي نواة اجتماعية وتعليمية مثلما فعل فتح الله كولن"[1]،حيث إن تطور المجتمع يستوجب تنوير قدرات مكونات هذا المجتمع ، والذي هو أولا كنز بشري[2].

[1] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 247

[2] قيمة القيم، ص: 177

المطلب الثاني: نحو مأسسة الحوار في مدرسة كولن

تميزت سنوات التسعينات في تركيا بمناخ من الانفتاح وشيوع فكر وثقافة الحوار مع "مختلف الفئات وبشكل واسع. فبدأ عهد حوار لم يحدث مثيل له في التاريخ الحديث لتركيا. بينما كانت تركيا ـ قبل الثمانينات ـ مسرحا لنزاع وصدام العديد من الحركات ومن التيارات الأيدولوجية. وقد قتل الآلاف من الشباب في أثناء الصدامات التي جرت بين الحركات الشبابية. واهتزت تركيا من أعماقها بتأثير النزاعات الأيدولوجية التي عمت أيضا العالم كله. ولكن فتح الله كولن استطاع أن ينقذ محبيه والجماهير العريضة التي كان يخاطبها، من الانزلاق إلى هذه النزاعات والخصومات ويبعدهم عنها. وأبدى في هذا الأمر عناية خاصة بصبر وتأن "[1].

ولقد تيسر لكولن من خلال ذلك السبيل إلى أن يكون محور انجذاب واطمئنان عدد من المثقفين من مختلف المشارب، "فقام بعقد اجتماعات بين ممثلي مختلف الأفكار،وبين ممثلي مختلف أنماط المجتمع وأديانه، ومع الذين دخلوا في صراعات عملية فيما بينهم في الستينات وفي السبعينات والذين استمرت خلافاتهم في الساحات الفكرية والاجتماعية،وانقسموا إلى معسكرات مختلفة...وجد هؤلاء أنفسهم يجلسون لأول مرة حول مائدة واحدة مع مخالفيهم في الرأي والأيدولوجية، وللمرة الأولى كانوا يرون مخالفيهم عن قرب ويتحدثون معهم. كان هؤلاء من الذين ربما شهر أحدهم السلاح في وجه الآخر في السابق، أو على الأقل قادوا تيارات مختلفة ومتعارضة من الحركات الشبابية. جلسوا حول مائدة واحدة وجها لوجه يتناولون الطعام ويسأل أحدهم عن أحوال الآخر.

صحيح أن الحديث كان في هذه اللقاءات الأولى لا يتجاوز كلمات المجاملة، ولكن كان هناك من بين الحاضرين من أعجب بهذه الاجتماعات، وبدت عنده إمارات الرغبة في إرساء القواعد الفكرية والفلسفية والاجتماعية لهذه الاجتماعات. وبمرور الزمن نتجت

[1] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 42-43

عن هذه الرغبة اجتماعات مدينة(أبنت abant) ،أوما أطلق عليه اسم (منبر أبنت للحوار).

لم تعد هذه الاجتماعات اجتماعات مجاملة، فقد شكل هنا كادرعلمي جاء أعضاؤه من مختلف الجامعات ومختلف الاختصاصات ومختلف المدارس الفكرية. وانقلب الصراع هنا إلى صراع فكري وعملي .

لقد جاء هذا الكادر العلمي الذي ينتمي كل منهم إلى مدرسة فكرية مختلفة إلى هذه الاجتماعات لتأسيس ساحة مشتركة من التفاهم والعيش معا في تركيا دون صراع، كان هذا دون شك مشروعا كبيرا لا شبيه له. كان فتح الله كولن ومحبوه في أول الأمر هم الذين يديرون هذا المنبر، ولكن ما إن اتسع مجال هذه الاجتماعات ونطاقها حتى انقلب هذا المنبر ـ نتيجة اشتراك عدد كبير من المفكرين والعلماء في ساحات الفكر والعلم والقانون والسياسة ـ إلى منبر مشترك وإلى برنامج عمل. ولا يشغل فتح الله كولن سوى الرئاسة الفخرية لوقف (جمعية) "الكتاب والصحفيين"، التي تقوم بترتيب هذه الاجتماعات وتمويلها، أي إن اجتماعات الحوار هذه أخذت قالبها المؤسساتي على يد هؤلاء الأكاديميين وأصبحت تحت تصرفهم "[1].

1. وقف الصحفيين والكتاب وأهم منتدياته

"وقف الصحفيين والكتاب" مؤسسة خيرية، جمعوية تعنى بقضايا الحوار، تم افتتاحها في يوم 29 نونبر 1994، بكلمة الأستاذ كولن التي "عني فيها بالحوار وقبول الآخر في المجتمع وفي العالم أجمع.

كان مصطلح (خوجة) و (الشيخ)، إذا أطلق بين الناس تبادر إليهم الشيخ التقليدي فلما ألقى الأستاذ فتح الله محاضرته رأوا فيها ـ فضلا عن معرفته بالعلوم الإسلامية ـ

[1] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 43-44

سعة اطلاع على الثقافة التركية والعالمية، فانبهروا به لاسيما أولئك الذين لم يعرفوه عن كثب، وراح مئات المثقفين يشيدون به في مقالاتهم "[1].

يشمل وقف الصحفيين سبع منتديات تعنى بالحوار هي :

" ـ منتدى أبانت (abent Platform)، وهو منتدى عالمي للحوار بين الحضارات، وبين الديانات، وبين التيارات الكبرى.. وقد نظم الكثير من الملتقيات العالمية.

ـ منتدى الفن والثقافة (culture and art Platform) يشارك فيه أكبر المثقفين والفنانين والشخصيات الشهيرة، من أمثال لاعبي كرة القدم، والمغنين...أي كل من له شعبية في مجال الإعلام، ويتناقشون قضايا التسامح، والحوار، وغرس قيم الحب،والصداقة، والمعاشرة الحسنة، ونبذ سلوك العنف والإقصاء والتصادم.

ـ منتدى الصحافيين (médialog Platform) وهو خاص بالصحفيين من كل وسائل الإعلام، ومن كل الاتجاهات، يطورون فيما بينهم أسلوبا صحفيا هادئا مسؤولا،ويزيلون فتائل الجدل الخانق، ويهجرون أسلوب التعيير والشتم والسب غير المبرر، وكل ما يشوش على القيم والأخلاق وعلاقات المواطنة.

ـ منتدى حوار الأديان والثقافات (intercultural dialog Platform) وهو شبيه بمنتدى *أبنت* لكنه يهتم بداخل تركيا، وينظم حوارات بين المسلمين والمسيحيين،وبين المسلمين والموسويين، فيما بينهم، على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم.

ـ منتدى المرأة (women s Platform) للحوار بين النساء، ومن مختلف المشارب والمضارب، حول اهتماماتهن، بعيدا عن الادعاءات، والحسابات الضيقة.

[1] فتح الله كولن: قصة حياة ومسيرة فكر، ص: 104

ـ منتدى البحث العلمي (reseach plat frome)، وهو منتدى للبحث العلمي،والطروحات النظرية والفكرية والعلمية العميقة، وهنا تتم مناقشتها بدون خلفيات إيديولوجية.

ـ منتدى أوراسيا (platfrom eurasia) وهو منتدى يدور حول قضايا أوراسيا: (روسيا،وبيلورسيا، وكازاخستان، وقرغيزيا، وطاجكستان، وأوزبكستان)، ويشارك فيه أبناء هذه البلاد، يسهمون في نزع فتيل الخلاف بين أبناء الأرض الواحدة. والتاريخ الواحد،والحضارة الواحدة، لصالح نموهم ورقيهم، ولأجل وضع أكثر سلاما وأمنا وتقبلا للآخر"[1].

كان لتأسيس "وقف الصحفيين" آثار كبيرة على شرائح مهمة من المجتمع التركي،امتدت إلى بلاد أخرى، يقول أنس أركنه: " تأسس وقف (جمعية) الكتاب والصحفيين عام 1994. وكان لافتتاحه صدى كبير في وسائل الإعلام. حيث تأسس في البداية لتفعيل وتنشيط جو من الحوار وحسن النية. وكان هذا هو رأسمال الوقف في البداية ولكن سرعان ما أعقبت اللقاءات على موائد الطعام فعاليات اجتماعية وثقافية مختلفة. فقد امتلك الوقف مجلتين ودار نشر لإرساء القواعد الفكرية لاجتماعات (أبنت).

إلى جانب هذا، بدأ الحاضرون في المآدب من مختلف الاتجاهات والانتماءات بتأسيس صداقات جديدة. ظهر ـ ولأول مرة ـ أن الفروق والاتجاهات المختلفة تملك جاذبية خاصة وسحرا متميزا، لأنه سرعان ما أدرك جميع الأطراف كيف أن الفروق والاختلافات ليس سوى وجه من أوجه الغنى والثراء. فأصبح ثمة تلاؤم وانسجام تام بين معتنقي مختلف الأديان. كان هذا أول حوار بين هؤلاء، لأنهم لم يروا منذ سنوات عديدة ـ بل ربما منذ عدة عصور ـ أرضية مشتركة للحوار مثل هذه الأرضية، ولذا فقد أيدوا هذه الحوارات بحرارة. ولعلهم لم يتوقعوا في البداية أن ينشأ جو كمثل هذا الجو الحار، ولم

[1] أرباب المستوى، ص: 136-137

يتوقعوا أيضا تحول هذه الحوارات التي جرت على موائد الطعام إلى حوارات بين الأديان والحضارات"[1].

لقد استطاع "وقف الصحافيين" توفير المناخ الثقافي الذي يحتضن "المئات من المفكرين والعلماء وأرباب السياسة والفن في البلد من المنتسبين إلى مختلف المدارس الثقافية ومختلف الأديان والأعراق والأيدولوجيات، اجتمع هؤلاء ليبحثوا عن إمكانية تشكيل أرضية مشتركة للعيش والتفاهم في جو من الاحترام المتبادل. وبدؤوا بوضع العديد من مشاكل البلد والعديد من مسائلها كالديمقراطية وحرية العقيدة والفكر، ونماذج الدولة الوطنية الحديثة، والتعددية السياسية والثقافية... على البحث والتدقيق والتشريح.. في البداية ارتفعت بعض الأصوات القلقة، وكان هناك جو من عدم الثقة ثم بدؤوا بعد ذلك بالتأكيد على نقاط مشتركة "[2].

ومن ثمرات "وقف الصحفيين" إصدار "العشرات من الكتب والمؤلفات، بمختلف اللغات، كما أنه يصدر مجلات دورية وشهرية حول قضايا الحوار بالتركية والإنجليزية،راقية الإعداد والطبع، وواسعة النشر والتوزيع " [3]. ومنها إنشاء "مركز بحوث فتح الله كولن وهو المسؤول عن البحث وعن تنظيم مؤتمرات عالمية، لمناقشة فكر الأستاذ كولن"[4].

---

[1] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 44-45

[2] المصدر نفسه، ص: 241

[3] أرباب المستوى، ص: 137

[4] المصدر نفسه، ص: 138

المطلب الثالث: أسس الحوار في فكر الأستاذ كولن

1. الإنسان الفاضل المتسامح هو ركيزة الحـوار

إذا جاز وضع عنوان آخر يميز حركة الخدمة ومنهج كولن في الإصلاح والتجديد، فهو: (الإنسان هو كل شيء)، ولذلك فإن نجاح الحوار متوقف على نوع الإنسان الذي يقوده ويوجهه، " ويرى فتح الله كولن أن الإنسان الفاضل هو الإنسان المتسامح اللين الجانب، وهو الإنسان المضحي والمخلص في سبيل المجتمع والإنسانية. ففي أساس الحضارة الإنسانية والاجتماعية التي نشأت على تربة الأنا ضرول يوجد هذا الأنموذج الإنساني. وقد أرسى الدراويش والمتصوفة الأوائل أسسها وقواعدها. ويحاول فتح الله كولن هنا تجديد هوية المسلم المعاصر، وإرساءها على القواعد الثقافية للإسلام وتعريف هذه الهوية من جديد. وعندما يقوم بهذا، فهو يقفو أثر الثقافة الإسلامية التي نهجت نهج المسامحة والحوار. لذا فلا يرى أي شرعية في استعمال أي نوع من أنواع العنف في هذا الصدد، وهذا الأسلوب يقدم أنموذجا إسلاميا متوافقا مع القواعد الإسلامية من جهة ومع قيم العالم الحديث من جهة أخرى "[1].

2. كل باطل يحمل جزء من الحـق

يؤكد كولن على وجوب رؤية جانب الحق والصواب في أي مذهب أو تيار أو عقيدة مع اليقين بأن ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الحق الكامل ومن ثم وجب الاعتزاز به، ولذلك "يمكن الاستفادة من الجوانب الإيجابية للغرب بعد الأخذ بعين الاعتبار كرامتنا وعزتنا وكذلك عداوتهم لنا وإجراء حساباتنا على هذا الأساس. والحقيقة أن كل مذهب باطل يحتوي على جزء صغير من الحق، وهو مدين في وجوده وبقائه لهذا

[1] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 231

الجزء من الحق. لذا يمكن أخذ ذلك الجزء الصغير من الحق ومن الحقيقة، بل يجب أخذها"[1].

وهذا ما يفسر إقبال كولن على محاورة الآخرين رغم يقينه بالتحريفات التي وقعت في التوراة والإنجيل، إذ "منيت النصرانية بأكبر خيانة على بعض أتباعها فحرفوا الكتاب الذي جاء به المسيح عليه السلام من عند الله"[2].

وبعد ذكر الأستاذ لأمثلة من افتراءات التوراة في حق الأنبياء عليهم السلام (شرب لوط عليه السلام للخمر وزناه بابنتيه ـ زنا يهوذا بن يعقوب بزوجة ابنه ـ ارتداد سليمان ـ مصارعة إسرائيل مع الله وتغلبه عليه) [3] يقرر:" فالتوراة والإنجيل مملوءان بالافتراءات في حق الله تعالى وفي حق عباده من الأنبياء، ومملوءان بالانحرافات.. أحدهما: منبع للافتراءات والآخر منبع للانحرافات"[4].

3. محبة الخلق وفتح الصدور لهم

للأستاذ محمد فتح الله كولن توجيهات رائدة تعين على ترسيخ جذور الحوار وتحويل المجتمع المحلي والعالمي إلى سكن يتنغم بـ:

الله ربي وهذا الكون أجمعه بيتي وسكانه أهلي وإخواني[5].

ومن تلك التوجيهات أربع حكم أنارت السبيل لحركة الخدمة لتكون جسرا إلى العالمين :

" افتح صدرك للجميع..افتحه أكثر مما تستطيع ... ليكن كالبحر... لتمتلئ بالإيمان وبمحبة الإنسان ... لا تبقي خارج اهتمامك أي قلب حزين لا تمد له يدك.

---

[1] أسئلة العصر المحيرة، ص: 150

[2] نحو عقيدة صحيحة، ص: 77

[3] النور الخالد، ص: 523-524

[4] المصدر نفسه، ص: 525

[5] بيت للشاعر عصام العطار، موقع رابطة أدباء الشام www.odabasham.net

ـ صفق للأخيار بسبب خيرهم وفضلهم، وكن ذا مروءة تجاه المؤمنين، وكن لينا تجاه المنكرين إلى درجة تذوب معها أحقادهم ونفورهم، وكن دائما كالمسيح عليه السلام في سماحته وفي أنفاسه التي كانت تحيي كل شيء.

ـ ادفع السيئات بالحسنة، ولا تهتم كثيرا بالسلوك المفتقر إلى الذوق، فكل إنسان يعكس طبيعته وأخلاقه بتصرفاته وسلوكه. أما أنت فاختر لنفسك طريق المسامحة، وكن كريما عالي النفس حتى أمام الذين لا يعرفون قواعد السلوك والخلق.

ـ أهم ما يميز القلب الذي يهتز بالإيمان هو أنه يحب الحب ويعادي العداوة.. أما الذي يكره الجميع وينفر منهم فهو إما شخص سلم قلبه للشيطان أو هو شخص مريض..أما أنت فليكن شعارك هو حب الإنسان والإنسانية "[1].

4. تجسيد الحوار من خلال أنشطة كولن داخل تركيا

لقد ترجم فتح الله كولن ـ من خلال سعيه إلى جميع الفرقاء الأتراك يمد إليهم يده ويحاورهم ـ روح الإنسان المتحاور، ووضع بذلك أنموذجا عمليا لمحبيه وأتباعه، ومن أنشطته في هذا السياق :

"مقابلته مع رئيس وزراء تركيا، طنسو تشلر في 30 نونبر 1994، كان لها صدى كبير في الصحف.

في يناير 1995 م أجرت معه جريدتا (الصباح) و(الحرية) حوارات عن قضايا الساعة، وطبيعة فكره.

في 20 مارس 1995 التقى بولند أجويت (ت 2006، سياسي وشاعر وكاتب تركي بارز تولى رئاسة الوزراء خمس مرات، وكان من رواد اليساريين في تركيا). ولم يكن لقاء سياسيا بل بحث معه موضوعات أدبية وصوفية وفلسفية.

[1] الموازين، ص: 19-20

وفي عام 1995 أجرى معه الإعلامي رضاء مختار حوارا في قناة trt (وهو الإسم العام لقنوات الإذاعة والتلفزة الرسمية للجمهورية التركية) وكذا أورال جاليشلر بجريدة الجمهورية واستمر حواره سبعة أيام.

وفي عام 1996 أجرت معه وسائل إعلام متنوعة حوارات، ومنها تلفاز فرنا البلغاري، والتقى في هذا العام البطريق بارث ثلوميوس لتفعيل لغة الحوار بين طوائف مختلفة"[1].

وفي 1998 أجرت معه الصحافة المحلية والأجنبية عدة حوارات، والتقى ممثلي الأديان الأخرى تعبيرا عن السماحة وقبول الآخر"[2].

وقام كولن بزيارة ممثلي الجماعات الأرثودكسية واليهودية المقيمة بتركيا، بالتزامن مع انتشار نظرية هينتجتون عن الصدام بين الحضارات "[3].

ولأن الأستاذ محمد فتح الله كولن يرى أن الغرب دار خدمة بعيدا عن دار الحرب،أو دار كفر[4]، وأنه شريك لا نقيض [5]، وأنه لا مكان للصراع في مشروع حركة الخدمة[6]، وأن إحياء الإسلام إحياء للأديان كلها [7]. فقد توج لقاءاته بلقاء الباب ا جانبول الثاني بزيارته للفاتيكان في 1998/02/09م، "وكان لزيارته صدى كبير في العالم عامة وفي تركيا خاصة، وأجرت معه وسائل الإعلام الروسية والأوروبية خاصة الإيطالية

---

[1] فتح الله كولن: قصة حياة ومسيرة فكر، ص: 104- 105 - 106

[2] المصدر نفسه، ص: 109

[3] تقارب الشعوب، ص: 147

[4] عبقرية كولن، ص: 125

[5] المصدر نفسه، ص: 147

[6] The Gülen Movement: Civic Service Without Borders , Muhammed Çetin , Edition 2010, Publisher: Blue Dome Press, Çaglayan A .S, Izmir, Turkey, p 165

[7] ونحن نبني حضارتنا، ص: 183

حوارات في هذا الشأن، وهناك كان للإعلام التركي الهادف سلوك حميد، بينما ذهب آخرون كل مذهب في التهم الباطلة أثناء تفسيرهم للحدث، فبين الأستاذ فتح الله في برنامج على التلفاز أنه ينسق للقاءاته مع المسؤولين، وأنه قد استشار رئيس الوزراء بولند أجويت قبل لقاء البابا فوافقه في ذلك وأيده وأشار إلى أنها ستسهم في السلام العالمي"[1]،هذا الانتقاد صدر من فريقين مختلفين؛ " العلمانيين المتشددين ومجموعة صغيرة من الإسلاميين المتشددين، إلا أن المجموعتين اختلفتا في طريقة وأسباب انتقادهم لكولن.

أما نقد العلمانيين المتشددين لكولن فقد تركز على الرأي القائل بضرورة التفويض المطلق من قبل الدولة.. وقد كان رد فعل الإسلاميين المتطرفين بعد زيارة كولن مختلفا؛فقد اعتبروا زيارة كولن نوعا من التذلل، إذ إنهم يرون أن المسلم لا يليق به أن يذهب لزيارة غير المسلم"[2].

لقد زاد هذا اللقاء من مساحات الحوار التي أنش أتها حركة الخدمة وأصبحت عند أتباع الأستاذ من مؤشرات التسامح الذي يتطلع إليه العالم، "فهذا اللقاء الذي تم لأول مرة بعد عدة عصور في جو بسيط ودافئ ودون ضجة، بين شخصيتين دينيتين مختلفتين،كان ميلادا وللقاء وجها لوجه. لم يكن فتح الله كولن ـ طبعا ـ ممثلا رسميا لا للعالم الإسلامي ولا لتركيا، إلا أن الجو الذي صنعه والتأثير الذي أجراه في العالم الكاثوليكي أضفى على هذا اللقاء طابعا تاريخيا عند العديد من الأوساط"[3].

ولقد عبر عدد "من رجال الدين الكاثوليك وعلما ءهم بأنه كان لعلم فتح الله كولن ولطراز حياته الروحية دور كبير في تجديد أنفسهم" [4]. لذلك يسمى أتباع الأستاذ كولن بأبطال المحبة بابتسامتهم وحرصهم على صناعة حياة جميلة[5].

---

[1] فتح الله كولن: قصة حياة ومسيرة فكر، ص: 109

[2] السلام والتسامح في فكر فتح الله كولن، ص: 26

[3] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضرية، ص: 242

[4] المصدر نفسه: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضرية، ص: 242

[5] Perles de sagesse ,M .Fethullah Gulen. Traduit par cyril lamiral. Edition du nil , deuxième 2009 p 115

الباب الثالث

مرتكزات الخدمة

وفاعلية المدرسة

الفصل الأول

الخدمة

المفهوم والخصائص

تقديـــم

يعد مفهوم الخدمة ركيزة أساسية في مشروع كولن الإصلاحي، وسمته البارزة،وميزته الكبرى، خصوصا عندما ينظر إليه بوصفه امتدادا لرؤية النورسي بديع الزمان وتطويرا لها.

وإذا لم تكن حركة "الخدمة" مهيكلة تنظيميا وفق مألوف مشاريع حركات الإحياء المعاصرة، فإن القاسم المشترك لأبناء "الخدمة" هو الخدمة، عليها يلتقون وحولها يتحركون ولأجلها يسعون.

يكتسي مفهوم الخدمة أهميته لكونه جسرا متينا إلى مختلف شرائح المجتمع ، شعاره (ادخلوا على الناس من باب نفعهم، إنكم إن فعلتم كنتم من الفائزين بقلوبهم قبل عقولهم).

لأجل ذلك وجب بسط الحديث عن الخدمة حتى تستبين خصائصها وتتضح معالمها الكبرى، وتظهر سماتها الرئيسة بعمودها الفقري: فدائيي المحبة، ورثة الأرض وأبطال العطاء.

المبحث الأول: مفهوم الخدمة وخصائصـــها

المطلب الأول: مفهـــوم الخدمة

أ . مفهوم الخدمة عند النورسي

يحتل مصطلح"الخدمة" مساحات واسعة من كتابات النورسي إما مجردة أو مضافة، ومن ذلك قوله في إحدى مرافعاته أمام المحكمة: " إني عالم ديني، مكلف شرعا بإفادة الناس، لذا أريد أن أخدمهم من هذه الناحية...إلا أن هذه الخدمة تعود بالنفع إلى الحياة الاجتماعية والدنيوية...فضلت عليها (السياسة) العمل في خدمة الإيمان التي هي أهم خدمة وألزمها وأسلمها. وقد تركت الباب مفتوحا ليصل إلى الآخرين ما كسبته لنفسي من حقائق الإيمان وما جربته في نفسي من أدوية معنوية. لعل الله يقبل هذه الخدمة ويجعلها كفارة لذنوب سابقة. وليس لأحد سوى الشيطان الرجيم أن يعترض على هذه الخدمة "[1]. ويصف النورسي نفسه بكونه خادما للإيمان والقرآن، وأن صاحب القرآن استخدمه في هذه المهمة[2].

ويستعمل (خدمة الدين) مثل قوله "يا نفسي المرائية! لا تغتري قائلة: إنني خدمت الدين. فإن الحديث الشريف صريح بـ (إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر) [3] فعليك أن تعدي نفسك ذلك الرجل الفاجر، لأنك غير مزكاة، واعلمي أن خدمتك للدين وعباداتك ما هي إلا شكر ما أنعم الله عليك، وهي أداء لوظيفة الفطرة وفريضة الخلق ونتيجة الصنعة الإلهية..اعلمي هذا وأنقذي نفسك من العجب والرياء"[4].

وكذلك (خدمة الإسلام) في قوله : "فما للذين يتولون خدمة الإسلام ويدعون إليه لا ينسون عداوتهم الجزئية "[5]. ومن الصيغ ذات الصلة التي وردت في كلام النورسي: . ـ

[1] كليات رسائل النور، المكتوبات، ص: 78

[2] المصدر نفسه، ص: 80

[3] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب إن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر، ح 1237، م2، ج4، ص: 494

[4] كليات رسائل النور، الكلمات، ص: 555

[5] كليات رسائل النور، المكتوبات، ص: 349

الخدمة القرآنية [1]ـ خدمة أسرار القرآن أعلى منصب [2] ـ خدمة العلم والدين [3] .ـ خدمة النور [4] ـ الخدمة المقدسة[5].

وتكاد المصطلحات نفسها تقابلك في مؤلفات الأستاذ فتح الله كولن، مثال ذلك: الخدمة ـ خدمة الناس ـ خدمة القرآن والإيمان.[6]

ب . مفهوم الخدمة لدى حركة كولن

يقوم مفهوم الخدمة على أساس نذر الإنسان نفسه لخدمة المجتمع [7]، وهذا النذر يقترن بالمحاسبة والإيجابية، ويرتبط بالإحساس بالمسؤولية الكاملة لإنجاز الأهداف المسطرة[8]، وتتعلق بخدمة الآخرين للتقرب من الله تعالى، وتكون بالبداية بالأقربين ثم تشمل الجميع[9]، يقول مايمول أحسن خان مبينا تولي العاملين شطر اليوم الآخر:"الخدمة عند كولن معناها: أن ينذر الشخص حياته للإسلام، وأن يقدم كل ما في وسعه لنفع الآخرين، ليعود ذلك عليه بالنفع في الآخرة؛ وكولن نفسه لا يهدأ أبدا، ويسأل نفسه دائما: ماذا يمكن أن أقدم أكثر في سبيل الله؟ ومحركه لذلك العمل الشاق هو ذكر الموت والخوف من يوم الحساب حتى غدا ذلك سمة أساسية في خطبه"[10].

يتجاوز مفهوم الخدمة التدين الفردي الذي اعتاده كثير من الناس إلى الانخراط مع أهل الإيمان للبذل والعطاء لنفع المجتمع، ذلك أن "التدين الاعتيادي لا يستطيع حمل مثل هذه التضحية والصبر عليها. لأن حدود التدين الاعتيادي معلومة. فلكل من الصلاة

---

[1] كليات رسائل النور، اللمعات، ص: 67-72. المكتوبات، ص: 436

[2] المكتوبات، ص: 412

[3] المصدر نفسه، ص: 58

[4] اللمعات، ص: 71

[5] المصدر نفسه، ص: 67-71

[6] شد الرحال لغاية سامية، ص : 173 ، 50، 96، 38 ، 39، 42، 204.

[7] فتح الله كولن جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 50

[8] La Societe civile p 121-122-124

[9] المصدر نفسه، ص: 72-73

[10] فتح الله كولن: الرؤية والتأثير، ص: 141

والصوم والزكاة والحج حدوده ومقداره وحجمه وإطاره. أما مفهوم الخدمة في هذه الحركة،فهو يعرض شمولا أوسع وديمومة أكبر. وهو يستعين ليس بالقيم الدينية فقط، بل بالقيم الوطنية والإنسانية والأخلاقية وبالعلاقات الاجتماعية كذلك. ويتبع طريقا عقلانيا ومعقولا تجاه قيم الدولة والملة في علاقاتها الاجتماعية. وعند ذكر (رجل الخدمة) يتبادر إلى الذهن صورة إنسان ناذر نفسه للإنسانية وللتضحية والإيثار، وذي قلب واسع يحتضن البشرية كافة. وهذا الأمر يستوجب حبا كبيرا للدين والأمة وللإنسانية. لذا فإن الذين احتضنوا الحركة كانوا مستعدين دائما لتضحية الغالي والنفيس في سبيل كسب رضا ربهم بحب عميق وإيمان راسخ "[1].

ترى الذين أصروا على هذه المعاني من حواريي الأستاذ محمد فتح الله كولن،"يقيمون كل تصرفاتهم وعلاقاتهم على أساس الحوار والتفاهم وقبول الآخر. ثم إن كل علاقاتهم مع المجتمع ومع الأفراد الآخرين قائمة على أساس إيجابي، وبدلا من سلوك طريق القوة والعنف و طريق الهدم والانقلاب، سلكوا طريق تقديم البدائل دون أن يخلوا بالنظام القائم، وتقديم الطرق لمصلحة البلاد في التطور و الانفتاح "[2].

تستعين حركة فتح الله كولن بـ "مجالس الصحبة وسيلة أساسية لترسيخ ثقافة الخدمة بعيدا عن ما يفرق من المواقف السياسية "[3].

ولأن جوهر حركة كولن هو الخدمة فقد تيسر لها امتداد جماهيري ذو بال؛ يقول أنس أركنه" إن حركة فتح الله كولن حركة ديناميكية نشطة قد أفرزت روحا تعبويا عاما،بحيث يجد كل شخص فيها وفي مؤسساتها العديدة ما يناسبه من ألوان النشاط. وهذا هو السبب في تأثيرها على مختلف أنواع الكتل الجماهيرية. وهي تطالب منتسبيها بتضحيات جسيمة. كما أنها لا تشبه الحركات الأيدولوجية التي تحاول جمع الأنصار والسيطرة على الشارع بإطلاق الشعارات. ولا تستمد قوتها وتأثيرها من الشارع، بل من قلوب الناس الذين نذروا أنفسهم للخدمة"[4].

---

[1] فتح الله كولن جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 50-51

[2] المصدر نفسه، ص: 49

[3] la Societe civile p 73

[4] فتح الله كولن جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 91

ومما مكن لروح الخدمة أن تسري في جسم حركة فتح الله كولن، أنها ليست"تنظيما بالمعنى المشهور المتداول في الفضاء الحركي الإسلامي، ولكنها في الواقع (فكرة) قوامها فلسفة واضحة بينة ،عمدتها تشجيع ثقافة الخدمة الإيمانية. وكل ما أسس (مدارس،جامعات، أسواق، مصانع، شركات،مستشفيات،مؤسسات إعلامية....)بناء عليها،وفي مختلف الحقول (التعليم،التجارة،الصناعة،الإغاثة،الطب،الإعلام)، لا يربطه بباعث الفكرة في المجتمع التركي رابط تنموي عضوي، بل لتلك المؤسسات في إطار فكرة "الخدمة" مطلق الحرية في الفضاء الذي تتحرك فيه، وفق ما يسهل لها عملية التكيف التنظيمي والقانوني مع المعطيات القانونية التي تحكم المكان والزمان التي تتحرك فيهما مؤسسات الخدمة "[1].

تهيمن روح الخدمة على مختلف محطات العمل والنشاط الحركي، وتؤطر نسيج مختلف العلاقات بين أعضاء الحركة وبينها وبين المجتمع، والأمة بصفة عامة والإنسانية كلها، وذلك لأن "الخدمة تستهدف تغيير الأحوال للبيئة المعيشة، وهي الجامع بين القادر والمحتاج، بين صاحب المال وصاحب الحركة وصاحب الفكرة. وجوهرها يعنى بتنظيم العطاء المتبادل ببين الأفراد والمجتمع، وبهذا المعنى فإن الخدمة هي نظام التفاعل بين الفرد والجماعة والحركة، هي أساس التناغم بين الفرد كأحد أعضاء الجماعة وبين الهدف الأكبر، وهو إصلاح حال الأمة الإسلامية على امتداد وجودها المكاني الجغرافي، كمقدمة لإصلاح حال الإنسانية"[2].

ولقد أثبتت (الخدمة) موقعها وسط كل المغريات والأنظمة ذات الجاذبية القوية التي تملك وسائل ضخمة مؤثرة على الأفراد والمجتمعات، وأنشأت تيارا مدنيا يقدم خدماته التربوية والثقافية من منطلق ديني [3]. تحدث الدكتور عشراتي عن أثر حركة الخدمة القوي فقال:"لقد أناط الأستاذ كولن دور الدعوة أو الخدمة بالجماهير المسلمة، وبالجماعات

---

[1] علاقة الحركة بمؤسساتها، د.عمار جيدل، مستقبل الإصلاح، ص: 449

[2] شهادة عن المرئي في حركة فتح الله كولن التركية، د. حسن أبوطالب، مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي، ص: 525

[3] HIZMET Questions et Reponses sur le mouvement Gulen, Muhammed Getin, edition du nil , 2013 p160

المتنورة خاصة، فقد أنشأ فلسفة جديدة لمهمة التبليغ، ربطها بروح العصر، وبأساليب التعاطي الرائجة بين الأمم ...إذ أن العقلية العالمية اليوم ونتيجة المسار البراغماتي،المادي، والليبرالي الذي عرفته الأنظمة ـ رأسماليها وشيوعيها سابقا ـ قد أفرزت العقلية الانتفاعية وذات الوازع العملي الملموس، العقلية التي قد تتأثر بالدعوة من خلال الحوار المتفوق وذي الحجة الصريحة، وقد تتأثر بها كذلك انجذابا حين يكون المظهر المادي والمستوى المدني وشاهد الحال الحضري لممثلي الدعوة مترقيا، ولكن التأثر الأوكد والأبلغ بالدعوة يكون عندما تتم بواسطة برامج ذات مردودية اقتصادية واجتماعية وثقافية يفيد منها الآخرون، أي في صورة مشاريع خدمة ينهض بها الدعاة العاملون ممن تستطيع الرؤية السديدة أن تجيشهم، وترسم لهم الأفق، وتوجههم إلى الصالحات "[1].

وهذه الخدمات لا تحدها الجغرافيا، لأن " مشروع حركة الخدمة الفكري والروحي المتمثل في حراك اجتماعي وتربوي ليست له حدود قومية أو عرقية، فهو يعالج عمليا ما نتج عن الخواء الديني الذي غيب التخطيط العملي للحياة، وعن الحداثة التي تتمثل في الأنانية المفرطة والاستهلاكية الفجة؛ وهذا مشروع عملاق جعل من كولن مصلحا اجتماعيا من طراز خاص له تأثير عالمي"[2].

المطلب الثاني: المزج بين المدنية والتجربة عنوان خيرية الخدمة

1. الخدمة تَجَلٍّ لخيرية الأمة

من الملاحظ أن حركة الخدمة، قامت بدور واف في السنوات الأخيرة في الحياة الاجتماعية والتربوية والسياسية التركية [3]. وقد لقيت مشاريعها قبولا لدى فئات واسعة من المجتمع داخل وخارج تركيا، حيث إن حواريي فتح الله كولن " خاضوا كل مجالات الخدمة، وجمعوا في كل مجال منها بين الإخلاص الدعوي والإتقان المهني، ولذلك تسابق الناس على الاستفادة من خدماتهم مع أن عددا من هذه الخدمات تأخذ رسوما

[1] هندسة الحضارة، ص: 42-43

[2] فتح الله كولن: الرؤية والتأثير، ص: 152

[3] la Société civile, p 16

مقابلها، كالخدمات التعليمية والطبية، فقد قدمت خدمة راقية تفوقت فيها على المحترفين وأهل الصنعة والخبرة والدراية فيها مع قلة الرسوم المطلوبة فيها، بجانب حضور الحس الرسالي والنفس الروحي والذي لا يفصل أي أمر دنيوي عن الآخرة، ولا يخرج أي خدمة أو متعة من دائرة العبودية لله تعالى "[1].

لقد وضع الأستاذ محمد فتح الله كولن نصب عينيه خيرية الأمة وشهودها الحضاري، وسعى لها سعيها وركز على عنصر أداء الخدمات للناس، واعتبره الجسر الضروري إلى اكتساب شرف الاصطفاء الإلهي والانتساب النبوي، وإلى قلوب الخلق وعقولهم ووجدانهم، وتزيين الأرض بعمارتها بالصلاح والخير والإيمان، حيث " إن مبدأ خيرية الأمة في فكر كولن مبدأ مشروط وله مقتضيات، إذ لا تحوزه الأمة ما لم يتحول فيها هذا الوصف الرباني إلى سجية دينامية فارزة، وذلك بأن يكون مقرونا بمقتضياته من الأهلية والجدارة...من هنا كان التمرس بالواقع، والعمل على تنفيذ البرامج النهضوية والمخططات المدنية، لاسيما في المرحلة الراهنة، هو التجسيد العملي لصفة الخيرية التي وسم الخالق بها أمة الإسلام. ومن هنا أيضا قام الاجتهاد عند كولن على تقديم البعد الخدمي في الدعوة، وجعله مظهرا من مظاهر خلوص الإيمان، وعنوانا من عناوين إثبات اليقين.

إن الفكر عند كولن شرط وجودي وإيماني محكه ومصداقيته هي النفاذ في الواقع والتوسع في بذل الخيرات، والإثمار الملموس في الإنسان ومن خلاله "[2].

لقد كشف فكر الخدمة أن طاقات الأمة الكامنة فيها تود لو أنها وجدت من يحسن تسخيرها في مناطق الفراغ التي كان يجب أن تعبأ منذ أجيال، فالخير في المسلمين لا ينقطع إلى يوم القيامة، لكن الأمر يستدعي وقود محركات الإصلاح وقواطر جر العربات بحركة مفكرة وفكر متحرك.

---

[1] عبقرية كولن، ص: 124

[2] الانبعاث الحضاري، ص: 27-28

يقول عشراتي": لقد استيقن كولن أن الفريضة الغائبة هي فريضة النهوض المدني والانتفاض المادي، وأنه من الوفاء للموثق أن يعمل النيرون على تحيين هذه الفريضة،وأن يتحولوا في خضم التحضير لها إلى قواطر تجر العربات.

ولقد أدرك أن النفاذ إلى تحقيق الهزة التي تنتشل الأمة من وهدتها، وتعيدها إلى الجادة، إنما يتم من خلال تشغيل محركات الانبعاث وبناء الهوية والتي هي الدين والتاريخ والانتساب إلى شجرة الإسلام المنفتحة على بني الإنسانية قاطبة"[1].

لقد تفاعلت حركة الخدمة مع تحديات تجفيف منابع تدين المجتمع التركي، وفقهت مهمة التدافع الراشد القوي، فساهمت مع أخواتها من حركات النهوض والإصلاح في "إعادة إحياء الهوية الإسلامية للمجتمع التركي عبر العديد من الأنشطة والمؤسسات طوال خمسة عقود، والتي نشأت لمواكبة متطلبات المجتمع المسلم الساعي إلى التضامن والترابط والتماسك في مواجهة فكر علماني يكره الدين ويعمل كل ما في جهده من أجل القضاء عليه "[2].

2. الخدمة جواب عملي على العولم.ة

مع هيمنة القوى الكبرى على العالم وسعيها الكبير لتنميط الدول والشعوب، والتحكم في قراراتها وبسط نفوذ الشركات العابرة للقارات والرأسمال المتجاوز للحدود، فقدت كثير من الأمم والحضارات العديد من مراكز قوتها، ومنها من استسلم لقدر العولمة استسلاما كبيرا. في هذا السياق ارتفعت أصوات الأحرار والأبرار رافضة هذا التسلط، وقرر آخرون الدخول في التدافع الهادئ القوي، فـ"حينما انطلقت القوى والكيانات الدولية، والشركات المتعددة الجنسيات والقوى الاحتكارية وراحت ترسي سلطانها على الأرض تحت عنوان العولمة، انطلقت بالتوازي زمر من شباب الخدمة ورجالها الطيبين، يسعون هم أيضا إلى أن يضعوا أرجلهم على الطريق، ويبدأوا في اغتراس بذور الخدمة عبر الأقطار والأصقاع التي وصلوها كطلائع مسلمة تملك من المال قدرا ضئيلا، وخبرتها في التثمير محدودة لكن لها ط موح إيماني قوي يجعلهم يتقبلون تحمل التحديات، ويعملون على تخطيها

[1] الانبعاث الحضاري، ص: 116-117

[2] شهادة عن المرئي في حركة فتح الله كولن التركية، د. حسن أبوطالب، مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي، ص: 24

بالصبر والتدبير والاستعانة بالله تعالى. لقد كانوا تعلموا في دروس الوعظ والتوجيه التي داوموا عليها سنوات وسنوات في حلقة أستاذهم كولن ومجالسه وخطبه، أن الأعمال الكبرى في التاريخ بدأت صغيرة، بل بدأت في صورة أفكار، ثم تحولت بالإصرار والعزيمة إلى برامج وخطط ومنشآت حازت موقعها في تاريخ الإنسانية .

كان كولن يدرك أن الرأسمالية التي انفسح لها الطريق عريضا ستحمل للمجتمعات مزيدا من شرور الربا والاحتكار والابتزاز. وكلها أمراض وإن واتاها الظرف الجديد،وساعدها على التوسع والازدهار، فإن ذلك لن يدوم ولن يستمر إلا لبعض الوقت،لأن نظم التعامل الجائرة والقائمة على أخلاقيات النهب والاستئثار، مآلها إلى السقوط"[1].

3. الجمع بين العلم و المدنية الحقيقية

إن التراكم المعرفي والتطور العلمي عنوانان بارزان للترقي الحضاري، وذلك لما يقدمه العلم من مفاتيح امتلاك أدوات تسخير ما بث الله في الأنفس والآفاق من رزق يستدعي من يهز جذوع النخل لتساقط رطبا جنيا. وقد من الله على الناس فجعل تنوعهم وتعدد مواهبهم وقدراتهم وطاقاتهم آية من آياته لقوم يوظفون بالعلم اختلافهم فينشئوا حالا أخلاقية من التعارف والتفاهم ثم التعاون على بر المجتمعات وسعادة الإنسان. ولكن هذا العلم تتعطل فوائده عندما يفقد بعده الغائي ويصبح جسرا إلى طغيان الملإ الذين استكبروا بغير حق .

يقول الأستاذ محمد فتح الله كولن . مستبشرا بمستقبل واعد تصنعه حسنات الشرق والغرب :" لم تتحقق المدنية الحق إلا في الظروف التي سار فيها العلم جنبا إلى جنب مع الأخلاق. لذا فإن المدنية الغربية التي حسبت كل شيء محصورا في العلم بقيت مدنية مشلولة، أما المدنيات الشرقية فقد انعزلت عن العلم وتقوقعت على نفسها، وأصبحت الآن تمثل التأخر، أما مدنية المستقبل فستكون مزيجا من العلم والصناعة للمدنية الغربية مع فلسفة العقيدة الدينية والخلقية للشرق، وهي ستنمو وتترعرع بهذا المزيج"[2].

---

[1] الانبعاث الحضاري، ص: 125-126

[2] الموازين، ص: 97

وبدون هذا المزج بين أحسن ما في الحضارات، وبدون تسديد حركة العلم، فإن مستقبل البشرية مهدد بتحول هذه النعمة إلى نقمة مدمرة، وذلك "لأن العلوم مفيدة لنا بدرجة قيامها بتأمين سعادتنا والارتفاع بنا إلى المستوى الإنساني اللائق.أما إن أصبحت العلوم والتكنولوجيا الكابوس المرعب لبني الإنسان فليست إلا شيطانا رجيما تقطع علينا أمامنا الطريق"[1].

تعد مشاريع الخدمة بمختلف مستوياتها ومجالاتها محاولة رائدة، تسعى إلى إبداع عملي يمتزج فيه العلم والأخلاق والوجدان، وتحضر فيه الروح بقوة إلى جانب العقل المسدد و التقنية الخبيرة، وهي بذلك تعرض نفسها للعالمين .

4. توسع مجال الاستفادة من التجارب واحترام الفكر

من أهم ما يكسب حركات الإحياء المعاصرة . في عالم المسلمين . قيمتها الكبرى طبيعة المصادر التي تركن إليها، ونوع التصورات والمنطلقات التي تؤطرها. وتتفاوت هذه الحركات انزواء وانطلاقا، وانغلاقا وانفتاحا؛ فمنها ما تجاوز الظاهرية السطحية الجامدة،ومنها التي فرطت في الأصول تحت عنوان الانفتاح، ومنها طائفة رأت أن تجارب الإنسان مدرسة كبيرة تمد بالإضاءات من كان له رحم فكرية تتسع لمختلف الأجنة الحضارية، مستعد بذلك أن ينصت للحق والخير والحكمة أيا كان مصدر ذلك، لأنه آمن "بالحرية الدينية والحرية والسياسية والحرية المدنية وحرية الرأي والفكر، وحرية الإرادة،وكل هذه الحريات ما هي إلا مكونات للحرية الإنسانية التي هي كل لا يتجزأ، وأي مساس بجانب منها عدوان على شرف الإنسان وتعطيل لمسؤوليته"[2].

يرى الأستاذ محمد فتح الله أن " كل محاولة وحملة للتقدم تمر من التقييم الجيد للوضع الحالي مع الاستفادة من تجارب الأجيال السابقة وإعطاء أهمية لتلك التجارب وإلا فإن الأجيال القادمة إن اتبع كل واحد منها طريقا دون الالتفات إلى تجارب السابقين فإن هذا التصرف يكون تصرفا صبيانيا، لأنه يؤدي إلى تأخر الأمة ويمنع تقدمها و يعرقلها"[3].

---

[1] الموازين، ص: 99

[2] أبحاث ندوة الخدمة الاجتماعية في الإسلام، المبادئ الأساسية للخدمة الاجتماعية، د. محمد سلامة غياري، ط1، المعهد العالي للفكر الإسلامي ، القاهرة 1996 ، ص: 157

[3] الموازين، ص: 90

ويقرر" أن التجربة أستاذ العقل ومرشد الفكر، وعلى الإنسان أن يهتم بكل ما يقال في مجلسه من الأفكار المخالفة لفكره ولا يعجل برد من يخالفه في الفكر بل عليه أن يصبر حتى النهاية"[1].

ويؤكد أن "الاعتراض على كل شيء، ونقد كل شيء حركة تخريبية، والإنسان عندما لايعجب بشيء عليه أن يأتي وينجز الأحسن منه، فمن النقد والهدم نحصل على خرائب، ومن البناء نحصل على عمار"[2].

المطلب الثالث: المأسسة والشمـول

1. من الإحسان المؤقت إلى مأسسة التمويل

الإحسان فعل جميل ولغة عميقة في هذه الأمة وخلق مستمر، وأجمل من ذلك تحويل هذا الإحسان الفردي أوالجماعي غير المنضبط إلى مؤسسات قائمة بجهاز يقوم عليه أقوياء أمناء، يسترشدون بعلماء خبراء يستفيدون مما يتيحه العصر من وسائل وبرامج وتقنيات، تيسر سبل التمكين لأداء الخدمات للأفراد والمجتمع.

لقد استطاع تيار فتح الله كولن أن يقدم في هذا السياق مستوى لفت نظر الدارسين والباحثين الذين عكفوا على دراسة هذه الحركة بمؤلفات وندوات ومؤتمرات، ذلك "لأن نظام التمويل الخدمي هو ارتفاق هيكلي فعال ومحايث للمرحلة والعصر، ويشكل وثبة تعزز بها دور التكافل الجماعي، بل ومكن من الارتفاع بهذا التكافل من وظيفته الإحسانية التي كانت في ما مضى تؤدي واجبا خيريا استنقاذيا آنيا، بسد شيء من حاجة الأفراد والأسر والمحاويج، إلى وظيفة خدمية، ذات مردودية نمائية ملموسة، وإضفاء طابع المؤسسة عليه، ضمانا للنجاعة والتوسع، إذ المؤسسة تكتسب صفة الحياة والاستمرار بفضل مخطط ونظام الأداء المنضبط الذي تتبعه، والذي هو ـ في الحقيقة ـ تقنين إذ شئنا أن نعين له موقعا في المنظومة التشريعية فحتما سندرجه في فقه الخدمة. لأن إنشاء

[1] الموازين، ص: 90-91

[2] المصدر نفسه، ص: 90

مشاريع العمل والاستثمار وإدامة سير الخدمة وأوجه الإدارة والتكييف، والتحكم في مستويات الإنفاق والتمويل والموازنات، هي الإطار التقنيني والتنظيمي الوضعي الذي يضمن سلامة الأداء ويحفظ المستثمرة من الوقوع في الاختلالات. وذلك بفضل فقه الضبطية، لأن ماهية الفقه في المدنية الإسلامية لم تقتصر على المجال التعبدي فحسب،وأن مدونة قواعد المراقبة والمرجوعية المعيارية التي مارس بها المحتسب في الحضارة الإسلامية دوره، كانت مدونة فقهية من استنباط الفقهاء"[1].

2. شمول المؤسسات واستهدافها شرائح واسعة

إن المتأمل في المشاريع والمؤسسات التابعة لحركة الخدمة والمتأثرة بفكر الأستاذ كولن، يلفت نظره تنوعها وتعدد مجالات اشتغالها؛ فهي " تغطي جوانب ثقافية مهمة،فهناك مؤسسات النشر والترجمة التي تعد جسورا للمعرفة والذيوع لاسيما خارج تركيا، ومن هنا الاهتمام بالترجمة إلى لغات العالم المختلفة، كما توجد القنوات الفضائية والمؤسسات الإعلامية التي تهدف إلى بلورة منتج إعلامي ملتزم عقديا ومنفتح على المجتمع، يتجسد أمام المشاهد من خلال برامج تليفزيونية ومسلسلات درامية وخدمة إخبارية...ويمتد الاهتمام إلى مجال العمل الإنساني كمؤسسة (كيمسه يوكمو: هل من أحد هناك) وهناك مجال الرعاية الصحية، نموذج مستشفى (سما)، الذي يمتلك أفضل الأجهزة والأطباء، ويقدم خدمته للقادرين مع نسبة لمن يحتاج الدعم والعون، ولاحظنا أن جانبا من عمل مثل هذه المؤسسات يهدف إلى تحقيق ربح يسهم في تسيير أعمال ومؤسسات الحركة الأخرى"[2]. ومن أهم المجالات التي تفوقت فيها الخدمة بل بها عرفت واشتهرت مجال التربية والتعليم.

لقد تمكنت الخدمة من هذا الامتداد بفضل الثقة التي "تسمح بقيام تشكيلة واسعة من العلاقات الاجتماعية" [3]، ذلك لأن "رأس المال الاجتماعي هو قدرة تنشأ من انتشار

---

[1] الانبعاث الحضاري، ص: 119-120

[2] شهادة عن المرئي في حركة فتح الله كولن التركية، د. حسن أبوطالب، مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي، ص: 526-527

[3] الثقة، الفضائل الاجتماعية وتحقيق الازدهار، فرانسيس فوكوياما، ط1، مركز الإمارات للدراسات،أبو ظبي1998، ص: 44

الثقة في المجتمع أو في أجزاء معينة منه، ويمكن أن يتجسد في أصغر مجموعة اجتماعية أساسية وهي الأسرة، كما يتجسد في أكبر المجموعات وهي الأمة وفي جميع المجموعات الأخرى التي تقع بينهما" [1]. هذه الثقة هي التي رسخت ثقافة اعتماد أهل الخبرة والكفاءة، "وجعلت الجدارة والاستحقاق معيار تولي المسؤولية، الشيء الذي يفسر أن معظم الفئات صانعة القرار والمستهدفة بالصياغة والبناء هم الشباب" [2]، وأن معظم مكونات الحركة من "الطبقة المتوسطة التي تتضمن التجار والصناع وأرباب الحرف المتدينين في الأناضول، وثانيهما طوائف نالت قدرا معينا من التعليم...وقد كانت الهجرة الكبيرة من القرى والأرياف إلى المدن ، من أهم العوامل الاجتماعية التي قدمت الجماعة على مسرح التاريخ."[3]

3. التطور المرتبط بالأعراف والعادات و الانتقال من المحلية إلى العالمية

بعث الله تعالى الرسل والأنبياء بالكتاب ليقوم الناس بالقسط، وليعودوا بالإنسان إلى فطرته الصافية التي كان عليها قبل أن تجتاله الشياطين عن الحنيفية السمحة. وختم الله عز وجل رسله بمحمد صلى الله عله وسلم الذي جعل من مهامه إتمام صالح الأخلاق ومكارمها مما بقي سليما في المجتمع. وسار من بعده مصلحون كثيرون من أمته ينشدون التجديد والإصلاح كلما اقتضى ذلك انحراف أو تراجع المسلمين، ينطلقون من عقيدتهم التي كانوا عليها، ومن أخلاقهم الحقيقية التي وسمهم بها كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

لقد كان لحركة كولن نصيب وافر من البحث عن موافقة هوية المجتمع التركي الحقيقية، والانطلاق من إنسانية الإنسان على المستوى العالمي، ذلك لأن "كل جماعة نابعة من قيم الإسلام الخيرية والتعاونية لن تحقق أهدافها ومثلها العليا إلا بالتكامل مع الهوية الاجتماعية الموجودة، وليس بتكوين جماعات معزولة عن المجتمع اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا. ثم إن هذه الجماعات تأخذ بنظر اعتبارها جميع الحساسيات الموجودة في المجتمع، وتقوم بتطوير الأفكار والنشاطات والمؤسسات التي تخدم حاجيات المجتمع.

---

[1] الثقة، الفضائل الاجتماعية وتحقيق الازدهار، ص: 42

[2] شهادة حول زيارة تركيا، تجربة تستحق الدراسة، مستقبل الإصلاح، د ناهد عز الدين، ص: 545

[3] الدين في تركيا والتغيرات الاجتماعية وفتح الله كولن، مستقبل الإصلاح، علي بولاج، ص: 291

وهي بذلك تتميز عن المؤسسات المدنية الأخرى التي تقوم كل مؤسسة منها باختيار ساحة واحدة خاصة بنشاطها"[1].

وتسعى حركة الخدمة بما تنشئه من مشاريع إلى إحداث "النموذج التطوري الملائم للعادات والتقاليد، فتوفق بين أنشطة التطور في المجتمع والتجربة التاريخية، وتقوي هذا الأمر وتفعله، فهي ترى أن مواصلة التطور مع ارتباطه بالعادات والتقاليد أمر صحي مثمر"[2].

يتميز أهل الخدمة وحواريوها بأن معظمهم"من الأفراد الذين لهم مكانة مرموقة،وسمعة طيبة، ووظائف مهمة، وخدمات يركن إليها في المجتمع، وهم من الذين اتحدوا وتأقلموا بهوية المجتمع كاملا. ثم إنهم من المتمرنين المتدربين واسعي الآفاق، ومن المنفتحين على العلاقات الاجتماعية، المسهمين في مجتمعهم. ومن ثم فليس هناك أي مشكلة لهذه الحركة مع الهوية السياسية والاجتماعية الموجودة في البلد.

وليس هناك أية معارضة مباشرة وغير مباشرة تجاه سلطات الدولة وكيانها الثقافي أوالسياسي. بل إنها على وفاق تام مع الهوية التاريخية ومع التعامل الاجتماعي و التقاليد الدينية والثقافية للدولة.بل إن هذه الحركة نقلت أفرادها إلى علاقات اجتماعية أشمل وأوسع"[3].

إن الحركات التي تخالط الناس وتصبر على أذاهم خير من التي تبحث عن تميزها عن المجتمع وانفصالها عنه، ثم التعالي عليه والعجز عن إصلاح ما فسد منه. وهل كانت النبوة إلا محضنا دافئا للناس مصاحبا لهم بشعار نور: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ الآية 30 . غافر.

يقول أنس أركنه:" لقد كانت الحركات الراديكالية ترى وجوب الانفصال المعنوي الاجتماعي عن الطبيعة الاجتماعية التي وصمتها بالإثم. أما الجماعات والحركات الأخرى ولاسيما حركة فتح الله كولن فهي–على العكس– تقوم بتشجيع أفرادها بتقوية

[1] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 116

[2] الدين في تركيا والتغيرات الاجتماعية وفتح الله كولن، مستقبل الإصلاح، علي بولاج، ص: 292

[3] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 117

علاقاتهم مع المجتمع. صحيح أن المجتمع يبتعد أحيانا عن بعض القيم الأخلاقية، ولكن الحل لا يكمن هنا في إقصاء هذا المجتمع والابتعاد عنه بل بإصلاحه"[1].

ومما يسر هذا التطور المتماهي مع المجتمع، الانتقال التدريجي لحركة كولن عبر الجغرافيا؛ فقد اتسمت "بالمحلية لكونها نشأت وتمركزت في البداية في أرضروم، ولما ارتحل الأستاذ فتح الله كولن إلى إزمير وإسطنبول اتسمت بالقومية ثم اتسعت رقعتها بعد ذلك منذ بداية التسعينات واصطبغت بالصبغة العالمية"[2].

المطلب الرابع:الإيجابية والتلطف

1. التفاعل الإيجابي مع النخب السياسية

اختار فتح الله كولن آخر ما استقر عليه نهج بديع الزمان سعيد النورسي، في موضوع العلاقة مع السياسيين، وهو تجنب الاصطدام معهم أو التحول إلى جسر لهم ووسيلة يستغلونها لتحقيق أهدافهم ، ولذلك تميزت جماعة كولن بأنها "لاتحمل أية هوية سياسية أو أيدولوجية إلى درجة أنها تعرضت لاتهام بعض الأوساط الدينية وانتقدت لأنها بقيت خارج الحلبات السياسية"[3].

وآثر الأستاذ كولن أن تكون علاقة حركة الخدمة مع الطبقة السياسية وصناع القرار بالبلد مؤسسة "على المصالح الواقعية بالتعاون غير المعلن وغير المباشر حين يتعلق الأمر بالمنافع العامة لتركيا"[4].

جنب فتح الله كولن نفسه وجماعته عواقب العمل السياسي المباشر ومقتضياته وتضحياته عندما "لم ينخرط في أي وقت من الأوقات في أي فعالية سياسية أو حزبية،فمثل هذه الفعاليات عادة ما تكون مغامرات ذات عمر قصير. لذا فقد كثف نشاطه

---

[1] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 117

[2] الدين في تركيا والتغيرات الاجتماعية وفتح الله كولن، مستقبل الإصلاح، علي بولاج، ص: 284

[3] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 98

[4] المصدر نفسه، ص: 98

ليهب للمجتمع فوائد اجتماعية و ثقافية على المدى البعيد. علاوة على كل ما يتعلق بسعادته الأخروية والأبدية وبكل ما يؤدي إلى شخصية مؤمنة حقيقية. وحياته التي قاربت السبعين عاما ونشاطاته لخميسين عاما شاهد بارز على هذا "[1].

من مكتسبات هذا الاختيار التفاف عدد غير يسير من مختلف شرائح المجتمع حول فكر وحركة كولن، وانخراطهم في أنشطتها ومشاريعها وتقلد نخبة من المثقفين وأهل العلم قيادة هذه الأنشطة وإدارة تلك المشاريع بعيدا عن التحيز السياسي، وبانفتاح جميل على جميع مكونات المجتمع والدولة. ذلك "أن الجماهير التي تستند إليها حركة كولن ـ كما يقول أنس أركنه . ـ ليست طبقة معزولة سياسيا أو اجتماعيا أو اقتصاديا عن المجتمع، بل تكتسب التأييد والعون من الفئات والجماهير المختلفة الريفية منها والحضرية.

إن قاعدتها الجماهرية متكونة من الطبقات الدنيا والوسطى والغنية في الريف وفي المدن. أما جهاز الحركة فيسير من قبل أفراد متعلمين ومثقفين قد تخرجوا من الجامعات الراقية في المدن المختلفة. ولا تتصرف هذه الفئات المختلفة للحركة بدافع من مشاعر العزلة عن القيم الاجتماعية والسياسية المركزية للبلد. ولا تحمل أي ضغينة أو حقد للطبقة المنتجة التي تدير البلد، ولا للأوساط الاجتماعية والاقتصادية الحاملة للقيم الغربية، لذا لا يمكن مشاهدة أي ميل انفصالي وراديكالي عندها عن المجتمع مثلما يلاحظ في الحركات المتطرفة، ولامشاهدة أي أيدولوجية معاكسة ومعارضة. فنشاطاتها(أي الحركة) موجهة بأجمعها وجهة إيجابية، وهي تفضل عرض جو من الائتلاف والتفاعل الإيجابي وسماع الآخر. والهوية التي تكسبها الحركة لأفرادها ليست معزولة عن هوية القيم الاجتماعية والدينية المركزية للمجتمع، بل هي تقوي تلك القيم وتدعمها"[2].

ولذلك نأت بنفسها عن تبني مواقف سياسية محددة تصبغها بلون خاص، حرصا منها على الوقوف بمسافة واحدة أو متقاربة من مختلف الفرقاء السياسيين سواء الذين يديرون شؤون البلد أو الذين يعارضون السياسات القائمة ، فلم تنخرط في أي حزب

[1] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 99

[2] المصدر نفسه، ص: 97-98

سياسي لا في المعارضة ولا في الحكومة [1]. وما قد يبادر به أبناء الخدمة من خطوات وسلوكات تدعم هذا الطرف أو ذاك هو من قبيل التصرف الشخصي وفق قناعات خاصة وإن كانت لا تخلو من تأثير فكر الأستاذ وتصوراته.

إن حركة الخدمة "جماعة اجتماعية، قومية، منظمة، لديها استعداد للانفتاح على العالم. ليست طريقة صوفية، فغالبا ما يتم الخلط بين الجماعة والطريقة، وقائد الجماعة كذلك ليس بشيخ"[2].

2. السلمية الأخلاقية ومنهج التلطف

لقد توسعت مجالات نشاط حركة الخدمة، و"امتدت بالشيخ فتح الله كولن ـ والحمد لله ـ ميادين العمل، فكادت تعم تركيا بطريقة هادئة كريمة شعارها بناء الإنسان"[3].

حرصت جماعة فتح الله كولن على أن" تظل نشاطاتها الأولى تعمل على أن تكون منسجمة مع النظام القائم، وعلى ألا تدخل في مواجهة معه، وعلى عدم الإتيان بما قد يفسر بأنه ضد النظام العلماني القائم في تركيا" [4]، كما أكدت في أكثر من مناسبة "أنه ليس لها أطماع سياسية"[5] و"ليست بديلة للدولة بل مكملة لها "[6].

ومن ثم كان من تجليات هذه السلمية الابتعاد عن العنف والقوة في عرض الأفكار، وتأسيس المشاريع والحوار مع الآخرين، وتوجيه الطاقات نحو تقوية المجتمع والأمة وتجسيد العلاقات لترسيخ فقه الائتلاف. يقول عشراتي:"مما تميزت به رؤية كولن الدعوية تجنبها للمواجهات العنيفة، ومجافاتها للغلظة الإجرائية في المنهج الدعوي وفي الحياة التي تربي عليها الأجيال، فهي دعوة رزينة، متزنة، بقدر ما حرصت على الدينامية

---

[1] HIZMET p148

[2] الدين في تركيا والتغيرات الاجتماعية وفتح الله كولن، مستقبل الإصلاح، علي بولاج، ص: 290

[3] فتح الله كولن رائد النهضة، ص: 15

[4] أشواق النهضة والانبعاث، د. محمد جكيب، ط دار النيل، القاهرة 2013، ص: 249

[5] المصدر نفسه، ص: 251

[6] نفسه، ص: 251

والاستثمار الحاسم للوقت والفرص والإمكانات في بث الدعوة ونشر برامجها، بقدر ما هي حريصة على التوثق لخطاها والتثبت لخططها، والتبصر لمشاريعها التبليغية والتكوينية"[1].

السلمية الأخلاقية تقود إلى الحرص على استعمال الوسائل المشروعة لخدمة القرآن والإيمان وكسب الإنسان، ومهما قل المستجيبون للدعوة بهذه الطريقة فإن النتائج النهائية المرجوة محققة وعلى أساس سليم، ولايصد عنها ما قد يشاهد هنا أو هناك من كثرة المقبلين على العروض والخطابات الملوثة بالكذب، يقول الأستاذ محمد فتح الله كولن:" فقد رفع الله سبحانه البركة واليمن من الأعمال التي اتخذ فيها العاملون للإسلام هذه الوسائل (الكذب). فهم يستطيعون حشد ألوف من الناس في الشوارع والميادين ليطلقوا الخطب والهتافات، ولكن لا تبلغ بركة هذه الكثرة الظاهرة، بركة إرشاد ثلاثة أفراد دعاة لله صادقين قولا وعملا إلى ثلة من الناس في بيت متواضع. فالواحد من هذه الثلة يعدل ألفا،بينما الألف من الآخرين لا يعدل الواحد"[2].

يعلل كولن تأكيده على نهج الوسائل المشروعة بقوله "وحيث إن غايتنا توجيه الناس إلى الطريق الحق، فلا تنفعنا التعابير الكاذبة أو الشبيهة بالكذب كالمبالغة، بل تضر بتحقيق غايتنا. فنحن مكلفون ومأمورون بأداء وظيفتنا وفق ما خطه الإسلام لنا. ولايحق لنا بأي حال من الأحوال أن نزل إلى ميادين غير مشروعة تحت اسم العمل الإسلامي، ولاسيما في أيامنا هذه التي يباع فيها الكذب مع الصدق جنبا إلى جنب في حانوت واحد. إذن فنحن مضطرون إلى أن يكون كلامنا صدقا وأحوالنا صادقة، ونتمثل الصدق خالصا"[3].

ولا سبيل لإكراه أو قوة تفرض بها الأفكار والمعتقدات في مدرسة كولن الإصلاحية التي تؤمن أن " الإسلام جاء لإنقاذ البشر من الإكراه، وتحفيزهم لاختيار جديد بإرادتهم الحرة مخاطبا عقولهم ومنطقهم، وليس لدفع أتباعه إلى الضغط على هذا وذاك للقبول بنظام معتقداتهم أو إكراهم عليه. ففي الأيام التي طبق الدين بلا نقص ولا فتور، فإن جاذبيته المعنوية لم تدع حاجة إلى ألاعيب المنطق الملتوية، أو القوة الطائشة، أو القهر

[1] الانبعاث الحضاري، ص: 169

[2] طرق الإرشاد، ص: 98

[3] المصدر نفسه، ص: 99

الصريح أو الخفي، أو الجبر والإكراه؛ فلقد نطقت الحال وأبانت، ووضح اللسان المبهمات، فإذا خلا الميدان للقول، خوطب الوجدان وبشر البيان وأنذر، متحليا بالحكمة والموعظة الحسنة، ولم يضغط على أحد لا قولا ولا فعلا ناهيك عن الإكراه والجبر، بل كان الإكراه والجبر ممتنعا، لأن الإسلام لا يقبل إيمان المكره والمقهور، ولأن الأعمال القائمة على الجبر والقوة القاهرة تناقض جوهره وروحه. بل لا يحتسب الدين الحق من العبادات عملا ليس في أصله الإخلاص أو رضى الله تعالى. فلا يرى في إيمان المكره والمقهور إيمانا، بل نفاقا ولا الأعمال أعمالا، بل رياء بشعبها كافة. لذلك لا يجيز الإسلام الإكراه في الدين ويمنعه بنص القرآن، ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ الآية 256. البقرة. فيقطع دابر القهر لأنه يعتبر الرياء عين النفاق، ويعتبر النفاق كفرا مستورا. والحال أن الإسلام جاء ليقتلع جذور الكفر، ويمحو الشرك من الشعور والفكر، ويغلق أبواب الرياء والسمعة"[1].

ولقد كان الأستاذ كولن حريصا أشد الحرص على منهج التلطف [2]، حتى لا يشعر به الصادون عن سبيل الله تعالى، الراغبون في فتنة الناس والمجتمع، والذين يريدون استئصال الدين من الأتراك، فكان يدعو إلى مسابقة الزمن بهدوء وقوة وانتشار مشاريع الخدمة . خصوصا المدارس . لتنشئة الأجيال المرتبطة بجذورها حتى لا يفاجئها صنف جديد من تحديات المستقبل ومعيقاته. ألم تر إلى خوجة أفندي وهو يحث أنصاره ومحبيه قائلا: "كيف نستطيع إثارة الرأي العام وعاطفته وإحساسه لكي يجاهد بماله ونفسه في خدمة الإسلام ؟ كيف نستطيع هذا لكي نقطع نفق الزمن الذي نعيشه بسرعة أكبر ولكي نقطع البراري والصحاري والجبال الشامخة والوديان العميقة المملوءة دما ودمعا قبل أن تحس بنا الأعين الخائنة في الداخل وفي الخارج، والتي ترصد وتراقب كل ما يهم المسلمين، وتحاول عرقلة كل شيء إيجابي ومفيد لهم ...هذه الأعين التي وصفها القرآن الكريم بـ ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ ﴾ الآية 19. المؤمن. وإلا فإن الدنيا بأجمعها ستقف أمام المسلمين الذين يسيرون بين عوائق وموانع عديدة، ولن يستطيع المسلمون قطع طريق سنة واحدة إلا في عشر سنوات. ثم إن قام المسلمون بتنبيه وإثارة الكفر فلن يستطيعوا أبدا

[1] ونحن نبني حضارتنا، ص: 180

[2] فتح الله رائد النهضة، ص: 15

الوصول إلى هدفهم. لذا كان على المسلمين تناول هذه المسألة وإنجازها بسرعة أكبر ؛مثلا لنفرض أن المسلمين يستطيعون بالإمكانات الموجودة في أيديهم فتح مدرسة واحدة في سنة واحدة لتربية جيلنا وتوجيهه، فإن عليهم أن يضغطوا على أنفسهم فيفتحوا مدرستين في سنة واحدة. وهذه عملية ضرورية في عملية إحياء الأجيال القادمة، أي إحياء العهود القادمة. فإن لم نقم بعمل ما يجب القيام به نحو إنساننا الحالي بشكل صحيح فلن نستطيع غدا القيام بأي شيء حتى لو بقينا محتفظين بقوتنا كما هي الآن، لأن الموانع أمامنا في الغد ستكون أكبر وأشد وأقوى. لذا لن نستطيع تجاوزها و التغلب عليها" [1].

تشتد الحاجة إلى أسلوب التلطف كلما كثرت المعاناة، وإلى فقه التسامح أثناء العمل والإنجاز خصوصا عندما يكون مجال النشاط محفوفا بالمعيقات.

ولطالما أكد خوجة أفندي على السلمية واللين . ـ ليس فقط لأن هذا خلق جميل ومنهج أصيل ـ ولكن لمآرب أخرى وثمرات أطيب، منها تحول الخصوم إلى محبين،وأعداء الحق والإيمان إلى أنصارهما؛ يقول الأستاذ محمد فتح الله: "أريد هنا نقل حادثة جرت في ذلك العهد تبين مدى الفقر الروحي الذي مني به جيلنا: في درس ومسامرة مع الشباب كان أحد إخواننا يشرح حقائق الدين العلوية، وما لبث الحديث أن انتقل إلى الحوادث والأخبار اليومية، فتناول ما يحدث في العالم الشيوعي والمظالم التي يقترفونها والخطط الجهنمية التي يريدون تطبيقها في المستقبل، فأخذت الحماسة مأخذها من أحد الشباب فجعل يقول: يحب قتل كل الشيوعين وتمزيقهم إربا إربا. وسرعان ما أجابه شاب آخر كان في ركن من الغرفة يستمع إليهم بشوق ووجد عميق، ويتنسم عبير هذا الجو المبارك أول مرة في حياته، قال له بنفس الحماس والوجد: يا صديقي! أي قتل وذبح هذا الذي تتكلم عنه؟ فلو قمت بالأمس بتنفيذ ما تقوله الآن لذهبت أنا أيضا ضحية بائسة، لأني كنت واحدا منهم، وها أنت ترى أنني اليوم من هذه المجموعة المباركة الطاهرة، فبين الأمس واليوم قطعت مسافة كما بين السماء والأرض، وأقسم أن ممن تطلقون عليهم اسم العدو والجبهة المعارضة آلاف مثلي ينتظرون الخلاص، فهؤلاء لا ينتظرون منكم الصفعات بل الرحمات، فلو مددتم أيديكم إليهم لأصبحوا مثلكم، فما هو

[1] أسئلة العصر المحيرة، ص: 198-199

واجب الوقت: القتل أم الإحياء؟. فأثرت هذه الكلمات الصادقة المخلصة فيهم حتى أجهشوا بالبكاء "[1].

3. التدرج والفقه المرحلي

يرى محمد فتح الله كولن أن المرحلة التي تمر بها حركته هي "مرحلة بيان المسائل وابتكار الحلول، فيكون تقديم هذه المسائل بالنصح والإرشاد دون إكراه المخاطبين على قبولها، المرحلة تقتضي عدم الاشتغال بضلالات الآخرين وانحرافاتهم وتجنب إثارتهم، مع الثبات على الاستقامة وتطبيق الدين في الحياة الشخصية"[2].

يتأتى تحيين مراحل سير العمل عن طريق فقه مطالب الخطاب الشرعي، وإدراك مقتضيات العصر، إذ "أن من لا يعرف مجريات عصره كمن يعيش في دهليز مظلم،عبثا يحاول أن يبلغ شيئا عن الدين والإيمان إلى الآخرين فعجلات الزمن والحوادث ستفقده التأثير إن عاجلا أو آجلا"[3].

ولقد صبرت النبوة على مراحل الطريق بدءا من مرحلة ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الآية 77. النساء. عنوان المسالمة والممانعة إلى مرحلة ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْ﴾ الآية 39. الحج. تاريخ مرحلة المقاومة والمدافعة. وترك لنا هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته رضي الله عنهم منهجا للتأسي مع حسن الفهم وإتقان التنزيل. ينبه كولن إلى استحضار مثل هذه المعاني بقوله: "تأملوا في كلام النبي صلى الله عليه وسلم لماذا لقي قبولا وتأثيرا لدى مخاطبيه؟ لأنه تعامل مع عصره بمثل ما يتعاملون به بينهم...وكذا الأمر لدى الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين أخذوا ظروف واقعهم ومستوى مخاطبيهم بنظر الاعتبار لدى تبليغهم ودعوتهم ...وكذلك فعل جميع العظماء الذين أتوا بعدهم من الوارثين الحقيقيين للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم "[4].

---

[1] نحو عقيدة صحيحة، ص: 184

[2] المصدر نفسه، ص: 194

[3] طرق الإرشاد، ص: 95

[4] المصدر نفسه، ص: 95

إن من مطالب الفقه المرحلي تجنب الاستعجال ومراعاة مستلزمات المراحل في البناء والإصلاح والتجديد والإحياء، ووجوب الصبر حتى تؤتي شجرة الخدمة ثمارها، ولا تقطف قبل بدو صلاحها ونضجها.

ومن ثم يتعين التزود بنهج التدرج في مختلف مراحل السير، ومحطات الإصلاح،وأول ما يجب أن يطبق فيه هذا النهج و تحترم فيه هذه القاعدة، مجال بناء الفرد، يوضح ذلك كولن بقوله :"بما أننا لا نستطيع فصل الإنسان عن الكون، لذا كان علينا تناوله حسب طبيعة الحوادث الجارية، لأننا لا نستطيع النظر إليه خارج التطورات الجارية في الكون، فكما يتم النمو في الكون بشكل تدريجي وتجري قوانينه حسب هذا الاتجاه، كذلك فإن نمو الإنسان وسموه وتكامله يجري بالنمط نفسه"[1].

منطق التدرج والمرحلية ييسر سبيل الوصول إلى الأهداف المقررة، وتحقيق الطموحات المحددة، بشكل هادئ قوي، فـ"كم من أشخاص على الرغم من أنهم يبدون ساكنين هادئين كنهر عميق هادئ، إلا أنهم ساروا خطوة خطوة دون توقف، وتغلبوا على جميع موانع و أستار الظلام، واجتازوا جميع العقبات بطريقة غير متوقعة.. بهدوء ودون ضجة أو جلبة ...دون مظاهر أو فخفخة...مثل المرجان الذي صادف كل أنواع الآلام في قاع البحر، وغرق في الدم حتى وصل إلى أفق الزبرجد"[2].

ثم إن التدرج سنة جارية في الآفاق والأنفس، أنى ولى الإنسان وجهه حدثته بوجوب احترامها، وإلا لا يلوم إلا نفسه بخيبة آماله من سعيه الذي لم يقترن بالصبر على مراحل النمو و الإنجاز، يقول فتح الله كولن:" تخترق البذرة التربة والصخر بصمت وبثبات حتى تصل نبتتها إلى سطح الأرض، ويعرض البرعم نفسه للشمس مرات ومرات،ثم يواجه هذا البرعم وطأة ظلام الليل مرات ومرات حتى يصل إلى ماهيته ويتفتح. وما بالك بالوليد؟ إنه يبدأ بنطفة صغيرة في رحم الأم تنتقل من ظلام إلى ظلام. إن مسيرتها طويلة وتستدعي التأني والتمهل والصبر.أجل! إنها تنتقل وتتقلب من شكل إلى شكل، ومن قالب إلى قالب، وبعد تسعة أشهر يخرج الطفل إلى الدنيا بهيئته التامة الخلق.

---

[1] أسئلة العصر المحيرة، ص: 119

[2] ترانيم روح، ص: 160

ثم لننظر إلى خلق هذا الكون العظيم. لقد خلقه الخالق القادر بكلمة "كن"، ثم تقلب المكان والأشياء في يد قدرته مليارات السنوات من طور إلى طور، ومن شكل إلى شكل حتى وصل إلى وضعه الحالي. فما أكثر معاني هذا، وما أكثر عبر هذا الدرس!

إن كل موجود في هذا العالم ...كل موجود...ليس إلا انتظارا متسما بالصبر والمقاومة للوصول إلى هدفه خطوة خطوة...دون أي تعجل...ودون أي تغيير في الاتجاه اتباعا وامتثالا لقوانين الفطرة.

آه من هذا الإنسان المتعجل أبدا !!.. أنت الوحيد الذي يبدي نفاذ صبر.. أنت الوحيد الذي لا يراعي الترتيب الموجود بين الأشياء ! أنت الوحيد الذي لا يصبر على المسافات عند الصعود، فتحاول صعود عدة درجات في آن واحد و بقفزة واحدة؟ أنت يا من تنتظر النتائج دون أن تراعي الأسباب !..أنت يا من تضع خيالات وتبني منها قصورا من زجاج وتغرق فيها !.. ثم ينتهي أمرك وتضيع بين ركام الأماني الكاذبة !.. أنت يا من تتحدث دون أن تفكر، ثم لا تأخذ عبرة من الندم الذي يعقبه، ولا تعقل !..آه لو علمت كم تكون بعيدا عن القلب وعن الحب بحالك هذا، وكم تكون قريبا من الشؤم ! ... ليتك تأخذ درسا مما يحيط بك من الحوادث التي كل حادثة منها خطيب بليغ، وكل واحدة منها لسان، لتتعلم منها كيف تراعي حق الترتيب والتسلسل الموجود بين الأشياء، وكيف تراعي الأسباب والنتائج!.. وليتك عرفت كيف تلجأ إلى الإيمان والعزم والإرادة وتعيش بها وليس إلى الخيال و التمني"[1].

ولكم صبر الأستاذ محمد فتح الله كولن وهو يبذر بذور مشاريع الخدمة، صبر على القلة والبداية، وعلى هبوب العواصف والرياح، وضعف النفوس وإدبارها، حتى استوى غرس الخدمة وأخرج شطأه وتجذر في المجتمع التركي، وأصاب بخيره من حوله،و"كم كانت طويلة المسافة الزمنية بين جلوس أول طفل في حلقة الأستاذ، وبين اكتمال جهوزية الطوابير من رجال الخدمة، وخروجهم إلى الأرض وانتشارهم في الآفاق،يضعون بكل حزم وتؤدة وصبر أسسا لحضارة الغد السعيد.

[1] ترانيم روح، ص: 160-161

لا ريب أن كولن وهو يتحدث عن عمر المرجان، وعن زمن التبلور، إنما كان يشير إلى شيء مما عاناه في تجربة التواصل تلك التي بدأت بجلسة عقدها مع تلميذ سار به إلى المسجد ليكون أول المكتتبين، وانتهت جهود الاستقطاب بانتظام حلقة، ثم بأخرى،ثم بحلقات ثم بذيوع الكلمة الطيبة في الآفاق، وبعد أطوار تكاثرت الجموع، وولدت الخدمة"[1]، ولدت وترعرعت باحترامها ما يقتضيه فقه المرحلية، متسلحة بشعار استمرارية الخدمة القائم على :

"–لا تصطدموا.

–اهتموا بعملكم وأنتجوا.

–الإنجاز هو رهان التحدي.

–التفوق يدفع معارض الأمس إلى مساند.

–لا للسلبية نعم للإيجابية في العمل"[2]

ولئن جاز لجيل الاستغناء عن فقه مراحل الطريق، والصبر على بطئها الضروري،لكان جيل الصحابة الذين وجههم رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى استلهام قصص السابقين، والنظر إلى عاقبة المتقين ومآلات المستقبل الجميل؛ عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا: « ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا؟فقال: قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون »[3].

---

[1] الانبعاث الحضاري، ص: 141–142

[2] نداء الروح، رحلة في عالم الفرسان، د. مريم آيت أحمد، ط 1، دار النيل، القاهرة 2013، ص: 253

[3] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإكراه، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر، ح 1779، م4، ج9، ص: 632

4. محورية شخصية كولن في حركة الخدمة

يكتسي المصلحون وقادة الإنجاز الحضاري قيمة خاصة، ليس فقط بفعل الفتوحات الفكرية والجذور الوجدانية التي يقدمون بها مشاريعهم الثقافية أو يعرضون بها منطلقات ورؤى وتصورات مناهج النهوض بالأمة، بل بفعل تقدمهم الميدان وجعل أنفسهم المحطة الرئيسة التي ينزلون بها ببرامجهم. يقول عشراتي: "ولو تساءلنا عن سر الطاقة التي يختزنها الفكر الإصلاحي، والتي تمكنه من إحداث التغيير لقلنا: إن الفكرة حين تتولد في قلب ملتهب بالشوق تضحى نداء تجييشيا، له سلطان ينفذ إلى الصفوة باعتبارها الجهة الأكثر قابلية للوعي، ومنها يسري الأثر إلى باقي الفئات الحية، يحشدها و يجندها وراء خط السير الذي يحدده البرنامج، وترسمه الخطة.

ما تنهض به الجموع في مجال الإنجاز الاجتماعي والتحول المدني، منوط بروح الفكرة الإصلاحية المستنفرة للقوى والمجندة للفئات على جهة البناء والترميم، فالفكرة بهذا الاعتبار هي المخزون الطاقوي الذي يؤسس للإنجازات ويدير التحولات ويكفل للعملية البنائية قوة الدفع اللازمة لها، استيفاء لغاياتها"[1].

ومن ثم يتوفر شرط قوي يضمن السير المتصاعد من قبل حواريي المصلح وهم يرون مثلا حيا بين أيديهم ومن خلفهم يسمو بصدقه في ترجمة ما يدعو إليه درجات عالية، وذلك حين" تتماهى الفكرة في شخص صاحبها (المصلح) فيضحى هو هي، هي هو، الأمر الذي يجعل تأثيرها في الأوساط حيويا، إذ الجموع المنخرطة في الخدمة تجد نفسها ـ و هي تنفذ برامج النهضة ـ تعيش حالة من التماس العضوي مع شخص المصلح الذي يتحول في الضمير العام إلى شخص اعتباري، أشبه بالشمس التي تبزغ على كل صقع، وتنشر دفئها في كل أفق، فإكبار الجموع لشخص يترجم من قبل الأتباع فاعلية في الأداء، إذ يضحى البذل والتفاني والإخلاص والمصداقية، هي الأسس التي تطبع العمل وتميز وتائره.. بهذا الاعتبار تروح أفكار الصالحين الأفذاذ والكارزمات الشهمة عبر

[1] الانبعاث الحضاري، ص: 48

الأرجاء، وتتجاوز نطاق حدودها البيئية والجيوسياسية، وتصير فكرا إنسانيا يلقى المقبولية في الأنحاء كافة"[1].

[1] الانبعاث الحضاري، ص: 48-49

المبحث الثاني: إنسان الخدمة وأهم مواصفاته

المطلب الأول: الحاجة إلى التحول الصادق وفدائيي المحبة

1. صدق التحول يقتضي البدء بالنفس

إن الحديث عن الإصلاح والتجديد والانبعاث يكتسب صدقه وعمقه من خلال حسن عرضه وبيانه، ويكتسي أهميته عندما يستند إلى أدلة مقنعة وحجج قوية، ويحظى بالاهتمام عندما يتبين الناس حاجتهم إليه وجدوائيته لهم. وآية ذلك كله سعي المتحدثين عن الإصلاح إلى صلاحهم، وعن التجدد إلى تجديد حياتهم باستمرار. ولذلك وجب "على الذين يحاولون أن يصلحوا العالم إصلاح أنفسهم أولا. أجل، عليهم أن يطهروا أولا قلوبهم من الغل والحقد والحسد إلى جانب استقامتهم في السلوك وفي التصرف وبعدهم عما لا يليق بهم، وبهذا فقط يستطيعون أن يكونوا قدوة لمن حولهم. أما من لم يسيطر بعد على عالم قلبه ولم يعلن الحرب على نفسه الأمارة، ولم يفتح عالم أحاسيسه الجوانية.. مثل هؤلاء وإن تكلموا بمعسول الكلام، وإن كانوا في قمة البلاغة، فإنهم لن يستطيعوا إثارة القلوب والأرواح، ولو استطاعوا ذلك فلن يستطيعوا هذا طويلا "[1].

2. الحاجة إلى قيادة ناجحة مؤثرة

تتبع القيادات الهادية من حاجة المجتمعات إلى من يوجهها، ويسدد طاقات أفرادها، ويجمعها تحت أهداف واضحة سامية. وكان الأستاذ فتح الله كولن منشغلا بصياغة هذا الفريق الأفق حتى يتمكن من إنجاز ما وعد الله تعالى به ورثة الأرض، يؤكد ذلك بقوله: "إن قيامنا ـ بنية متوجهة إلى الله تعالى ـ بخدمة الإنسانية والاحتفاظ بدعوتنا فوق كل رغبة وهوى، وفوق كل الشهوات والرغبات الدنيوية ومنافعها، وبعد معرفة الحقيقة والوصول إليها والاستعداد للتضحية بكل ما نحب وبكل ما تعلقت قلوبنا به، والعزم على هذا بكل ثبات وقرار، وتحمل جميع المشقات والمصاعب التي تتجاوز تحمل الإنسان في هذا السبيل، وفتح الطرق المؤدية إلى سعادة الأجيال القادمة، والتهيؤ للانسلاخ من كل المنافع المادية والمعنوية، والعيش لسعادة الآخرين، والرضا بإشغال الصفوف الأولى عند

[1] الموزاين، ص: 106

أداء الخدمة والصفوف الأخيرة عند المغانم، أي الابتعاد عن كل منافسة من أجل المنصب والجاه، هذه هي غايتنا الأولى التي لا يمكن التفريط بها"[1].

وحتى تتمكن مثل هذه القيادات من تحقيق ما أسند إليها، يدعو فتح الله كولن إلى توفر العناصر الخمسة التالية :

"**1.** يجب ألا تكون الرسالة التي يحملها (القائد) تتناقض مع الحياة أو تتصادم معها. ويجب أن يكون مصرا على دعوته متمسكا بها واثقا أنها صالحة الآن وستكون صالحة في المستقبل.

2. عليه أن يكثف جهوده لتربية وإعداد الأفراد، وأن ينشغل على الدوام مع العنصر الإنساني، وأن تأخذ الثقافة محلا مرموقا في جهوده.

3. عليه أن يعرف عناصر مجموعته معرفة جيدة، ويعرف لمن يعهد بمسؤولية معينة. ويعرف جيدا مدى قابلياتهم والأعمال التي يستطيعون إنجازها. وعليه أيضا أن يزن خططه بشكل لا ينزعج من سرعة وتيرة التخطيط.

4. يجب أن يكون القائد منفتح الصدر لحل مشاكل أتباعه. وهذه المشاكل قد تكون مشاكل فردية أو عائلية، أو إدارية أو قانونية أو اقتصادية أو اجتماعية، فعلى القائد أن يكون قادرا على حل جميع هذه المشاكل .

5. يجب أن تكون تعليمات القائد وأوامره وتوجيهاته من النوع القابل للتطبيق،فالقائد الناجح يبتعد على الدوام عن التعليمات والاقتراحات الخيالية التي لا يمكن تطبيقها"[2].

3. جيل تيار الخدمة جسر بين ماض مجيد ومستقبل عظيم

يسعى خوجة أفندي باستمرار إلى تذكير المجتمع التركي بأمجاد العثمانيين وريادتهم وقيادتهم للأمة الإسلامية، ويئن وهو يذكر بعد ذلك الانهيار الكبير الذي هز المسلمين جميعهم، وينطلق من هذا وذاك لينظر بعدسة التفاؤل الواسع إلى المستقبل المشرق الذي يحمل في رحمه عالما جديدا يقوده أبطال جدد بـ "مناهج ومشاريع مصوغة

[1] الموزاين، ص: 104-105

[2] النور الخالد، ص: 345

بعقلية محترفة ومتخصصة، بل . ـ قبل ذلك . ـ بضرورة إعداد أجيال مثالية مستهدفة إنشاء أمة عظيمة.

إن تحقيق هذا الفكر بدرجة معينة، وإن كان في دائرة صغيرة، وظهور نماذجه في آلاف الأبطال الذين تركوا دورهم وأوطانهم مهاجرين إلى أرجاء الأرض المختلفة بروح الكفاح الوطني (حرب الاستقلال) وسعيهم في زرع فسائل (روح الأمة) في كل مكان،ووضعهم اللبنات الأولى لثغور حلم المستقبل الكبير في جهات الأرض المختلفة،وعرضهم لعالمه الروحي والمعنوي حيثما حلوا، وكدهم من أجل إبراز موقع أمتنا الموروث من أعماق التاريخ لتملأ مقعدها الشاغر اللائق بها في التوازن الدولي، ونجاحهم في كل ذلك بقدر معين ...لهي أمثلة شاخصة ومهمة، ترينا ما يمكن أن تفعله الأجيال التي تعلق قلبها بفكر سام إلى حد العشق.

إن هذه الكوادر المحتسبة، التي قد تجوع أحيانا وتعطش أخرى، لكنها تتدرع دوما بالإيمان والأمل والعزم...هؤلاء يحلون . بحملة وانطلاقة واحدة، وبنفخة واحدة . معضلات تعجز دول كبيرة أن تحلها بأنشطة (لوبياتها) وصرفها الملايين على إعلاناتها...والسر في هذه الحركة الرائعة هو توجه القلوب المخلصة إلى الله تعالى ومن الله تعالى بزيادة الإحسان على هذه الأمة التي توارثت العز من أعماق تاريخها "[1].

4. فدائيو المحبة وأبطالها

يعرف الأستاذ كولن فدائيي المحبة بقوله :"هم الذين نذروا أنفسهم لتحبيب الله إلى الإنسانية جميعا. لا هم لهم إلا إيجاد سبيل تحبيب الله للناس وتمهيد طرق الوصول إلى الحياة الخالدة.

وقد كسبت هذه الوظيفة الملقاة على عاتق هؤلاء الأبطال في الوقت الحاضر أبعادا جادة أخرى، لأن غالبية الناس يعيشون حياة مقطوعة الصلة بالله سبحانه على الرغم مما يشاهد من عودة إلى الإسلام في مناطق مختلفة ومبشرة بالأمل"[2].

[1] ونحن نبني حضارتنا، ص: 41

[2] طرق الإرشاد، ص: 33

ويصفهم في موضع آخر بأنهم" ينظمون أنفسهم بشعور المحبة تجاه بيئتهم، وحتى حدتهم وغضبهم له طابع المهابة والجدية، لأنه يسعى للتنظيم وللتقويم، أي يكون على الدوام مفيدا وبناء"[1]، لأنهم "ينسون حظوظهم البشرية وسعادتهم العائلية ومشاغلهم الدنيوية في سبيل هموم الناس وآلامهم"[2] .

يستطيع هؤلاء أن ينشئوا "عالم المحبة والنور والسعادة في المستقبل لأن على شفاههم بسمة المحبة، وقلوبهم عامرة بالمحبة، ونظرتهم تشع بالمشاعر الإنسانية" [3].

يربط الأستاذ كولن مستقبل الأمة وصلاحها بما يبذله أبطال المحبة من جهود كبيرة لخدمة غيرهم والإبداع في وسائل إسعادهم بمحاولات إنقاذهم من شقاء الدنيا وضنكها وعذاب الآخرة وحسرتها، ويشيد بهم قائلا: "الذين يبتغون إرشاد الناس وتنويرهم،والذين يبذلون جهودهم في سبيل سعادتهم، ويمدون أيديهم إليهم لإنقاذهم من الورطات الكثيرة للحياة، هم أصحاب القلوب الكبيرة الذين فهموا أنفسهم. وهم مثل ملائكة الرحمة وملائكة الحفظ والصيانة في المجتمع الذي يعيشون فيه، يتصارعون مع مصاعب المجتمع ومصائبه، ويتصدون للرياح وللعواصف ولإطفاء الحرائق، وهم على أهبة الاستعداد لكل طارئ" [4].

لأجل ذلك يدعو كولن هؤلاء إلى المزيد من التضحيات وأن يوسعوا مجالات خيرهم وهداياتهم:"إننا نأمل ألا يحصر المؤمنون الذين يؤدون اليوم خدماتهم للإسلام في موضوع العبادة والطاعة، وأن يفنوا قلوبهم بها فقط، بل أن يكونوا في الوقت نفسه مستعدين للتضحية بفيوضاتهم المادية والمعنوية من أجل السعادة الدنيوية والأخروية للآخرين، ويضحوا بلذة العيش الرغيد من أجل إسعاد الآخرين وإنقاذ حياتهم الأخروية،وإن اجتمعوا في مجلس واحد فلكي يقووا من عزيمتهم لأداء خدمة أفضل. وعندما تنصت لكلامهم ترى أن قلوبهم تنبض بغاية واحدة وهي "إعلاء كلمة الله"..وعند ذلك تتأكد بأنهم هم الأشخاص الذين جاءت البشائر حولهم، لأنهم مؤمنون حقيقيون، وهم

---

[1] الموازين، ص: 105

[2] طرق الإرشاد، ص: 35

[3] الموازين، ص: 105

[4] المصدر نفسه، ص: 106-107

ضمان انبعاث أجيالنا في المستقبل" [1]، ولذلك قامت حركة الخدمة على استراتيجية مؤسسات أركانها جنود يضحون بالمال والجهد وحظوظ النفس.[2]

بدون هذه التضحيات يستحيل تحقيق أي إنجاز ينقل الأمة من مرحلتها الآسنة إلى الواقع المنشود الذي يصنعه جيل البذل بلا حدود.

المطلب الثاني: مميزات إنسان الخدمة

1. إنسان الخدمـــة

يمثل معنى إنسان الخدمة ثابتا مطردا في كتابات الأستاذ كولن، حيث إن أهم هدف لمشروعه الإصلاحي هو توسيع دائرة الناذرين أنفسهم، الواقفين حياتهم لخدمة القرآن والإيمان والإنسان.

لقد كان المصلحون فنانين في تنبيه المستهدفين إلى طاقاتهم الكامنة وكنوزهم المخفية ليوظفوها في سبيل التجدد وتحقيق الصلاح، وكانوا مدركين أن "الإنسان ينمو حينما يحفزه هدف أسمى إلى العمل وحينما يفكر في آفاق شاسعة. وتضحية الذات لن تكون شاقة جدا لمن تضطرم بين جوانحه الرغبة في الإقدام على مغامرة عظيمة، ونحسب ـ يقول أليكسيس كاريل . ـ أنه لا توجد مغامرة أجمل وأخطر من تجديد الإنسان العصري"[3].

إنسان الخدمة إنسان الإحسان :

أخصر طريق إلى الآخرين وأيسر تواصل معهم، وأسهل لغة يفهمونها، وأفقه خطاب ينصتون إليه باهتمام وحرص شديدين، هو أن تكون معهم من المحسنين، فـ " أنت ترى أن الإحسان المسدى إليك يلين قلبك ويزيد من محبتك وتقديرك لصاحب الإحسان،إذن تكون قد اهتديت إلى الطريق الذي يوصل الآخرين إلى محبتك وتقديرك.

---

[1] أسئلة العصر المحيرة، ص: 206-207

[2] HIZMET p 178-179

[3] الإنسان ذلك المجهول، أليكسيس كاريل، ترجمة شفيق أسعد فريد، ط1، مكتبة المعارف، بيروت 2003، ص: 294

أحسن إلى الأناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان[1]

إذن فالإحسان أفضل طريق للوصول إلى قلوب من ترجو منهم خيرا أو تخشى من جانبهم شرا"[2].

ومن أهم تجليات إحسان إنسان الخدمة:

أ. فقه التعامل مع أخطاء الآخرين: حيث إن تجاوزها والبحث عن إصلاحها دون إشاعتها وإحراج أهلها مدخل كبير إلى باب التلطف بهم. يقول في ذلك كولن :"من أفضل أنواع المعروف التي يمكن للإنسان عملها تجاه الآخرين هو التعامي عن رؤية التصرفات غير اللائقة الصادرة منهم وتجاهلها وتناسي تقصيراتهم، أما البحث عن أخطاء الآخرين وتقصيراتهم وعيوبهم فشيء خارج عن نطاق الأدب. أما إشاعة هذه العيوب والتحدث عنها هنا وهناك فنقيصة لا يمكن الصفح عنها. أما ذكر هذه العيوب وتعدادها لأصحابها فضربة قاصمة للإخاء والمودة التي تربط بين الأفراد،لأن الأنانية التي تثار عنده ستمنع تأسيس المودة مرة أخرى "[3].

ب . عدم المن والاستكثار: إن الذي يسدي خدمات للآخرين ثم يمن بها عليهم أو عند غيرهم، إنما يخدم رغبته في الظهور وشهوته في حظوة الشهرة، أو الحصول على موقع أو منصب، وهو بذلك يوشك أن يوقف خدمته متى تعطل هذا الهدف أما ما يسعى إليه الأستاذ " فهو الشخص الذي يعد أكبر معروف يسديه للآخرين شيئا ضئيلا،وأصغر معروف يسدى إليه شيئا كبيرا. مثل هذا الشخص يكون قد سما إلى الخلق الإلهي ووصل إلى الاطمئنان القلبي. مثل هذا الشخص لا يمن بإحسانه ومعروفه أبدا،ولا يشكو من الإهمال وعدم الاهتمام الذي قد يتعرض له"[4].

---

[1] بيت للشاعر أبي الفتح البستي (ت 400 هـ)، وفي البيت (الناس بدلا من الأناس)، له ترجمة في: الأعلام، خير الدين الزركلي، ط15، دار العلم للملايين، بيروت 2002، ج4، ص: 326

[2] الموازن، ص: 45

[3] المصدر نفسه ، ص: 46

[4] نفسه، ص: 46

إنسان الخدمة بين الزهد وعلو الهمة :

الإنسان الخدوم هو محرك المشاريع الكبرى، وقدوة من اثاقل إلى أرض الأنانيات وأخلد إلى هوى التمحور حول الذات، ولذلك لعلو همته وحرصه على سمو مكانته عند ربه سبحانه، حيث علمه كولن " أن منزلة الإنسان عند الله تعالى تقاس بعلو همته. وأبرز علامات علو الهمة هو تضحية الإنسان بمنافعه وبملذاته الشخصية في سبيل سعادة الآخرين. ولا أدري أهناك تضحية أكبر من قيام الإنسان بالدوس على كرامته وشرفه في سبيل سلامة المجتمع وكظم غيظه بدلا من إطلاق زئير الغضب، ووضع القيود على جميع رغباته الشخصية فيما يتعلق بسعادته في كل مرة "[1].

ولأن إنسان الخدمة عالي الهمة فإن زهده يدفعه إلى المزيد من امتلاك الدنيا وأسبابها والاستكثار من الأموال لتسخير كل ذلك من أجل غيره وخدمتهم بها، والبرهنة على أهلية عهد الاستخلاف المالي.إنه يفهم الزهد على " أنه الحفاظ على حدود الشرع وحمايتها حتى في أوقات الضيق والشدة، والعيش لأجل الآخرين في أوقات الغنى والرخاء. والشكر على ما أنعم الله عليه من حلال، وإيفاء ما يترتب عليه من حق، وعدم جمع المال إلا لنفع الناس، وإعلاء شأن الإسلام، وعدم الولوج في طول الأمل" [2].

اللين سمة إنسان الخدمة و الإيجابية عنوانه:

كل من يترك آثارا بعده يكون قد عبر عن وجود حقيقي لأنه يضع بصماته في الحياة. ولقد تسابق أهل الإيمان إلى مد أعمارهم بعد رحيلهم بصالحات الأعمال الدائمة أجرها، وحرصوا قبل ذلك أثناء حياتهم إلى أن يكونوا مفاتيح للخير والهدى والصلاح،مغاليق للشر والبؤس والفساد.

ولقد أدرك إنسان الخدمة أن على" الإنسان، ولاسيما المسلم، أن يعرف قدر نفسه وكم هو مخلوق وكائن ثمين، وأن هذا الكون الهائل مخلوق من أجله، وأن كل شيء مسخر من أجله. لذا فعندما يرحل من هنا عليه ألا يرحل بشكل رخيص، وأن يقول في نفسه: حسن أنا راحل، ولكن هذه الدنيا التي أخلفها ورائي لابد وأن تصل من بعدي إلى

[1] الموازين، ص: 17

[2] التلال الزمردية، ص: 81

الخط وإلى الأفق المتوافق مع سر الخلق، وعلى الموت أن ينقلب إلى مفتاح سحري بحيث عندما ينطفئ ضوء صغير يلتمع بدلا منه المئات بل الآلاف من الأضواء القوية"[1].

إن حرص إنسان الخدمة على أن يكون عنصرا من عناصر علاج الاختلال الاجتماعي، ورفضه أن يبقى محايدا أو جزءا من المشكلة، يقوده إلى اكتساب العلاقات مع غيره والحفاظ عليها باختيار أساليب اللين والرفق في اتصاله بالناس، وعندما يصبح هذا اللين صفة أساسية لديه يتمكن من التأثير المتزايد " على الناس وعلى من يدعوه ولو سلك مسلكا مغايرا لهذا فلا بد من حدوث العديد من المشاكل ومن حالات الفشل"[2].

الحال اللين، والقلب اللين، والسلوك اللين، تتحول عند إنسان الخدمة طبيعة وفطرة ثانية[3] مما يساعده على إنجاز خدماته بصدر منشرح وسعي متواصل.

التجرد والتضحية جسر إنسان الخدمة إلى الآخرين:

رأسمال إنسان الخدمة هو الناس، وكل ما يبقي عليه أو ينميه ويثمره وسيلة رئيسة يحرص عليها، وركيزة هامة يحافظ عليها، وخصوصا ما كان منها متصلا به وبخصاله،ويترجم إنسان الخدمة صدقه في ذلك كله من خلال تجرده وإخلاصه، لأن "من يرغب أن يكون لكلامه تأثير ومفعول كمفعول إكسير الحياة فعليه ألا يطلب أو ينتظر أجرا مقابلا الخدمات التي يؤديها"[4]، بل "عليه أن يكون متجردا لله، وأن يكون حب العمل في سبيل الله شاغله ليلا ونهارا، لا يلتفت إلى زخرف الدنيا، بل يصب همه في تهيئة طرق النصر للأجيال القادمة. فلا يكون لحب الدنيا وزينتها ظل على قلبه المنطوي على التجرد لله "[5].

[1] أضواء قرآنية، ص: 230

[2] المصدر نفسه، ص: 225

[3] نفسه، ص: 225

[4] النور الخالد، ص: 70

[5] المصدر نفسه، ص: 69

وعندما يقترن التجرد بالتضحية يعبر إنسان الخدمة الجسر إلى قلوب وأرواح الآخرين، يستطيع بذلك أن يؤسس لثقافة الاستعداد للتضحية بالمال والنفس والأولاد والأهل والجاه والمنصب والشهرة مما يتغنى به غيره ويجعلها سقف طموحه[1].

كيف يمكن لإنسان الخدمة أن يستمر في تضحياته دون انتظار مقابل دنيوي مادي أو معنوي؟ لقد كان هذا السؤال محور اهتمام الأستاذ وهو يخطب أو يكتب عن حاجة الإصلاح والخدمة إلى هذه التضحيات المستمرة المتزايدة، ومن ثم تراه يربط تلاميذه ومحبيه بالأمور التالية:

أ– الآخرة خير وأبقى؛ يقول كولن: "أليس من قصر النظر ومن الخطإ لقلب متعلق بالحق وعاشق له انتظار مكافأة الخدمات الأخروية في الدنيا؟ أليست الدنيا وبكل ما فيها فانية؟ أليست الآخرة بكل جمالها وروعتها التي ينذهل أمامها العقل باقية وخالدة؟ إذن تعال ودع عنك طلب المكافأة لخدماتك وجهودك من أجل الحق. فما وراء هذا العالم وما وراء الوراء يعادل ألف دنيا" [2]. ولذلك يوصي الأستاذ إنسان الخدمة بقوله:" فإن كانت لك مزايا فدعها تخرج سنابلها في العالم الآخر ولتكن بطولات حياتك أناشيد أبدية تنشدها الملائكة "[3].

ب . تجنب الاغترار بثناء الناس والبعد عن احتقارهم: "عليك ألا تعتمد على إطراء الناس ومحبتهم لك، حتى وإن كانوا محقين، ولا تحسب ذلك علامة من علامات العظمة. وإياك وإياك النظر إلى الآخرين وكأنهم أقل منك ـ فهذا قصر نظر شنيع ـ ذلك لأن القيمة والكرامة لدى الحق تعالى هي حسب درجة صفاء الروح وسمو القلب، وما أفحش خطأ من يجعل مقاييس الجسم معيارا للتقييم"[4].

ج .عدم الحرص على كسب احترام الآخرين " مع أن احترام الكبار صحيح من ناحية المبدإ، ولكن عليك ألا تطلب ذلك.. وفي مقابل عدم وجود أي سوء أو ضرر عندما يأتي هذا الاحترام لك من الآخرين دون طلب أو انتظار، ولكن إن أردته ورغبت فيه

---

[1] طرق الإرشاد، ص: 163

[2] الموازين، ص: 30

[3] المصدر نفسه، ص: 32

[4] نفسه، ص: 30

وطلبته أصبح هذا المطلوب محبوبا لا يمكن الوصول إليه، ويغرق الطالب له والمتلهف عليه في لجة من البؤس والألم ".[1]

د . الخدمة وظيفة واجب أداؤها :"عندما تقوم بواجبك في أداء الخدمات لأمتك،إياك أن تذكر أي معروف أسديته لأي شخص يعمل تحت إمرتك..لا تفعل ذلك، وإلا أزعجت جميع من حواليك، ولا تنس أن ما فعلته وأديته ليس سوى وظيفة على عاتقك ولست سوى موظف في هذا الأمر"[2].

هـ . الخدمة تزيد الإخلاص :"إن لم تزدد إخلاصا كلما قرأت كتابا، أو حللت وقدمت أفكارا جديدة، أو جاهدت في سبيل الله تعالى، وإن لم تفن في بوتقة الإخلاص بحيث يستوي لديك ما تتعرض له من نقمة أو نعمة...إن لم تكن كذلك فاعلم أنك تضطرب بين براثن ومخالب نفسك الأمارة...اعلم هذا وارتجف خوفا وخشية "[3].

و. الحضور عند البذل والغياب عند الثمرة "إياك إياك أن تحدثني عن عظيم الخدمات التي قدمتها والتضحيات التي أبديتها، ولكن قل لي: أتستطيع إحالة جميع خدماتك إلى جهود أصدقائك وتعرف أنها فضل من أفضال الله تعالى ولطف منه؟ وهل تستطيع أن تكون عند بذل الجهود في الصف الأول وعند قطف النتائج في الصف الأخير؟ حدثني عن هذا..حدثني عن هذا لكي تتفتح الأزهار في قلبي"[4].

إن تلك القواعد الستة كفيلة بأن تساعد إنسان الخدمة على متابعة الطريق الذي بدأه، وبخاصة أنه عقد العهد مع ربه بأن يواصل مشروع خدمة الإيمان والإنسان، حيث "نذر نفسه للحق تعالى واستمد العون من الله عز وجل، يمضي في طريق وظائفه ومسؤولياته من دون أن ينظر إلى الوراء. لأنه يعرف القوة التي استند إليها، ويعرف مالكه الذي يعمل هو له، وهو مطمئن لصواب هذه الطريق التي يسلكها وأنه في رعاية من لم يتخل عنه ـ ولو لحظة واحدة ـ في هذا الطريق ولن يتخلى عنه"[5].

---

[1] الموازين ، ص: 30

[2] المصدر نفسه، ص: 31

[3] نفسه، ص: 31

[4] نفسه، ص: 32

[5] ونحن نبني حضارتنا، ص: 112

إن الاشتغال مع الله تعالى طريقه ضامن، وكل خطوة في هذا السبيل عبادة عظيمة، وتوقع الجزاء والقبول من الله عز وجل عبادة جميلة؛ "فكما أن من العبادة أن يكون الإنسان على طريق الحق جل شأنه، ويعرف الناس بالحق سبحانه، ويذكرهم به،ويقوم بإرشاد من في الطريق إلى آداب الطريق، فكذلك من العبادة توقع كل شيء من الله تعالى، والانتظار في الأمور التي تتطلب الانتظار مع الصبر على تباطؤ الزمان بشكل يستنفذ الصبر ويسلب العقل"[1].

2. جنود الإيمان روح تيار الخدمـة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إنما الناس كالإبل المائة لا تكاد تجد فيها راحلة)[2]. الناقة الصبور المتحملة للمسافات الطويلة والمشاق الكثيرة هي أهل الاعتماد والوصول، وكذلك رواحل الإيمان والخدمة هم المؤهلون لتحقيق موعود وارثي الأرض،هؤلاء موضع فخر الأستاذ واعتزازه؛ إنهم "جنود الإيمان الذين يقدمون خدماتهم في العديد من بلدان العالم يستحقون هذا الإنعام (أي محبة الله ومحبة الخلق) وهو بالنسبة لهم عين الحقيقة. ولو تم تدقيق حسن القبول التي يتمتع بها جنود الخدمة هؤلاء في مختلف بلدان العالم لما شك أحد في كوني محقا في وصفهم، كيف لا وأنفاسهم تتردد من سهول آسيا الوسطى إلى داخل الولايات المتحدة الأمريكية، ومن أروبا إلى شمال إفريقيا وإلى الباسفيك وأستراليا. إن المستقبل كفيل بالحكم على هذه الخدمات التي يحققها هؤلاء الجنود من ناحية الكم ومن ناحية الكيف باسم أمتنا ولصالح الإنسانية "[3].

وإذا كان من المقرر أنه لا يستوي الذين ينفقون أعمارهم في سياق مشجع ومحفز ومحتضن، والذين يواجهون بتضحياتهم أجواء كثيرة مناقضة ويقاومون مثبطات قوية، فإن قيمة جنود الإيمان تزداد "عندما تكون الشروط والظروف غير موافقة وغير ملائمة ويكون القادرون على الأمر والقائمون به قلة، عند ذلك تبلغ الصعوبة درجة

[1] ونحن نبني حضارتنا، ص: 113

[2] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب رفع الأمانة، ح 1364،م4، ج8، ص: 481

[3] أضواء قرآنية، ص: 220

الاستحالة،لأن تحريك شيء راكد، وتحويل أمر سلبي إلى أمر إيجابي يحتاج إلى بذل طاقة كبيرة"[1].

إن مما ييسر هذه الجهود تحولها إلى طبيعة ثانية لأهل البذل والعطاء بحيث لا يستطيعون إهمالها أو التفريط فيها، يتحدث عن ذلك خوجة أفندي قائلا:" إيفاء حق الخدمات التي تصدوا لها وحملوها على أحسن وجه ودون أي نقص ، ليس شيئا هينا . ولكني أظن أن أصدقاءنا هؤلاء قد عدوا ما يقومون به ـ والذي يبدو للغير أنه في غاية الصعوبة ـ جزءا لا يتجزأ من حياتهم، لذا تراهم مشغولين به ليل نهار، في قيامهم وقعودهم، في حركاتهم وفي سكناتهم"[2].

3. الثبات على الخدمة بتنويع مجالاتها وتوسيع دوائرها

عندما يكتسب المرء موقعا إيجابيا في حياته، ويسن عملا مفيدا، ويبدع في خدمة الحق والخلق، يتطلع إلى الحفاظ عليه حتى يكون صالحات جارية، ولذلك يحذر كولن من الفتور في ذلك الخير أو الانقطاع عنه بقوله:" فإن كان هناك من وعى ضرورة مثل هذه الخدمة والدعوة ثم نكص على عقبيه في أثناء الكفاح مهما كان نوع هذا الكفاح، فلا يشك أنه يرتكب بذلك إثما كبيرا. هذا علاوة على أن مثل هذا التصرف سيضعف الروح المعنوية في الجبهة الإسلامية، ويسعد الأعداء و يغمرهم بالفرح، وهذا ذنب إضافي"[3].

وحتى لا يتوقف قطار الخدمة أو يضعف يلح الأستاذ محمد فتح الله كولن على تجديد مجالات أهل الخدمة والإيمان، ومضاعفتها والتطلع إلى مستويات أعلى من العطاء والبذل، وألا يكون سقف طموحات الناذرين أنفسهم للحق ما أنجزوه، بل ما يمكن من تعميم الخير والهدى هو الهدف البعيد؛ يقول كولن: "قام بعض أغنيائنا الباحثين عن الرضا الإلهي بالتبرع للطلاب الأذكياء من الفقراء وإسكانهم في الأقسام الداخلية خدمة للأمة. وبعد مدة شعروا أنهم قد أدوا مهمتهم وركنوا إلى الدعة وإلى مشاغل الحياة الاعتيادية، فإذا بأبواب خدمات جديدة وواسعة تنفتح أمامهم وتدعوهم لتذوق أذواق أداء هذه الخدمات الرحبة.

---

[1] أضواء قرآنية، ص: 221

[2] المصدر نفسه، ص: 222

[3] نفسه، ص: 116

كانت القلوب المخلصة تتساءل بقلق: أيمكن أن تنتهي هذه الأنواع من الخدمات الإيمانية؟ ألا توجد هناك مساحات أخرى وساحات أوسع؟ فإذا بساحات خدمات أخرى وفي مناطق جغرافية أوسع تنفتح أمامهم. وإذا بهم يتذوقون لذة أداء هذه الخدمات في سبيل الله، ويتجرعون كؤوسها مترعة، ثم فتح الله أمامهم ساحات خدمات بأبعاد ومناشط أخرى أيضا"[1].

[1] أضواء قرآنية، ص: 350-351

الفصل الثـــاني

أسس الخدمة

وتمويلها

تقديم

تتأسس منجزات الخدمة على ركائز رئيسة لا بد من دراستها، خصوصا ما ارتبط منها بميراث الأمة الثقافي وجذورها المعنوية.

يمثل عصر الصحابة ـ بوصفه عصر السعادة ـ الأنموذج القوي الذي يُدعى أبناء الخدمة إلى الاقتداء به وإشاعة أنواره، والتزكية من خلال أمثل ة الجيل الذي علمه وزكاه مفخرة الإنسانية محمد صلى الله عليه وسلم.

لأجل ذلك وجب تحقيق الاستعلاء الرحيم ، والنفير الثقافي العام عبر التوبة العامة والعزة الاجتماعية، والتحصين الذاتي من الاستلاب الحضاري.

ولا سبيل إلى إنجاز مشروع الخدمة الكبير إلا بالركون إلى القوة الذاتية ، حفاظا على استقلالية القرارات وحرية مهندسي الفكر وأطباء الروح، أئمة الرشد والسداد، في صياغة المواقف. ذلك لأن الذي يملك رقبتك المادية يستطيع أن يوجهك شطر مصالحه ومنافعه.

حرصت الخدمة على أن تكون نماذجها من ذاتها ، وتمويلها من جيوب أهلها ومشاريع حواريها.

المبحث الأول: أسس الخدمـة

المطلب الأول: التزكية في حضن السنة والصحابة

1. التصوف ماء شجرة الخدمة المباركة

يمثل التصوف في مدرسة كولن الحصن الضامن للترقية السريعة للإنسان وتجدده العميق، إذ يتمكن من خلاله من تحصين القلب ووقاية النفس ضد الشيطان والهوى، ومن متابعة السير على مدارج السالكين محققا انتقالا متصاعدا من منزلة إلى أخرى في الدائرة الإيجابية ضمن منازل السائرين، حيث "إن التصوف هو الحفاظ الدائم على طهارة القلب حيال دوافع الشيطان والنفس..وردع النفس عن ميولها الخاصة وتضييق مجالها بقدر المستطاع ..ومواصلة السير في طرق الارتقاء نحو الإنسانية الحقيقية بالكد الدائم للبقاء في مستوى الحياة القلبية والروحية "[1].

يترتب عن هذه المجاهدة المستمرة القوية، حرص شديد على إلحاق الرحمة بالخلق ونفع عيال الله تعالى، و"تكريس الحياة على تحقيق السعادة المادية والمعنوية للآخرين، ومع منتهى الجدية في المناسبات مع الحق تعالى"[2].

يقترن هذا السعي الجميل بجمال القصد وتجرد النية، وتوحيد القدوة والقبلة، و"اتباع نهج النبوة في عدم انتظار الأجر حتى في أصدق الجهود وأخلصها وفي أعظم الأعمال وأشدها والعزم على المسير أبدا في ظلال المشكاة المحمدية صلى الله عليه وسلم في مساعي العبودية للحق تعالى..وإشهار عبودية صافية خالصة لا غرض فيها ولا عوض،بالتقيد الشديد في المناسبات مع الله تعالى بإدراك نوعية المناسبة بين الخالق والمخلوق،والعابد والمعبود، والطالب والمطلوب، والقاصد والمقصود"[3].

أثناء ذلك يتجمل العابد بالصبر عن العصيان ويتخفف بالتلذذ وهو يستجيب لميثاق العهد والطاعة، إنه يقوم "بمنتهى التحمل والصبر الدؤوب حيال المعاصي..وأداء

---

[1] ونحن نبني حضارتنا، ص: 92

[2] المصدر نفسه، ص: 92

[3] نفسه، ص: 92

العبادات والطاعات في لذة ونشوة كأنها الغاية والهدف من الحياة واستقبال البلايا والمصائب بالابتسام مع انشراح الصدر لقهره ولطفه تعالى في نفس المستوى"[1].

والثمرة المرجوة من ذلك تحتاج لنضج حقيقي إلى اطراح ملاحظات الناس وعدم الركون إلى مقاييسهم وعدم استعجالها؛ فلا وزن لها قبل بدو صلاحها، ومن ثم يجب "ربط كل أنواع السعي والهمة باستحسان الحق تعالى، وليس بتقويمات البشر، والصبر على تباطؤ الزمن صبر الدجاجة الحضون"[2].

2. السنة النبوية طريق التزكية الحقيقي

أثناء حديث الأستاذ كولن عن مصادر ميراث الأمة الثقافي وجذورها المعنوية فصل في الكلام عن أحد عشر مصدرا في كتابه "ونحن نبني حضارتنا" وأورد السنة وعرفها فقهيا وأصوليا[3]، ثم قال:"فالسنة بفروعها كافة، المتعلقة بالقيم والأخلاق أو البيانات التي صدرت حول التربية والآداب، أو الدساتير الموضوعة في اتجاه تزكية النفس وتربية الروح، هي مصدر لا ينفد في كل المساحات الواسعة، يضيء عيوننا وقلوبنا "[4].

السنة النبوية منهل الواردين، ومدرسة السالكين الراشدين، ومصفاة كل الطرق والبرامج والمناهج التي تنشد الارتفاع إلى مستوى آفاق إنسان القرآن الكريم وهدى الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، لأنها "هي الطريق الموصل إلى الحق. أجل، لقد قامت السنة ببيان هذا الطريق وحثت عليه حثا كبيرا. ولو اجتمع آلاف الأولياء وآلاف الأدمغة وحاولت وضع طريق أو مبدإ لما بدت هذه الطرق ولا دساتيرها إلا كبارقة ضوء خافتة أمام أضواء أصغر مسألة من مسائل السنة النبوية. لذا فما زال المئات من المرشدين والمئات من أهل الحقيقة يكررون المرة تلو الأخرى وينبهون بأن طريق السنة هو طريق الدين" [5].

---

[1] ونحن نبني حضارتنا ، ص: 92

[2] المصدر نفسه، ص: 92

[3] نفسه، ص: 86 – 87

[4] نفسه، ص: 87

[5] أسئلة العصر المحيرة، ص: 137

3. عصر السعادة: عهد الصحابة جيل القدوة

تمثل القرون الأولى لهذه الأمة، خير أجيالها، ويجسد جيل الصحابة . ـ خصوصا مع وجود المعصوم عليه الصلاة والسلام . ـ أسعدها وأبرها وأصلحها وأصفاها، لأنه "بمثابة مجتمع عصر السعادة والمهندسين العظام لتاريخ أمتنا، هم الذين مثلوا الإسلام حق التمثيل، سواء في حياة (الفكر و الحركية) أو في عالم الوجدان. فقد نشأوا وتربوا في ظل القرآن والإقليم الفياض للإسلام، وعاشوا أعمارهم في أفق صعب المنال يفصل بين الفناء والخلود"[1].

إنه جيل قرآني فريد، حقق نقلة نوعية متميزة، كانت وراء نشوء حضارة إنسانية،تركت آثارا قوية على حياة البشر أجمعين، إن " تحول هذا المجتمع الذي كان قبل الإسلام صلبا للغاية، بل وحشيا ومتعصبا لعاداته ومعاندا أشد العناد ومتهاويا بالأخلاق السيئة والعادات الفاسدة...إن تحول هؤلاء بحملة واحدة إلى جماعة أنموذجية، بعقلها وقلبها وروحها ونفسها، ليس إلا معجزة باهرة للإسلام. فهؤلاء أنصتوا للقرآن وتربوا بغذاء القرآن وعشقوا صاحب القرآن جل جلاله، فإذا بهم يجدون أنفسهم في صعيد البناء والإعمار والإحياء بعوالمهم الشعورية والفكرية والحسية.. لقد تبدلوا من أخم ص القدمين إلى ذروة الرأس بحماس انبعاث جديد" [2].

لقد تأثر الأستاذ محمد فتح الله كولن كثيرا بسير الصحابة منذ صغره، حيث كانت المجالس في بيوتهم لا تتوقف عن الحديث عن هؤلاء العظام، فلكتسب بذلك روحا خاصة وحياة جديدة، وعزيمة على تلقي هذه النماذج بالفخر والاعتزاز ونية الاقتداء، ومن ثم لا يكف كولن عن الإشادة بهم "كممثلين فضلاء لنظام فاضل عقدوا العزم على إحياء الآخرين، ففضلوا إحياء غيرهم على حياة أنفسهم، وكرسوا حياتهم لإسعاد الآخرين، وظلوا يقظين دائما حيال أي انزلاق بملاحظة احتمال الضعف البشري. وفي حال تعثرهم بالمعاصي توجهوا إلى الحق تعالى بالتوبة والإنابة والأوبة بقلوب خالصة أشد

[1] ونحن نبني حضارتنا، ص: 103

[2] المصدر نفسه، ص: 103

الخلوص،وتحروا على الدوام عن سبل الارتقاء العمودي فعاشوا مبرمجين على التحليق في الشواهق "[1].

يرى كولن في هؤلاء العمالقة النجوم النموذج الصادق القوي لجيل الخدمة، والمثال الحي الذي يسعى إلى تحقيقه في حياته وحياة تلاميذه وحوارييه حيث "لم يستسلموا قط بل صمدوا شامخين حيال أي انسحاق ينشأ عن قلتهم، أو وحشة تنبع من الغربة والوحدة،أو تعرضهم ـ بين حين وآخر ـ لأنواع الاضطهاد والتخويف والغبن والظلم والحرمان. وإلى جانب هذا المستوى من المقاومة الصامدة تصرف كل واحد منهم وكأنه "فدائي المحبة" فاحتضنوا كل أحد وفتحوا لهم صدورهم، واحترموا أفكار الآخرين، وسعوا من أجل تحقيق المتطلبات اللازمة للارتقاء إلى مستوى (الإنسان الكامل)"[2] .

يدعو كولن إلى جعل زمن الصحابة معيارا ومرجعا رئيسا يؤطر حركة الخدمة،ويسدد توجهاتها وينير دروب أهلها وأنصارها ، ويقول: "أولئك هم جذورنا الذين توجهوا إلى الخالق ووحدوا قبلتهم الحقيقية؛ فبالعبودية للحق انعتقوا من العبودية للهوى،والعبودية للقوة، والعبودية للشهوة، والعبودية للشهرة وغيرها من أنواع العبوديات... وتجردوا من السفالات التي تلقي بالإنسان في أحضان البؤس. نحن كنا أولئك، ونحن اليوم تَمَثُّلُهم في الحاضر، وهم أصولنا، وسيكون الآتون من بعدنا هم فروعنا "[3].

ولأن عصر الصحابة هو عصر السعادة بوصفه التمثيل الحقيقي للإسلام، يرفض الأستاذ التسمية بالإسلامي، يقول في بيان ذلك: "ولقد عرف بعضهم الإسلام تلخيصا بأنه التسليم لله عز وجل وإظهار الانقياد والولاء له بالشكر قولا وفعلا وحالا، والمكوث في الرغب والرهب الدائم، فالذي على هذا الحال، يسمى مؤمنا أو مسلما ـ وليس إسلاميا (islamist–islamci)ـ ويعتبر مرشحا لنيل السعادة"[4].

وقد ذهب إلى هذا الرأي بناء على أن " مسمى(إسلامي) و(ديني) له وقع أثقل على النفس بالتركية، إذ يقال بالنص أيضا إسلامجي (islamci) (دينجي) (dinci)

[1] ونحن نبني حضارتنا، ص: 103

[2] المصدر نفسه، ص: 103– 104

[3] نفسه، ص: 104

[4] نفسه، ص: 172. تنظر كذلك ص: 192

بحرفي النسبة الجيم والياء (جي)، وبهما أيضا يعرف أصحاب الحرف مثل (كبابجي) أو (حلوجي) (صانع الكباب أ والحلوى وبائعهما) فيكون المعنى أثقل في التركية، وكأن المبلغ أو الداعية إلى الإسلام صاحب حرفة، يحترف الإسلام ويتاجر به..وهذان المصطلحان قد تم استخدامهما من قبل بعض الأوساط المغرضة والمعادية للإسلام ـولاسيما في تركيا ـ بقصد تشويه سمعة كل مسلم واع يحمل هم إحياء شعائر دينه وإبلاغها إلى الآخرين.. ويراد منه تجريد المبلغ أو المرشد أو الداعية عن الإسلام في بعض الأوساط، لعزله والاستفراد به ".[1]

المطلب الثاني: الاستعلاء الرحيم والنفير العام

1. رفض الاستلاب الحضاري والانسلاخ الثقافي ولفظ الأجسام الغريبة عن كياننا

إن المجتمعات الحية القوية تستعصي على الذوبان والتنميط، خصوصا إذا كانت تركن إلى مصادر أساسية كالفقه والأصول اللذين لا شبيه لهما في التاريخ، بل إن فتح الله يقول: "نَصِفُ حضارتنا بحضارة الفقه وأصول الفقه"[2].

إن أمة تأوي إلى ركن شديد من أسس بنائها الوجداني والعقلي والقلبي، وتعتمد على ثقافتها الخاصة التي تؤهلها للشهود الحضاري، تستعصي على الإلحاق وإفقاد الفاعلية، وذلك لأن" الأمم التي تسعى لإدامة ذاتها وبقائها ولكنها تسلم نفسها إلى حضارة ومدنية الأمم الأخرى تشبه شجرة عليها أثمار شجرة أخرى .. أي تكون محل سخرية وذات مظهر خادع.

تظهر الثقافة وتولد وتنمو من طبيعة الأمة والمجتمع، والثقافة بالنسبة للمجتمع بمثابة الزهور والثمار بالنسبة للشجرة. والأمم التي لم تنجح في إنضاج ثقافتها أو الأمم التي فقدت ثقافتها تشبه الأشجار العقيمة التي لا تعطي أثمارا، أو الأشجار التي تساقطت أثمارها وفقدتها. والمصير المحتم الذي ينتظر مثل هذه الأشجار هو قطعها واستعمالها حطبا "[3].

---

[1] ونحن نبني حضارتنا، ص: 172-173 (والكلام للمترجم عوني أوغلو)

[2] المصدر نفسه، ص: 80

[3] الموازين، ص: 80 – 81

ولا مفر لها من هذه العاقبة "لأن الثقافة ليست بضاعة تشترى من الباعة المتجولين فتؤخذ إلى البيت كلوحة أو صورة أو أسطوانة أو شريط، إنها من حيث كونها ملتقى كل العناصر الزمانية والمكانية للمحيط الذي نشأت وترعرعت فيه (كل) لا يتجزأ وخاصة ببيئتها التي تربت هي فيها، فكما أن الكائنات الحية تحافظ على أصالتها باعتبار خصوصياتها البيولوجية كذلك الثقافة إنما تحافظ على نفسها وتصير بعدا حيويا للمجتمع الذي ولدت وترعرعت فيه إذا صارت كالهواء الذي يتنفسونه والماء الذي يرتشفون منه،حتى تصيرعمقا حيويا لذلك المجتمع، فتحمى وتصان "[1].

وكم من محاولات جرت لإكراه مجتمع على تشرب ثقافة وفكر غريبين عن تربته حسبها الغافلون ـ ـ عن سنن التدافع الحضاري ـ ـ قد هيمنت وغلبت إذ شاعت وطغت رموزها وصورها، فإذا بالزمن يكشف عن لفظ هذه الأجسام الغريبة، يقول محمد فتح الله كولن "كم طرقت الإيديولوجيات والمبادئ الغربية المنشإ أبوابنا وهزت نعراتها أزقتنا، لكنها لم تلج دواخلنا، ولم تمتزج بأرواحنا، ولم تكن لنا أونكن لها البتة، بل أثارت حفيظتنا من أول وهلة، لغرابة صورها ووجوهها، وأثارت شكوكنا فيها، وتقززت بيئتنا الفكرية منها، فلم تجد لها محلا في جسم أمتنا إلا بمقدار الضعف الذي أصاب جهازنا المناعي "[2]

2. النفير العام الثقافي والتوبة الاجتماعية

يقول أليكسيس كاريل " إن الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب لأنها لا تلائمنا، فقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية " [3]، ويعلل ذلك بكونها تخطط في غياب علم شامل وعميق بالإنسان، حيث "إن جهلنا مطبق؛ فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشري تظل بلا جواب، لأن هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنية مازالت غير معروفة"[4].

[1] ونحن نبني حضارتنا، ص: 30

[2] المصدر نفسه، ص: 98

[3] الإنسان ذلك المجهول، ص: 37

[4] المصدر نفسه، ص: 19

لأجل ذلك فإن المسلمين مدعوون لملء الفراغ من خلال معطيات الوحي من الحقائق الكبرى المتعلقة بالوجود الإنساني، ونصيحة العالمين، بدلا من التولي عن بناء الذات وخدمة المجتمعات الحائرة.

لابد إذن من النفير العام لأننا " إن لم نبدأ من فورنا بشحن أجيالنا الناشئة بشعائر ثقافتنا الذاتية، ولم نبادر بإحياء ما شحناه في النفوس فسوف نحكم على الآتين من بعدنا بأن يكابدوا حظنا العاثر في الحياة، فينبغي أن يستنفر كل من له قول في الموضوع،ومهندسو عالمنا الفكري خاصة، بروحية النفير العام إزاء خطب داهم، ويحولوا البلاد من أدناها إلى أقصاها إلى مشاغل لثقافتنا الذاتية، ومدارس لفلسفة حياتنا الذاتية،ومختبرات تركيب وتحليل لمنطقنا ومحاكمتنا العقلية الذاتيين، فإن بقاءنا بذاتيتنا يمر عبر انبعاثنا بذاتيتنا"[1].

لقد تعرض المجتمع التركي، لهزات عنيفة وسحق ثقافي كبير وسلخ فكري ماحق،أوشك أن يدرك به الإفلاس الحضاري بقطع جذوره وإفساد وحدته، وكان ذلك سيئة كبرى وضلالا بعيدا استدعى توبة عامة حيث إن "الإخلال بوحدة الأمة ذنب كبير. لذا يعد مرتكب هذا الإثم أكبر مجرم لدى الخالق ولدى الخلق. لذا ما كانت التوبة من مثل هذا الإثم تقبل إلا بعد إرجاع الحياة الاجتماعية . ـ التي أصبح عاليها سافلها .ـ إلى سابق عهدها وإلى سابق صحتها ووحدتها "[2].

هذه التوبة العامة تشمل مختلف مؤسسات المجتمع وعناصره، حيث يجب "على كل مؤسسة تمثل المجتمع أن تتوب، وتكون توبتها بفهم أنواع الأخطاء التي قرضتها وأنهكتها وأفلستها، والقيام من ثم بتلافيها. وتكون توبة الكادر الإداري بفهم وفحص جرائمه وأخطائه وذنوبه، ثم اتخاذ موقف آخر مضاد تجاهه ومعاكس، وتجديد نفسه وإحيائها.

والشيء نفسه وارد بالنسبة لمؤسسات التربية والتعليم. فما دامت هذه المؤسسات محافظة على مشاعر الأمة وأفكارها ومقدساتها، ومدافعة عنها وصائنة لها، استحقت كل تبجيل وتقدير، فإن روجت للأفكار المنحرفة والمشوهة سقطت إلى درك أسفل من درك

[1] ونحن نبني حضارتنا، ص: 35

[2] ترانيم روح، ص: 125

اللصوص والمجرمين. وما لم تعد إلى رشدها وتتخذ موقفا حازما تجاه الأفكار الأجنبية والمخربة، فلا تقبل منها توبة، ولا مغفرة لها "[1].

3. نحو اليد العليا

إن الوضع الطبيعي للأمة أن لا يكون للكافرين عليها سلطان كبير ولا صغير،وأن تكون ـ في مستواها الأدنى ـ شريكا حضاريا حقيقيا مع غيرها لعمارة الأرض بالخير،وفي مستوياتها العليا، قائدا ورائدا وناصحا أمينا وقبلة للآخرين، بما تجسده من أخلاق وقيم التوحيد وجماله، والتعامل وصفائه، والفطرة ونقائها، والعدل والإيمان وضيائهما، والعزة والكرامة وإشعاعهما.

قال رسول الله صلى الله عليه و سلم :"اليد العليا خير من اليد السفلى" [2]. هذا الحديث توجيه فردي واجتماعي ووصف لما تكون عليه الأمة من خير عندما تصر على موقعها في الإمامة الهادية إلى الحق والنور، وبرنامج عمل لصياغة مشاريع غرس شتائل الاستعلاء الإيجابي المغرية و"يشكل مقياسا وقسطاسا لنا لا يخطئ في المناسبات الدولية، فإن كنا يدا عليا كانت لنا مكانتنا في التوازن الدولي. عند ذلك تجد جماهيرنا الفرصة السانحة للتخلص من استغلال القوى العظمى لها ولثرواتها، وإلا لما تخلصت من وضع الجماهير المهانة والمستغلة.

والمنظر العام الذي نراه في عالمنا هو مصداق ما نقول؛ فالقوى العظمى تقوم بامتصاص دماء الأمم والشعوب مقابل ما تعطيه لهم من دراهم معدودة غايتها الدعاية،تسترجع فيما بعد أضعاف أضعافها. ونحن الآن نعيش ذلة كوننا (اليد السفلى)،لذا،فواجبنا الآن هو السعي على المستويين الفردي والجماعي لتحقيق ما ينتظره العالم الإسلامي بل الإنسانية كلها "[3].

إن هذا السعي الجاد البصير الشامل هو الذي سيكشف عن حقيقة هذه الأمة وعن موقعها الطبيعي، وهو الذي سيقود إلى المكانة اللائقة بها، وبتلك المكانة استطاعت في

---

[1] ترانيم روح ، ص: 126-127

[2] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى، ح 2432، ج 3، ص: 94

[3] النور الخالد، ص: 208

الماضي أن تكون مصدر هداية كبيرة للعالمين، "ولكن إلى أن نقوم بشرح الإسلام بهذا المستوى فستسد الأمم آذانها ولن تستمع إلينا.. صحيح قد يسلم أفراد معدودون منها نتيجة تسلل نور القرآن إلى قلوبهم بقوته الذاتية. ولكن لن يحدث إقبال جماعي على الإسلام من قبل هذه الأمم إلا عندما تتبوأ أمتنا الأصيلة هذه مكانتها اللائقة بها بين الأمم وتقوم بتمثيل الإسلام أمام العالم "[1].

4. سعة الإسلام بين خصوم حاقدين وجهلة منتسبين

من أهم خصائص الإسلام ومميزاته أنه يستوعب مساحات حركة الأفراد والمجتمعات، بل إنه لا يكتفي بما ظهر منها، وإنما ينفذ إلى أعماق النفس الإنسانية،ويربط الأفراد بعضهم ببعض بروابط عميقة الجذور، فالإسلام يحرص على "العناية بكل شيء . ابتداء من القبول المسبق في الوجدان إلى المسائل الأخلاقية في المناحي النهائية للحياة، ومن أدق المسائل الفردية والعائلية إلى أعظم المعضلات الاجتماعية . يقدم حلولا فريدة، ولا يخيب رجاء المنتسب إليه مهما كان ضيق الصدر أو قصير الشأو"[2] .

وإذ كان هناك من حصر عمل الإسلام في وجدان الفرد، وحاصره، فإنه قد أخطأ أو ضل عن سبيل إدراك مساحات اشتغال دين الله الحق وآفاقه الواسعة.ذلك أن " الإسلام يبدأ بالعمل في الوجدان الفردي، وإذ يستقر فيه، يطفح منه بفائقيته الخاصة الذاتية،ويفيض من محيطه وبيئته، ويجعل كل مكان حقل فسائل، فيصطبغ كل مكان بصبغة روحه ويبدل جذوره . ـ أينما انتشرت . ـ لون الحياة وأداءها، ويسمع القلوب نداء الوجود الأبدي، وقد كان ـ ولايزال . ـ كل نداء منه ترنما للسلام العالمي، وتناغما للانسجام الاجتماعي، ونفسا للتسامح والحوار. أما الصلف والوحشية والحقد والبغض فهي إما من الغثيان المنعكس من البناء الروحي لخصومه في الخارج، أو من عسر هضم جهلة المنتسبين لتعاليمه إليه، فهو على كل حال نور وضياء، ولكن حيلولة الخصوم

[1] النور الخالد، ص: 331

[2] ونحن نبني حضارتنا، ص: 56

بينه وبين القلوب أدت إلى الكسوف، كما أن نشر أعدائه وجهلة منتسبيه تسببت في الخسوف.

ولو تخلى العدو قليلا عن الجفاء، وبذل الخليل قليلا من الوفاء لكان الإسلام قد محا وكنس أنواع الظلمات ـ مثل البغض والغيظ . ـ من الأرض، كالبراكين بقوة طردها المركزي أو بحزم الضياء من أطياف النور، ولجعل الأرض جنان اطمئنان تمتد حافاتها حتى تصل الجنة.. ففي ظله ينسى العراك والجريمة والإرهاب والاضطراب، وتشم نسائم الحب والتوقير والانسجام والحبور في كل الأنحاء" [1].

5. تحديد المساحات المشتركة مجال توحيد الطاقات

من المفيد لكل حركة إحيائية . ـ تستهدف إصلاحا شاملا عميقا وبناء تجديديا متوازنا .ـ البحث عن الخير المشترك والفهم المتقارب، والتصورات المنسجمة، ومنطقة الجامع العام لأفراد المجتمع. وهذا سيمكن من تجذير ثقافة العمل المشترك، والاستفادة العظمى من مختلف الطاقات، وتوظيف القدرات في اتجاه ينفع الجميع. وقد يكون من الحكمة البالغة الحديث بلغة مشتركة عن أهم العناصر التي تجمع ولا تفرق، وتعمق ولا تمزق، وتفعل ولا تعطل. يقول الأستاذ محمد فتح الله كولن: "ومن الضروري لمثل هذه الحركة تحديد معالم المساحات المشتركة التي ستشكل المحور لحركة المجتمع المشتركة بكل شرائحه من بدو وحضر، ومثقفين وحرفيين، ومعلمين، وطلبة وخطباء و مستمعين.. ونعني بالمساحات أو القواسم المشتركة أمورا مثل السعي لجعل أمتنا عنصرا مهما في التوازن الدولي، والعزم والإصرار من كل فرد على أداء هذه الرسالة بلا فتور مهما كان ثمن التضحيات.. والتركيز على أولوية الفكر، وموازنته مع مشاعر روح الأمة، ومن ثم منع حصول الثغرات العقلية والمنطقية والعاطفية أثناء التحرك الجماعي...واحتساب عشق الحقيقة، والتوق للعلم والبحث، وسائل للارتقاء العمودي نحو الله تعالى وتغذية المجتمع بهذه المفاهيم دائما.

ومن هذا المنطلق، نحن نؤمن بأن الأشخاص الذين يتقاسمون هذه الأهداف والغايات السامية سيحافظون على حماسهم وحيويتهم، وستجرى الفعاليات والأنشطة

[1] ونحن نبني حضارتنا، ص: 56-57

الجماعية بانسجام ووئام، وسيستفاد من الوقت والإمكانات بأجدى وسائل التحفيز السريعة،وستبقى أبواب التجدد مفتوحة أبدا بفضل السماح للتفكير بالتوسع "[1].

المطلب الثالث: استقلالية حركة الخدمة وتمويلها الذاتي

من خصائص الحركة الإسلامية في تركيا أنها تتمتع باستقلال كبير عن أخواتها في العالم العربي وباكستان. وقد يكون " من المحتمل أنه كان لهاتين الحركتين (حركة الإخوان المسلمين والجماعة الإسلامية بباكستان) نوع من التأثير في ظهور بعض الحركات أو ظهور بعض المنظمات الفكرية في العالم الإسلامي، فهما من الحركات التي لها تجربة هامة جدا في الشارع الإسلامي، ولكن لم يكن لهما تأثير كبير في الجماعات الإسلامية في تركيا...ولا يوجد أي دليل تاريخي أو اجتماعي على هذا التأثير...ولم تكن حركة فتح الله كولن امتدادا لأي حركة أو أيدولوجية أخرى."[2]

ذلك أن " النماذج التي تطرحها حركة الخدمة من ذاتها فهي التي وضعت قيمها الاجتماعية والثقافية بنفسها، وتصنع مصادرها المادية بنفسها أيضا. إن الأعباء المادية والمعنوية للحركة تقع على كاهل المواطن التركي المؤمن والمضحي، وعلى المسلمين المفعمين بمشاعر الحب لعقيدتهم ودينهم. ولم يقبل فتح الله كولن أية مساعدة خارجية في أي أمر من الأمور أو في أية ساحة من الساحات. لأنه عد هذا استحقارا لمشاعر الكرم والجود والسخاء الموجودة لدى الشعب التركي"[3] .

إن الاستقلال المادي شرط أساس للتمكين لمشاريع قوية عصية على استخدامها لأهداف غير التي أنشئت من أجلها، خصوصا عندما ترتبط هذه الأهداف بحقائق إيمانية سامية، ولذلك يوصي كولن " بألا ترتبط الحقائق الخالدة الباقية بالأشياء المتغيرة. فكما لا يصح لك أن تؤسس أهم مؤسساتك وأكثرها حيوية وأهمية فوق جزيرة عائمة وسابحة في

[1] ونحن نبني حضارتنا، ص: 46

[2] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 96

[3] المصدر نفسه، ص: 100

البحر، كذلك لا يصح لك تسليم إدارة ودفة أمورك إلى نظم هي في يد الآخرين "[1].
ويعلل ذلك بأن الاعتماد على الغير رهان خاسر ومآله الفشل المحقق، ذلك لأن " القوى التي لا تعتمد في وجودها وعدمها،أو تجمعها أو تفتتها علينا، ولا نؤثر نحن فيها فمن العبث قيامنا بعقد أي أمل عليها "[2].

يؤكد الأستاذ محمد فتح الله كولن على حواريي (الخدمة) بأن يستغنوا عن دنيا الآخرين، وألا يجعلوا ما يبذلونه من جهود وتضحيات ـ وبخاصة الدعاة والمبلغين ـ جسرا إلى جيوب المستهدفين بالخطاب، فيقل تأثيرهم ويقدموا البرهان العملي لخصومهم وأعدائهم لتشويههم وصد الناس عنهم وعن دعوتهم، لأن المرشدين والمبلغين . ـ كما يقول كولن ـ " عندما يؤدون ما تعهده الأنبياء عليهم السلام من وظيفة الإرشاد يسلكون طريق الأنبياء. ولاسيما من يتقدم إلى مهمة التبليغ في الوقت الحاضر، عليه أن يستمع بقلب شهيد . أكثر من غيره . إلى المرشد الكامل (النورسي) الذي نور الله عقله كقلبه، وقلبه كعقله؛ إذ يقول: إن أهل الضلالة يتهمون العلماء باتخاذهم العلم مغنما، فيهاجمونهم ظلما وعدوانا بقولهم: إنهم يجعلون العلم والدين وسيلة لكسب معيشتهم فيجب تكذيب هؤلاء تكذيبا فعليا.

نعم لابد من تكذيب أهل الدنيا فعلا، وإلا فما عداه كلام لا طائل وراءه. تتولى خدمة الإسلام جماعة من المحتسبين لله في كل زمن، على سطح الأرض. فهؤلاء المضحون لأجل سعادة الإنسانية، يعلمونها كيف يكون المبلغ الصادق. فهذه الزمرة الصادقة مع الله تعمل حسبة لله إلى حد تكاد تكفي تركته لكفنه، وقد لا تكفي أحيانا. فأنا أُجَمِّلُ خيالي بهؤلاء البررة، إنهم حملة عظماء لدعوة عظيمة.

لقد شاهدت هذه الأمة الكثيرين ممن يتمشدقون بالحياة الإسلامية، واستمعوا إليهم كثيرا، ولكن كلما شاهدوهم واستمعوا إليهم خاب ظنهم أكثر. وقد لا تتحمل هذه الأمة خداعا أكثر من هذا، فهي الآن تنظر إلى الحياة الإسلامية المعيشة لا إلى الكلام

[1] الموازين، ص: 53

[2] المصدر نفسه، ص: 52

وتحتضن كل من يعيش بكلامه فعلا حياة إسلامية، بل تضحي في سبيله، بينما لا تعير سمعا ولاتكترث بمن لا يعمل بما علم"[1].

إن الركون إلى الملإ من أهل الأموال والمناصب والجاه، والاستناد إليهم ـ وهم غير مؤمنين بمشاريع الحركة ومنطلقاتها وأهدافها ـ مغامرة خطيرة، كثيرا ما أفقدت العاملين بوصلة اتجاههم الحقيقي وحرفت قبلة الجماعات، وحولتها إلى وسيلة لتحقيق مهام أخرى لجهات بعيدة عن ولائها للأمة.

لأجل ذلك يرسخ الأستاذ كولن مفهوم الاستقلالية والتميز عن الحكام والدوائر الرسمية. في الوقت الذي يؤكد على تجنب مصادمتها ومواجهتها، ويستدعي نماذج من أحرار هذه الأمة وعلمائها وقضاتها الذين اختاروا سبيل النصيحة بعيدا عن الدخول تحت منة عطاءات السلطان وقيوده، يقول في ذلك: " ورسالة سفيان الثوري إلى الخليفة هارون الرشيد معروفة ومشهورة، وهي أنموذج لكيفية المعاملة مع الحكام؛ إذ لما تولى هارون الرشيد الخليفة انتظر أن يأتي صديقه الحميم السابق سفيان الثوري لمبايعته ـ وهذا من حقه بلا شك ـ بيد أن سفيان لم يفكر مثله قط.ولم يتمالك هارون الرشيد فكتب إليه رسالة،عاتبه فيها عتابا رقيقا جاء فيها :...واعلم يا أبا عبد الله أنه ما بقي من إخواني وإخوانك أحد إلا وقد زارني وهنأني بما صرت إليه، وقد فتحت بيوت الأموال وأعطيتهم الجوائز السنية ما فرحت به نفسي،وقرت به عيني، وإني استبطأتك فلم تأتني، وقد كتبت لك كتابا شوقا مني إليك شديدا، وقد علمت يا أبا عبد الله ما جاء في فضل المؤمن وزيارته ومواصلته...ولما رأى سفيان الكتاب ارتعد وتباعد منه...وأدخل يده في كمه ولفها بعباءته وأخذه، فقلبه بيده ثم رماه إلى من كان خلفه وقال: يأخذه بعضكم يقرؤه، فإني أستغفر الله أن أمس شيئا مسه ظالم بيده..فأخذه بعضهم..ثم فضه وقرأه، وأقبل سفيان يبتسم تبسم المتعجب فلما فرغ من قراءته قال: اقلبوه واكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه،فقيل له : يا أبا عبد الله إنه خليفة، فلو كتبت إليه في قرطاس نقي،فقال: اكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه، فإن كان اكتسبه من حلال فسوف يجزى به، وإن كان اكتسبه من

[1] طرق الإرشاد، ص: 101

حرام فسوف يصلى به ولا يبقى شيء مسه ظالم عندنا فيفسد علينا ديننا، فقيل له: ما نكتب؟ فقال: اكتبوا:

بسم الله الرحمان الرحيم، من العبد المذنب سفيان بن سعيد بن المنذر الثوري إلى العبد المغرور بالآمال هارون الرشيد الذي سلب حلاوة الإيمان..أما بعد: فإنك قد جعلتني شاهدا عليك بإقرارك على نفسك في كتابك بما هجمت به على بيت مال المسلمين فأنفقته في غير حقه وأنفذته في غير حكمه.. فشد يا هارون مئزرك، وأَعِدَّ للمسألة جوابا،وللبلاء جلبابا، واعلم أنك ستقف بين يدي الحكم العدل...

وبقية الحادثة يذكرها أحد الشهود في قصر الرشيد فيقول: فأقبل هارون يقرأ الكتاب ودموعه تنحدر من عينيه ويقرأ ويشهق..ثم لم يزل كتاب سفيان إلى جنب هارون يقرؤه عند كل صلاة حتى توفي رحمه الله.

ترى، ما القوة، وأين مكمن الشجاعة ومنبع الجرأءة حتى خاطب الخليفة بهذا الأسلوب؟ هذه القوة هي عدم رضوخه لمتاع الدنيا، وتجاوزه الدنيا وكل ما سوى الله. ولوكان كأمثاله مرتبطا بالدنيا لما استطاع أن يخاطب الخليفة بهذا الأسلوب.علما أن ذلك الخليفة كان مؤديا لصلواته الخمس يوميا، وقد حج مرارا واعتمر، وله من النوافل ما له من صيام وقيام، فضلا على رقة قلبه ولطفه، ولكن الأمر هو أن له بعض أعمال يأثم مرتكبها فأيقظه أحد أصدقائه السابقين بهذا الأسلوب.

وقفة قصيرة هنا لأعرض وصيتي الأولى والأخيرة إلى الأجيال المقبلة الذين ينتظر منهم خلاص الإنسانية: كونوا أعزاء كرماء. لا تدعوا مراكز القوى المعلومة أن تمكن منكم. وحتى إن ترددتم عليهم لأجل دعوتكم فكونوا مستغنين دائما، وإياكم أن تدخلوا ضمن قيود الآخرين لدى نشركم الحق والحقيقة. إن ما وضع الله سبحانه من أسس وقواعد لمن الأهمية بمكان. وأنتم ليس عليكم إلا إظهار العبودية له. وعندها يكون لكلامكم تأثير ووقع، ويتقبل تبليغكم في وجدان الآخرين"[1].

[1] طرق الإرشاد، ص: 102 – 103– 104

لقد اعتمدت حركة الخدمة وصية كولن وانتفعت بها واعتصمت ببركات الاستقلال المادي والتمويلي فلم تؤثر فيها بشكل كبير الهزة الأخيرة بفعل السجال والتدافع مع مواقف الحكومة التركية منها ومن بعض تحركات محبيها في بعض مراكز الدولة.

يقول أنس أركنه: " كثير من الجماعات الدينية تقبل مساعدات الدولة ودعم أردوغان شخصيا في بعض الأحيان. لكن حركة الخدمة حركة نماذجها من ذاتها. فهي استطاعت أن تؤسس ذاتها بذاتها من دون اللجوء إلى أي وسيلة مرتبطة بالدولة أو السياسة. حركة الخدمة مستقلة تماما ولا تحتاج لأي مساعدات من الدولة، وهي بالتالي مستغنية عن أمثال أردوغان، لهذا السبب فهو يرى فيها قوة وتميزا لا يستطيع السيطرة عليها"[1].

تستند حركة الخدمة ـ في حرصها على حرية قراراتها واستقلالها واستغنائها عن غيرها ـ إلى هدي النبي صلى الله عليه و سلم الذي أسس مجتمعا قويا بالمدينة المنورة وواجه مشكلة هيمنة اليهود على حركة الأموال؛ " فقد رأى الرسول صلى الله عليه وسلم أن اليهود هم المسيطرون على الحياة التجارية في المدينة، فأصدر أمره بتأسيس سوق للمسلمين في مكان آخر، لكي يتعاطى المسلمون عمليات البيع والشراء فيما بينهم في سوقهم الخاصة بهم من أجل أن يدخل المسلمون إلى عالم التجارة ويزدادوا قدرة وقوة ويؤسسوا محالهم التجارية الخاصة بهم ويقضوا على هيمنة غير المسلمين على السوق...ولم يمر وقت طويل حتى عجز اليهود عن مواصلة التجارة في المدينة المنورة.

أجل، فلم يعد باستطاعة أحد منافسة المسلمين تجاريا في سوق المسلمين. وهذا ما كان الله تعالى يريده... فالله تعالى لا يريد من المسلمين أن يكونوا تابعين لأحد...إن الله لا يرضى لنا أن ننتظر الأوامر الصادرة من الآخرين ولا أن نلتجئ للآخرين ونرجو منهم أن يحلوا لنا مشاكلنا ونستعطفهم قائلين: نرجو ونتوسل منكم أن تحلو لنا المشكلة الفلانية...هذا لا يرضاه لنا.

[1] الملف التركي، 12 / 3 / 2014 www.almelafalturki.com

يجب أن يكون المؤمن عزيز الجانب واقفا على قدميه ينجز أعماله بيده ويحل بنفسه مشاكله، ويرى بعينه لا بعيون الآخرين ويعيش حسب معتقداته ويحافظ على أصالته. وهذا ما أسسه الرسول صلى الله عليه و سلم في المدينة "[1].

[1] النور الخالد، ص: 365

المبحث الثاني: أركان الخدمة المادية

المطلب الأول : التمويل الذاتي عن طريق الجهاد المالي

1. الخدمة تحت ظل شجرة "الصحبة "المباركة تسقى من عين "الهمة" الكريمة

مثل الجهاد بالمال أساسا مهما من الأسس التي قامت عليها منجزات الدعوات الإصلاحية الكبرى خصوصا رسالات النبوة وفي مقدمتها رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، فقد كان لنفقات جيل الصحابة مقام معلوم عال في بناء مجتمع المدينة وتحقيق الممانعة ضد المتربصين بمشاريع الإيمان والهدى والخير، الصادين عن نور النبوة،أعداء الإنسان، الأشقياء الذين يبغونها عوجا.

إن القرآن الكريم وهدي النبي صلى الله عليه وسلم ناطقان بأهمية البذل والتضحية بالمال في سبيل الله، ويرسخان كون الإيمان والبخل لا يلتقيان؛ إذا حضر أحدهما ضعف الآخر أو غاب .

ولقد ازدادت أهمية المال في الدعوات المعاصرة مع اتساع وسائل التأثير المدنية،وكثرة أدوات التواصل، وتنافس القنوات في استقطاب العقول وبسط المعتقدات والنظريات والأفكار وصياغة الأجيال بأسلحة أقوى وأشد من أسلحة الفتك والدمار.

نهجت الخدمة أسلوب التمكن من خلال إرساء مشاريع مؤسسية اعتمادا على مصادر تمويل ذاتية، انطلق في ذلك أهلها من أن " انتشار الدين في العالم معتمد الآن على النقود أي على الرأسمال أيضا، وعلى قوة تمويل المشاريع الدعوية "[1] .

ولذلك تقرر عندهم أنه " يجب أن يكسب المسلم ويكون غنيا، لكن على شرط ألا يستولي حب المال على قلبه. بل يضع ذلك المال في مكان (حرز) بتعبير الفقهاء بعيد عن يد اللصوص ثم يصرفه في وجوه منافع الأمة. فلولا هذا التمويل هل كان يمكن تحقيق هذه المشاريع الكبيرة؟"[2].

---

[1] أضواء قرآنية، ص: 202

[2] المصدر نفسه، ص: 202

لأجل ذلك ينفث كولن في أتباعه روح الإنفاق، حتى إنه يدعوهم إلى السعي بكل ما أوتوا لتحصيل المال لتحقيق فعل الزكاة، إنه منذ البداية يربيهم على العطاء ويدعوهم إلى مجاهدة الشح والرهبانية، "ففي تفسيره لقوله تعالى :﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤﴾ الآية 4 المؤمنون. فإنهم ينقلون عنه تفسيرا أبلغ من التفسير المعروف الذي يعني أنهم يؤدون الزكاة، فهو يرى أن أهل المحبة والدعوة يعملون بجد لتحصيل الأموال التي تؤهلهم لإخراج الزكاة، بمعنى أنهم زاهدون في ذواتهم، ويكفيهم القليل وهو دون النصاب المطلوب لإخراج الزكاة، لكن حرصهم على إخراج الزكاة هو الذي يجعلهم يجدون ويجتهدون ويطرقون أسباب الرزق الحلال، داخلين عليه من كل باب"[1].

وفي سبيل ترسيخ ثقافة التضحية بالمال لتمويل مشاريع الخدمة وإسنادها وتوسيع مجالاتها وتجديد آفاقها، تعقد مجالس (الصحبة) و(الهمة) [2] حيث "يستخدم فيها الداعية علمه وإخلاصه لإقناع السامعين بضرورة العمل والتطوع في سبيل الله، وما إن يتأثر الفرد بهذا الخطاب ويقوم بالتطوع من ضمن المستهدفين الذين يطلق عليهم"الأصناف" حتى يصبح معروفا بـ"المتولي" إذ يبدأ بالإنفاق على أي نشاط أو مشروع. وفي هذا السياق تقام مجالس تخصصية لهؤلاء المتطوعين يسمى أحدها"مجلس همة " حيث يتسابق أهل الخدمة في التبرع والتطوع و يتكرر هذا المجلس مرات ومرات في السنة، وذلك على غرار ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم "[3].

لقد أقنع الأستاذ محمد فتح الله كولن حوارييه بأن العمود الفقري لمشاريع الخدمة هو التضحية من خلال قاله وحاله وكسب ثقتهم لعدم اغتنائه بهذه المشاريع و حرصه على عدم استغلالها وتفضيله الزهد[4]، وإشفاقه على غيره ممن يهم بالتبرع بكل شيء،مثلما فعل شخص لا يملك إلا بيته أراد أن يسلم مفتاحه لكولن ولكنه رفض ووجهه إلى أن ينفق عندما يملك[5].

---

[1] عبقرية كولن، ص: 143

[2] la Societe civile p 68 , 69

[3] عبقرية كولن، ص: 185-186

[4] la Societe civile p 64

[5] المصدر نفسه، ص: 63-64

إن خلق الإنفاق أصيل في حركة الخدمة، وهذا ما يفسر انتشار مشاريعها ونموها بشكل متزايد عبر أنحاء العالم، خصوصا وأن خوجة أفندي لا يكف عن توجيه تلاميذه بأن "الزكاة التي تساوي 2,5% هي عطاء البخلاء، أما الكرماء الأسخياء فإنهم كالصحابة الكرام، فيهم من ينفق ماله كله أو ثلثيه أو نصفه أو ثلثه أو ربعه أو نحو ذلك. وقد علل كولن ذلك بأنهم يعيشون الفترة المكية، ومن ثم لابد لهم أن يشدوا الهمم ويطبقوا أحكام الإحسان ، وهو الذروة العالية من الإيمان، ولهذا يسمون فترات جمع الأموال والتبرعات بـ (مواسم الهمة)، والمجلس الذي يجمع فيه المال للدعوة يسمى (مجلس همة) و التسابق بين التجار غالبا ما يكون على إعطاء المنح الدراسية، وبناء المساكن الطلابية، وفي تنافس كبار التجار الذي يتكرر مرات في العام الواحد، لا يقل نصيب الواحد من هؤلاء عن تسع وتسعين منحة، تبركا بأسماء الله الحسنى"[1].

وفي جو هذا التسابق قد ينقلب الشخص من الإنفاق مكرها أو حياء من الآخرين إلى سخي كريم مستعد للتضحية الكبيرة، كما حدث لأحد التجار " الذي ذكر أنه أخرج في أول الأمر بضعة آلاف من الدولارات مكرها نتيجة حيائه من الحضور، وشعر حينها كأن قطعة قد نزعت من جسمه، لكنه بعد التدرب والترقي في هذا الطريق صار يتلذذ بالإنفاق،وذكر أنه وأمثاله لو دعاهم كولن لإنفاق أموالهم كلها لما ترددوا "[2] .

إن مما يميز أبناء الخدمة وأنصارها أن نفقاتهم في سبيل مشاريع الحركة تتراوح بين 10 إلى 70 % . وأحد رجال الأعمال دخله من 4 إلى 5 مليون دولار سنويا يعطي 20 في المائة. وأكثر من 80 من أصدقائه ينفقون حسب دخلهم بسخاء [3]، حتى طلبة السلك الثالث في أمريكا من أبناء الخدمة يتدربون على الإنفاق؛ إذ يقدمون 10 في المائة من منحهم الدراسية لمشروع الخدمة، ويضحون ب 20 إلى 30 ساعة أسبوعيا لبرامج institut pour le dialogue intereligieux de houston texas الذي

[1] عبقرية كولن، ص: 143-144

[2] المصدر نفسه، ص: 144

[3] la Societe civile p 68

تأسس سنة 2002[1]. وعندما يتخرج هؤلاء الطلبة يتضاعف عطاؤهم و بذلهم حتى يصل إلى 40 في المائة من دخلهم[2].

لقد استمر سعي كولن في سبيل تعميق ثقافة الإنفاق والبذل والعطاء، والبحث عن جذور المعنى الحاضنة لهذه الثقافة، والتذكير المتواصل بالمناخ الذي يوفر فرص تجديد التضحيات؛ فكان يتحدث كثيرا عن ارتباط الجهاد بالمال والنفس بالإيمان، ويعلل ذلك بقوله: " إن المزارعين إن اطمئنوا ووثقوا أن البذور التي يبذرونها في الأرض سوف لن تتفسخ هناك، فإنهم لا يترددون أبدا في بذر كل البذور التي يملكونها في التربة ثم يبدأون بالانتظار.

ولو اطمأن أصحاب البساتين بأن الفسائل التي يزرعونها سوف تنمو وتبسق فلن يترددوا أبدا في زراعة جميع الفسائل التي يملكونها دون إهمال أو ترك فسيلة واحدة.والذين يملكون أجهزة تفريخ البيض سيقومون باستعمال هذا البيض في تلك الأجهزة أو يضعونه تحت الدجاج لكي لا يفسد. ولكن إن لم تكن ثقة هؤلاء الأشخاص بهذا المستوى، وشكوا بأن بعض البذور ستفسد وبعض البيض لن ينتج الفراخ، أو ظنوا بأن ذلك الموسم غير صالح لبذر البذور، فمن الطبيعي أنهم لن يبذروا كل بذورهم، بل يبقون مقدارا منها في أيديهم، وسيقومون بكنز أموالهم ليبقى قسم منها لأحفادهم، لذا لن يتصرفوا بسخاء وكرم.

من هذا المنطق نستطيع القول بأن التضحية في سبيل الله مرتبطة بمقدار ثقتنا بالله تعالى وإيماننا به. فلو آمنا بأنه موجود مثل إيماننا بوجودنا، ولو آمنا بأن أي شيء نعمله في سبيله سيرجع إلينا أضعافا مضاعفة، وأنه سيزهر و سيثمر في العالم الآخر مصداقا لقول الرسول صلى الله عليه و سلم: " الدنيا مزرعة الآخرة "[3]...لو آمنا بأن الدنيا مزرعة الآخرة وبستانها وحديقتها لما قصرنا أبدا في التضحية والبذل.

---

[1] la Societe civile p 70-71

[2] المصدر نفسه، ص:71

[3] قال فيه السخاوي لا أصل له. المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة . محمد بن عبد الرحمان السخاوي . تحقيق محمد عثمان الخشت, ط2 دار الكتاب العربي 1414هـ، ص: 260

أجل فما نقدمه من عمل ومن تضحية ومن كرم وبذل مرتبط بمدى إيماننا وبقوة هذا الإيمان. وما بذله المسلمون حتى الآن من سخاء وكرم يزيد من أملنا في أنهم يستطيعون إنجاز أعمال أكبر. وكما تعلمون فإن هناك بشارات من الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم، فلنسع جميعا لأن نكون مظهرا لهذه البشارات حتى يتحدث أهل السماء و يقولوا: " يا رسول الله ! أهؤلاء هم الذين عنيتهم؟ " أجل فكلما بذل خدام الإسلام مما يملكون وكلما زادت شهامتهم وتضحياتهم في هذا السبيل، كلما اقتربنا من الهدف المرسوم بسرعة أكبر و بصورة أفضل "[1].

المطلب الثاني: التشجيع على الاستثمار وتوسيع مجالاته: توسكون

من الفئات المهمة التي استهدفها خطاب كولن ومشروعه الإصلاحي فئة التجار ورجال المال والأعمال، حتى ينشأ منهم أبطال الخدمة وفدائيو المحبة، تأوي إليهم مشاريع الخدمة وتستمد منهم قوة الاستمرار والانتشار، فالمال والتضحية قوام هذه الحركة وزينتها،وما تثمره من خدمة الأفراد والمجتمعات باقيات للجيل القادم تعيه أذنه الواعية ويحتضن مستقبلها.

يقول كولن في بيان أهمية الاستثمار: " ومهما تقدم العلم والتكنولوجيا فإن دور التجارة سيبقى دورا متميزا وأكبر مما يتصوره الكثيرون، بل ستكون الحكومات والإداريون تحت وصاية التجارة، فلا تستطيع هذه الحكومات إدامة حياتها إلا بتأييد من قبل أرباب التجارة"[2].

ومن ثم ينصح التجار بأن " الاستقامة والأمانة وإدراك روح العصر الحالي والتصرف بكل لياقة وأدب مع الزبائن هو روح التجارة " [3]، وألا يكونوا مثل سوء في المعاملة، لأن " رجل الأعمال المحتال أو التاجر المحتال يعصي ربه أولا و يعصي ضميره ثانيا، و بعد أن ينفضح أمره بين الناس يفقد احترامه بين الناس وتبدأ أرباحه

[1] أسئلة العصر المحيرة، ص: 302-303

[2] الموازين، ص: 84

[3] المصدر نفسه، ص: 84

بالتناقص ثم بالخسارة "[1].ويدعو إلى النظر إلى التزام التاجر الصادق في تعامله بعدسة العبادة وتحري الكسب الطيب ؛ ذلك أن " الوقت الذي يقضيه التاجر الذي يراعي الحلال والحرام في تجارته يعد عبادة "[2].

بعد أن ازداد عدد رجال المال والأعمال الذين يحتضنون مشاريع الخدمة، أوصاهم كولن بأن يتوحدوا في إطار قوي، فتأسس اتحاد رجال الأعمال والصناعيين الأتراك (tuskon) الذي يضم رجال أعمال غير مسلمين بما فيهم اليهود "[3].

يقول فؤاد البنا عن توسكون:" تأسست هذه الجمعية عام 1992م باتحاد عدد من الجمعيات، من مدن تركية عدة، وظلت تنمو حتى أصبحت الأولى والأهم في تركيا،حيث تضم 160 جمعية في 80 مدينة تركية، ولها أنشطة في 140 دولة في العالم وهي الجمعية الأجنبية الوحيدة المعترف بها رسميا في الصين.

وتستضيف توسكون آلاف التجار سنويا في تركيا من أنحاء العالم (11 ألف تاجر سنة2010 م) ولها أنشطة تربوية وتدريبية كثيرة، حيث أقامت 1500 نشاطا شارك فيها 160 ألف شخص، وتبنت العديد من البرامج مثل " جسور التجارة " التي تربط آلاف التجار الأتراك بعشرات الآلاف من التجار في أنحاء العالم .

تتولى توسكون استضافة عشرات الرؤساء من كل أنحاء العالم في تركيا، والترتيب لزيارة رؤساء الأتراك إلى كافة بلدان العالم، وقبل هذا وبعده فإنها تقدم الخبرات والمشورات والنصائح لأعضائها التجار بما يحقق الأرباح لهم والفائدة العامة للمجتمع في ظل التواؤم مع القيم الإسلامية .

ويتسابق هؤلاء على تبني مشاريع الخدمة في سائر دول العالم، من خلال مجالس الهمة التي يتنافسون فيها على الإنفاق "[4].

ومن أعظم المجالات التي استثمر فيها المنضوون تحت جمعية " توسكون":

---

[1] الموازين ، ص: 84

[2] المصدر نفسه، ص: 84

[3] la Societe civile p 22

[4] عبقرية كولن، ص: 241 – 242

أ. "إنشاء المدارس والمؤسسات التعليمية والعلمية والطبية المبثوثة في العالم، فتتكفل كل شركة أو مؤسسة بمدارس مخصوصة يتولون تسديد كل نفقاتها التي تعود في نهاية المطاف إلى خدمة الفقراء والمساكين

ب . دفع منح دراسية لصالح الطلبة الفقراء من أهل البلد الذي يزاولون فيه تجارتهم، كما قد يغطون نفقات تعلم اللغات والإعلام الآلي، وتصل أحيانا حد دفع نفقات الاستشفاء في بعض البلدان بالنسبة للفقراء والمساكين .

ج . تشغيل اليد العاملة المتخصصة .

د . إعانة المحتاجين في كثير من المناسبات الدينية منها شهر رمضان ، ومنح مساعدات مالية عينية لصالح فقراء البلد الذي تتحرك فيه الصناعة و التجارة "[1].

وحتى يحافظ رجال الأعمال هؤلاء . ـ أبطال وفدائيو المحبة من أنصار حركة الخدمةـ على حيويتهم وعملهم الإيجابي، يعقدون اجتماعات أسبوعية لتدارس مشاريعهم،ومناقشة كتب الأستاذ ومقالاته،وتطوير منتوجاتهم وتبادل تجاربهم[2].

تملك حركة الخدمة بنكا يسمى بنك "آسيا" يقوم بتقديم الحلول المالية الإسلامية التي تمكن أصحاب المشروعات أو أصحاب الأفكار من تنفيذها على أرض الواقع بمساعدة البنك[3].

المطلب الثالث: العمل الخيري و الإغاثي : هل من مغيث؛ أو هل من أحد

ركزت حركة الخدمة اهتمامها الكبير على مقاومة الجهل بفتح المدارس والتشجيع عليها، ومواجهة الفرقة والتنازع بالحوار وتأسيس منابر متعددة، والفقر بالإغاثة والجمعيات الخيرية [1].

---

[1] محاربة الفقر: المنطلقات والغايات، حركة فتح الله كولن أنموذجا، د.عمار جيدل، مستقبل الإصلاح،ص: 467-468

[2] la societe civile p 64 -65

[3] برامج ومشروعات، مكافحة الفقر في الداخل والخارج: نماذج مختارة، أيمن عبد الله شحاتة،مستقبل الإصلاح، ص: 486

وأنشأت جمعية خيرية كبيرة أطلق عليها «هل من أحد kimse yok mu [2]» تأسست سنة 2004. تستمد اسمها من اسم برنامج تليفزيوني في قناة الدرب التبانة « samanyolu » الذي كان يغطي أحداث زلزال وقع عام 1999 في منطقة (مرمرة) حيث قتل حوالي 35 ألف تركي .

وتعد " هل من أحد " من أكبر الجمعيات الخيرية في تركيا و الشرق الأوسط ولها حوالي 81 فرعا في تركيا. وفي خارج تركيا لها تواجد في البلدان الأوروبية التي بها جالية تركية كبيرة مثل ألمانيا [3].

بلغ حجم عملياتها الدولية حوالي 40 % من أعمالها وتزداد وقت الكوارث. وتقيم الجمعية مكاتب مؤقتة تستمر طوال مشروع الإغاثة الإنسانية. وتقوم هذه المكاتب بتنسيق الجهود بين الجمعية الأم وبين السلطات الرسمية التركية وبين الإدارة المحلية للمنطقة المنكوبة.

تدعم الخطوط الجوية التركية بعض المشروعات خارج الوطن من خلال تقديم تذاكر مجانية للمتطوعين، ومن خلال وزارة الصحة التي تمدها بأطباء وموظفي الصحة وكذلك تفعل وزارة الخارجية بتزويدها بالإرشادات المهمة[4].

وكان للجمعية دور بارز في مساعدة ضحايا تسونامي أندونيسيا 2006 من خلال تقديم ألبسة وأغذية وأدوية وتطهير المياه وإصلاح المنازل، وفي زلزال باكستان 2005 بإيواء 5000 فرد خلال ستة أشهر وبناء 10مدارس ليديرها وزير التعليم الباكستاني بعد ذلك.

---

[1] la societe civile p 49- 50

[2] اسمها باللغة الانجليزية kimse yok mu and solidarity association

[3] برامج ومشروعات، مكافحة الفقر في الداخل والخارج: نماذج مختارة، مستقبل الإصلاح، ص: 479، la societe civile p 50 . عبقرية كولن، ص: 237

[4] برامج ومشروعات، مكافحة الفقر في الداخل والخارج: نماذج مختارة، مستقبل الإصلاح، ص:493

كما قدمت مساعدات لضحايا الاجتياح الإسرائيلي للبنان 2006 والاعتداء الصهيوني على غزة 2008. وحضرت زلازل هايتي في أمريكا اللاتينية وزلزال اليابان.

قامت "هل من أحد" بالتدخل في الأحداث الداخلية التالية:

ا. زلزال "دوغو بيازت" في محافظة أغرى، وزلزال "كارلي أووا" في محافظة بينجول[1] وزلزال "دنيزلي".

ب . فيضانات جنوب شرق تركيا وفيضانات(تراقيا) غرب تركيا وفيضان منطقة البحر الأسود وفيضان إسكندرون والمساعدة في التغلب على حريق الغابات في مرسين "[2].

وبدأ توجه الجمعية إلى إفريقيا سنة 2007[3] حيث أجرت على سبيل المثال آلاف العمليات الطبية في السودان فأعادت البصر لثمانية آلاف سوداني كانوا قد أصيبوا بالعمى نتيجة إصابة بأحد أمراض العيون الخطيرة [4]، وبنت مستوصفا بدارفور وعيادة لأمراض العيون بالسودان تم تسليمها لوزارة الصحة السودانية[5].

تقوم حركة الخدمة عن طريق جمعيتها الخيرية بتوزيع الأضاحي على المحتاجين فمثلا في عيد الأضحى 2008 تلقى أزيد من مليون ونصف شخص لحوم الأضاحي عبر 50 دولة استفاد منها المسلمون وغيرهم[6].

وقد تمكن تيار الخدمة من "إيواء ثلاثين ألف أسرة جاءت من وسط آسيا بعد سقوط الاتحاد السوفياتي حيث قاد كولن بنفسه حملة عريضة لإنجاد ما سماهم بإخوة الدم

---

[1] تقع في شرق تركيا في منطقة الأناضول(أطلس العالم، ص: 67)

[2] برامج ومشروعات، مكافحة الفقر في الداخل والخارج: نماذج مختارة،مستقبل الإصلاح، ص: 490

[3] la sosiete civile p 51-50. عبقرية كولن، ص: 237

[4] عبقرية كولن، ص: 237

[5] برامج ومشروعات، مكافحة الفقر في الداخل والخارج: نماذج مختارة، مستقبل الإصلاح، ص: 484

[6] la societe civile p 55

والدين؛ لأنهم ينتمون إلى أصول تركية وإلى الإسلام. ثم انتقلت بعدها مدارس التيار وجمعياته إلى الجمهوريات الإسلامية الست في وسط آسيا ليصبح لها الحضور العريض والمكلل بالمجد والفخار في أواسط الأتراك وأبناء تلك الشعوب "[1].

من أنشطة الجمعية داخل تركيا:

أ . " الإغاثة العاجلة لضحايا الكوارث (الزلازل والحرائق).

ب . توزيع المواد الغذائية على المحتاجين.

ج . الإفطار الجماعي الرمضاني .

د . مساعدة أسر الشهداء والمشردين ودور الأيتام في الأعياد.

هـ . تمكين الطلبة المحتاجين من الأدوات والحاجات الأساسية للدراسة (تمت مساعدة 1000 تلميذ سنة 2006).

و. مساعدة الأطفال في وضعيات صعبة.

ز. الانخراط في محو الأمية "[2]

ومن إبداعات حركة الخدمة في التكافل الاجتماعي:

1." (برنامج الأسرة الشقيقة) وتوأمة العائلة الغنية والمتوسطة مع العائلة المحتاجة لتجاوز الصعوبات المادية؛ حيث تدعو جمعية (هل من مغيث) أسرة غنية لزيارة أسرة فقيرة وتقنعها بتبني مطالبها ومعالجة حاجاتها في تكاليف التعليم والعمل والزواج مباشرة وبدون واسطة. وهناك آلاف الأسر مرتبطة ببعضها بهذه الطريقة.

استهدفت الجمعية في هذا السياق تآخي مائة ألف أسرة خلال خمس سنوات بدءا من 2008" [1].

---

[1] عبقرية كولن، ص: 101

[2] la societe civile p51-52 . برامج ومشروعات مكافحة الفقر في الداخل والخارج: نماذج مختارة، مستقبل الإصلاح، ص: 487-488

2. "مشروع (المتمسكون بالحياة من جديد) يقوم على إكساب الفقراء حرفة مفيدة تساعدهم على إعالة أنفسهم، ثم في المساعدة في إعالة غيرهم، كالخياطة والمشاريع التجارية الصغيرة "[2].

3. "وعلى المستوى الصحي أنشأت حركة الخدمة عدة مستشفيات في تركيا،بعضها في المدن الكبيرة: إسطنبول ـ إزمير ـ قونيا، تديرها إدارة مستقلة تتكفل بكل مستلزمات العمل الاستشفائي الناجح، أشهرها "سما" المتميز بخدمات عالية. وتوفر للفقراء والمساكين تخفيضات خاصة على مستوى التشخيص والاستشفاء والتداوي. وتستوعب هذه المستشفيات المتخرجين في الكثير من التخصصات الطبية والإدارية والمالية من أبناء الخدمة. كما تقوم بتنظيم رحلات طبية لبعض الدول الإفريقية "[3].

طريقة عمل الجمعية ومنهج اشتغالها:

تنهج الجمعية أسلوبا متميزا في عملها إذ يتم التواصل معها "من طرف المحتاجين مباشرة أو عن طريق البريد الإلكتروني أو الهاتف، وبعد ذلك تقوم الجمعية بدراسة الحالة عن طريق الأخصائيين الاجتماعيين بها، وذلك بفحص البيانات التي تم تقديمها في استمارة يملؤها المحتاج عند التقديم. وفي حالة الكوارث العامة تقوم الجمعية بالتحرك وتنظيم حملة فور وقوع أي كارثة "[4].

---

[1] la societe civile p 50 . برامج ومشروعات، مكافحة الفقر في الداخل والخارج: نماذج مختارة، مستقبل الإصلاح، ص:484 . عبقرية كولن، ص: 238

[2] عبقرية كولن، ص: 238

[3] محاربة الفقر: المنطلقات والغايات، حركة فتح الله كولن أنموذجا، د.عمار جيدل، مستقبل الإصلاح، ص:468-469. عبقرية كولن، ص: 100

[4] برامج ومشروعات، مكافحة الفقر في الداخل والخارج: نماذج مختارة، مستقبل الإصلاح، ص: 491

تستقبل الجمعية التبرعات العينية، من أطعمة وألبسة ومواد صحية، تخزنها وتوزعها، عادة عن طريق المتبرعين بأنفسهم أو المتطوعين الذين قد يصل عددهم إلى 7000 متطوع في جميع أنحاء تركيا[1].

وفي سبيل مضاعفة نسبة هؤلاء المتطوعين " تقوم الجمعية بالعديد من البرامج والأنشطة مثل تقديم العروض في المدارس والتنظيمات الجماعية التي يقوم بها المتطوعون، والزيارات التعريفية عبر الأنترنيت حيث يمكن لمن يريد التطوع أن يقوم بملء استمارة عن طريق الأنترنيت أو أقرب فرع، وتدعوهم إلى مقرات الجمعية للاطلاع على الأنشطة وكيفية العمل، كما تضع أمامهم مجالات التخصص في إدارة التطوع عبر شعب سبعة:

ـ ملاحظة الأسر المحتاجة . ـ تجهيز المساعدات .ـ توزيعها ـ الخدمة الفعالة وقت الكوارث ـ الإعلان والعلاقات العامة .ـ العمل المكتبي ـ الرعاية الصحية، ليختار كل واحد ما يناسبه منها "[2] .

ويتم استقبال التبرعات عن طريق:

ـ الحسابات البنكية والبريدية .

ـ التبرعات في المقرات المحلية .

ـ إقامة أكشاك تبرع في الشوارع المزدحمة .

ـ صناديق التبرع في المحلات التجارية .

ـ إقامة أجنحة في المعارض.

[1] برامج ومشروعات، مكافحة الفقر في الداخل والخارج: نماذج مختارة، مستقبل الإصلاح ، ص: 497

[2] المصدر نفسه ص: 491-492

- التبرع عبر الأنترنيت، حيث يقوم المتبرع باستخدام بطاقة الدفع الإلكتروني الخاصة به في تحويل الأموال إلى حساب الجمعية. وبدأت في استخدام هذه الطريقة سنة 2006، ووصل حجم التبرعات 2007 م، 588 ألف دولار.

ويتم أيضا استخدام الرسائل النصية الإلكترونية في التبرع حيث يقوم المتبرع بإرسال رسالة إلى رقم خاص بالجمعية، وتقوم شركة الهاتف المحمول بخصم مبلغ معين من حساب المتبرع وتحويله إلى حساب الجمعية، وغالبا ما تكلف رسالة المتبرع حوالي 1.5 دولار. وبدأت الجمعية في استخدام هذه الطريقة عام 2006 وبلغت التبرعات عبرها في 2007 حوالي 971 ألف دولار، تزداد هذه التبرعات في مواسم رمضان وعيد الأضحى، ومع ازدياد الكوارث[1].

[1] برامج ومشروعات، مكافحة الفقر في الداخل والخارج: نماذج مختارة، مستقبل الإصلاح، ص:496

الفصل الثالث

الخدمة

و

الأخلاق

تقديم

أثنى الله عز وجل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فقال: "وإنك لعلى خلق عظيم"، بهذا الخلق العظيم فتحت قلوب خلْق كثير، وأتم الله تعالى نوره على العالمين.

وما زالت المجتمعات في أمس الحاجة إلى رفع رصيد أبنائها من الأخلاق الكريمة، فإن ميزانها دقيق، وثمراتها عظيمة.

يأتي على رأس هذه الأخلاق : الاستقامة والصدق ، والإخلاص الذي هو ورقة اعتماد أهل الخدمة لدى الأمة والإنسانية معا.

يربط فتح الله كولن بين الإيمان والهجرة والجهاد في دعوته لأهل الخدمة أفرادا وجماعات إلى الارتقاء المستمر والتضحية المتواصلة، لإنشاء مؤسسات نافعة لمن حولهم من البشر. والسبيل الأساس إلى ذلك هو إنسان الخدمة ؛ صانع المشاريع العظمى وضامن مستقبلها، متى فقِه الحياة والممات، وجاهد لمقاومة الآثام الفردية والجماعية لإزالة آثار الغربة.

إن حركة الفرد ـ ضمن فريق متجانس ـ تحتاج إلى فنائه في المجتمع، واحتضانه للجميع، واستعداده للتطور السريع والاستفادة من خبرات غيره وتجديد وعيه وعزيمته.

المبحث الأول: أهمية الأخلاق في صياغة إنسان مجتمعي

المطلب الأول:الاستقامة بوصلة الأخـلاق

1. ميزان الأخلاق دقيق

من أهم ما يجلي حقيقة الأشخاص أخلاقهم، لأن "الإنسان مجهول بواجهته الخارجية، لا يظهر هويته الحقيقية إلا طبعه ومزاجه وسجيته. والناس مهما ظهروا بمظاهر مختلفة، فإن طبعهم وسجاياهم لابد أن تكشف عنهم في يوم من الأيام، وقد عبر عن هذا شاعر جاهلي بقول عارف:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة ❄ وإن خالها تخفى على الناس تعلم[1]

وبتعبير آخر، إن الخلق يصحح جميع تضليلات المظاهر وخداعات الأشكال فيكون مترجما لخفايا ذات الإنسان نفسه" [2]. والناس إنما تتفاوت أقدارهم ومواقعهم عند ربهم حسب نسب حظوظهم من الخلق الكريم؛ يقول الأستاذ كولن :"إن أوثق معيار للتعاون هو الخلق الحسن، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف، أما الحالات الخارقة والمقامات المحيرة والتصرفات الفائقة على طاقة البشر، حتى لو عدت أزاهير الخلق الحسن وثمراته فلا قيمة لها ما لم تقترن بالأخلاق الحسنة.

أما يقول صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم :" خياركم أحاسنكم أخلاقا" [3] عندما سئل:أي المؤمنين أفضل؟

ولم لا،فإن الله سبحانه وتعالى،" قد وصف أفضل عباده وأكرمهم، في مقام التسلية والأمان والثناء بـ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ الآية 4. القلم. مع عظيم آلائه وعميم ألطافه عليه، بمعنى: إنك على خلق عظيم بحيث لا يمكن الإحاطة به ولا إدراكه بمداه

---

[1] البيت الشعري لزهير بن أبي سلمى، خزانة الأدب وغاية الأرب، تقي الدين أبو بكر علي بن عبد الله الحموي، تحقيق عصام شعيتو، ط 1، مكتبة الهلال، بيروت 1987، ج 2، ص: 492

[2] التلال الزمردية، ج 1، ص: 118

[3] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب حسن الخلق ، ح917، م4، ج 7، ص:334

القرآني ومرتكزه الإلهي. فيلفت الأنظار إليه بأخلاقه الرفيعة السامية، وبمزاياه الروحية العالية"[1].

إن جذور الأخلاق عميقة في نفس صاحبها، أينما تحرك توجهه إلى خير المواقف وحسن الأحوال، حيث " إن القلب المفتوح للأخلاق الحسنة شبيه بمكان واسع فسيح وحتى لو كانت همومه تسع الدنيا فإنه يستطيع أن يجد موضعا ليدفن فيه غيظه وحدته. أما ذوو الأخلاق السيئة، ضيقو الصدر فهم حمقى بل أشد حماقة من الغراب أمثال (قابيل)، فلا يجدون قبرا في الأرض الواسع الرحب ليدفنوا حدتهم وغيظهم وأحاسيسهم الذميمة"[2].

وكأي من أشخاص تظاهروا بالخلق إذا بالزمن يكشف سوءاتهم ، ويفضح حقيقتهم التي ضللوا عنها الآخرين حينا من الدهر، يصف كولن هؤلاء بقوله: "كم ممن يظهرون بخلق جميل وليونة الطبع، ودعوى الإنسانية ولكن الأخلاق الحسنة واللين في حياتهم لا تعدو صورة مزيفة وبلورة قابلة للكسر حالا، إذ يكفي لإبراز وجودهم الحقيقي، وفكرهم الحقيقي، غضب بسيط، وشدة قليلة، وتعرض خفيف "[3].

2. الاستقامة والصدق مطلبا كل سالك

تعريف الاستقامة وأهم مجالاتها

إن من خصائص المؤمنين الذين نذروا أنفسهم لخدمة الخلق وإصلاح شؤون الحياة وتسديد حركة الأفراد وسعادة المجتمعات، خلق الاستقامة التي " تعني السداد والاعتدال. وعرفت لدى أهل الحقيقة: تجنب الإفراط والتفريط في كل الأمور، في الاعتقاد، في الأعمال، في جميع المعاملات والأحوال والكلام، بل حتى في الأكل والشرب، مراعيا السير في طريق الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، فهؤلاء يبشرون في العقبى وتحتفي بهم الملائكة صفا صفا، فيبتهجون بهذه البشائر في يوم يخيم فيه الخوف والهلع،وتتوالى فيه العقبات من كل جانب وذلك لإيمانهم بربوبية الله سبحانه وتصديقهم بوحدانيته جل وعلا، ولسلوكهم مسلك الأنبياء في إيمانهم وأعمالهم ومعاملاتهم، كما تخبر

[1] التلال الزمردية، ص: 119

[2] المصدر نفسه، ص: 122

[3] نفسه، ص: 122

به الآية الكريمة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠﴾ الآية 30 ـ فصلت "[1].

صعوبة الاستقامة وثقلها وأهم علاماتها

إنها الحرص على السداد في ظاهر الإنسان وباطنه، في نفسه وفيمن حوله، ومن ثم كان وقع الأمر بها عظيما على رسول الله صلى الله عليه و سلم إذ خوطب بها في شأن من معه. وأوصى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم من ابتغى لديه النصيحة،يقول فتح الله كولن"الاستقامة في مرتبة الطبع: إقامة التكاليف،وفي مرتبة الذاتية : الاطلاع على حقيقة الشريعة. وفي مرتبة الروح: الانفتاح للمعرفة ،وفي مرتبة السر: تذوق روح الشريعة،ونلمس الصعوبة البالغة في رؤية هذه المراتب ورعايتها في قول ذلك العظيم روحا ومعنى ،صلى الله عليه وسلم، حيث قال بمغزى عميق، "شيبتني هود" [2] مشيرا به إلى الآية الكريمة ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ الآية 112. هود. أو ليست مشاعره وفكره وأحواله وأطواره كلها كانت على الاستقامة؟ ويسأله صحابي جليل يريد النجاة والفوز بالسعادة الأبدية قائلا: (يا رسول الله حدثني بأمر أعتصم به، قال: قل ربي الله ثم استقم) [3] فاختصر صلى الله عليه وسلم في جملتين اثنتين من جوامع الكلم، الاستقامة التي هي جامع أسس العقائد والأعمال.

نعم إن لم يكن سالك طريق الحق مستقيما في حالته، ضاع سعيه وخاب جهده. كما يسأل عن إضاعته للزمان من غير طائل.

الاستقامة شرط في البداية وزاد في الطريق للحصول على النتيجة، فهي منطلق الطريق. أما في نهاية السلوك فهي عوض معرفة الحق سبحانه وثمنها، وشكر ـ يعد واجبا ـ لبلوغ معرفة الحق.

[1] التلال الزمردية، ص: 108

[2] المستدرك على الصحيحين، ج2، ص: 374

[3] مسند أحمد بن حنبل، ح 15456، ج3، ص: 413

ومن أهم علامات الاستقامة: خلو الحياة من الروغان في البداية، ومراقبة النفس في أثناء الطريق،والكف عن كل ما لا علاقة له بالله سبحانه من فكر وسلوك"[1].

إنه لمن الحكمة تذكر مقتضيات دعاء المؤمنين ـ الإجباري اليومي ـ، عدة مرات بأن يرشدهم ربهم إلى الاستقامة ويثبتهم عليها(اهدنا الصراط المستقيم) حتى يتنعموا بـ(صراط الذين أنعمت عليهم) .

طلب الاستقامة وليس الكشف والكرامة

طرح الأستاذ كولن هذه المعادلة، لأن هناك من يحصر همه في حصول الكرامة،مع أنه يفرط كثيرا في مستلزمات الاستقامة، فقال: "نعم على العبد أن يكون طالب الاستقامة، لا طالب الكشف والكرامة، ذلك لأن الله هو الذي يطالب بالاستقامة والعبد مولع بالخوارق. فأيهما يفضل: ما يطلبه الله أم ما تعلقت به قلوبنا ونظل لاهثين وراءه؟

ولما قيل لأبي يزيد البسطامي: إن فلانا يسير على الماء ويطير في الهواء، قال: والأسماك والضفادع كذلك تسبح في الماء، والذباب والطيور تطير في الهواء، ولو رأيتم أحدا فرش سجادته على الماء وهو يعوم أو تربع في الهواء، فلا تقتدوا به حتى تنظروا ما في أحواله من استقامة ومطابقة للسنة النبوية. فيرشدنا بهذا إلى التواضع الجم على خط الاستقامة وميدان العبودية دون التحليق في أجواء الكرامات والخوارق"[2].

المطلب الثاني: أهمية الصدق في التمكين للخدمة

1. الصدق طريق إنسان الحق

يمثل الصدق أبرز صفات المؤمن، وأعظم رصيد أخلاقي، وذخر يدخره يوم ينفع الصادقين صدقهم. والانتماء الحقيقي لعالم الإيمان يكون بقدر نسبة الاقتداء بالصادق

[1] التلال الزمردية، ص: 108- 109

[2] المصدر نفسه، ص: 109-110، وقد وردت كلمات أبي يزيد البسطامي في سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق وتخريج الأحاديث، شعيب الأرناؤوط، تحقيق علي أبو زيد، مؤسسة الرسالة، ط 9، بيروت 1993، ج 13، ص: من 86 إلى 89. والعبارة هي كالتالي: قال: لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرفع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة.

الأمين عليه الصلاة والسلام، "وقد ربط القرآن الكريم بآياته المختلفة، كون المؤمن حقا،بمدى تنسيقه لكلامه وسلوكه وعالمه الداخلي بل جميع أطواره وفق الصدق، ومدى نسيجه لها جميعا حول الصدق ، وكذلك أكدت الآيات الكريمة أن هذا التنسيق والتنظيم هو أساس سعادة الدنيا والآخرة. وإليكم بعض الجواهر البراقة من البيان حول الصدق:

1 - ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ الإسراء 80

2 - ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ الآية 84. الشعراء

3 - ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾الآية3 . يونس

4 - ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾الآية 54-55 . القمر.

نعم لقد أشارت هذه الآيات الكريمة وبهذه العناوين: مدخل الصدق، مخرج الصدق،لسان الصدق، قدم الصدق، إلى الطريق القويم الممتد من الدنيا إلى العقبى. أشارت إلى طريق طويل، والى زاد الطريق، وإلى نتيجة الطريق"[1].

لأجل ذلك كله حرص أهل الإيمان وخدمة الأمة على هذا الخلق العظيم الذي وصاهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم :" عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر،وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا. وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار،وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا"[2].

ترى إنسان الحق يتقدم عنده الصدق . ـ في النية والتوجه . ـ كل شيء؛ "فالتفكير الصادق، والقرار الصادق والسلوك الصادق، هو أولى مراتب الصدق. وكذلك، يشترط لمن عزم على الصدق، عدم تراجعه عن قراره وعزمه، واجتنابه كل ما يخل بتفكيره ويثنيه عن عزمه"[3].

---

[1] التلال الزمردية، ص: 137-138

[2] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأدب، باب قبح الكذب وحسن الصدق، ح6805، ج8، ص: 29

[3] التلال الزمردية، ص: 138

عندما يتحرى ورثة الأرض " التفكير الصائب، والكلمة السديدة، والسلوك القويم مخططين حياتهم وفق نور الصدق، وعندما يباشرون أعمالهم و يصوغون مواقفهم على أساس صدق مدخلهم ومخرجهم ولسانهم ومقعدهم، حينئذ، تستجاب دعواتهم وتقبل توسلاتهم ولا توصد دونهم الأبواب"[1].

وأعظم مراتب الصدق عند هؤلاء هو" الرضى بربوبية الله سبحانه وبدين الإسلام نظاما إلهيا. وبسيد الأنام صلى الله عليه وسلم مرشدا ورائدا. فالطريق إلى الإنسان الحق يمر من تحمل هذه المسؤولية الثقيلة والعسيرة جدا"[2].

من أهم ثمرات الصدق:

✓ الإخلاص وغياب (الأنا)

من بين أهم مقاييس صلاح الأعمال ونجاح مشاريع النهوض والإصلاح ارتفاع نسبة إخلاص أصحابها، فإنما يتقبل الله من المخلصين. وأهم ما يضمن لمدارس الإحياء المعاصرة تحقيق أهدافها إخلاص حواريها ومهندسي أرواح وقلوب جنودها.

لذلك يلفت الأستاذ فتح الله كولن النظر إلى عدم قدرة بعض المفكرين الأتراك على التأثير في أوساطهم وإصلاح شؤون بلدهم قائلا: "ولقد أتى ورحل من هذه الديار ذوو عقول جبارة أتوا ورحلوا، وعلى الرغم من مستواهم الرفيع في البيان والخطابة لم يتمكنوا من جمع بضعة أشخاص على أمر جاد، فلم يكونوا مخلصين في بعض نواحيهم، حيث كانوا يتصورون أن كل شيء من عندهم ويربطون كل نتيجة بأنفسهم، فيهم دهاة في البيان كانوا يستطيعون أن يجعلوا ألوفا يسيرون وراءهم، ولكن لم يحصلوا على شيء لتلوثهم بالنفاق، ففيهم من يتكلم عن الصلاة وهو لا يصلي، وفيهم من يتناول شرح حسن الإسلام ولا يعيش به، لسانهم يغرد كالبلبل وقلوبهم تنبض بالحقد والكراهية والأغراض الشخصية. ومن هنا عد القرآن النفاق في الدرك الأسفل من النار"[3].

---

[1] التلال الزمردية، ص: 138

[2] نفسه، ص: 139

[3] طرق الإرشاد، ص: 129-130

وإذا كان الإخلاص هو توحيد قبلة العامل وتصفيته توجهاته من أن يصيبها الكدر، فإنه "وثيقة اعتماد يمنحها الله القلوب الطاهرة، فهي وثيقة سحرية تجعل القليل كثيرا والضحل عميقا والعبادات والطاعات المحدودة غير محدودة "[1].

ترى المخلصين في صالحات أعمالهم ومواقفهم وخدماتهم وإنجازاتهم أحرص الناس على إتقان ما يصنعون، لأنهم مشدودون إلى مراقبة اللطيف السميع البصير العليم الخبير، وهم أبعد الناس كذلك عن العجب والغرور والتمحور حول ذواتهم. ومن أهم وصايا الأستاذ لأتباعه ومحبيه قوله: "تتمركز العلاقات بين الأفراد في النظم الأخرى حول "أنا" فـ"أنا" هؤلاء ينطوي دائما على التكبر والغرور. فيشغل الغرور والتكبر موضع التواضع، ويشغل الإعجاب بالنفس والتعالي على الآخرين محل إنكار الذات.

ومن المعلوم أن أنواعا من الضعف البشري تدور حول "أنا" في كل إنسان، لذا إن لم تتخل هذه الأنواع من الضعف عن مكانها للفضائل، تتهاوى جوانب الإنسانية المعنوية. ومن هنا أؤكد وأقول: لن يكون مرشدا أو مبلغا قط من ينطوي على غرور وكبر مهما ارتقى في مقامات عالية وتسنم وظائف جليلة"[2].

✓ الثبات وعدم التذبذب:

الصدق يقود صاحبه عندما يوقن بمشروعه، إلى المغالاة بما ينجزه وعدم التساهل فيه ويقاوم كل ضغط يريد منه تغيير وجهته فيدهن ويدهنون، ويرفض أي تنازل مهما كلفه ذلك من حرمان من مغنم أو تعرض لمغرم، حيث إن "الثبات في الموضع والمحافظة على الجبهة يعد رمزا للشجاعة في كل دعوة كبرى. أما عبيد النفس الذين يدورون مع الريح أينما دارت فلا يمكن أن يفهموا هذا،وهم لا يريدون أصلا فهمه. أما الإنسان الحقيقي فما أن يدرك الحقيقة ويفهمها حتى يستحيل على المنافع والمصالح تقييد رجليه،ويستحيل على الخوف أن يقطع طريقه ويمنع سيره،ولاتستطيع الشهوات إغراءه وربطه بالدنيا..يعجزون عن هذا لأنه يتخطاهم جميعا وكأنه طائر أفرد جناحيه وطار"[3].

---

[1] التلال الزمردية، ص: 105

[2] طرق الارشاد، ص: 140

[3] الموازين، ص: 33

وبفضل الصدق يتحصن فريق عمل الخدمة ضد تخلخل الصف وتصدع الجسم وبوار المشروع،مما يعاني منه من حرم الثبات على الرشد، من المذبذبين الذين "يغيرون آراءهم ومواضعهم دون توقف عند أداء الخدمة الإيمانية، لذا تراهم لا يهزون ثقة الآخرين بهم وحدهم، بل حتى ثقة أصدقائهم وإخوانهم في الدعوة، فكما تتقلقل وتفسد المسيرة المنتظمة لجماعة أو لفصيل بخروج أحدهم من وسطه وتفسد المسيرة المتناغمة، ويظهر الاضطراب فيها، كذلك فإن خروج بعض الأعضاء من جماعة متساندة ومتناغمة فكرية يؤدي بأصدقائهم إلى الإحباط والتشاؤم، ويغرق أعداءهم في الغبطة والسرور"[1].

2. مقاومة داعي الشهرة وحب الجاه والمنصب

يصرخ كولن محذرا من خطورة اللهث وراء الشهرة وتداعياتها فيقول: " آه–آه أيتها الشهرة القاتلة، وأيتها الشهوة الكافرة، وأيها الطمع الخالي من الشرف! كم من روح مر من دياركم فذبل من الزيارة الأولى!! وكم من قلب سقط في دياركم مثل أوراق الخريف الصفراء!! وكم من قامة سامقة سمعت ضحكاتكم المغرية فتركت المعبد وأصبحت من رواد الحانات!! أجل، كم من شجاع جاء إليكم فتحول إلى جبان رعديد، وكم من رجل تحول إلى مخنث وخصي وكم من شاب شَابَ من قربه منكم ثم ارتحل"[2].

المشكلة الحقيقة أن حب الظهور والرغبة في الشهرة لا يكادان ينفكان عن معظم الخلق، ومن ثم لابد من حسن إدارة المعركة مع هذه الشرور، وفن التعامل مع أهلها من خلال التزكية والتربية والتوعية والنصيحة، ومن خلال استغلال ما يمكن استغلاله من طاقات ومواهب أهلها في الخير والنفع، وهو ما نبه إليه الأستاذ المربي عندما قال: "يكاد لا يخلو أحد من حب المنصب والشهرة، وذلك بدرجات متفاوتة. فإن لم يتم إشباع هذه الرغبات عن طريق مشروع لدى الذين لا يستطيعون إنقاذ أنفسهم من هذه الأحاسيس والمشاعر، أصبح من المحتمل انقلابهم إلى أشخاص ضارين لأنفسهم وللمجتمع الذي يعيشون فيه. ويشبه هذا، القيام بمحاولة منع جسم مشبع بسائل من طرح هذا السائل خارجا، مثل هذه المحاولة ستؤدي إلى توتر نفسي وضرر. فإن لم يتم إشباع هذه الرغبة

[1] التلال الزمردية، ص: 105

[2] نفسه، ص: 34 –35

المضطربة في مثل هذه القلوب المضطربة وغير الناضجة والمغلوبة على أمرها بطريقة مناسبة،لم يكن هناك مفر من وقوع أضرار في مجال الدعوة.

كل حركة تصدر من هذه القلوب الفجة وغير الناضجة، وكل فعالية تكون غايتها إشباع هذه الرغبة النفسية. ومع أن هذا الأمر يفسد الروح ويجرحه إلا أنه قد يؤدي أحيانا إلى درء بعض المفاسد وبعض الشرور في نهاية المطاف، لذا يعد أحيانا أهون الشرين،بل قد يعد خيرا بطريق غير مباشر؛ فالذي وهب حنجرة قوية وصوتا جميلا فلم يقم باستغلال هذه الهبة في أغان فاجرة تدعو إلى الفحش وتحرض عليه، بل قام بترتيل آيات الله، أو أنشد مدائح للرسول صلى الله عليه وسلم وأشبع رغبته عن هذا الطريق،يكون أقل ضررا، بل ربما كان عمله هذا خيرا محضا بالنسبة للبعض"[1].

3. الهجرة تحول صادق مستمر وتربية على التحمل

إن المتأمل للخطاب القرآني يسترعيه الارتباط بين الإيمان والهجرة والجهاد، والذين نذروا أنفسهم لخدمة مجتمعهم وأمتهم، يستقون من ينبوع ذي هذه العيون الثلاثة، يشربون منه، "سيمتلئون إيمانا ويقذفون بشرارات إضاءة لكل ركن مظلم...وعندما تكثر الطرق وعورة، وتكفهر الأجواء، وتسود الجاهلية، لا يفكرون في مال ولا ولد، ولا بيت أو عيال،بل يخرجون مهاجرين إلى بلد آخر، ومدينة أخرى.

ومهما كان المبدأ والدعوة سامية والفكر مفيدا وصحيحا وأصيلا، ومهما كانت الرسالة سنية ومنيرة فلا مفر من قيام السامعين الجدد لها بإبداء مقاومة لها وممانعة ومعارضة، ووضع مصاعب وعراقيل أمامها. وهذا أمر طبيعي بنسبة معينة ومتوقع. لذا فإن كل من أتى بإيمان ومبدإ جديد لمجتمعهم، وبمثل جديدة وعشق وأمل جديد، إما أن يستمر في كفاحه في مجتمعه بشكل ظاهر أو خفي، أو يقوم باكتشاف بلاد أخرى يسقي فيها القلوب الظامئة لدعوته التي يرى أنه مكلف بنشرها وتبليغها لكونه رجل دعوة ورجل قلب وعشق "[2].

---

[1] الموازين، ص: 38-39

[2] ترانيم روح، ص: 116

يسري روح الهجرة في مختلف مراحل حياة الإنسان،لأنها" تحدث عند تحول الإنسان من وضعه السابق إلى الوضع المطلوب، ومن وضعه الهامد المتسم باللامبالاة إلى الحركة والنشاط والنظام، ومن وضعه الجامد المتفسخ إلى تجديد النفس وإصلاحها،والارتفاع من مستنقع الآثام الخانقة إلى حياة القلب والروح...هناك معنى ما للهجرة في جميع الأدوار، والشخص يعد مهاجرا في أثنائها على الدوام" [1].

تكتسب الهجرة أهميتها كذلك من خلال سمو دافع الهجرة، ومن خلال تمكن المهاجر من التحرر من بيئته السابقة المعيقة حيث "إن كل فرد هاجر من أجل مبدإ سام يشعر في كل لحظة من لحظات حياته بهاجس سبب هجرته، ويحس بحجم مسؤولية هذه الهجرة، فينظم حياته كلها وعلى ضوئها. كما أن تخلصه من الأنظار المتتبعة لعورات طفولته وشبابه في مسقط رأسه سيزيد من راحته ومن حركته دون أي قيود أو أي عائق،ولا يتيسر له هذا إلا بالهجرة. لأنه ما من أحد إلا وله هنات في صغره وفي شبابه يمكن أن تستغل من قبل أعدائه، بينما يكتسب بالهجرة محيطا جديدا يكون فيه موضع التقدير والاحترام لأفكاره النيرة وتضحياته الكبيرة"[2].

بل إن المهاجرين كانوا يمثلون نسبة معتبرة من الأقوام الذين غيروا مجرى التاريخ؛"يقول علماء الاجتماع بأن معظم المدنيات أسست من قبل الأفراد والجماعات المهاجرة. وبحث المؤرخ المعروف أرنولد توينبي وكتب عن سبع وعشرين مدنية وضعتها وأسستها الأقوام المهاجرة. وهذا إشارة إلى أن الأقوام المهاجرة هي التي أسست حكمها وسيطرتها في التاريخ الإنساني طوال جميع العصور. لأنه لم يكن بمقدور أحد التصدي لأقوام يملكون مثل هذه الروح الديناميكية، ولم يتركوا أنفسهم للحياة الناعمة المترفة...هؤلاء الأقوام المتهيئون على الدوام لهجر كل شيء...والمتعودون على مقارعة الخطوب التي تظهر في أثناء نضالهم ...الذين يعيش كل فرد منهم كجندي ينتظرأمر السفر والرحيل في كل حين ...لم يكن بمقدور أحد التصدي لهم"[3].

---

[1] ترانيم روح، ص: 117

[2] المصدر نفسه، ص: 118-119

[3] نفسه، ص: 119

يدعو الأستاذ كولن أبناء الخدمة إلى اكتساب مناعة التحمل والمقاومة من خلال كسر عادة التنعم حتى لا يصابوا بالترهل واستمراء حياة الدعة والنعومة؛ يقول المهاجر دائما كولن: "ياليتنا استطعنا تخليص أجيالنا الحالية من اعتياد الحياة السهلة الناعمة،ومن هوى النفس، ليزينوا أرواحهم بمشاعر علوية وسامية، ليتحولوا إلى ربانيين يتحملون الصعاب والشدائد ويستمرئونها، عندئذ نستطيع كأمة التخلص من تأثير الحسابات الصغيرة، والأذواق الخسيسة، فلا نغير اتجاهنا بسبب ضوائق أو مشاكل غير مهمة"[1].

كتب الله تعالى على عباده أن يمتحنوا حتى يتبين الذين صدقوا من الكاذبين، ولقد محص الله تعالى صف المؤمنين وسلط عليهم أجهزة الكشف ليميز الخبيث من الطيب،ويقوى جسم الحواريين الذين حموا مشروع الوحي في دنياهم ودنيا الناس.

عندما يزداد نمو العناصر التي صاغها الإيمان، ووجهها الجهاد، وأهلتها الهجرة بالشكل المطلوب، والمقدار اللازم، وفي الوقت المناسب،يتحقق الفتح المبين. يبشر ـالمتفائل أبدا ـ كولن بذلك ويشير إليهم قائلا: "فالأجيال المنطلقة إلى الغد المجهزة بهذا الجهاز والمزودة بهذا الزاد تنتشر وتهاجر إلى جهات الأرض الأربع بعشق عميق وشوق عظيم ومن غير الانسياق لمكسب أو مربح، بل من أجل الارتقاء بالنوع البشري كله إلى الكمالات الإنسانية..ومع الابتعاد عن تطلعات الشهرة والمجد ابتعادا كاملا، ستتحمل أقسى الظروف وتنهض بأثقل الأعمال ثم تغادر ولا تلتفت إلى الوراء ولا تعبأ بحمد أو إطراء.

هؤلاء أينما حلوا، سيصبغون كل عين وكل قلب بألوان الاحترام والخشية البادية والفائضة على تصرفاتهم ، حتى إن لم يتحدثوا عن الدين أو لم يلفظوا بقول عن التدين"[2].

المطلب الثالث:الحاجة إلى التواضع والشورى وفقه الممات لصناعة الحياة

1. مركزية التواضع وجمال التسامح وجهاز المراقبة في صياغة إنسان الخدمة

[1] ترانيم روح، ص: 119

[2] ونحن نبني حضارتنا، ص: 9

يبدأ التحول الإيجابي والإصلاح الحقيقي من معرفة أحجام المخلوقات ومقاديرها الحقيقية، وعندما يدرك الإنسان موقعه من الكون وعلاقته بخالقه، يتبين سبيل الذين أفلحوا في صياغة أنفسهم بشكل يليق بوظائفهم التي أنيطت إليهم، وفازوا بأن مكنوا لطاقاتهم وقدراتهم البصيرة الموصلة إلى ترك آثارهم في حياتهم ومن بعد ما رحلوا.

من هنا تتجلى أهمية التواضع من حيث هو" شعور الإنسان بموقعه الحقيقي أمام الحق سبحانه، والسلوك وفقه، وتقييم مكانته لدى الخلق من زاوية هذا الفهم،وعد نفسه كأحد من الناس، أو كأي جزء من أجزاء الوجود. وأيا كان التعريف فمتى ما تقبل الإنسان ـ بروح متواضعة ــ أن تكون نفسه عتبة الباب، موطئ البيت، حجر الرصيف، حصاة الجدول، تبن السنابل، تمكن أن يعبر كما عبر الإمام ألوارلي:

الكل حسن إلا أنا

الكل قمح و التبن أنا

فيكون مرفوع الرأس، مرموقا مقبولا لدى أسمى المقامات من أهل الأرض والسماوات"[1].

حدد الأستاذ محمد فتح الله كولن للتواضع ثمرات كثيرة من أهمها:

أ. اكتساب فطرة ثانية عنوانها محوية الذات، لأن " التواضع الحق هو أن يحدد المرء موقعه تجاه عظمة الحق تعالى ولا تناهيه، بأنه صفر ولاشيء إلى المطلق غير المحدود، ويملك ذاته هذا المعنى. فالكاملون الذين توغل هذا الفكر في طبعهم وبه بلغوا فطرة ثانية، هم متواضعون في علاقاتهم مع الناس وفي محوية معهم مع الرزانة التامة"[2].

ب . التسليم للدين والاستعداد لتقويم حياتهم به، وجعله المرجعية العليا لهم؛ فهؤلاء المتواضعون في "محوية تجاه الدين، فلا إشكال لهم، لا بمنقوله ولا بمعقوله لأنهم في استسلام تام له وإذعان بكل ما ثبت بالبيان القرآني النير والسنة الصحيحة والحسنة، لا يعارضون ما بلغه الرسول صلى الله عليه وسلم ولاسيما ما ثبت من أفعاله، حتى لو رأوا

[1] التلال الزمردية، ص: 123

[2] المصدر نفسه، ص: 127

ما يخالف العقل والقياس والذوق والسياسة، علما، ليس في روح الدين ما يخالف العقل القويم والقياس الصحيح والذوق السليم والسياسة الشرعية.

وعلى هذا الأساس فما يقال: (يرجح العقل على النقل إذا تعارضا)، لاحظ له من التواضع. فكما أنه ثرثرة أنانيين لايعرفون المحمل الحقيقي لهذا الكلام، فإن فكرا يقدم الرأي والقياس على النص انحراف، والأذواق والكشوفات والكرامات الخارجة عن طريق السنة الشريفة استدراج"[1].

ج . الثقة في منهج الكتاب والسنة بكونهما مصدر قوة المسلمين، إذ يدرك أهل التواضع "تمام الإدراك أن لا خلاص في السبل المخالفة للكتاب والسنة. ويجدون أعظم منابع قوتهم في العبودية لله. وفي الحقيقة لن يكون العبد عبدا لله حقا ويكون لما سواه مسترقا، فالذين لا يستطيعون النجاة من ذل العبودية لغير الله لا ينتظر منهم العبودية الخالصة لله"[2].

د . انتفاء الغرور بما يقدمه المرء من أعمال صالحة ومواقف إيجابية نافعة، إذ ترى المتواضع العامل ينسب كل خير وحسنة إلى الله تعالى وبتوفيقه، ولا يسمح لنفسه أبدا بأن يدفعه عمله الصالح وبذله الواسع لسوء الظن بالآخرين. يشرح فتح الله كولن ذلك بقوله عن المتواضعين: "إنهم لا يكلون ثمرات سعيهم إلى أنفسهم قطعا..ولا يجعلون بذل الجهد ــ بأية نية كانت ــ وسيلة للتكبر على الآخرين، ولا يعتمدون على حسن ظن الناس بهم وتوجههم إليه، ولا ينتظرون العوض، بل يعدون حب الناس وتوقيرهم لهم ابتلاء من الله. فلا يستغلون إحسان الحق عليهم وسيلة تحكم بالناس"[3].

ومما يزين التواضع ويرسخه ويدعمه خلق التسامح وكظم الغيظ، فإن الله تعالى يحب المحسنين الكاظمين الغيظ العافين عن الناس، ورسوله صلى الله عليه وسلم دعا بالرحمة للمتسامحين في معاملاتهم ومواقفهم.

---

[1] التلال الزمردية، ص: 127- 128

[2] المصدر نفسه، ص: 128

[3] نفسه، ص: 129

ومن حكم كولن في هذا السياق:

. "صفق للأخيار بسبب خيرهم وفضلهم، وكن ذا مروءة تجاه المؤمنين، وكن لينا تجاه المنكرين إلى درجة تذوب معها أحقادهم ونفورهم"[1].

. " ادفع السيئات بالحسنة، ولا تهتم كثيرا بالسلوك المفتقر إلى الذوق، فكل إنسان يعكس طبيعته وأخلاقه بتصرفاته وسلوكه. أما أنت فاختر لنفسك طريق المسامحة، وكن كريما عالي النفس حتى أمام الذين لا يعرفون قواعد السلوك والخلق "[2].

المحاسبة جهاز الرقابة الدائم:

من أهم مؤهلات إنسان الأخلاق والحق والخدمة، استعداده المستمر للترقي تخلية وتحلية، ينظر بعين إلى جوانب قصوره، يتفقد عيوبه ليبحث عن كل الوسائل لتجاوزها،وينظر بعين أخرى إلى مصادر تفوقه وخيره فيرسخها ويطورها ويضيف إليها خلالا جديدة وشروطا إضافية يستفرغ منها ما في ذاته من طاقة لم تستعمل بعد.

وجهاز المحاسبة يمد الإنسان بهذا كله، إذ يستطيع بها المؤمن " تفقد عمله كل يوم وكل ساعة، خيرا كان أم شرا، صحيحا أم خطأ، إثما أم ثوابا، وتدقيقه له ومقابلته بالشكر على ما صدر منه من حسنات وخيرات، وسعيه بالاستغفار لإزالة الآثام والعثرات،ومحاولته بالتوبة والندامة إصلاح السيئات والزلات، ومن هنا تعد المحاسبة همة وجهدا في غاية الأهمية وتشبثا جادا في إثبات الإنسان لكينونته الذاتية "[3].

يدعو فتح اله كولن إلى جرد الإنسان حسابه اليومي من صالحاته وسيئاته حتى يحصن نفسه في مقبلات أيامه، ضد العجب والغرور، فإن السلف الصالح " كانوا يدونون أعمالهم اليومية وأطوارهم أو يحفظونها في ذاكرتهم..ومن ثم يستعملون بدقة متناهية ما يعدونه شيئا يورث قلقا قلبيا واضطرابا وجدانيا، يستعملونه تجاه ما قد يحصل في نفوسهم في المستقبل من عواصف الغرور ودوامات العجب. وفي الوقت نفسه يحتمون بالاستغفار مما يعدونه إثما، مستجيرين بحجر التوبة الصحي تجاه فيروسات الأخطاء

[1] الموازين، ص: 20

[2] المصدر نفسه، ص: 20

[3] التلال الزمردية، ص: 36

والزلات، وفي نهاية المطاف يتذللون في انكسار وخضوع شكرا لله تعالى على ما قاموا به من حسنات"[1].

تمكن المحاسبة المستمرة صاحبها من اكتشاف قيمه الأصيلة وطاقاته المخبوءة،وتدله على حقيقته الخيرة، وإيجابياته الكثيرة، تترقب منه أن يستثمرها ويوظفها،وليوسع من آفاق الخير في حياته ويضيق من مساحات الشر والنقص.

ذلك أن "المحاسبة اكتشاف الإنسان بنفسه جوانبه اللدنية وعمقه الداخلي وسعة معناها وروحه، ومعرفته لهذه الجوانب، ومن ثم القيام بتحليلها وإظهار مكنونها. فهي بهذا المعنى جهد روحي، ومخاض فكري في سبيل استخراج قيم الإنسان الحقيقية، وإنماء للمشاعر التي هي أسس هذه القيم والحفاظ عليها، ولا يمكن أن يحافظ الإنسان على استقامة الوجدان إلا بمثل هذا الجهد والفكر اللذين يمكنانه من التمييز بين الخير والشر ،والجميل والقبيح، والنافع والضار، مما يتعلق بأمسه ويومه وغده"[2].

لأجل ذلك كله كان الطريق سالكا بصاحبه إلى أفق(الإنسان الكامل) متى ترسخ خلق المحاسبة في حياته، وهيمن على حركاته وأنشطته، ووجه دوافعه ومحص أهدافه،حيث "إن محاسبة النفس باستمرار ومعاتبتها هي من كمال الإيمان، وكل روح تستهدف أفق (الإنسان الكامل) ووضعت خطتها وفقه، هي في شعور تام بحياتها المعيشة، فيقضي صاحبها دقائق عمره في مجاهدة مع نفسه، حتى إنه يسال الشفرة(أوكلمة السر)عن كل خاطر يمر على قلبه، ويطالب تأشيرة الدخول لكل فكر يرد إلى عقله، ويراقب مراقبة دائمة نفسانيته ـ أي التي تداخلت فيه النفس ـ وأعماله المفتوحة للشيطان ولتوتر الأعصاب ولحدة الحساسية. بل كثيرا ما يحاسب نفسه على أجل حالاته وأفضل أطواره.. ويحرك كل صباح ومساء ما في يده من مكوك لحياكة المحاسبة بين لحمة اللوم وسداه، ساعيا بهذه الحالة الروحية حياكة نسيج حياته الرقيقة.. فيعيد كل مساء

[1] التلال الزمردية، ص: 37

[2] المصدر نفسه، ص: 36-37

استعراض نواقصه وأخطائه ويدققها، ويستقبل كل صباح سادا أبوابه للآثام ويفتح صفحة جديدة بعزم جديد"[1].

2. أهمية الشورى في تطوير الأفكار وتسديد الطاقات وتجديد الخبرات

يمكن الحديث عن الشورى من زوايا عديدة، منها كونه صفة أساسية وخلقا رئيسا من أخلاق أهل الإيمان، وزاوية النظر هذه تشكل الأساس لبناء مجتمع راشد ينشأ عنه حكم سديد. إن القرآن يعرض للشورى ضمن فريضتين أساسيتين من فرائض الإسلام الكبرى؛ قال الله تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ الآية 38. الشورى. لذلك ترى المؤمنين حريصين على التزام هذا الخلق حرصهم على صلواتهم وزكاة أموالهم، وإنهم متمسكون بالاستماع إلى بعضهم بعضا حين اتخاذ قراراتهم، ويفتحون صدورهم للنقد، ولا يعتدون بآرائهم بشكل يحرمهم من الاستفادة من كل الآراء الموافقة والمخالفة، ذلك لأن الشورى "هو الشرط الأول لصحة القرارات المتخذة وصوابها. والقرارات المتخذة حول أمرما أو مسألة ما إن لم يتم التمعن فيها جيدا وعرضها على أفكار الآخرين لنقدها، ستنتهي في النتيجة إلى الخسران والهزيمة.

ومن الملاحظ أن الشخص المنغلق بأفكاره، والذي لا يحترم أفكار الآخرين، ويكون بمعزل عنهم يكون معرضا للأخطاء ــ وإن كان شخصا ممتازا بل عبقريا ــ أكثر من الشخص الذي يستشير الآخرين في كل أفكاره" [2]، ويؤكد الأستاذ محمد فتح الله كولن خطورة تعطل الشورى بقوله: " وإن من ينحصر في رأيه ولا يعتد بآراء غيره مهما كان رفيع الفطرة وعالي الذكاء، بل داهية من الدهاة، يتعرض إلى أخطاء وزلات أكثر مما يتعرض لها رجل آخر متوسط المواهب، ينفتح في آرائه بالمشورة. فالإنسان الأعقل هو الأعظم اعتدادا والتزاما بالمشورة، واستفادة من أفكار الآخرين، ولا ينجو الذي يكتفي في

[1] التلال الزمردية، ص: 39

[2] الموازين، ص: 18

عمله وبرامجه بأفكاره، أو يسعى لفرضها على غيره من فقدان قدرة حركية مهمة، وزد على ذلك نفورا وكرها واستثقالا يلقاه ممن حوله لا محالة "[1].

ولقد فصل كولن في بيان موقع الشورى في حياة النبي صلى الله عليه و سلم مع أصحابه، وأهم فوائد هذا الخلق في سياق نور النبوة، في كتابه "ونحن نقيم صرح الروح"،من ص 45 إلى 56. يسعى بذلك إلى التمكين لثقافة إنسان الجماعة الذي يصغي لغيره ولا يحرص على فرض نفسه على الآخرين، بل يتمسك بالإنصات إلى ذوي الخبرات ليستفيد منهم، فقبل "مباشرة أي نشاط يجب القيام بكل الاستشارات اللازمة وعدم القصور في اتخاذ التدابير اللازمة لكي لا يتم اتهام هذا وذاك ونقد القدر فتتضاعف بذلك المصيبة الناتجة عن سلوك طريق خاطئ. أجل فقبل القيام بأي عمل وبأي نشاط إن لم يتم التفكير جيدا في العاقبة وإن لم تؤخذ آراء المجربين فلا يمكن التهرب من عاقبة خيبة الأمل والندامة"[2].

من أشد هذه العواقب ما يوقع في اليأس وخراب المجتمع وفتح الثغرات للمتربصين، فكم " من نشاط وعمل بدئ به دون إمعان وفكر، لذا فلم يتم تسجيل خطوة واحدة فيه إلى الأمام...ليس هذا فحسب، بل خسر القائمون به سمعتهم كذلك. أجل فالشخص الذي يحاول تحقيق كل ما يخطر على باله، عندما يصاب بخيبة الأمل عاجلا أم آجلا نتيجة سلوكه مثل هذه الطرق الخاطئة، يقع في اليأس حتى في الأمور التي يستطيع إنجازها"[3].

لذا كان من الواجب " على الإنسان ألا يفتح أبدا أبوابا لا يستطيع سدها، وإلا تسربت إلى الداخل أنواع من الشرور من المنافذ المفتوحة، وهذه الشرور تقضي على الآخرين وعلى كرامته أيضا؛ فكم من غافل انساق وراء خيالاته دون أن يستشير أحدا فلدغته الثعابين التي نبهها وأيقظها من جحورها فأخرجته خارج الصف وشلت حركته. والخطب قد يكون يسيرا لو أنه وحده كان الخارج من الصف ووحده المشلول"[4].

---

[1] ونحن نقيم صرح الروح، ص: 45-46

[2] الموازين، ص: 19

[3] المصدر نفسه، ص: 19

[4] نفسه، ص: 19

ولكم عانت مجتمعاتنا من مواقف فردية غير مدروسة، وتصرفات اندفاعية منفلتة،وسلوكات نشأت بعيدة عن محضن الشورى الدافئ

3. من أهم أسس البناء القوي للإنسان فقه الموت

من بين المشاكل التي تربك كثيرا من الناس وتؤرق بعضهم، نظرتهم السيئة للموت الناشئة عن عدم فقههم له، ذلك بأنهم ينظرون إليه " وكأنه نوع من العدم والانقراض وتفتت وتحول إلى تراب، لذا لا يحاول هؤلاء مواجهة الموت أبدا. وكلما ظهر سبب من أسباب الموت كالمرض والشيخوخة والحرب وحوادث السيارات والزلازل نراهم يرتجفون خوفا وهلعا من المنظر الذي يرتسم أمام مخيلتهم حول وحشة القبر، مما يقلب حياتهم إلى عذاب لا يطاق" [1].

والمخرج من هذا الشعور المدمر هو استبانة حقيقة الموت، وأنه خلق لأجل الإنسان، أو هو جسر ضروري إلى النعيم الأبدي، وأنه تسريح من الخدمة، وإنهاء لمرحلة العمل والتعب، للدخول إلى محطة الجزاء والراحة الخالدة في الموطن الأصلي للإنسان،يقول محمد فتح الله كولن: "الموت ليس عدما أو انقراضا ولا تفتتا وتحللا، ولا فناء، ولا نهاية. كما أن القبر ليس حفرة يتم فيها التحول إلى تراب، ولا مكان وحشة ووحدة. والحقيقة أن الموت عندما خلق وأوجد لهذا الإنسان المخلوق لحكمة وفي ظل خطة وبرنامج معين، إنما خلق لنقله من بعد معين إلى بعد آخر ضمن هذا البرنامج وهذه الخطة، وتغير الإنسان من حال إلى حال، ودخوله . ـ حسب ثمرات أعماله ـ إلى مرحلة مختلفة ورجوعه إلى وطنه الحقيقي ودار إقامته الأبدية، ولقاؤه الأرواح الصالحة . ـ طبعا حسب عقيدته وعمله . ـ في ممرات الوصال المتداخلة، ومثوله أمام خالقه دون كم أو كيف، ونيله رضوان الله..لا يتم كل هذا إلا بالموت. كذلك لا يعد القبر بئرا مظلمة ولا حفرة محاطة بالعدم كما يحسب، ولا غرفة سجن وعزل، بل هو باب مفتوح لعالم مضيء،وممر ينقل الإنسان إلى عوالم نورانية، وموضع انطلاق لارتفاع الروح إلى عوالم أخرى سامية وعالية. والذين أنهوا مهمتهم أمام الشاهد الأزلي الحق تعالى، أو الذين أنهوا خدمتهم في هذه الحياة الدنيا مثل جندي تسرح من الخدمة، والذين أتموا . ـ في ظل شعور

[1] ترانيم روح، ص: 142

عميق بواجب الدعوة والخدمة الإيمانية. ـ إيمانهم بالعبادة ووصلوا بعبادتهم إلى درجة الإحسان، وتهيأوا لاستقبال الحياة الأبدية يمرون من هذا الممر ـ ممر الموت ـ ليصلوا إلى سعادة لم تشاهد مثلها عين ولا سمعت بها أذن ولا خطرت على قلب بشر"[1].

كل ما ذكر يتعلق بالمؤمن العامل الموقن، أما ما ينتظر الجاحدين فأمر لا يخطر على بال بدءا من موته ومرورا بقبره ثم بعثه، وهذه الحالة العسيرة هي مما يخافه كل مؤمن على نفسه. فالقبر إما روضة من ريا ض الجنة أو حفرة من حفر النار.

إن فقه الموت على هذا النحو يقود إلى إدراك "أنه فضل ونعمة، وأن المجيء إلى الدنيا كان لأداء مهمة معينة وأداء خدمة فيها كالخدمة العسكرية، وأن فراقها يعني التسريح من هذه الخدمة، وأنه ولادة ثانية ليستيقظوا في حياة أبدية لا تزول ولا تنتهي، لذا يمشون نحو الموت برباطة جأش ودون وجل" [2].

[1] ترانيم روح، ص: 142-143

[2] المصدر نفسه، ص: 144

المبحث الثاني: إنسان البعد الجمعي والامحاء

المطلب الأول: الفناء في الغير جسر احتضان الجميع

1. ترك الأنانية والفناء في الآخرين وسيلة أساسية للإنسان الجمعي

لقد أناط الله تعالى بهذه الأمة تكليف الشهادة على الناس بتقديم نموذج حي لمجتمع أنشئ لينفع الآخرين ويساعدهم على وضع الأغلال والإصر الذي يثقلهم. يخدمهم إذ يعمل على بسط أنوار الرحمة بالخلق كلهم، ويعرض عليهم مشاريع النور التي استودعها ربهم آخر رسالاته. فكان من أهم ثمرات هذه الخصائص أن سادت ثقافة خدمة الخلق تقربا إلى الحق أزمانا، كانت عنوانا واضحا لخير أمة أخرجت للناس.

وما أحوج العالمين اليوم إلى " العاملين الملتزمين بقواعد السلوك الذين يعيشون الامحاء، فلا يشغلهم شاغل النفس ووسوسة الأنا النازعة ـ فطرة ـ إلى الظهور والبروز،عن الانخراط الكلي في السعي وتسديد خطط الخدمة وبرامج النهوض، إذ لا ينتج عن الحرص على تحقيق التميز الشخصي والظهور الذاتي الذي يطبع جهود الكثير من الدعاة اليوم إلا الترهل الروحي وانحسار الفاعليات والجهود، فلا تصب في النهر المشترك، وهو ما يجعل الهمم تعجز عن بلوغ الأهداف العليا لأنها منوطة بالفردية والزعامة والعنوانية، لذلك ألفينا كولن لايفتأ يؤكد على المخاطر التي تتهدد العمل البنائي متى ما داخلت القائمين به روح الذاتية، وتراجعت في نفوسهم ضوابط التسامي والتجرد.. بل إنه ليحرص كل الحرص على ألا يترتب عن جهود الإحياء التي يبذلها العاملون أي تشرذم لصفوف المجتمع.. فكل اشتغال جماعي تطغى عليه الحسابات الضيقة والاعتبارات الشخصية، جهد تستفرغه تلك الاعتبارات والحسابات من جدواه، وتزيل عنه البركة والتأييد الإلهي"[1].

هؤلاء العاملون الإيجابيون الذين يسميهم الأستاذ محمد فتح الله كولن: مهندسي الروح الربانيين، يصفهم بقوله: "لا يولون أهمية لأشخاصهم، ولئن اهتموا بأشخاصهم، فلا يرون خلاصهم إلا في خلاص الآخرين. وعندنا ـ كما هو في حقيقة الإسلام . ـ

[1] الانبعاث الحضاري، ص: 80-81

الخلاص من المسؤولية أمام الله تعالى مرتبط بالجهد والهمة في البحث عن طرق هذا الخلاص. نحن نرى سلامة مستقبلنا البعيد والقريب في أن نكون ملجأ للأرواح الأخرى،وفي ضخ النور في الإرادات الأخرى، وفي إعلاء القلوب الأخرى إلى الذرى.. ونرغب دائما إلى إشغال مكان بين الذين يتلقون الحرائق بصدورهم ويولون للمنافع الذاتية أدبارهم. وبدهي أن الطبع الأخلاقي في سلوكياتنا وتحركاتنا، موصول بهذا النمط من الشعور بالمسؤولية المغروسة عروقها عقيدة في أرواحنا "[1].

إن الخلاص الجماعي . ـ إذن ـ هو عنوان الخلاص الفردي، ذلك ما يقود إلى وجوب اعتبار جميع الطاقات والفاعليات في سبيل إحداث نهضة حقيقية، وبرمجة الأعمال والمشاريع بإتاحة الفرصة للآخرين من خلال التحول معهم من الفرد الواحد إلى الجماعة الواحدة والفريق القوي. لأجل ذلك كله " ينبغي في الحاضر أيضا أن يترك الذين يبرمجون لمسيرة المستقبل الأنانية جانبا، ويضعوا أيديهم في أيادي كل إنسان وكل شيء بالضرورة واللزوم. وستجد الإرادات والأفكار تقويمها الحقيقي بقدر نوالها لمساندة الهيئات المتكاملة والعزائم المتوحدة والمشاعر المتضامنة في أتم المعاني. فالطريق الوحيد للتحول من الفردية إلى الجماعية، ومن قطرة إلى بحر، وبلوغ الخلود بهذه الوسيلة، هو الفناء بالذوبان في الآخرين، والاندماج بهم بالانصهار فيهم، من أجل إحيائهم والحياة معهم. ومن مقترب آخر، أن يكون الإنسان "إنسانا" وفق المعنى الذي يجعله إنسانا حقا"[2].

2. الحاجة إلى حواريي العلم والتربية

تشتد الحاجة إلى الإنسان الجمعي الذي نذر نفسه لخدمة الآخرين، كلما كان المجتمع قائما على شفا جرف هار، وينقص فيه من يسارع إلى الإنقاذ، وكلما قل فيه من يخطط لإنقاذ مستقبله كذلك. ومن ثم يصر كولن على الرهان على أجيال النصر المنشود الذين برهنوا على حبهم لأوطانهم وصدقهم في خدمة مجتمعاتهم. يقرر ذلك بقوله: "وإذ ندخل إلى عتبات القرن الحادي والعشرين، فإن مستقبل بلادنا والبلاد المرتبطة بشؤوننا منوط بعقبان جيش النور ذات أجنحة الضياء الذين يعدون ممثلين سامقين للعلم

[1] ونحن نقيم صرح الروح، ص: 85

[2] المصدر نفسه، ص: 86

والفضيلة والأخلاق في أيامنا. والذين نذر أكثرهم نفسه للتربية والتعليم... إن هذا الوطن بحاجة إلى أبطال شجعان من حواريي العلم والأخلاق والفضيلة، المحصنين بالإيمان والأمل، الطافحين بالعشق والحماس، المنسلخين من الأغراض المادية والمعنوية والدنيوية والأخروية، أكثر من حاجته إلى الأحزاب والتعصب الحزبي"[1].

3. حسن الظن شرط احتضان الجميع

لقد خلق الله تعالى الناس في أحسن تقويم وألهمهم فجورهم وتقواهم، وكل واحد منهم مشروع خير بالقوة، ومن ثم اقتضت حكمة المصلحين البحث عن مصادر الخير عند الجميع، وما من أحد إلا وفيه جزء من ذلك يحتاج إلى من يكتشفه ويدل عليه،وينميه ويثمره، ومن ثم فإن " الذين يحسنون الظن بالجميع ويحملون نوايا طيبة تجاههم،يحصلون على أضعاف مضاعفة لنواياهم وأفكارهم هذه. ومع أنهم لا يبغون هذا ولا يعنون أن يحصلوا على مقابل لعملهم، إلا أنهم يحصلون على عشرة أضعاف ما يقدمونه مستفيدين من مزايا إنسانيتهم. أما الذين تركوا أنفسهم للحقد والعداء فإنهم يدمرون قيمهم الإنسانية،ويزيلون موقعهم في قلوب الناس.

إن صرف الإنسان عمره في غمار المشاعر السلبية والسيئة عذاب لا يطاق من جهة، ودناءة من جهة أخرى. بينما رؤية الجانب الإيجابي في كل شخص واحتضان الجميع بطولة من جهة، وسمو من جهة أخرى"[2]

المطلب الثاني: الحياة من خلال إحياء الآخرين

1. حمل هم الآخرين وإحياؤهم

إن الاهتمام بالآخرين سبيل الرسل والأنبياء الذين كانوا يألمون لشقاء الآخرين وتعاستهم، يبذلون كل ما آتاهم ربهم من الحكمة والبينات لإنقاذهم، وكذلك كل وارث لهؤلاء يمشي على أثرهم على بصيرة، لأنه "حامل قلب نبوي مهتم بهموم الغير، يترفع على بؤسه البدني والجسماني فيخطط لسعادة البشر حوله، ويرسم البرامج نقوشا من أجل

[1] ونحن نقيم صرح الروح، ص: 107-108

[2] ترانيم روح، ص: 156

أمان وحبور المجتمع الذي ينتسب إليه، ويعتريه خفقان بعد خفقان لعذاب الإنسانية وبؤسها، وأمته خاصة. ولذلك فهو بطل عزيمة نبوية يخاصم الشرور التي تخنق العالم كله"[1].

إن الذي يعيش للناس؛ يألم لآلامهم ويفرح لأفراحهم، ويحزن لشركهم وشقائهم ويود إيمانهم وسعادتهم، ويحرص على جلب المصلحة لهم، ودرء المفسدة عنهم، وإزالة الضرر عنهم، وتيسيرالحياة لهم وهدايتهم وخدمتهم، إن هذا الإنسان يحيى كبيرا، ويموت عظيما،ويبعث برصيد ضخم من حسنات ما قدمت يداه من نفع عيال الله تعالى ، ولذلك تستهدف حركة الخدمة في المدى البعيد تكوين إنسان خادم للفرد والمجتمع[2].

ولقد كان كولن يوصي محبيه وحوارييه دائما بقوله: "وأنبه هنا مرة أخرى إلى ضرورة التمييز بين الذين يَحْيَوْنَ والذين يُحْيُونَ (غيرهم). وقد كررنا مرارا وتكرارا: إن الذين يقضون أعمارهم في إخلاص ووفاء واهتمام بالآخرين إلى درجة إهمال أنفسهم من أجل إحياء الغير، وهم الوارثون الحقيقيون للحقائق التاريخية، الذين نودع أرواحنا وديعة مأمونة عندهم. أولئك الذين لا يطلبون أن تتبعهم الجماهير..لا يطلبونه، ولكن وجودهم نداء جهوري، وأي نداء! فأينما كانوا يهرع الجميع إلى أولئك الربانيين وكأنهم مركز جذب، وقد يستقبلون الموت بسعادة وراء ريادتهم"[3].

2. الإيجابية الاجتماعية دائرة التحول الأولى

يتحمل الفرد ضمن الجماعة مسؤولية كبيرة في حماية الكل، ومن ثم فإنه " ينبغي على كل واحد أن يقول لنفسه بمسؤولية فردية جادة: اليوم يوم الفعال، فإن لم أنهض للعمل فلن ينهض غيري أيضا. ثم يكِز فرسه ليندفع إلى مقدمة الصفوف لرفع الراية... من غير أن يقع في منافسة أو غيرة، فاسحا السبيل لمن في يمينه ويساره في الحركة والسعي أثناء تقدمه لحمل الراية... وإننا نستطيع في حاضرنا أن نسير بالاتكال على الله تعالى واعتمادا على قوتنا الكامنة وعلى روابطنا بالأخرويات كافة" [4].

---

[1] ونحن نقيم صرح الروح، ص: 87

[2] The Gülen Movement: Civic Service Without Borders, p 204

[3] ونحن نقيم صرح الروح، ص: 88

[4] المصدر نفسه، ص: 135

وفي سياق ارتباط حركة الفرد بالمجتمع، تظهر قيمة الإيجابية النافعة للجميع،وخطورة التصرفات الفردية التي لا تعبأ بالآخرين؛ قال رسول الله عليه وسلم: "مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها، إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا، ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادو هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا "[1].

يستخرج كولن من هذا البيان النبوي معاني كثيرة تؤكد ارتباط مواقف الأفراد بسفينة المجتمع، قائلا: "فهذا الحديث الشريف هو تمثيل، بالقياس التمثيلي، كما يطلق عليه علم المنطق، إذ يبين الرسول صلى الله عليه وسلم مسألة اجتماعية خطرة، ويعبر عنها بمستوى أفهامنا في صورة تمثيل. فالراغبون في خرق السفينة ربما يبدون لأول وهلة أنهم أبرياء، ولكن عاقبته الوخيمة لا تسمح أن يعدوا أبرياء قط. فانطلاقا من مفهوم هذا الحديث الشريف يمكن القول: إن الدنيا هي كسفينة نوح عليه السلام، وإن جميع بني البشر دون استثناء ولا اختيار قد أركبوا هذه السفينة لأنهم مضطرون للعيش في الدنيا،وإن سفينة الدنيا التي نعيش فيها ونسيح معا هي وحيدة ليس لنا خيار غيرها، ونظام الحياة في هذه السفينة يخص من أركبنا فيها، لذا لا يحق لأحد كائنا من كان أن يغير هذا النظام أو يخل به.

والحفاظ على السفينة والحيلولة دون غرقها جميعا وظيفة كل من فيها دون استثناء، والحياة الخاصة لا أهمية لها...أي أن هذه الوظيفة العظيمة قد ألقيت على كاهلنا جميعا حالما ركبنا في السفينة. فلا يمكن أن نسمح لإعدامنا وإعدام ملايين الناس الأبرياء بحجة أننا نهتم بخاصة أمورنا ولا نتدخل بشؤون الآخرين، أي من الضروري أن نكافح كل من يريد خرق السفينة أو الإخلال بالحياة الاجتماعية. ولهذا ففي الوقت الذي نحول بين المجتمع وبين أضرار المنكرات، حافظين الإنسانية من شرورها، ونبلغ في

[1] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه، ح 712، م2، ج 3، ص: 286

الوقت نفسه الخصال الحميدة والفضائل السامية أمرا بالمعروف. فالمجتمع الذي ينشئه الفطر السليمة يسلم من السيئات بأنواعها"[1].

ومما استفاده كولن كذلك ما يتعلق بدافع محبة المؤمن ونصيحته غيره يمتعه بما يسعد به، وبذلك يعمق الإيمان في حياته ويرسخ أنواره في وجوده، يقول كولن: "إن الذي ذاق حلاوة الإيمان،من مقتضى المروءة أن يشرك الآخرين فيه. والمؤمن إنسان المروءة من قمة رأسه إلى أخمص قدمه، فهو يفكر دوما بمصير الآخرين. فحين يرتع وسط ربيع زاه، يسعى أن يعيش غيره معه ويتذوق ما يتذوقه. أليس المؤمن يدع حبه للحياة ليديم حياة غيره؟ هل يمكن أن يقف من نفذ نور الإيمان قلبه دون حراك؟ هذه الاستحالة تدفع المؤمن إلى السير في الأسواق، وفي البيوتات باحثا عن القلوب المتعارفة. وهذا ضمان لوجوده أيضا ـ من جانب ـ إذ الحفاظ على إيمانه في قلبه حتى الموت، وضمان دخوله القبر بهذا الإيمان إنما هو بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فمن كان محروما منهما فلا ضمان له للإيمان. لذا يتحتم على المؤمن أن يؤدي هذه الوظيفة، إنقاذا لنفسه، في الأقل"[2].

المطلب الثالث: فقه الإثم والغربة

1. فقه الآثام بين الفرد والمجتم.ع

من الأمور الأساسية التي ينبني عليها صياغة الإنسان الحق، إنسان المجتمع،التحرز من الآثام من خلال إدراك خطورتها على الفرد والمجتمع، ومن خلال كونها معيقات حقيقة تعطل فاعلية الإنسان. وأول ما يجب التنبه إليه هو أن "الإثم انهيار داخلي، ونوع من مخالفة الفطرة السليمة ومناقضتها، والذي يقع في الإثم شخص مسكين نكد الحظ، استسلم للشيطان بكل قابلياته وبكل ملكاته الروحية، وترك نفسه لعذاب الضمير ولوخزات القلب. فإن استمر في اقتراف الإثم نفسه، فهذا يعني أنه ترك حبل نفسه على غاربها، ولم تعد لديه أي إرادة، ولا أي مقاومة، ولا أي قدرة لتجديد نفسه.

[1] طرق الإرشاد، ص: 77-78

[2] المصدر نفسه، ص: 78

الإثم ليس إلا صفعة على وجه الإرادة، وزقوم أشربه الروح. وما أحط الإنسان الذي يتلذذ بالإثم! وما أكثر تسيب الإنسان الذي دمر بالإثم روحه!

الإثم عاصفة هوجاء تطفئ جميع الاستعدادات والمشاعر السامية المهداة للإنسان،ودخان سام يحيط بحياته القلبية من جميع جوانبها، فمن تعرض لهذه العاصفة جف وذبل.. ومن تعرض لهذا الدخان اختنق ومات"[1].

ومن أخطر الآثام بعد الشرك بالله تعالى والسبع الموبقات، تلك المعاصي المهلكة للمجتمع ونسيج علاقاته والمدمرة للأوطان وحرماتها، ومن ثم على" الأسرة والمجتمع والوطن أن يحذر جدا من أصحاب الأرواح الفجة التي لم تتهذب بالتوحيد، فأصحاب هذه الأرواح المنكودة، التي اسودت بالدخان، وصدأت حتى فقدت شفافيتها، وحل السواد محل البياض الناصع في العالم الداخلي لهم، لا يتورعون . ـ إن لم يكن اليوم فغدا ـ من حرق الوطن وكل شيء. ولا يمكن أبدا التهوين من مقدار الخيانات التي اقترفها هؤلاء الذين ختم الله على قلوبهم وعلى أبصارهم ووضع عليها غشاوة فيما مضى من الزمن وفي هذا الزمن" [2].

ومن تلك الآثام الكبرى سلخ المجتمع عن هويته وطمسه عن حقيقته، واقتلاع جذوره لإلحاقه بسياق حضاري آخر، تحرم معه الأجيال المتلاحقة من ميراثها الثقافي وجذورها المعنوية وتحول قبلتها وتضيع وجهتها، وتعاني من فوضى الوجود، يقول فتح الله كولن عن هذا العصيان الكبير: " إن إبعاد أمة كاملة عن ذاتها وعن هويتها..وزرع أدمغتها بأفكار غريبة عنها، وهدم محرابها، وتحويل منبرها، ليست من الآثام التي يمكن أن يغفرها التاريخ ولا المحكمة الإلهية يوم الحساب.

إنه إثم كبير أن تحرم الأجيال من العقيدة، ومن الفكر، ومن موازين ومقاييس الحق ومن الاستقامة، وتحويلها إلى تجمعات فوضوية، وجعلها وسيلة هجوم واعتداء. لأن الهجوم والاعتداء على الأمة وعلى أجيالها وعلى دينها وعلى ثرواتها إثم كبير...

---

[1] ترانيم روح، ص: 120

[2] المصدر نفسه، ص: 122

إن من الإثم إهمال الأجيال.. إثم أن تحول قلوبها وأرواحها إلى قلوب وأرواح خالية من الإيمان والطمأنينة..إثم جعلها عدوة لماضيها وخصما له، وعدوة لتاريخها ولجذورها..إثم أن تحول . بأشربة أجنبية . عن ذاتها وعن هويتها.. إثم أن تحرم من نقاط استنادها المعنوية والمقدسة..أجل إنه إثم وأي إثم!" [1].

وأشد من هذا الإثم استمراؤه واعتياده وتزيينه حتى يفقد ـ بهذا الزور. ـ حقيقته وتختفي جريمة مرتكبيه، بل ربما تحولوا إلى رموز وأبطال، يوضح ذلك الأستاذ بقوله: "ولكن هناك إثم أكبر من كل ما سبق.. وهو عدم عد ما فعله وما يفعله هؤلاء المجرمون العتاة الذين قلبوا الساحة إلى ساحة حريق ودمار وفيضان..عدم عد ما يقترفونه إثما. أجل! إن كان هناك إثم لا يغفره الله تعالى ولا ينساه التاريخ فهو هذا الإثم.. أي أن عدم عد الإثم إثما يشكل إثما بذاته، كما أن عدم التوقي والخشية منه أو الحذر من الاقتراب منه يعتبر رأس الآثام "[2].

ومن الآثام التي يجب أن نفقهها، تلك التي تفقد المجتمع مفتاح صلاحه ونهضته وباب تجديده ووسيلة انتفاضته على انقسامه وتخلفه، يحذر منها كولن فيقول: "لقد كان أوخم آثامنا أننا رأينا الآخرين مذنبين، ورأينا أنفسنا أبرياء على الدوام. ولكوننا لم نتخلص من هذه العادة ومن هذه العقلية، فقد فسدت الأجواء الاجتماعية وقست، حيث تسارعت وتائر الانقسام والتشرذم. لذا كان على جميع من لهم علاقة بمصير هذه الأمة وقدرها من الناحية المادية أو المعنوية، وعلى جميع أصحاب الأرواح المخلصة الذين نذروا أنفسهم لهذه الأمة، أن يعترفوا بذنوبهم و يتوبوا "[3].

وهذا الاعتراف هو أول خطوة لتحقيق إنسان التوبة ليحل محل إنسان الإثم،وصياغة مجتمع متماسك يحل محل مجتمع تهشمت معاييره، طبعا "من غير المتصور بداهة أن يتغير كل شيء في مجتمع يتعرض منذ قرنيين إلى الانقلاب في القيم والتعويد على العوائق والمثبطات بحملة واحدة من خوارق الكرامات ! فليس يسيرا أن يحل الإيمان محل الإلحاد، والانضباط محل الإفلات، والنظام محل الفوضى، والأخلاق محل

[1] ترانيم روح، ص: 122-123

[2] المصدر نفسه، ص: 123

[3] نفسه، ص: 127-128

اللاأخلاقية والعشق الإلهي وحب الملة محل الشهوة. نعم، ليس يسيرا إزالة آثار السنين وانتزاع الإلحاد الذي نصب عرشا وسط سرادق الإيمان، واللامبالاة التي قلبت القيم الأخلاقية رأسا على عقب، واللامفيد الذي أثيرت وحشية شهيته بمنحه مكاسب على حساب الحياة المنضبطة، ثم إحلال القيم التي يريدها الله تعالى ويوصي بها رسوله صلى الله عليه وسلم، محلها "[1].

لكي يتحقق هذا الهدف العظيم مع هذه التحديات الكبرى، لابد من استنفار عام،يقرر الناس من خلاله "توبة شرعية ومدنية تستدرك بها الأمة ما اقترفت من إثم التفريط والتقهقر والإخلال بموثق الائتمان".[2]

ولابد كذلك من تقوية الدولة ودعم سيادتها وترسيخ حريتها وتجذير عناصر قوتها،حتى يتم اختصار الجهود والطاقات وقطع المسافات وحشد المواهب والقدرات،لتسريع نهضة الأمة. يقول عشراتي: " من واقعية نظر كولن أنه يشترط توفر الدولة الحرة لتنفيذ المخطط النهضوي الحضاري، فأهم أركان عملية إنجاز الحضارة ـ بحسبه ـ هو الإنسان المؤمن المؤهل، وأقوى أسسها الحيوية هو دولة حرة ومستقلة، وأثمن رؤوس أموالها هو الزمن.

ومن المؤكد أنها نظرة موضوعية ومتزنة، إذ ما أكثر ما رأينا أهل الفكر المعارض للنظم الشمولية يجعلون في أولية شعاراتهم الدعوة السافرة إلى الثورة على الدولة،والانقلاب على نظمها، توسلا لتنفيذ أي إصلاح أو تعديل في البنية والمعطيات المدنية. لكن الأستاذ كولن، بواقعية تقديراته، يرى أن دور الدولة أمر أساس في الإقلاع الحضاري،غير أن كولن يشترط للدولة أن تكون حائزة على مقوم الحرية، لأن الدولة الحرة هي المؤهلة لخوض التغييرات الكبرى، وإنجاز الوثبات الأبعد، ذلك لأن كولن صاحب فكر عملي،استمد مقومات تفكيره من خلال ملابسة واقعه الوطني، وارتباطه به، وأيقن أن شمولية الرهانات المصيرية، والتحولات الكبرى إنما تتحق على يد الدولة المرشدة التي تدرك دورها وتنهض به، فتشمل بجناحيها سائر مكونات المجتمع، وتؤهبها وتدفع بها نحو

[1] ونحن نقيم صرح الروح، ص: 140-141

[2] الانبعاث الحضاري، ص: 109

الغاية الانبعاثية، الأمر الذي يختزل الوقت، ويحقق النجاعة والفاعلية في تحقيق الأهداف"[1].

2. مفهوم الغربة عند كولن

للاغتراب في فكر كولن مفهومان: أحدهما، يمثل الجانب السلبي في الفرد والمجتمع، حيث يبتعد الإنسان عن حقيقته ويتولى عن فطرته وهدى ربه، ويجحد وحيه. يصور الأستاذ هذا المفهوم فيقول: " إن الكفر والإلحاد جهنم في القلب، وترك العمل الصالح غربة ومخمصة ووحشة. ولا مفر من ظهور اختلال الشخصية في أمثال هؤلاء بين حين وآخر. إن عزائم هؤلاء خائرة وأفكارهم سائبة وإرادتهم مشلولة "[2].

ثانيهما، يجسد الجانب الايجابي، وهو خطوة أساسية لعلاج الاختلال الذي يمثله المفهوم الأول، ويتحمل الغرباء تضحيات واسعة سعة عمق غربتهم التي تحرضهم على البقاء في عالم الخدمة والإيمان والاستمساك بخط الصلاح وعلو همة المصلحين، لا تأخذهم في استقامتهم وحرصهم على نصيحة غيرهم لومة المغتربين الذين ركنوا إلى واقعة الانحراف في الأمة، ولا يصدهم عن سبيلهم مكر الماكرين وسخرية المستهزئين. يتحدث كولن عن هذا الصنف بقوله: " ليس الغريب من ابتعد عن وطنه وبيته وعن أصدقائه وأحبائه، بل هو الإنسان الذي لا يفهم المجتمع حاله ولا طريقه وسلوكه، ولا يفهم مبادئه العالية ولا أحلامه المستقبلية ولا تضحياته بسعادته الشخصية في سبيل الآخرين، وهو الإنسان الذي كثيرا ما يقع في تناقض مع قوانين مجتمعه بسبب همته العالية فيتعرض للأذى واللوم والاستنكار"[3].

من أجل أن يرسخ قدم هؤلاء في الخير والهدى يحتاجون إلى ما يقوي غربتهم حتى لا ينهاروا أمام قوى الاغتراب وسعي الغرباء المفسدين الصادين عن سبيل الله، من أجل ذلك لابد من تقوية الإرادة عن طريق "الدعاء والعبادة والتوجه إلى الحق تعالى والإنابة إليه.. ولم يحدث أن انقطع في الطريق من توجه بوجهه إلى الله تعالى بالمعايير

---

[1] الانبعاث الحضاري، ص: 184-185

[2] ونحن نبني حضارتنا، ص: 188

[3] الموازين، ص: 103

الإسلامية.. ولئن تعرض نفر منهم إلى اهتزاز بسبب ضعف منهم، فلم يصرع أحد منهم على ظهره تماما، فكيف بمن شد وثاق حياته بوشيجة الإحياء ؟! "[1].

ولقد استطاع الغرباء دائما .ـ باعتصامهم بربهم وعزمهم على سبيل دعوتهم ـ أن يثبتوا على نهجهم، ولم تزدهم خصومات غيرهم لهم ومكرهم بهم إلا إيمانا بمشروعهم. بل إنهم أوتوا بصبرهم وحكمتهم القدرة على تحويل صعوباتهم ومحنهم إلى مشاريع عمل،وتجديد الأنفس والهمم وإبداع لوسائل خدمة الخلق وهدايتهم. هكذا يوجه الأستاذ محمد فتح الله كولن محبيه وحوارييه وهو يقول: " ولن يستطيع المؤمن أن يصمد واقفا على ساقيه ولا ينكب على الأرض إلا إذا عاش حياة ذاتية وبعزم الأحياء، هذا ما شهدناه أبدا. فهو عادة سبحانية لمشيئة الله الكلية، وتبديلها وتغييرها محال على كل أحد.

ولا جرم أن هناك أعداء أَلِدَّاء يبرزون دوما ضد الذين يعيشون الحياة في هذه الاستقامة، تطفح صدورهم غيظا وحقدا على هؤلاء المؤمنين، ويقعدون لهم كل مقعد ليسحقوهم، ويتربصون بهم الدوائر، ويتصدون لهم كل يوم بخطر جديد. ولكن المؤمنين حق الإيمان، يخرجون دائما من هذه المحن. أشد شحذا من قبل، بل يتبدلون إلى أخرويين وربيين وربانيين.. وبمشاعر الرضا، يغيرون المصائب إلى رحمات، ويحولون زخات البلايا إلى مرشحات للتطهير والتصفية"[2].

وإذا تمكنت ثقافة الصد عن الحق والخير والهدى وجنودها من هزيمة الإيمان في حالة ضعفه، وهوى الإنسان واستسلم لهواه وأهواء غيره، وأصبح غريبا بمفهومه السلبي،فإن الأستاذ المربي محمد فتح الله كولن يقترح الوصفة التالية :

. "تأمل عميق في الآفاق وفي الأنفس.
. تذكر للموت ولمشاهد الآخرة.
. زيارة لمؤسسات الخدمات الإيمانية.
. تكليفه ببعض المهمات والوظائف الإيمانية.
. اطلاعه على الصفحات المشرقة لماضينا.

[1] ونحن نبني حضارتنا، ص: 188

[2] المصدر نفسه، ص: 188

. جمعه مع أصحاب الفكر والثقافة وأصحاب الوجد و القلب لتتهيأ له فرصة تجديد نفسي هناك " [1]، إذن "لا مفر من تجديد العلاقة مع الله تعالى، وإلا فإن الإيمان معرض للتعفن والبلى" [2].

[1] أسئلة العصر المحيرة، ص: 57

[2] أضواء قرآنية، ص: 250

الفصل الرابع

المدرسة

مفخرة حركة الخدمة

تقديـم

علم الله تعالى الإنسان، وآتى رب العالمين رسوله الأمين الحكمة وفصل الخطاب، وعلمه ما لم يكن يعلم، وكان فضله عليه عظيما.

وأوكل الله تعالى إلى النبوة وظائف التعليم والتربية والتزكية، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بتعليم الناس، وحث أتباعه على ذلك.

التعليم هو الترجمة العملية للإصلاح، وهو القاسم المشترك لحركات الإحياء والتجديد والنهوض.

يتبوأ التعليم في مشروع كولن الإصلاحي مركزية كبيرة حيث تراه يؤكد باستمرار على الاستمساك بهدي النبي صلى الله عليه وسلم الذي لم يتوقف عن التعليم حتى في أسوإ الظروف، ويرى أن التعليم وسيلة أساسية للتدافع بين الصلاح والفساد وأنه المدخل الطبيعي لمعالجة قضايا الإنسان والمجتمع، ومن ثم وجب أن يكون همَّ المجتمع بأكمله وليس شأنا نخبويا.

لقد أفلح مشروع كولن الإصلاحي في جعل التربية والتعليم ـ من خلال المدارس المنتشرة في أكثر من 160 دولة في العالم ـ رسالة اطمئنان إلى المثقفين والسياسيين داخل تركيا وخارجها.

يكتسي المعلم أهمية قصوى بوصفه ناقلا للقيم فهو بطل المحبة والتسامح الذي يحتضن طلابه ويشاركهم أفراحهم وأحزانهم ويؤهلهم لخدمة الإنسان، ومن ثم كان هناك حرص كبير على اختيار المؤهلين للتدريس والعناية بهم وتطوير أدائهم.

تتميز مدارس الخدمة بالجمع بين العقل والقلب والارتباط بجذور الإنسان التركي وبيئته العامة مع الانفتاح على المعطيات العلمية المعاصرة وتحصيل نسبة معتبرة من الميداليات في أولمبيا د الرياضيات والعلوم والفيزياء العالمية، كما أنها تحرص على استقلاليتها وتكوين نشء يمتلك ثقافة حوارية يتواصل بها مع العالمين.

المبحث الأول: أهمية التعليم ومركزية المعلم

المطلب الأول: كولن بين المدرسة "الدينية" والمدرسة "الحديثة"

1. أهمية التعليم عند حركات الإحياء

تشترك حركات الإحياء وجماعات النهوض الإسلامية في العناية بالتعليم والاهتمام به بنسب متفاوتة، حيث إن العاملين في حقل الدعوة والإصلاح يستهدفون إنشاء جيل جديد يقوم بإنجاز المشاريع المعروضة، بكثرة نماذجه التي تجسد المعنى الحقيقي للإنسان الخادم لمجتمعه[1]، مما يؤهلهم لينهضوا بالأمة ويحققوا الآمال المنشودة والغايات المطلوبة، "لأننا ـ كما يقول فتح الله كولن ـ اليوم على مشارف عهد جديد في مسيرة تاريخ الإنسانية، متفتح على تجليات العناية الربانية. لقد كان القرن الثامن عشر،بالنسبة لعالمنا، قرن التقليد الأعمى والمبتعدين عن جوهرهم وكيانهم، وكان القرن التاسع عشر، قرن الذين انجرفوا خلف شتى أنواع الفانتازيات واصطدموا بماضيهم ومقوماتهم التاريخية، والقرن العشرون، كان قرن المغتربين عن أنفسهم كليا والمنكرين لذواتهم وهويتهم، قرن الذين ظلوا ينقبون عن من يرشدهم وينير لهم الطريق في عالم غير عالمهم. ولكن جميع الأمارات والعلامات التي تلوح في الأفق تبشر بأن القرن الواحد والعشرين، سيكون قرن الإيمان والمؤمنين، وعصر انبعاثنا ونهضتنا من جديد"[2].

هذا الانبعاث الجديد كان هو الهدف المحوري لتحرك المصلحين الذين ولوا وجوههم شطر الأمة وإحياء الإنسان فيها، ومن ثم كان التعليم هو الجسر الضروري للعبور إلى تحقيق الأهداف المرجوة.

يقول الدكتور سمير بودينار: "لا نبالغ إذا قلنا أن التعليم هو الآلية المركزية في فعل الحركة الإصلاحية الحديثة في عالم المسلمين، منذ بداية ظهورها خلال القرنين الماضيين؛ إذ تكاد الدعوة إلى التعليم مقترنة بحركة ميدانية لبناء المدارس، ونشاط منظم

---

[1] Essais, Perspectives et Opinions, M . FETHULLAH GüLEN , Editions Du NIL, troixième édition 2011, p 75

[2] الإنسان الجديد، مجلة حراء، ع 11**أبريل – يونيو 2008**

داخلها من خلال عملية تعليم قاصدة ومنظمة، تكون السمة الجامعة بين كافة دعوات الإصلاح الاسلامي في العصر الحديث، أو المعتبرة من بينها على الأقل.

ولا غرابة في ذلك بالنظر إلى أن تحقيق المقاصد الكبرى لدعوات الإصلاح،والاهداف الأساسية لتلك الدعوات تقترن كلها بالتعليم كفكرة ومجال وإطار للعمل والحركة، وهو الحقل الذي يشكل البيئة المناسبة للفعل المجتمعي لدعوات الإصلاح.

فمن الدعوة إلى إصلاح التعليم كفكرة جامعة مع النهضوية الإسلامية الحديثة،إلى المدارس الأهلية في المشرق العربي، إلى المدارس الحرة التي نشطت في الدعوة إلى إنشائها السلفية الإصلاحية في المغرب ومن خلال الحركة الوطنية التي شكلت المدارس الحرة واجهة أساسية من واجهات مقاومتها للمستعمر ومؤسساته في صياغة الوعي وصناعة النخبة، مرورا بمجهودات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في هذا المجال،خصوصا رائدها المؤسس الشيخ عبد الحميد بن باديس، وخليفته الشيخ البشير الإبراهيمي، ومدارس النور التي أسسها طلاب العالم والمصلح التركي الكبير بديع الزمان سعيد النورسي بتأثير من رسائله التي بثها في تركيا ثم ترجمت وانتشرت في مناطق كثيرة والمسماة "رسائل النور"، وصولا إلى نموذج المدارس العربية والإسلامية في الغرب،التي نتجت عن استقرار جاليات إسلامية كبيرة في تلك البلاد بالتزامن مع تزايد حركة الهجرة نحو أوروبا وأمريكا الشمالية منذ ما بعد الحرب العالمية الثانية، حيث أدى ذلك إلى نشوء مجتمعات مسلمة كاملة جديدة في الغرب، مع ما واكبه من تنامي الوعي بالهوية والانتماء وظهور حاجة لتعليم خاص بتلك الجاليات إلى قيام تعليم عربي إسلامي مواز في تلك البلاد.

وحين نتجه إلى تحليل دور العلم لدى حركات الإصلاح في عالم المسلمين من حيث كونه أداة مركزية في بلوغ المقاصد الكبرى لتلك الحركة، والبيئة المناسبة لنشاطها لبلوغ تلك المقاصد، فإن التعليم حينئذ يبدو كما لو أنه المجال الحيوي الضروري لحركة الإصلاح ومستقبلها، سواء بالنظر لكونه قناة التواصل الأساسية للرؤى التي تحملها والقيم والأفكار التي تبشر بها والنماذج التي تقدمها وتدعو إليها، أو اعتبارا لأهمية التعليم جسرا بين مجتمع الفكرة الأصلي وبين غيره من المجتمعات، وخاصة ما يقع في

دوائره القريبة، أو ما يؤديه التعليم من دور بالنسبة لمشاريع الإصلاح الإسلامي عموما في أداء رسالته عبر العالم"[1].

2. بين المدرسة الدينية والمدرسة الحديثة

ما قبل "التنظيمات"

هناك فترة فاصلة في تاريخ تركيا التعليمي والتربوي تسمى مرحلة "التنظيمات" وهي "تمتد ما بين عام 1839 وعام 1876 وهي الفترة التي أدخل فيها السلاطين العثمانيون وكبار الوزراء لديهم سلسلة من الإصلاحات، تحت ضغط ونصيحة الأوروبيين. وقد قصدوا ما وراء هذه الإصلاحات إعادة تنظيم الحكومة والإدراة وجوانب أخرى عديدة في الحياة العثمانية على نهج وطراز الطريقة الأوروبية، وذلك حتى يتسنى للإمبراطورية استعادة قوتها السابقة وتحررها من تبعيتها لأوروبا. وفي الواقع لم تقدم هذه التنظيمات حلا لأي من مشاكل الإمبراطورية الحالية، ولكنها رسمت طريق المستقبل للتاريخ التركي... إن إدخال إصلاحات ذات طابع غربي على النظام الحالي،ومصاحبتها له في كثير من الأحيان أدى إلى الفصل بين المهام الدينية والمهام الدنيوية في الدولة"[2].

لقد أثر عهد التنظيمات تأثير بالغا على المدرسة التركية إذ وضعت المدرسة الدينية في مقابل المدرسة الحديثة، ومن ثم سعى هذا العهد إلى السعي إلى إقصاء المدارس الدينية وإفساح المجال للمدارس الأجنبية.

وقد كان للمدارس الدينية طوال عصور دورها المحوري وأهميتها المركزية في حياة العثمانيين حيث كانت "هي المؤسسة القائمة بإنتاج ووضع الأسس الفكرية والسياسية والحقوقية لدولة قوية فاتحة. ولا يمكن التهوين من أهميتها ومن دورها في رقي الدولة العثمانية وفي إنشاء ووضع الحضارة الإسلامية التركية. فالمدارس الدينية كانت من أهم المؤسسات التي ترسم وتعيِّن هوية العثماني ونظرته إلى الحياة الدنيوية،ومنظومة أفكاره ونظرته إلى الحياة الأخروية ورسمت شكل التنظيمات الرسمية والأهلية. فقد كانت

[1] فلسفة التعليم، السربلحة في المجال الحيوي، د. سمير بودينار، مستقبل الإصلاح، ص: 331 . 332

[2] الإسلام في تركيا الحديثة، ص: 64

هذه المدارس أهم تنظيم ينفث الحياة في منظومة التفكير وفي بنية التعليم والاجتماع في الدولة العثمانية حتى عهد التنظيمات"[1].

اكتسبت المدارس الدينية هذه الصبغة وأصبحت المحددة للشاكلة الثقافية للمجتمع والقائدة لحركاته ومواقف أفراده بفعل مركزية العلماء في التأطير الاجتماعي وبفضل الاستقلالية التي كانت تتمتع بها بعيدا عن قبضة السلطان السياسي. يقول الدكتور أنس أركنه: "كانت المدراس الدينية مؤسسات تعليمية مستقلة خارجة عن السيطرة المباشرة للدولة، لأن المؤسسات الوقفية (الأوقاف) كانت هي القائمة بإدارة هذه المؤسسات التعليمية. كان المجتمع العثماني مجتمعا تكافليا وتعاونيا، وكانت العائلات الغنية تهب أملاكها وتجعلها وقفا في سبيل المجتمع دون انتظار أي منفعة بل بدافع روحي ومعنوي صرف" [2].

وقد تراجع هذا الدور بفعل عوامل كثيرة منها تدهور أوضاع الوقف [3]، ومنها عجز هذه المدارس عن مواكبة تغير البنية الاجتماعية وعن استيعابها، ومنها أنها أصبحت تكرر نفسها وتجتر معلومات لا تستطيع مواجهة التحديات التي شكلها أنصار التنظيمات[4].

ذلك أن "عهد التنظيمات شكل عهد جديدا من ناحية النظام التعليمي والتربوي. لقد وضعوا المدارس الحديثة في مقابل المدارس الدينية. والظاهر أن رجال التنظيمات كانوا على وعي بخطورة النظام الثنائي في النظام التعليمي والتربوي. ولكنهم نتيجة تأثرهم بالغرب كانوا يريدون جعل النظام التعليمي والتربوي في الدولة العثمانية نظاما علمانيا وليبراليا وعصريا. وكانوا يرون أن الثنائية الموجودة في النظام التعليمي والتربوي ستؤدي إلى تشتت اجتماعي وإلى اختلافات اجتماعية. والحقيقة أنهم كانوا يرمون إلى شيء أكبر، وهو السعي ــ تحت تأثير القيم السياسية والفكرية الغربية ــ لإنشاء مجتمع عثماني جديد، وللوصول إلى هذا الهدف فقد خططوا للقيام بتغيير نظام المدارس الدينية. وكانوا

[1] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 275

[2] المصدر نفسه، ص: 275

[3] نفسه، ص: 276

[4] نفسه، ص 280 – 281

يعتقدون أنهم بعملهم هذا يستطيعون تحقيق وحدة المجتمع العثماني من الناحية السياسية والاجتماعية، كان هذا أمرا بالنسبة لهم من حيث تحقيق مشروعهم في التغرب من الناحية الاجتماعية والفكرية.

لقد أثر أنصار التنظيمات على المسلمين بنظام المدارس الحديثة، ولكنهم لم يستطيعوا التأثير على المدارس الأخرى الأجنبية. وأظهر هذا التغيير في النظام التعليمي ثنائية كبيرة بين المدارس الدينية والمدارس الحديثة. وعلاوة على هذا فقد حصل الأجانب بعد إعلان التنظيمات على امتيازات كبيرة داخل الإمبراطورية بخصوص فتح المدارس الدينية وغير الدينية"[1].

ما بعد التنظيمات: المدارس الأجنبية وسيلة للاستعمار وطمس الهوية

كانت الخطة . ـ خطة المتآمرين على العثمانيين . ـ تقتضي نشر المدارس الأجنبية، وتشجيعها وحمايتها من أية مضايقات حتى تتكمن من صياغة جيل ملحق بالغرب ومؤتمن على مصالحه وضامنا للتبعية الثقافية والحضارية. "إن هذه المدارس الأجنبية كانت من عوامل تشويه النظام التعليمي العثماني التركي، بل انقلبت بعد عهد التنظيمات إلى نواد سياسية سعت لهدم الدولة. وكانت هذه المدارس هي القنوات التي نقلت التأثيرات السياسية والعسكرية والاجتماعية لفرنسا وإنجلترا وألمانيا إلى الدولة العثمانية.

هذه التأثيرات التي اشتدت حتى قاربت في بعض الأحيان تأثير الاحتلال والاستعمار. وما ملكت هذه الدول مثل هذا التأثير إلا بواسطة هذه المدارس والخريجين المحليين منها"[2].

يوجه الأستاذ محمد فتح الله كولن نقدا لاذعا لهذه المدارس ويكشف عن وجهها غير العلمي، بل يصفها بأنها مرصد للمستعمر؛ "كانت هناك ثلاث مدارس أجنبية مختلفة حتى في أصغر مدينة تقوم بالتدريس باللغات الأجنبية، وكانت هناك أكثر من ثلاثمائة مدرسة أجنبية في تركيا هي بمثابة عيون ومراصد للجهات الأجنبية وبمثابة رواد

[1] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 278 – 279

[2] المصدر نفسه، ص: 277 – 278

للاستعمار الثقافي، وإلا فماذا كانوا يعملون في تركيا وماذا كانت غايتهم؟ ألم نكن قادرين على إدارة أنفسنا بأنفسنا؟ وماذا كان السبب الحقيقي لوجود هذه الفيروسات في دمنا وانتشارهم في عروقنا وإعلانهم النفير العام الثقافي ضدنا، وتوغلهم في مفاصل إدارتنا؟ لم يكن ذلك حبا في سواد عيوننا، كلا، بل لكي يقرضوا بأنيابهم عالمنا الروحي ويبردوه بمباردهم الحادة، وفي كثير من الأحيان نحجوا في هذا"[1].

لقد نجحت هذه المدارس في إنشاء جيل فاقد للمناعة، مستسلم لولي نعمته،محتقر لدينه ومتنكر لتاريخه ومنحرف في أخلاقه وعاجز عن صناعة حاضره والتخطيط لمستقبله.

يقول الأستاذ كولن: " واستفاد الأجانب المقيمون في بلادنا من هذا الفراغ (فراغ العلم والإيمان) فائدة جمة، فافتتحوا المدارس بنشاط في كل زاوية من زوايا الوطن،ولقحوا أجيالنا باللقاح الأجنبي من خلال أعشاش التعليم. وتطوعت شريحة منا لتمكين خير أبناء الوطن استعدادا وقابلية، من إشغال مقاعد الدراسة فيها. بل حتى بتقبيل الأيدي والأرجل، ليزيدوا في السرعة المطردة للتغريب، ثم بعد مدة ضاع الدين وضاع الإيمان،فالدين خراب والإيمان تراب عند هذه الأجيال الغرة المخدوعة. ضاع، فوقعنا كأمة في ابتذال الذات فكرا وتصورا وفنا وحياة. وهل نعجب من النتيجة ما دامت هذه المدارس التي سلمناها الأدمغة الطرية بلا توجس أوقلق، تضع في اعتبارها من غير استثناء وفي كل وقت، تقديم الثقافة الأمريكية والأخلاق الفرنسة والعادات والأعراف الإنكليزية على العلم والتفكير العلمي. ولذلك بدأ شبابنا التسلي بألعاب الماركسية والدوركهمية واللينينية والماوية، منقسمين إلى معسكرات شتى، بدلا عن اللحاق بالعصر بعلمهم وفنهم وتقنيتهم. فمنهم من واسى نفسه بأحلام الشيوعية ودكتاتورية البروليتاريا،ومنهم من انغرز في عقدة فرويد، ومنهم من ضيع عقله في الوجودية مشدودا إلى سارتر، ومنهم من أسال ماركس رضابه، ومنهم من أهدر عمره لاهثا خلف هذيان كامو... لقد عشنا هذا كله في الوطن، وتولى ما يسمى بموائل العلم دور الحاضن لذلك. وفي مرحلة الأزمة هذه، لم تن أصوات القتام وأفواه السواد من تلطيخ اسم الدين

[1] النور الخالد، ص: 402

وأهل الدين، وتشهير أنواع الجنون الغربي أمام الأنظار. من العسير علينا أن ننسى تلك المرحلة ودماها الرخيصة. إن من هيأوا تلك الأرضية ضد إرادة إنسانيتنا ووطننا،يذكرون دائما في وجدان الحشد البشري على أنهم مجرمون تاريخيا"[1].

3. ترجيح كولن المدرسة المدنية وانتقاده للمدرسة الدينية والحديثة

يعد فتح الله كولن "ناشطا من نشطاء المدرسة الدينية ومن خريجيها، فقد استقى من المدرسة الدينية أولى معلوماته في الحياة وأفكاره وإيمانه وحماسته للعمل" [2]، ولكنه ينتقدها ويعيب عليها عجزها عن التجدد وعن مواجهة آثار وسلبيات المدرسة الحديثة التي فشلت في تحقيق نهضة المجتمع وتقدم الدولة وإنجاز أهدافها، يقول كولن: "صحيح أنه كلما دار الحديث حول التغيير والتطور في بلادنا حصل التركيز على ثقافتنا الذاتية،ولكننا لا يمكننا الحديث عن مبادرة تتصف بالديمومة والمنهجية في هذا المجال؛فالمدارس (التقليدية) والزوايا والتكايا التي كانت تربي مهندسي فكرنا وعمال روحنا في الماضي، لم تنتج مشاريع تأخذ بأيدينا إلى المستقبل، وإذ لم تنجح في ذلك،انسحقت تحت ركام أنقاضها. وإذ نقول هذا القول، نواجه مبدأ يكاد يسكتنا ويضرب على أفواهنا، هو "اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساوئهم" ويمنعنا من أن نتفوه بشيء غير هذا. ونحن بدورنا نقول: إن حوادث التاريخ لا تعيد نفسها مهما تشابهت فيما بينها. فاللازم أن نعتبر بعبرها، لا أن نتلقى دروسا منها. ومن ثم نوجه الأسئلة عن الماضي إلى أنفسنا في الحاضر، فنقول، إن الذين سبقونا قد انقرضوا لما انحرفوا عن الغاية والهدف من وجودهم، ونحن اليوم في الموقف عينه. فالأصوب إذن أن نقاضي أخطاءنا بدلا عن الانشغال بأخطائهم، وإن سلمنا بوقوعها.

لنسلم بأنهم لم يأبهوا بالمنابع التي ينهلون منها، فصاروا وسيلة لجدب أمتنا، لكن قولوا لي . أرجوكم . مالذي صنعناه نحن؟ هل نستطيع أن ندعي بأننا . ـ كشعوب ـ وفينا بمسؤولياتنا كلها؟ أو هل نزعم بأننا قمنا بإدارة مؤسسات الدولة كما يتطلبه العصر؟ رجاء أفيدوني ! من يستطيع أن يقول: إن المدارس في كل هذه المدة المديدة قد أثمرت

[1] ونحن نقيم صرح الروح، ص: 37-38

[2] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 275

المرتجى؟ صحيح أن كثيرا من الشباب حصلوا تعليما عاليا في باريس ولندن وميونيخ ونيويورك... ولكن هل صاروا أعضاء نافعين لمجتمعهم؟ بل على العكس، فدع عنك كونهم أعضاء نافعين، رجع أكثرهم إلى بلادهم بأحلام (فانتازيات) مختلفة، وجلبوا للوطن معضلات عويصة بتأثير تيارات مثل الأنكلوسكسونية والنازية والسلافية، أو الرأسمالية والليبرالية والشيوعية؟ فزادوا الاضطراب اضطرابا، وزادوا القطيعة مع الذات شدة.. ولا زلنا نرجو ونأمل ألا يدوم الحال على هذا المنوال"[1].

وحتى لا يدوم ذلك الحال على ذلك المنوال، فإن الأستاذ "يرجح المدرسة المدنية بشرط عدم إهمال ما هو معنوي، في هذا الاطار يهتم اهتماما خاصا بالمدرسة المدنية بخلاف العديد من الجماعات الدينية الأخرى في تركيا. وبتعبير آخر يقترح نموذجا شموليا تتوفر فيه وحدة القلب والعقل والمادة والروح تحت مظلة المؤسسة التعليمية الحديثة"[2].

المطلب الثاني: أهمية التعليم عند كولن

1. التعليم رسالة مستمرة

من واقعية حركة الخدمة وإيجابياتها توجيهات الأستاذ فتح الله كولن، الحرص على الامتداد من خلال البدائل الميدانية التي تحقق أهداف الإصلاح بعيدا عن الصراع والصخب أو الجدل والضوضاء، ذلك "أن إصلاح أي أمة لا يكون بالقضاء على الشرور بل بتربية الأجيال تربية صحيحة وبتثقيفها ثقافة صحيحة، ورفعها إلى مستوى الإنسانية الحق. وعندما تبذر البذور المقدسة التي هي عبارة عن خليط من الشعور الديني والتاريخي والأعراف في أرجاء الوطن، فسترى نبتات وشتلات عدة وهي تنبت في موضع كل شر محته"[3]، وكان يثق في دور المدرسة ثقة كبيرة؛ "إذ كان يرى أن السبيل الأوحد والأنجع لصناعة إنساننا من جديد، وإصلاح مجتمعاتنا، وتأهيلها للقيام بدوره

[1] ونحن نبني حضارتنا، ص: 24 – 25

[2] التربية والتعليم عند كولن، د. رجب قايماقجان، مستقبل الإصلاح، ص: 357

[3] الموازين، ص: 77

التاريخي المنشود على مستوى العالم، إنما يمر عبر تكثيف الجهود في مجال التربية والتعليم، أي مجال صناعة الرجال؛ وإذا استطعنا أن نكوِّن نماذجنا البشرية والمؤسساتية الحية على أرض الواقع لتراها العيون وتعايشها الأرواح، فسوف تنبعث الثقة في النفوس،والاطمئنان في القلوب والراحة في العقول" [1]. ولذلك يرى كولن مطالعته وتعليمه "أعظم الوظائف التي تأخذ بيد الإنسان وتبلغ به أعلى الدرجات.. إن أقرب الناس إلى الله عز وجل هم المعلمون الذين نذروا حياتهم لنفع غيرهم؛ لأن هؤلاء هم من يعيدون صياغة الإنسان، ويبنون المجتمع، ويشيدون الواقع، ويصنعون المستقبل"[2]

ويؤكد كولن على مركزية التربية والتعليم من خلال تذكيره بهدي النبي صلى الله عليه وسلم الذي بعث معلما، بإقرأ باسم ربك، وأحيا الله به عن طريق القلم خلقا كثيرا،ولم يتوقف النبي صلى الله عليه وسلم عن التعليم حتى في أسوء الظروف، يقول الأستاذ محمد فتح الله: " لم يهمل الرسول النبي صلى الله عليه وسلم العنصر الإنساني طوال حياته السنية، حتى إنه عندما كان يرسل بعضهم إلى جبهة القتال كان يحاول في الوقت ذاته المحافظة على المستوى الرفيع لبعض الأمور الثقافية والعلمية للإنسان، وما كان يمكن أن يكون إلا هذا. ذلك لأن القرآن الكريم كان يخاطبه قائلا: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ الآية 122. التوبة.

أجل فعندما يجاهد المؤمنون يجب أن تبقى طائفة منهم في الوراء لكي تتفقه في الدين ولكي تقوم بنقل تعاليم الدين إليهم، فحتى عندما يكون الجهاد فرض عين يجب أن تبقى أبواب بيوت الثقافة مفتوحة على مصاريعها، ولو سدت جميع أبواب معاهد العلم والثقافة، عندما يحيط الأعداء بالبلاد من كل جانب فإنه حتى لو تم إحراز النصر من الناحية المادية فإن البلاد تكون قد خسرت الشيء الكثير باسم العلم والثقافة. لذا، فإن الإسلام يوصي بأن تبقى طائفة من الناس ولا تذهب إلى جبهات القتال حتى في مثل هذه الظروف غير الطبيعية لكي يتفرغوا لمسائل العلم والثقافة، فلم يهمل رسول الله النبي

[1] كلمات شاهدة حول الدين والمجتمع والدولة بأفق إنساني، ص: 15

[2] شد الرحال لغاية سامية، ص: 50

صلى الله عليه وسلم مواصلة التعبئة العلمية والثقافية حتى في أصعب الظروف، إذ كرس الذين لم يذهبوا إلى جبهات القتال أنفسهم للمدارسة والعلم، بينما كان عدد الذين يقرأون ويكتبون في بداية الدعوة الإسلامية يعدون على أصابع اليد، لم يبق هناك فرد واحد لا يعرف القراءة والكتابة بعد عشرين عاما من بدء الدعوة الإسلامية وكان هذا نتيجة لجهود الرسول النبي صلى الله عليه وسلم.

أجل، إنه لم يهمل في أي وقت من الأوقات الاهتمام بالعنصر الإنساني، وعرف كيف يربي الفرد من جميع جوانبه ويربي الأمة تربية صحيحة وسليمة، علم وأمر بالتعليم، وقلب الأشياء النظرية إلى أمور فعلية وقام بنفسه بوظيفة معلم فربى التلاميذ فأنشأ مجتمع علم وإيمان في دنيا خامدة وبين جماعات هامدة"[1].

ولقد حرص كولن على التعليم وملازمته ولم يتوقف عنه إلى الآن، كما حدثني جمال ترك[2]. يقول حكمة أرطغرول: "لم يترك التدريس في حياته إلا إذا اضطر، لكنه من تواضعه لا يسميه تدريسا، ولا يقول"إني درست" بل يقول: "تطالع الكتب مع الأصدقاء". طالع هو وطلابه كثيرا من أهم كتب التفسير والحديث والفقه وأصوله،والتصوف والبلاغة، والمنطق، والصرف، والنحو، إلى غير ذلك من كتب العلوم الشرعية؛ فمثلا طالعوا في شهر رمضان عشر مجلدات من "كنز العمال"[3] للمتقي الهندي من أصل ستة عشر مجلدا، وفيه أكثر من 46000 حديثا، وأكملوا ما بقي بعد شهر رمضان"[4].

. ومما درسه لتلاميذه:

"**<u>في التفسير وعلوم القرآن</u>**:

. تفسير الجلالين: جلال الدين المحلي، وجلال الدين السيوطي

. أنوار التنزيل وأسرار التأويل لنصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي

. روائع البيان تفسير آيات الأحكام، محمد علي الصابوني

---

[1] النور الخالد، ص: 351

[2] لقاء مع جمال ترك بإسطنبول، يوم 28 دجنبر 2013

[3] "كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال"، لعلاء الدين علي المتقي بن حسام الهندي، (ت 975هـ).

[4] فتح الله كولن: قصة حياة ومسيرة فكر، ص: 119

. مختصر تفسير القرآن العظيم، تأليف ابن كثير، اختصار محمد علي الصابوني
. مقدمة الكشاف، الزمخشري
. في ظلال القرآن، سيد قطب
. كليات رسائل النور، بديع الزمان سعيد النورسي.
. تفسير حق ديني قرآن ديلي Hak Dini Kur ‘an Dili ،ألما ليلي حمدي يازير
. الإقناع في القراءات السبع ، أبو جعفر أحمد بن علي بن أحمد بن خلف الأنصاري.
. تأويلات أهل السنة، الإمام الماتريدي
. مناهل العرفان، الزرقاني

في الحديث:

. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وأيامه، البخاري.
. عمدة القاري في شرح البخاري، بدر الدين العيني
. فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني
. المسند الصحيح (صحيح مسلم)، أبو الحسين مسلم بن الحجاج
. سنن أبي داود، أبو داود السجستاني
. بذل المجهود في حل سنن أبي داود، خليل أحمد السهارنفوري
. المنهل العذب المورود شرح سنن أبي داوود، محمود محمد خطاب السبكي
. الجامع الصحيح سنن الترمذي
. تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذ ي، محمد بن عبد الرحمان بن عبد الرحيم المباركفوري
. الموطأ، الإمام مالك بن أنس
. التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول، منصور علي ناصف
. عقود جواهر الحنيفة، مرتضى الزبيدي
. كنز العمال، علي المتقي.
. رياض الصالحين، زكريا النووي

. الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض

. اللؤلؤ والمرجان، محمد فؤاد عبد الباقي

. الباعث الحثيث، أحمد محمد شاكر

. مقدمة التجريد الصريح في أصول الحديث أحمد ناعم، كامل ميراث

الفقه االإسلامي وأصوله:

. الاختيار لتعليل المختار، أبو الفضل الموصلي

. الهداية، أبو الحسن برهان الدين المرغيناني

. ملتقى الأبحر، إبراهيم بن محمد الحلبي

. فتح القدير في شرح الهداية، ابن الهمام

. الفقه الإسلامي وأدلته، وهبة الزحيلي

. الفقه الحنفي و أدلته، أسعد محمد سعيد الصاغرجي

. مرآة الأصول، ملا خسرو

. الوجيز في أصول الفقه، عبد الكريم زيدان

. الموافقات، الشاطبي

. التصوف :

. الرسالة القشيرية في علوم التصوف، الإمام القشيري

. المكتوبات، الإمام الرباني السرهندي.

. الرعاية لحقوق الله، الحارث المحاسبي

. اتحاف السادة المتقين في شرح إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ، مرتضى الزبيدي

. **اللغة العربية**

الكفاية، ابن حاجب

النحو الواضح، مصطفى أمين.

شرح ابن عقيل على الكفاية لابن مالك، بهاء الدين عبد الله بن عقيل

جامع الدروس العربية، مصطفى الغلياني

مبادئ الدروس العربية، محمد محيي الدين عبد الحميد

تعليم اللغة العربية بطريقة حديثة، فتح الله كولن

. البلاغة

تلخيص المفتاح، الخطيب القزويني

جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد الهاشمي

. علوم الكلام

. شرح العقائد النسفيه، سعد الدين التفتازاني

. العقائد الخيرية، محمد وهبي أفندي

. كليات رسائل النور بديع الزمان النورسي"[1].

2. التعليم وسيلة أساسية للتدافع بين الصلاح والفساد

يؤمن الأستاذ محمد فتح الله كولن بالحوار بين الحضارات، وأن الاختلاف سنة كونية وقاعدة يقوم عليها الخلق، وأن الأرض يرثها عباد الله الصالحون، ومن ثم ضرورة التزود بزاد الإيمان والعرفان لإنقاذ الإنسان ومقاومة مستعبديه عن طريق إشاعة العلم وتوسيع مجالات التربية والتشجيع على فتح مراكز النصيحة والبيان. لأن "التعليم يعد من العوامل التي تعجل بإحداث التغيير الثقافي، وذلك بما تتضمنه العملية التعليمية من إكساب العقل مهارات فكرية وتنمية قدراته الإبداعية وملكاته الذهنية".[2]

ومن أجل هذا العقل السليم ومن أجل الإشراف على تربيته وتدريبه على التفكير ،تبنى كولن "مشروع حاضنات لهذا العقل، وهذه الحاضنات هي المدارس التي يشجع على إنشاء الكثير منها في تركيا وخارجها".[3]

إن الحاجة إلى هذا العقل السليم تستدعيها مهمة الإنسان الرسالية، فهو مسؤول عن الأرض وعمارتها حسب استطاعته وفي حدود مجاله من الإصلاح. يقول الأستاذ محمد فتح كولن: "كان من واجب أهل العقل والإيمان والعرفان القيام بإنقاذ العالم إن كان الفساد قد استشرى فيه، فإن لم يكن العالم قد فسد بذل الجهد من أجل استمرار الصلاح

[1] أرباب المستوى، ص من: 257 إلى: 262

[2] سيكولوجية التنشئة الاجتماعية، د.صالح محمد علي أبو جادو، ط 4، دار المسيرة، عمان 2004،ص: 129

[3] الضاربون في الأرض، ص: 44

إن كان هناك احتمال لحدوث الفساد ومجيئه، والقيام بالسيطرة على أنصار الشغب والفوضى والفساد وعدم إفساح المجال للمزيد من الإفساد. ولا يكون هذا إلا بفتح دور العلم والتربية والتثقيف، وفتح مراكز الإرشاد والتوعية، وتكوين المؤسسات الضرورية في هذا المجال، ووضع البدائل العديدة في هذا الصدد، وسد كل منافذ وثغرات الفتنة والفساد، وعدم السماح بفتح أي باب محتمل للفتنة. ولينزل فضل الله تعالى وكرمه على من يستطيع تنفيذ هذا، إن النجاح في تنفيذ هذا وتطبيقه سيكون وسام فخر ووسام فضيلة لا يقدر بثمن على صدور القائمين به"[1].

3. التربية والتعليم المدخل الأساس لمعالجة قضايا الإنسان والمجتم.ع

شغل كولن وحركة الخدمة بقاضايا متعددة مرتبطة بالفرد والأمة غير أن ميدان التعليم يكاد يكون الأبرز "حتى إنه يمكن القول إن حركة تعليم واسعة ومنظمة هي أهم التجليات الظاهرة لدعوة الرجل (كولن) على الإطلاق إلى جانب قطاعات أخرى موازية كالإعلام والنشر والمؤسسات الاقتصادية والاجتماعية والصحية"[2].

وأهم ما يقدمه لك أبناء الخدمة عند اللقاء بهم الدعوة لزيارة مدارسهم والحديث عن إنجازاتهم فيها ومن خلالها، وتضحيات القائمين عليها. يقول د.فؤاد البنا: "من خلال قراءة حركة الخدمة فكرا وممارسة، يجد المرء أنها حركة جهادية من طراز رفيع رغم أنها لم تطلق طلقة واحدة، ولم ترق قطرة دم واحدة إذ أنها تتحرك في إطار الجهاد الأبيض الواسع وتستهلك كل طاقتها هناك، وتنجز كل عام عددا من الفتوحات المدنية الناعمة في جبهات التربية والتعليم، عبر بناء ما يزيد عن ألفي مدرسة نموذجية في تركيا وفي مائة وستين دولة في العالم، وبناء أكثر من خمس عشرة جامعة ضخمة، أهمها "جامعة الفاتح" في إسطنبول، وإيجاد المئات من المدن والمباني السكنية الجامعية، بحيث يمكن القول إن هناك مليونين من الطلاب الذين يستفيدون من خدمات هذا التيار"[3].

عندما يفحص الباحث رؤى كولن وتصوراته وآماله وطموحاته يجد أمامه مفتاح التربية والتعليم حاضرا لكشف طبيعة الاختلال في الأمة، وحاضرا كذلك مخرجا من أزمة

[1] أضواء قرآنية، ص: 92

[2] فلسفة التعليم: السريلحة في المجال الحيوي، ص: 333

[3] عبقرية فتح الله كولن ، ص: 67 -68

ضعفها ووهنها الحضاري؛ "يرى فتح الله كولن أن أكبر مشكلة للعصر هي مسألة التربية والتعليم. لذا فهو يتناولها في العديد من كتاباته بصورة مباشرة أو غير مباشرة، تصريحا أو تلميحا ويعدها أهم مشكل في بلده. فهو عندما يتناول مواضيع البعث والإحياء أو التجديد أو الرجوع إلى جذورنا التاريخية وبعثنا من جديد كأمة لها دنياها وعالمها وقيمها الخاصة بها، إنما يتناول في كل هذه المواضيع التي يطرقها مشكلة التربية والتعليم بشكل غير مباشر. غير أن الطريق الوحيد للتغلب على هذه المشكلة الجذرية العميقة هو في تنشئة كادر رباني ينذر نفسه فكريا أو عقليا وقلبيا، وينذر كيانه جميعا لأمته، وفي غياب مثل هذا الكادر الرباني المضحي فلا يمكن الوصول إلى أي بعث مادي أو روحي".[1]

4. التعليم هَمُّ المجتمع وليس شأنا نخبويا

حين يفلح المصلحون في جعل ما يؤرقهم هما اجتماعيا، وحين يشركون مختلف شرائح المجتمع في الاهتمام بقضايا الإنسان والأمة، حينئذ سيسعى الجميع في سبل التضحية بالمال والجهد والفكر من أجل إنجاز ما يسعد الجميع ويحقق عزة الأمة وقوتها ويثبت وجودها الحضاري ويصوغ شاكلتها الثقافية ، ومن ثم كانت التضحية هو العمود الفقري لمشاريع "الخدمة"[2]. وعلى هذا الأساس ــ كما يقول د.أنس أركنه ــ :" قام فتح الله كولن طوال سنوات عديدة ــ سواء في مواعظه أم في مجالسه أم في مقالاته العديدة التي نشرها .ــ بالتطرق بشكل مباشر أو غير مباشر إلى مشاكل التعليم. ويكاد يكون هو الشخص الوحيد الذي تناول في تركيا هذا الموضوع تناولا حركيا وأوصله إلى الجماهير الواسعة. فلا نعرف أحدا قام بشرح أهمية التعليم حتى في مواعظه للجماهير الذين كانوا يحضرون الجامع لسماع مواعظه وهم من عامة الناس ومن الكسبة وأصحاب الحرف،لأن موضوع التعليم كان منحصرا في التاريخ القريب وفي العهد الجمهوري أيضا في أوساط المثقفين والمفكرين والساسة، ولم يكن في استطاعة جماهير الناس الاشتراك في النقاشات الدائرة حوله لا بشكل مباشر ولا بشكل غير مباشر، لأن القناعة السائدة

[1] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 248

[2] The Gülen Movement: Civic Service Without Borders, p 165

كانت أن نظام التعليم موضوع مهم جدا وخاص جدا إلى درجة لا يمكن معها السماح لجماهير الشعب لبيان الرأي حوله. ولم يدر بخلدهم أبدا أن من الممكن أن يقوم عامة الناس بالتبرع من أموالهم إلى التعليم دون انتظار أي مقابل. وبتعبير آخر، لم تكن الجماهير الواسعة تشغل أي مكان في المشاريع الاجتماعية والثقافية والسياسية لهؤلاء المثقفين والساسة، فهم كانوا ينظرون إلى المجتمع بأنه عبارة عن جماهير جاهلة لا دور لها سوى تطبيق الأوامر الآتية لهم من فوق. وما قام به فتح الله كولن هو هدم هذه النظرة، لأن هذه النظرة التي جعلت التعليم والسياسة والدولة غريبة عن الشعب وأنشأت كادرا نخبويا، وولدت هذه النظرة، ولكن فتح الله كولن كان يرى أن هذا الشعب الذي قاد معركة الاستقلال في جو الفقر والحرمان قادر . ـ بِحَمِيَّتِهِ وشهامته .ـ على الاشتراك في حل أهم مشاكل البلد، وأنه يستطيع الاستعانة به في هذا الموضوع. لذا كانت محاولة فريدة في بابها لا نجد لها مثيلا في تاريخنا القريب"[1].

لقد أفلح هذا السعي في جعل التربية والتعليم موضوعا متداولا لدى شرائح واسعة من المجتمع التركي، خصوصا بعد أن حققت مدارس الخدمة مستوى أثار الرأي العام المحلي والعالمي من خلال حيازة طلبة هذه المدارس على عدد غير يسير من الميداليات في المباريات العلمية العالمية، يقول أنس أركنه: "لقد نفثت هذه المدارس الحركة والحيوية لنظام التعليم في تركيا. وكانت عاملا في زيادة الاهتمام بنظام التعليم سواء في الأوساط المؤيدة لهذه المدارس والمعارضة لها. وعندما تبين نجاح هذه المدارس في إعداد الطلاب للجامعات، ونجاحها الباهر في المباريات العلمية، وانعكست أخبار هذه النجاحات في وسائل الإعلام ووصلت إلى أسماع الرأي العام توجه العديد إلى ساحة التعليم، إلى درجة أنه لم يحدث مثل هذه الاهتمام المتزايد نحو التعليم في تركيا في العهود السابقة، حتى لقد أصبح من المعتاد الآن وجود برامج خاصة للتعليم في وسائل الإعلام، وخصصت الجرائد صفحات لموضوع التعليم وأخباره وزاد إقبال العديد من

[1] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 291 – 292

الأوساط إلى التعليم بعد أن كانت لا تربطها به أي علاقة. ونما قطاع التعليم وأصبح من القطاعات الخاصة المهمة"[1].

5. التربية والتعليم رسالة اطمئنان إلى المثقفين والسياسيين.

سعى كولن من خلال مؤسسات التعليم التي دعا إلى إنشائها إلى التأكيد على نهجه الإصلاحي المدني القائم على خدمة المجتمع والحوار والإقناع بالتي هي أحسن،ذلك أن مركز النهضة هو الإنسان ومحور الاهتمام هو كيف تتم صياغة هذا الإنسان وبناؤه ليَحيى ويُحْيِيَ من حوله من جديد.

وجد الأستاذ محمد فتح الله "أن المشكلة في بلده وفي العالم الإسلامي أو في الحضارة الحالية كلها، هي الإنسان بحد ذاته وتعليمه وتربيته وتدريبه. وفي بداية السبعينات حاول تطبيق خطته في التعليم والتربية على الطلاب الشباب، ثم في المدارس التي شجع على إنشائها في معظم بلدان العالم. فانتقل بذلك من النظرية إلى التطبيق العملي.

وبينما استمر في عمله ومهنته واعظا، بدأ من جهة أخرى بالقيام بترتيب دورات تعليمية، ومخيمات صيفية للطلاب. وبدأ يؤكد في خطبه ومواعظه على أن الحاجة إلى بناء المدارس في هذا العصر أمس من بناء الجوامع، وذلك ليستنهض همم الناس إلى بناء المدارس والتعليم. ولكن سرعان ما جاءته انتقادات من بعض الأوساط المحافظة لأن هذه الأوساط كانت تهتم بالمشاريع ذات الأمد القصير بينما كانت مشاريع التربية والتعليم ذات أمد بعيد. كما لم تكن هذه المشاريع من المشاريع التي تهتم بها هذه الأوساط بشكل مباشر، لذا فلم تكن على وعي بآثارها الإجتماعية العميقة لها على المدى البعيد.. ونظرت أوساط محافظة أخرى إلى هذه المشاريع باستخفاف، ولم تأخذها مأخذ الجد.

وقد حاول الأستاذ فتح الله كولن لسنوات عديدة في خطبه ومواعظه بشكل مباشر أو غير مباشر إقناع الأوساط المحافظة بفائدة مشاريع التربية والتعليم، وخطا خطوات فعلية في هذا المجال ليكون قدوة لهم.

[1] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 289

كما بذل جهدا كبيرا في إقناع الأوساط الحكومية الرسمية أيضا بأنه لا يستهدف من هذه المشاريع سوى مصلحة الجماهير وخدمة الروح والهوية الملية، ولا يحمل أي هدف سياسي أو أيدولوجي. وقد كانت المؤسسة التي أنشأها لهذا الغرض مؤسسة مدنية أفرزها النشاط المدني، إذ لم يكن يوجد فيها أي تجمع أو أي معارضة سياسية، ولم تتوجه هذه المدرسة إلى أي هدف يتعارض مع أهداف الدولة القائمة.. ولا أي غاية تتصادم مع القيم الرسمية للدولة ، لأن الجهود كلها كانت موجهة نحو تعليم الشباب والجماهير وتربيتهم.

وقد بدا فتح الله كولن شخصا من الأشخاص النادرين في التاريخ الإسلامي الذي تستمع لخطبهم ومواعظهم كتل كبيرة من الجماهير من مختلف الثقافات والمشاريع والأطياف. وفي التسعينات قامت هذه المدارس . ـ الابتدائية والثانوية ـ التي شجع على إنشائها في تركيا بالاشتراك في المسابقات العلمية العالمية، حيث أثبتت جدارتها في مدة قصيرة بالنتائج الجيدة التي حصلت عليها، والنجاحات الرائعة التي سجلتها. كان هذا دليلا على أن هذه المدارس أرسيت على قواعد علمية رصينة. وبتعبير آخر كانت هنا إشارة إلى مدى نجاح مشروع التربية والتعليم الذي بدأه الأستاذ فتح الله كولن ووضع على عاتقه مهمة إنجازه.

أصبح فتح الله كولن بفعالياته هذه ونشاطاته حديث الساعة في تركيا، وبؤرة اهتمام كبار موظفي الدولة ورجال السياسة المحايدين، والأكاديميين والأوساط المثقفة ووسائل الإعلام. وأصبحت أعوام التسعينات أعوام الانفتاح على العالم الخارجي من جهة، وأعوام إجراء الحوارات مع مختلف الفئات وبشكل واسع من جهة أخرى".[1]

المطلب الثالث: مركزية المعلم في العملية التعليمية والتربوية

1. أهمية المعلم في فكر كولن

يعد موقع المعلم في المدرسة موقعا متميزا، بل إن قيمته هي التي تحدد مكانة مدارس الخدمة، ومن ثم إدراك القيمة المضافة التي قدمتها حركة فتح الله كولن يقول

[1] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 41 – 42

أنس أركنه: "المعلم أهم مرب ومهيئ للإنسان وللمجتمع، فرجال الإدارة والسياسة والعلم والفكر والعباقرة والعلماء تربوا على يديه، وهو حامل وناقل لكل أنواع الفضائل أيضا،ولكنه فقد . ـ مع الأسف ـ في أيامنا الحالية نفوذه الاجتماعي على الصعيد العملي،وفقد تجهيزاته المادية والمعنوية. بينما كان يلعب دور أساسيا في السابق في مجتمعنا، حاملا لكل الأعباء الاجتماعية والإنسانية، وناقلا مقدسات المجتمع من جيل إلى آخر.. وكان المعلم أول ضحية لتفسخ النظام التعليمي. لذا كانت الحركة التعليمية التي قادها فتح الله كولن إحياء لهذه المهنة من جديد. فالمعلم . ـ عنده ـ المجهز بالعلم والمعرفة، ظهر على مسرح التاريخ مرة أخرى ظهورا أقوى من السابق وبتأثير أعظم بفضل ما تجهز به من تضحية ووفاء وعلم وعرفان. فكأن فتح الله كولن استنهض بطلا من نومه. ويمكن القول بأنه إن لم يتم معرفة الحملة التعليمية هذه وكادرها الواسع المعرفة تامة، فلن يكون في الإمكان تحليل حركة فتح الله كولن. وهذا هو الموقع المركزي الذي احتله المعلم والمدرس في هذه الحركة، فهو رمز الإنسان المضحي، ورمز نقل الفضيلة إلى المجتمع، وناقل حركة الحوار وقبول الآخر. ولم يحدث في أي عهد من عهود التاريخ أن حمل المعلم مثل هذه التأثير العالمي الشامل، ولم يحدث أنه خاطب كل هذه البلدان المختلفة جغرافيا ولغة وثقافة. وقد أظهرت تجاربه الواسعة هذا الروح العالمي والإنساني والروحاني الذي يحمله"[1].

يتحمل المعلم في تصور حركة الخدمة وفكر كولن العبء الأكبر والمهمة الكبرى في تحقيق مشروع الإنسان الجديد وصياغة جيل ورثة الأرض،فـ" المعلم هو أستاذ مقدس يقوم بصياغة الحياة على مدى حياة كاملة من الميلاد إلى الوفاة. يرشد الأمة في الحزن،ويعلو بأخلاقها وشخصيتها ويلقنها الشعور الأدبي، ولا يمكن إظهار مخلوق ثان على سطح الأرض مماثل لهذا الكائن السامي. المعلم هو إنسان الحب الذي يضيء أمام أبنائه بشعلة الحب التي في يده ويعدهم للغد المشرق.

[1] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 299 – 300

المعلم هو بطل المحبة والتسامح الذي يعرف طلابه بجميع صفاتهم، ويحتضنهم دائما بمودة، ويشاركهم أفراحهم وأحزانهم، ويصفق لنجاحهم ويغض الطرف عن جوانبهم السلبية.

المعلم هو مرب مثالي يوافق قوله فعله، ويظهر بحياته تماما الأشياء التي يتمنى وجودها لدى طلابه".[1]

ولأجل ذلك كله فإن "تأثير المعلم على الفرد يفوق تأثير الأب والأم أضعافا مضاعفة. والحقيقة أنه هو الذي يعجن الأب والأم والمجتمع ويشكله. وكل عجين لم تمسه يد المعلم فهو عجين لا طعم له. هو اللسان واليد التي يستخدمها الله تعالى في رفع الناس ووضعهم".[2]

إن المسؤولية التي كلف بها المعلم في حركة فتح الله كولن، تتجاوز الصورة النمطية التي عهدتها مجتمعات كثيرة، ذلك أن فتح الله "يرى أنه لا يمكن علاج مدنية مريضة ولا إقامة التوازن الاجتماعي إلا بكادر تعليمي يملك عدة العرفان، ونظرة تحليلية وتركيبية بعيدة المدى.

هذه هي الأهمية الكبرى للمعلم في نظره. وعند النظر إلى هذا الدور الكبير الذي يرى أن المعلم يقوم به، يرد إلى الذهن الإنساني معنى قدسي. أي أن المعلم وجود مقدس في الحقيقة في نظره، لأن مهنة التعليم تغطي مساحة كبيرة من مهمة الرسل والأنبياء".[3]

ونظرا لهذه الأهمية الكبرى يراهن الأستاذ كولن على المدرسين الأكفاء حتى ينقذوا المجتمع التركي من آلامه بسبب عدم تحقيق الرشد الاجتماعي وبسطة أجنحة العلم والمعرفة على مختلف مناحي الحياة، حيث إن "التعبئة العلمية والتربوية لنشر المعارف الصحيحة ضرورة فوق كل الضرورات الأخرى، أما عدم إيفاء مثل هذه الوظيفة المقدسة حقها من الاهتمام فسيؤدي إلى جروح غائرة لا يمكن اندمالها في المجتمع، ولعل هذا هو أساس كثير من الآلام التي عانى منها المجتمع مدة سنوات طويلة، لأننا كنا محرومين من المرشدين الممتلئين بعشق العلم الذين جمعوا بين العلم والروح وبين العقل والقلب

[1] التربية والتعليم عند كولن، مستقبل الإصلاح، ص: 367 – 368

[2] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 300

[3] المصدر نفسه، ص: 301

وبرزوا وتعمقوا فيهما. لذا نأمل من هؤلاء المرشدين الحقيقيين التصدي لحمل هذه المهمة البشرية الأساسية وأن ينقذونا من هذه الآلام التي قاسينا منها طوال عصر".[1]

2. المعلم صاحب رسالة وعمود الخدمة الأساس

إذا كانت حركة الخدمة قد توسعت عبر مدارسها داخل تركيا وخارجها في أكثر من 160 دولة بأكثر من ألفي مدرسة، وإذا كانت قد وضعت استراتيجية إيجاد خمسين جامعة، وتحقق منها الآن خمس عشرة جامعة، من أهمها جامعة الفاتح التي يوجد فيها أزيد من 15 ألف طالب ينتمون إلى 80 دولة[2]، فإن "نقطة تفوقها الجوهرية هي امتلاكها للكادر الرسالي الذي لا يؤدي عمله كمهني متخصص فحسب بل كصاحب دعوة ورسالة أيضا".[3]

وجود هذا النوع من المدرسين ثمرة من توجيهات كولن وتأكيده على ضرورة العناية بالمعلم؛ يقول فتح الله كولن: "ما يمكن أن يشرح ويفهم باسم العلم يعد مفهوما،وما لا يمكن شرحه يعد غير مهضوم بعد بشكل جيد. ولذا فبينما يتركز الاهتمام على الشباب الذين لا يفهمون جيدا في المدارس نرى وجوب الاهتمام بوضع المعلمين أيضا"[4]، ويرى الأستاذ أنه "إن لم تتحول المدارس بيد المعلمين الأكفاء إلى ما يشبه المعابد فإن من العبث انتظار خلو السجون من المساجين".[5]

لقد تمكن معلمون كثيرون من ترك بصماتهم القوية والمؤثرة على حياة المجتمعات التي اشتغلوا فيها، بل منهم من غير قناعات كثيرة سائدة ،واستطاعوا صناعة رأي عام بديل؛ يقول د فتحي ملكاوي: "أذكر بخبرة هنا تتمثل في تجربة الجالية اليهودية في الولايات المتحدة الأمريكية؛ تقول موسوعة التعليم اليهودي في أمريكا أن الصور النمطية التي كان يعاني منها اليهود منذ بداية هجرتهم في القرن السادس عشر إلى بداية القرن العشرين كانت صورة خانقة للجالية اليهودية وقاتلة ومسيئة جدا لهم، صورة

---

[1] أسئلة العصر المحيرة، ص: 25 – 26

[2] عبقرية فتح الله كولن ، ص: 99 – 100

[3] المصدر نفسه، ص: 131

[4] الموازين، ص: 172

[5] المصدر نفسه، ص: 172

اليهودي في أمريكا كانت من أسوإ الصور.. لا يطاق، لا يحتمل، وفي هذا أمثلة كثيرة جدا، لكن الجالية اليهودية قررت أن تغير ذلك، وقد قررت أن تغير ذلك من خلال التعليم، لم ينشئوا مدارس، وإنما وجهت الجالية بناتها بالذات، وخاصة في ولاية نيويورك للدخول في سلك التعليم، فوصل الأمر في سنة 1912 أن نسبة المعلمات اليهوديات في نيويورك وصلت إلى 80% من مجموع المعلمات، عقود من الزمن تقوم هذه المعلمات اليهوديات بالتعبير عن يهوديتهن في الوقت الذي يقدمن للأطفال صورا تتناقض مع الصور النمطية المألوفة، فأصبح لدى الأجيال الجديدة من الأمريكيين نوع من غسيل الدماغ وتغيير هذه الصور النمطية"[1].

3. اختيار المؤهلين للتدريس والعناية بهم وتطوير أدائهم

يتم اختيار المدرسين بكل عناية وكفاءة[2]، حيث يتم اصطفاء الطلاب الأكثر ذكاء وإخلاصا ونبوغا للدخول إلى كليات التربية [3]، حيث يوجه "الطلاب الموهوبون المتصلون بالجماعة إلى أقسام التربية بالجامعة. تبذل كثير من الجهود لإتاحة الفرص أمام هؤلاء المرشحين لأن يكونوا معلمين حتى يعلموا ويتعلموا القيم التربوية للحركة سواء في الحياة التعليمية في الجامعة أو ما بعدها" [4]، وهذا الاجتهاد في الاختيار والتأهيل يتطلبه ما ينتظر هؤلاء من مهام جسيمة من جهة ويستدعيه ضرورة علاج مشكلة التوجه العلماني في التعليم التركي، يقول د رجب: "تخرج معظم هؤلاء المعلمين في مؤسسات التعليم العالي التي تدرب المعلمين في تركيا. وإنها لحقيقة أنه ليس هناك وضوح للمفهوم الذي يهدف إلى النظر للإنسان ككل في برامج مؤسسات التعليم العالي التي تدرب المعلمين. إذن كيف ينشأ المعلم الذي سيكون المرشد في التربية التي تحمل تكامل القلب والعقل الذي سينشئ (الجيل الذهبي) بتعبير كولن؟" [5] والتحدي الآخر بعد تأهيل المدرس، هو

[1] مستقبل الإصلاح، ص:373 – 374

[2] La société civile p 203

[3] فلسفة التعليم: السباحة في المجال الحيوي، مستقبل الإصلاح، ص: 335

[4] التربية والتعليم عند كولن، مستقبل الإصلاح، ص: 367

[5] المصدر نفسه، ص 367

"كيف يتحقق تعليم يهدف الى تحقيق التكامل بين العقل والقلب تحت مظلة حديثة تحمل صبغة علمانية؟".[1]

إن مدارس الخدمة تلتزم ببرنامج وزارة التعليم التركية، الذي وضعته الدولة العلمانية، ومن هنا تكمن جسامة مسؤولية المعلم في تربية الطلبة على القيم التي تلقاها في حضن الحركة؛ "إحدى الوظائف المهمة للمعلمين هو نقل القيمة الإنسانية الأساسية والمعايير الأخلاقية للأجيال القادمة. ولا يعني تدريس القيم للطلاب في المدارس وضع منهج جديد؛ إن التعليم إذا راعينا فيه دمج مفهوم القيمة عند تدريس كل موضوع سيعطي نتائج ناجحة للغاية. البرنامج الضمني هو إحدى المجالات التي يتحقق فيها تدريس القيم تحت مظلة المدرسة، لأن هناك أمورا مثل مناخ المدرسة ومفهوم انضباط المعلمين وسلوكهم القيادي وتطلعاتهم، تساهم في تعلم الطلاب للقيم وتنميتها.. والمعلم هو المحور المعول عليه لتحقيق هذه المهمة"[2].

ومن هنا تأتي أهمية مضاعفة الجهود حتى يتأهل المدرسون إلى أرقى المستويات الإيمانية والعلمية الممكنة يستعينون بذلك لتجاوز العقبات، ولذلك يؤكد كولن على تفاعل المتعلمين . خصوصا المرشحين منهم للتدريس . مع ما يتعلمون، فينقلون القيم من خلال حالهم وسلوكهم ومواقفهم إلى طلابهم، يقول فتح الله: "إن من يجول في بطون الكتب كالفأر متتبعا خزينة الأسرار يصرف جل عمره في كتابة الحواشي والشروح من دون أن يقرأ سطرا واحدا من علم الحقيقة، هذا الذي يطلق عليه اسم العالم، هو بالتعبير القرآني كمن يحمل أسفارا. أين هذا من الإنسان الكامل الذي يقرأ سطرا وإذا به يحلق في السماوات ويعيش في كل آن في نشوة وانتشاء روحي. أظن أن الفرق بينهما كالفرق بين لاشيء وكل شيء، فالعلم الموصل إلى الله كل شيء والذي يتركك في الطريق لا شيء"[3].

[1] التربية والتعليم عند كولن، مستقبل الإصلاح، ص: 367

[2] المصدر نفسه، ص: 366

[3] طرق الإرشاد، ص: 90

4. المعلم: تكوين مستمر وارتقاء متواصل

أشد الناس حاجة إلى التعلم والتكوين المستمر في مجالات التربية والتزكية والارتقاء في تطوير أساليب ومهارات التعلم، هم المدرسون، لاشتراكهم مع النبوة في بناء الإنسان. يتم تلبية هذه الحاجة في منهج الخدمة من خلال مايلي:

أ . خضوع المعلمين من حواريي فتح الله كولن لبرنامج روحي خاص، حيث إن الواحد منهم "يقيم في نزل خاص بالحركة، يتم ترقيته فيها روحيا بحيث يتغلب على ازدواجية الروح والجسد لديه، ثم ينقل ما تعلمه وتدرب عليه إلى تلاميذه"[1].

ب . الإقامة مع الطلاب في مقار المدارس التي توفر الإقامة [2]، وهذا "يساعد على القرب الشديد من الطلاب حيث إن التعليم في أغلبه يكون بالنظام الداخلي (أقسام داخلية) باستثناء الأقسام الأساسية وأقسام التكوين الخاص والمستمر" [3]، وتشجع المدارس على بقاء التلاميذ في حضنها أكبر وقت ممكن[4].

ت . لقاء الزمر: حيث يعقد اجتماع أسبوعي لمدرسي المواد لتبادل الخبرات وتلاقح الأفكار وتكامل المعارف وتدارس المشاكل والعقبات بغية تطوير الكفاءات وتطوير المهارات من خلال دروس نموذجية تطبيقية، وتجديد تقنيات التدريس ومهارات المدرس.[5]

د . حضور مؤتمرين في السنة. إذ أن " كل الأساتذة في هذه المؤسسات يحضرون على الأقل مؤتمرين سنويين لصالح الأساتذة خلال الفصلين، بالإضافة إلى ورشات العمل واللقاءات المستمرة الخاصة بالأساتذة (سنويا مرة أو مرتين على مستوى كل دولة)، ما يسهم في تطوير التكوين الأكاديمي بين الأساتذة".[6]

---

[1] التربية والتعليم عند كولن، مستقبل الإصلاح، ص: 380

[2] محاورات حضارية، ص: 126

[3] فلسفة التعليم، السريلحة في المجال الحيوي، مستقبل الإصلاح، ص: 374

[4] La société civile p 203

[5] فلسفة التعليم، السريلحة في المجال الحيوي، مستقبل الإصلاح، ص: 347 – 348. نداء الروح، ص: 227. عبقرية فتح الله كولن، ص: 99

[6] فلسفة التعليم، السريلحة في المجال الحيوي، مستقبل الإصلاح، ص: 347

المبحث الثاني: مدارس الخدمة وعوامل فاعليتها

المطلب الأول: وحدة العقل والقلب وتعزيز الانتماء للأمة

1. ارتباط المدرسة بسياق مجتمعها الحضاري وجذوروه المعنوية وبيئته العامة

إن المدرسة مؤسسة اجتماعية بامتياز، ولكي تتحقق مهامها بشكل كبير وبنسبة معتبرة، تحتاج إلى احتضانها من قبل المجتمع بمحدداته الثقافية، ذلك أن فعل المدرسة سيكون أقوى وأبقى وأرسخ عندما تكون مكونات الأمة الحضارية وأسسها هي المؤطرة لأعمالها التربية والموجهة لنشاطاتها التعليمية، وبهذا يمكن انتظار غد مشرق في المستقبل. يقول الأستاذ محمد فتح الله كولن: "إن كنا عازمين على المضي قدما نحو المستقبل فلا مناص من أن نكون ذاتيين في المنطق والمحاكمة العقلية والأسلوب،باستثمار تراكمنا العلمي والتجريبي في مواقعه المناسبة. فقد تكسب المدرسة الإنسان تراكمات وتجارب علمية واجتماعية واقتصادية وسياسية، لكن تقبلها من قبل فئات المجتمع كافة ودوامها مرتبط بامتزاجها وتكاملها مع الجذور المعنوية للمجتمع وبنيانه الفكري. ولهذا فإن معضلة أمثالنا من الدول المتخلفة إنما هي عجزها عن اكتشاف حقيقة المدرسة بروحها ومعناها، بل ـ وبالأحرى ـ إنها معضلة ثقافية في أصلها. ومن الضروري واللازم أن تحل هذه المشكلة في أرضيتها هي.

نعم هناك أمور كثيرة نحصل عليها وتتشربها أرواحنا ونحن على مقاعد المدرسة،ولكن ثمة أمرا أشد وقعا وتأثيرا، ألا وهو الثقافة.. ومما لا مرية فيه أن الثقافة من الأمور التي تنتجها البيئة والمحيط.

يمكن القول بأن البيئة ظلت مصدر القيم الثقافية في كل الحضارات سابقها وحاضرها. ويمكن أن نسميها "البيئة العامة" التي تتكون من الأحاسيس والأفكار والسلوكيات والأصوات والألوان والأساليب والأداء والخصوصيات الأخرى الحاوية على أعماق متنوعة من طبيعة الأمة. ولا يتعسر علينا التدليل على صحة هذا المقترب بأدلة كثيرة، لكننا نريد الآن أن نركز على أقوى حركية، وهي شمولية الثقافة التي تتنفسها جميع شرائح المجتمع كالهواء، وترتشفها كالماء، وتشمها كالزهور، وتصغي إليها

كالطبيعة. فالثقافة إنما تتسع وتحوز على قدرة التأثير الدائم بهذه الشمولية. وهذا ما ينبغي أن يتبادر إلى الذهن حينما تذكر الثقافة. نعم، إنها مؤثرة في راع بعين المقياس الذي تؤثر به على مثقف أوعلاَّمة. فما يعنيه التقاء الماء والتراب والهواء والشمس في نقطة واحدة بالنسبة لوجود أي كائن حي ومواصلته لحياته، هو الذي تعنيه الثقافة بالنسبة لحاضر أي مجتمع ومستقبله. نعم، إنها من أهم المقومات التي توصل الفرد والمجتمع إلى درجة النضج من الجهة النفسية والأخلاقية"[1].

ومن ثم فإن المدرسة المنبتة عن أصلها وجذور مجتمعها، عاجزة عن إحداث نقلة نوعية حقيقية تربوية وعلمية، والذين راهنوا عليها مع هذا الاختلال الكبير راهنوا على سراب حسبوه إنجازا فلما امتحنت الأمة اتضح أن البناء كان على جرف هار. "إن المدرسة بقدر ما تكون متوجهة نحو الهدف ومتسمة بالعمق تصبح ميناء أو مطارا أو منطلقا للأمة، بشرط أن تصهر مكتسباتها في بوتقة الثقافة الذاتية. وإلا فمن البدهي أن المدرسة لن تستطيع حل المشاكل الفردية والاجتماعية. إن المدرسة، باعتبارها دائرة تخطيط ومركز مشروع، من الممكن أن تعني شيئا بقدر ما يستمع الوجدان الاجتماعي إلى صوت شيء من برامجها المنسجمة مع الأخلاق العامة وثقافة الأمة... ولكن من العسير جدا ـ بل من المحال ـ أن نستدل على أنموذج واحد أنجزته المدرسة بوحدها. لذلك، علينا أن نتقبل المدرسة بواقعها وحقيقتها، ولا نأمل منها إلا ما يمكن أن تمنحنا إياه. ومع حفظ ورعاية حق العلم، إن تعليق الآمال كلها بالمدرسة منطلق مبالغ فيه وتفكير سطحي وبسيط يجعل ايضاح كثير من البديهيات مستعصيا، كتحميل الأرض على قرن الثور !".[2]

إن الحرص على الوفاء للانتماء الحضاري الخاص بالأمة، والمرابطة على الالتزام بخط صيغتها الثقافية هو الذي جعل منجزات "الخدمة" التعليمية والتربوية "مدرسة فكرية أصيلة ذات منهج فكري وعلمي ونظرة إلى مختلف العلوم من منظور القرآن والسنة، بنظرة تواكب العصر وتنطلق منه، وهو أمر يتجلى كأوضح ما يكون في النشاط

[1] ونحن نبني حضارتنا، ص: 25 – 26

[2] المصدر نفسه، ص: 27

التربوي والتعليمي داخل تلك المدارس، المنضبط لنظرة تزاوج بين تكوين العقل وتربية القلب، أي بعدي العلم والخلق في مسارين متوازيين، وتقديم نظام تربوي يقدمهما معا في تعليم يغذي الفكر، ممزوجا بتربية تقوم السلوك تكون الكلمة العليا فيها للنموذج الصالح،أي التربية بالقدوة أو "لسان الحال". [1]

2. وحدة العقل والقلب في إطار شمولية العلاقة بين الإنسان والكون والله

بذلت جهود كبيرة لإبعاد منظومة الفكر والعلم والتربية والثقافة عن دين الأمة ومرجعيتها المؤسسة، في إطار تجفيف منابع وجودها وكينونتها الذاتية، وكان لذلك آثار سيئة عديدة. الشيء الذي استنفر دعاة الإصلاح لمواجهة التحدي ببناء مشاريع وصياغة بدائل تحافظ على هوية الأمة.

يقول أنس أركنه: "منذ عدة عصور أبعدت الفلسفة الوضعية (positivisme) نظام التفكير الحديث ونظم التعليم والتربية، وجميع العلاقات الإنسانية والاجتماعية والفكرية عن جميع المقدسات، وأبعدتها عن الدين. ونتجت عن هذا مظاهر الأزمات الأخلاقية والمعنوية التي تعاني منها المجتمعات الحالية. لذا فإن من الأمور الجديدة التي قدمها فتح الله كولن في موضوع نظام التعليم والتربية هي هذه النظرة الشاملة للعلاقة بين الإنسان والكون والله. أي السعي من أجل وحدة العقل والقلب.

ومع انطلاقة هذه المدارس من هذا المنطلق استطاعت تجاوز هذه الفلسفة الوضعية التي تعد من أهم مشاكل نظام التعليم والتربية. ومع أن هذه المدارس دون شك لا تركز على العلوم الدينية لكنها تضع وحدة القلب والعقل قي مركز وفي وسط نظامها التعليمي ومنظومتها العلمية والفكرية. وبتعبير آخر: فهي تسعى إلى تأكيد ضرورة كون الانسان متلائما مع المجتمع ومع البيئة ومع الخالق. تسعى إلى وضع أنموذج إنسان ومجتمع يحترم تاريخه وتقاليده وجذوره الإيمانية وهويته الاجتماعية، مع فكر علمي حديث، ومنفتح على كل جديد، يثق بنفسه ومستقبله. لذا لم تكن هذه المدارس ـ بكوادرها النشطة والموفقة والمعاصرة ـ ناجحة في تركيا فقط بل في كل بلد عملت فيه.

[1] فلسفة التعليم، السريحة في المجال الحيوي، مستقبل الإصلاح، ص: 340

وعلاوة على هذا، قامت هذه المدارس بتغيير عقلية ونمط التعليم المتثاقل والمتجمد المستند إلى الحفظ والتكرار وتحت شعارات معينة لا حياة فيها، إذ لا يزال نظام التعليم في تركيا مستندا إلى أسلوب الحفظ والتكرار ولم يتخلص بعد من آثار المنطق الصوري في العديد من الساحات. وبدلا من نظام التعليم المستند إلى الحفظ اختارت هذه المدارس المنطق الرياضي والتجريبي وطريقة الفكر المنفتح المتطور، وبذلك جلبت الحركة والنشاط إلى النظام التعليمي، وقامت بتجديد معايير التعليم وبرفع مستواه"[1].

لقد ابتليت الأمة بمدارس عبارة عن بئر معطلة وقصر مشيد، ذلك "أن المدرسة الكسيحة في نظامها التربوي والمهلهلة في برنامجها التعليمي ومنهاجها المعرفي، لن يزيد دورها في أحسن الأحوال، على توطيد الرتابة وتكريس الآلية، والمضي في ضخ نفس النوعية من المتخرجين الذين يتهيأون في مناخ راكد يورثهم نفس الاعتلالات التي تسود الواقع الاجتماعي والمدني من حولهم.

إنما المدرسة الناجزة هي التي تحدث في ذاتها وفي ميكنزماتها وارتفاقاتها، الثورة كي تستطيع أن تخرج الإنسان الفعال... وحين تتشبع المدرسة وتتجاوب مع قيم تمجدها الأسرة، ويقدسها المجتمع، وتحتفي بها رزنامة المواسم والمناسبات، وتتجسد من خلال العزة الجمعية، ويتعصب لها الضمير القومي والملي، عند ذاك يتوطد التناغم بين الفرد ومحيطه، وتتغذى المناهج التعليمية بما تسترفده من قيم البيئة، وبالمقابل تتخصب البيئة بمظاهر الشحذ والتطوير الذي تفعلها به روافد التكوين".[2]

لقد استطاعت مدارس الخدمة ـ من خلال المزاوجة بين العقل والقلب ـ أن تحقق إنجازات ذات شأن حيث "احتلت الصدارة بالنجاح الذي أظهرته أكاديميا ولفت طلاب المدارس الأنظار في الأوساط العامة بنجاحهم الذي يظهرونه في الامتحانات الموجهة إلى مرحلة التعليم العالي لدخول الجامعة وما إلى ذلك، وبدرجاتهم في الأولمبيات العلمية مما جذب الإقبال عليها."[3]

---

[1] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص 292 – 293 – 294

[2] الانبعاث الحضاري، ص: 144 – 145 – 146

[3] فلسفة التعليم، السريحة في المجال الحيوي، مستقبل الإصلاح، ص: 365

3. المزج بين نظام المدارس الدينية وغير الدينية

ينتقد الأستاذ محمد فتح الله كولن تهميش التربية الدينية في المدرسة قائلا : "مع كون دروس التربية الدينية والثقافة الدينية مهمة وضرورية جدا، إلا أن الأهمية المعطاة لها في المدارس قليلة. فإذا استطعنا يوما أن نتلافى هذا الأمر ونسد هذا النقص نكون قد خطونا خطوة هامة جدا في مضمار تقدم هذه الأمة واتخذنا أصوب قرار"[1].

تتجلى أهمية هذه الخطوة في نظر كولن في كون التربية الدينية تؤسس لمشروع إحياء المجتمع التركي في أخلاقه وسلوكه لتحقق التربية المنشودة، "يجب أن تولى أهمية لدروس التربية والثقافة الدينية في المدارس بقدر الأهمية المعطاة للدروس الأخرى في الأقل، حتى تتربى أجيال قوية في خلقها وسلوكها وروحها فيحولوا ربوع هذا الوطن إلى جنة. والتعليم شيء والتربية شيء آخر فمن الممكن أن يكون أكثر الناس معلمين، ولكن القلة فقط منهم يستطيع أن يكون مربيا".[2]

يرى الأستاذ محمد فتح الله أن الركون إلى منجزات المدرسة التي أسست بعيدا عن التربية والثقافية الإسلامية، هو اعتماد على وسيلة هشة لن تفيد كثيرا مجتمعاتها،لافتقادها إلى التربية التي يحتضنها الدين، ذلك أن "التربية جميلة بحد ذاتها،ومن يملكها يحز على التقدير. أجل حتى الجاهل يكون محبوبا إن كان مؤدبا. والأمم المحرومة من التربية الدينية ومن الثقافة الدينية والملية تشبه الأشخاص المنتسبين الجاهلين الذين لا تتوقع منهم لا وفاء عند صداقتهم ولا جدية عند عداوتهم. والذين يثقون بأمثال هؤلاء يرجعون دائما بالخسران وخيبة الأمل. والذين يعتمدون على هؤلاء يبقون دون سند ودون معونة". [3] هذا المعتمد ضعيف لأن الإنسان الذي تهيأ ببدنه وفكره بمجموعة من المعلومات لا يمكن أن يكون صالحا وخادما للمجتمع بله أن يكون مصلحا ومن الجيل الذهبي، ورثة الأرض؛ "الإنسان إنسان بقدر بعده عن الأشياء القذرة، أما من كان قلبه تحت سيطرة المشاعر الخسيسة، وروحه تحت قبضة شهواته فهو وإن بدا إنسانا في مظهره فهناك شكوك حول حقيقته الإنسانية. يعرف الجميع تقريبا ما يتعلق بالتربية

[1] الموازين، ص: 79

[2] المصدر نفسه، ص: 78 – 79

[3] نفسه، ص: 78

البدنية. ولكن من يعرف قيمة التربية الفكرية والعاطفية التي هي الأصل قليل جدا، بينما ينشأ في التربية الأولى إنسان الجسد والعضلات، ينشأ في الثانية إنسان الروح والمعنى".[1]

إنسان الروح والمعنى هو الغاية الكبرى من الدعوة إلى تأسيس المدرسة على الدين والخلق، و"مستقبل كل إنسان متعلق بما تأثر به وانطبع عليه في طفولته وشبابه من دروس التربية والسلوك. فإن كان قد قضى طفولته وشبابه في جو إيجابي يربي المشاعر العلوية توقعنا كونه إنسانا يحتذى به من الناحية الفكرية والخلقية".[2]

وعندما يتم المزج بين التربية الدينية ومعطيات العصر العلمية تكون المدرسة قد يسرت السبيل أمام الفئات المستهدفة لتتمكن من تحقيق وظائفها في الوجود ومهامها في المجتمع بعيدا عن الضلال الفكري والتيه الحضاري لأنه "بقدر تعامل الإنسان مع الوجود والحوادث والتفاعل معها أخذا وعطاء وتظهر شرارات الحكمة في قلبه. وهكذا يتعرف إلى ذاته ويصل إلى معرفة الله ثم يسلك طريق الوصول إليه تعالى، بشرط ألا يكون قد ضل في سياحته الفكرية إلى حد الوقوع في الإلحاد، أو تعرض مسبقا لعملية غسل دماغه".[3]

4. التربية الدينية في مدارس الخدم.ة

إن هذه المدارس تحاكي المدارس الخاصة التي تخضع لبرنامج التعليم في المدارس الموجودة في تركيا، وفي أي دولة في العالم، ولذلك لا تطبق دروسا وبرامج منفصلة تحمل مواصفات دينية وأخلاقية تمدرس فيها ماهو معنوي.[4]

يتخذ حضور التربية الدينية في المدارس أشكالا عديدة منها:

أ . الجو العام لهذه المؤسسات، وثقافة رجال الخدمة من ممولين وكتب ومراجع،وهو جو يصطبغ بأبطال المحبة، وفدائي الخدمة والإيمان.

ب . المعلمون حاملو القيم وناقلوها إلى الأجيال بلسان الحال.

---

[1] الموازين، ص: 77

[2] المصدر نفسه، ص 77

[3] نفسه، ص: 76

[4] فلسفة التعليم، السريحة في المجال الحيوي، مستقبل الإصلاح، ص: 364

ج . الحرص على عدم مصادمة ما أجمعت عليه الأمة وما تعارف عليه المجتمع من أخلاق وقيم سياسية، يقول د، محمد أنس أركنه: "وهكذا فهو بالمدارس التي شجع على فتحها ونظام التعليم السائد فيها يقوم بفتح مرحلة جديدة في ساحة التعليم والتربية بمزجه نظام المدارس الدينية . ـ التي يقتصر التعليم فيها على العلوم الدينية ـ بنظام المدارس غير الدينية التي يقتصر التعليم فيها على العلوم الصرفة.

ولا نعني أنه يقوم بمزج آلي وعشوائي، لأن مناهج التعليم في المدارس الخاصة التي أسست بتشجيع منه ليست شرعية، ولكنها لا تحتوي أيضا على أي صدام بين المعطيات الدينية والأخلاقية، لأننا شاهدنا طوال عصرين الآثار المؤلمة لهذا الصدام والمصائب التي أدت إليها في هويتنا من الناحية الاجتماعية والفكرية"[1].

د . إدماج مضامين التربية الدينية وقيمها ضمن العملية التعليمية بأسلوب سلس وغير متعسف، حيث "إن بيداغوجية البناء والنجاعة التي يشدد عليها كولن، هي التي تحرص الحرص كله على تقطير روح الدين الحق وشهد العقيدة الصدق في نفوس الناشئة، يتلقونها ممزوجة مع ما يتلقونه من مواد التعبئة الثقافية والتمكين المعرفي،بحيث يتذوقها الناشئ في صلب القاعدة النحوية، في العملية الرياضية، والدرس التحليلي والمحاضرة الاقتصادية، وفي الأمثلة المسوقة، والاستنتاجات المستخلصة.. فبذلك يتولد في الأعماق عشق الحقيقة، وحب العلم، والإخلاص إلى الحياة التي تضحى جزءا من كون مفتوح على الآخرة، ومشروط بعقيدة التقوى والاحتساب الغيبي".[2]

إن حضور الدين بهذه الصور الأربع في مدارس الخدمة، كفيل بأن يحقق أهداف المرحلة التي يمر بها المجتمع التركي، ويمهد لانبعاث جديد، لارتباط العلم بالإيمان[3]،يقول فتح الله كولن: "إن من أجدى الأمور في بناء الجيل الحاضر هو تيسير تنقلهم بين عوالمهم الداخلية وبين حقائق الوجود بتحفيز عزم التفكير المنظم لديهم،وتحبيب الإيمان والتعلم والتمحيص والتفكير إليهم بتدريبهم على مطالعة الآفاق والأنفس ككتاب مفتوح. فعلينا أن نقدم إلى آفاق مداركهم وعقولهم تلك التصورات

[1] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 286

[2] الانبعاث الحضاري، ص: 147 – 148

[3] The Gülen Movement: Civic Service Without Borders , p 165

المذكورة بالوسائل المرئية والمسموعة، وأن ننقلهم إلى عوالم أرحب عن طريق إنقاذ أرواحهم من السجن البدني الضيق. ثم إزالة الكدر والقسوة من أرواحهم، وإيقاظ قلوبهم المتأججة شوقا إلى الآفاق الماورائية على أجمل التطلعات الإنسانية وأرقها وأخفاها وأكثرها سحرا ودلالا. وإذا نجحنا في ذلك فسنكون قد بشرناهم بالانبعاث من جديد.

وبدهي أن الأرواح التي لم تكتسب خفة بالتصفية بالإيمان والمعرفة والمحبة لن تقدر أبدا على التحليق في سماوات ما بعد الأفق. بل دع التحليق في سماوات ما بعد الأفق، فتلك الأرواح الجائعة لا تنفك عن التلوث بالرغبات الدنيوية، فتمتلئ قلوبهم بالأحقاد وتطفح بالكراهية، ويقع نظام الروح أسيرا في قبضة جهاز النفس ولا يزيدون على الأكل والشرب والنوم والجلوس والقيام، فيغدون عبيدا يأبون الانعتاق"[1].

المطلب الثاني: انفتاح المدرسة على مختلف الثقافات

1. المدرسة حاضنة لجيل الحوار

بقدر ما تركز كتابات كولن على الانطلاق من الذات الحضارية والتشبث بجذور الأمة وأصولها والتآلف حولها، تدعو إلى فتح أبواب الحوار واحتضان الإنسان أينما كان، ولذلك ترى انفتاح مدارس الخدمة على الجميع وفي أكثر من مائة وستين دولة عبر العالم. "لقد قامت هذه المدارس بمدرسيها وأساتذتها وكوادر الإدارة فيها بصنع نسيج لين ورقيق من العلاقات الحميمية المشتركة بين أناس يختلفون في الدين والثقافة والحضارة. وستزداد ساحة هذا التأثير وتتعمق إلى درجة قد يفوق حتى توقعات القائمين عليها، لأن تربية وتهيئة أشخاص مدنيين مستعدين للحوار مع الآخرين على الرغم من الفروق الدينية والثقافية والاجتماعية عنصر مهم جدا، ويشكل في المستقبل أساسا وقاعدة للحوار بين الحضارات. وعندما نذكر هذا النوع من الأشخاص المستعدين للحوار مع الآخرين والتعاون معهم، لا نقصد أنهم قد انقطعوا عن هوياتهم وعن جذورهم وأصبحوا غرباء عنها، لأن الحوار يعني الاحترام المتبادل دون إنكار أي طرف لهويته

[1] ونحن نبني حضارتنا، ص: 8

وثقافاته وعاداته، والقيام بتكوين ساحة واسعة مشتركة يمكن فيها العيش بسلام وبدون صراع".[1]

ولقد تيسر لمدارس الخدمة أهلية احتضان ثقافة الحوار بفضل إعادة تكوين "الأنموذج الماضي للإنسان البطل المضحي .ـ كما يقول أنس أركنه .ـ: الذي ينذر نفسه لأمته ولوطنه وللإنسانية جمعاء بكل المحبة، والذي اختفى أنموذجه في هذا العصر المادي الأناني اللاهث وراء المصالح الذاتية. هذا هو الكادر والروح المسيطر على هذه المدارس. فكلهم شرب من كأس المحبة وعجن بعجين الفداء والمحبة. وأعتقد أن من النادر تاريخيا اكتساب نظام التعليم وكادر التعليم مثل هذا التكريم والاهتمام. فما الذي يدفع الشباب الذين تخرجوا من أفضل الجامعات . ـ وأمامهم مستقبل باهر ورائع ـ أن يهرعوا إلى أقطار فقيرة ونائية، أو إلى بلدان تكتوي بنار الحرب، لكي يكونوا مدرسين أو إداريين في تلك المدارس؟ وما الذي جعل مهنة التعليم هي المهنة المفضلة لدى آلاف الشباب لكي يختاروها مع استطاعتهم دخول كليات الطب والهندسة والكمبيوتر وهندسة الطيران والهندسة الصناعية؟ لا شك أن هؤلاء الشباب يمثلون سخاء الشعب التركي وتضحيته وحبه للخير. وقد صبحوا معهم هذا النبل وهذه الكرامة إلى كل بلد رحلوا إليه وكانوا رسل الثقافة. وكم كنا نتمنى أن يقوم الإنسان التركي بمثل هذه المهمة وبمثل هذه الرسالة في الساحات الأخرى أيضا. إن هذا النشاط للمدارس التركية الموجه للخارج يفيد أيضا في تمتين وتقوية العلاقات الدولية لتركيا التي تحتل موقعا جغرافيا استراتيجيا مهما تحيط به المشاكل والاضطرابات... لذا فتركيا مظطرة إلى تطوير علاقاتها وتوسيعها في المنطقة من هذه الزاوية. ولا يتم هذا بالعلاقات السياسية والعسكرية فقط، فالمدارس تشكل ساحة مهمة في العلاقات الدولية من الناحية الاجتماعية والثقافية مع الدول المحيطة بها"[2].

[1] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 296 – 297

[2] المصدر نفسه، ص: 294– 295

2. استجابة مدارس الخدمة لحاجات المتعلمين و طموحات أوليائهم

لقيت مدارس الخدمة إقبالا لافتا للنظر وتسابق عليها الطلاب "ولا يدخلها إلا الفائزون في مسابقات صعبة، نظرا لكثرة الراغبين في ارتيادها، حيث حققت مراكز مرموقة في كثير من المسابقات الدولية والإقليمية والوطنية، ولا تخلو أي مدرسة منها من الكؤوس والميداليات والدروع والجوائز التي تؤكد تفوق طلابها ونبوغ أساتذتها ونجاعة مناهجها، ورسالية القائمين عليها".[1]

يستطيع التلاميذ استيعاب المقررات بشكل جيد لأن "فصول هذه المدارس لا يزيد عن عشرين طالبا أو خمسة وعشرين طالبا".[2]

ويدرس للأطفال والشباب جميع المجالات والتخصصات الدراسية، من العلوم والرياضيات والتاريخ واللغة والأدب والدراسات الاجتماعية والثقافية والفنون والموسيقى.[3]

تقول الدكتورة جيل .ـ وقد زارت الكثير من مدارس الخدمة ـ : "وتتلخص البنية والشخصية الأساسية لتلك المدارس في أن تمويلها يأتي من المؤسسات الخيرية والجماعات الأهلية ومصاريف الدراسة، وتساهم الإدارات المحلية بتوفير البنية التحتية،ويعمل المدرسون فيها بدافع خدمة الغير وبأجور منخفضة غالبا.. وقد زرت الكثير من هذه المدارس في مختلف أنحاء تركيا والتقيت بداعميها من رجال الأعمال المحليين وقيادات المجتمع المحلي الذين تلاقت جهودهم لإنشاء تلك المدارس في مجتمعاتهم المحلية. وفي حالات كثيرة تكون أبنية تلك المدارس هي الأحدث في المنطقة، وتمتلئ الجدران بصور الطلاب الذين تسلموا أوسمة في مختلف المسابقات الدراسية محليا ودوليا، وزيارات لعدد كبير من الوزراء ونواب البرلمان في تركيا. وتحتوي على حجرات دراسة ومعامل وتجهيزات على أعلى مستوى...أما مسؤولو هذه المدارس والإداريون والمعلمون فلديهم التفاني والتركيز، ويفتخرون بمدارسهم وطلابهم. والكثيرون منهم يقيمون مع الطلاب في مقار المدارس التي توفر الإقامة. وقد جلست على مائدة الطعام مع الكثير من الأسر التركية التي ترسل أطفالها إلى تلك المدارس، وسألتهم نفس

---

[1] La societé civile p 63 . عبقرية فتح الله كولن، ص: 130

[2] الضاربون في الأرض، ص: 238

[3] محاورات حضارية، ص: 124

السؤال الذي أطرحه في كل مدينة وكل منطقة: لماذا ترسل أطفالك إلى هذه المدرسة؟ وكانت الإجابة واحدة في كل مرة،؛ وهي تفاني المعلمين، وجودة المناهج، والرؤية العامة التي تنشرها المدرسة . ـ عن طريق المعلمين ـ فيما يتعلق بالإنسانية العالمية والتعليم والتسامح والحوار".[1]

المطلب الثالث: التأليف الجماعي للكتاب المدرسي والتقييم المستمر للتلاميذ

أ . الكتاب المدرسي:

يعد الكتاب المدرسي مجالا أساسيا يبدع فيه حواريو كولن من القائمين على مدارس الخدمة، خصوصا وأنه يعتمد على عمل الفريق من أهل التربية والعلم من داخل تركيا وخارجها. يقول د. سمير بودينار: "جودة الكتاب المدرسي سمة أساسية من سمات العمل بهذه المدارس، ويرجع ذلك إلى الخبرات الواسعة التي تمت مراكمتها على هذا المستوى، إذ تتجدد الكتب الدراسية بالاعتماد على آراء المعلمين والمربيين وتقييمهم لها،وفق نظام التأليف الجماعي عبر الاستفادة من آراء كل أساتذة المدارس على مستوى العالم، بما في ذلك بعض الخبراء من معاهد عريقة بأكسفرود مثلا"[2].

ولا شك ان مثل هذه الخطوات تساهم في الارتقاء المستمر بمستوى التعليم ومؤهلات الطلبة وقابلياتهم، كما أنها تيسر السبل لتجاوز النقص وسد الثغرات وتفادي الرتابة والجمود، وتساير حاجات المتعلمين المتجددة.

ب . التقييم المستمر :

وهو عنصر أساس في تلخيص كفاءات المتعلم وعلاج الصعوبات التي تعترضه،خصوصا عندما يتم توظيفه بإشراك أولياء الأمور؛ ومن "أشكال نظام التقييم المستمر المتبعة في هذه المدارس :

[1] محاورات حضارية، ص: 125 – 126

[2] فلسفة التعليم، السريحة في المجال الحيوي، مستقبل الإصلاح، ص: 348

كشف تعيين المستوى (SBS) وامتحان التحصيل الأسبوعي (HKS) وهو نظام تقويم لتحصيل الطلاب في مستوى عال من الدقة يقدم حصيلة أسبوعية توجه للأولياء.

ويعتبر تقويم التحصيل العلمي للطلاب، وبالتالي حصيلة عمل الأستاذ، بشكل دائم (أسبوعيا) عنصرا مهما من عناصر النجاح، وفق نظام يشارك فيه: المدير ،ومساعد المدير للشؤون التعليمية، ومساعد المدير للشؤون التربوية، ورؤساء الزمر داخل المدرسة".[1]

ج . أهداف المدارس الثمانية:

وضع القائمون على هذه المدارس الخدمة أهدافا محددة لتأطير العمل التعليمي،وتوجيه الطاقات والقدرات لإنجازها:

" **1.** تلقين الطالب مواده التعليمية بالشكل والمستوى المطلوب.

2. تهيئة الطلاب ذوي المواهب الخاصة بما يناسب كفاءاتهم واستعداداتهم،حيث انتقلت هذه المدارس كما هو الحال في تركيا مثلا من التنافس في أولمبياد ومسابقات الرياضيات مع غيرهها إلى التنافس فيما بينها.

3. استهداف أن تكون عند الطالب خريج المرحلة الابتدائية على الأقل هوايتان لتغطيته وشغل أوقات الفراغ، من خلال الأنشطة الموازية.

4. تأهيل قدرات الطلاب على استخدام تكنولوجيا المعلوميات.

5. تنمية تعلم اللغة الأجنبية عند الطالب.

6. العناية بالجانب الخلقي من العملية التربوية.

7. تنمية مستوى اللغة المحلية.

8. تنمية الوعي التاريخي للطلاب". [2]

لقد أصر القائمون على مدارس الخدمة على تحقيق هذه الأهداف، مما أكسبها سمعة عالمية[3]، حيث "أصبحت السمعة العالمية لبعض هذه المؤسسات تضاهي في

---

[1] فلسفة التعليم، السريلحة في المجال الحيوي، مستقبل الإصلاح، ص: 349

[2] المصدر نفسه، ص: 346

[3] La socité civile p 40

سمعتها الأكاديمية بعضا من أعرق المؤسسات التعليمية في العالم" [1]. ذلك أن "حركة كولن لا تستهدف الحصول على الربح فقط بالمعنى الاقتصادي المعروف من وراء فتح المدارس ــ التي تقدم تعليما أفضل بالمعنى الحديث في تركيا وغيرها من بلدان العالم ــ فإنه بالإضافة إلى ذلك يلاحظ النشاط التربوي في هذه المدارس المفتوحة".[2]

ثم من أهم ما يحقق هذه الأهداف الثمانية صفات القائمين على هذه المدارس والمحتضنين لها والممولين لها حيث إنهم من "أكثر أفراد المجتمع ثقافة وقابلية، وهم ينتسبون إلى أفضل طبقات المجتمع، وهم أبناء المدن، تلقوا تعليما عاليا في تركيا وخارجها، وعرفوا قيم العصر الحديث عن قرب واستوعبوها، وهم كما لا يسعون لتشكيل دولة أيدولوجية كذلك لا يقومون بنقد ورد أي أيدولوجية للدولة، ولا ينشطون لمعارضتها ومخالفتها. ولا يعملون بشعور الفقر والحرمان مثل الحركات الناجمة عن ردود الأفعال الراديكالية، بل يقيمون تصرفاتهم وعلاقاتهم على أساس الحوار والتفاهم وقبول الآخر. ثم إن كل علاقتهم مع المجتمع ومع الأفراد الآخرين قائمة على أساس إيجابي. وبدلا من سلوك طريق القوة والعنف وطريق الهدم والانقلاب، سلكوا طريق تقديم البدائل دون أن يخلوا بالنظام القائم، وتقديم الطرق لمصلحة البلاد في التطور والانفتاح. وأنت تجد في جميع علاقاتهم أنهم اتخذوا الفرد والمجتمع والإنسانية هدفا و غاية".[3]

المطلب الرابع: ارتباط المدرسة بالعائلة

عندما تتواصل مؤسسة الأسرة ومؤسسة المدرسة وتتعاونان من أجل الارتقاء بمستوى الفئات المستهدفة، تتحقق أهداف المدارس وغايات التعليم وطموحات التربية. يتم الربط في مدارس الخدمة بين المدرسة والعائلة عن طريق مسؤول خاص يقوم بهذه العملية[4]، و ذلك من خلال:

---

[1] فلسفة التعليم، السريلحة في المجال الحيوي، مستقبل الإصلاح، ص: 345

[2] فلسفة التعليم، السريلحة في المجال الحيوي، مستقبل الإصلاح، ص: 364

[3] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 49

[4] La société civile p 206

أ . ذهاب المعلمين إلى منازل التلاميذ.[1]

ب . يتابع الأستاذ الطالب بعد الدرس بحصص إضافية، ويرسل تقريرا لوالديه عن حالته ويرافقه خلال نهاية الأسبوع في فسحة رفقة أسرته.[2]

ج . لقاءات مبرمجة مع أولياء التلاميذ وإشراك الآباء في عملية التربية.[3]

وكان من نتائج هذا الارتباط بين المؤسستين أن أصبحت مدارس الخدمة "تسهم كثيرا في تغيير السلوك الاجتماعي للطلاب وأسرهم في آن واحد. وكأن المدرسة هنا أداة مباشرة لجذب مزيد من الأنصار والمتعاطفين.[4]

في هذه الأجواء تنمو القيم ويتحقق التفوق الدراسي والأخلاقي مما أهل مدارس الخدمة للحصول على جوائز وجلب الثقة، وقد منح "وقف الجمعيات التركية" جائزة نهال آتسز لخدمة الأمة التركية سنة 1995 لفتح الله كولن مكافأة على المدارس التي افتتحها.[5]

لقد كسبت المدرسة من خلال التعاون بينها وبين الأسرة جيلا قويا في بنائه العاطفي والاجتماعي يتمتع "بروح يشرق عليه جمال القلب وجلال الفكر، فيكون مبعث دفء فكري وروحي للآخرين، كلهم إيجابية وأمل".[6]

لأجل ذلك، يعتبر بعض الباحثين أن مدارس الخدمة قد أضافت قيمة متميزة للتعليم بمأسستها وتعميقها للعلاقة بين المدرسة والعائلة، "والتجديد المهم الآخر لهذه المدارس نراه في صدد العلاقات بين الطالب والمعلم، وبين المدرسة والأسرة والمحيط الاجتماعي، حيث أرست علاقات حميمية دافئة وعاطفية كانت البشرية قد نسيتها منذ

---

[1] شهادات واقعية، د. هدى درويش، مستقبل الإصلاح، ص: 556

[2] نداء الروح، ص: 49

[3] La société civile p 209

[4] شهادة عن المرئي في حركة فتح الله كولن التركية، مستقبل الإصلاح، ص: 525

[5] فتح الله كولن: قصة حياة ومسيرة فكر، ص: 105

[6] الضاربون في الأرض، 238 – 239

عصور عدة وهي تتلهف وتتشوق إليها الآن. أي أن هذه المدارس أحيت العلاقات العائلية الحميمية السابقة، وأحيت المشاعر والعواطف الحميمية الظاهرة عادة في العائلة والمحلة والبيئة الاجتماعية الصغيرة، وبعثت من جديد الأنموذج الماضي للإنسان البطل المضحي، الذي ينذر نفسه لأمته ولوطنه وللإنسانية جمعاء بكل المحبة، والذي اختفى أنموذجه في هذا العصر المادي الأناني اللاهث وراء المصالح الذاتية".[1]

المدرسة وأخواتها الثلاثة

ترتبط مدارس الخدمة ببعضها عن طريق المشروع المشترك . ـ رغم استقلالها المادي والإداري . ـ المؤسس على توجيهات فتح الله كولن ورؤاه في الإصلاح وبناء الانسان، كما أنها تتعاون عن طريق التكافل العلمي والمادي. يقول د. فؤاد البنا: "ولكل مدرسة في تركيا من مدارس الخدمة ثلاث توائم: واحدة في نفس مدينتها، والثانية في شرق تركيا، وهي منطقة كردية تتسم بالفقر مقارنة ببقية تركيا، والثالثة تكون في بلد خارج تركيا؛ هذه التوائم تؤدي إلى تحقيق التكامل في الخيرات والمنافع، وإلى تمتين أواصر الأخوة والتعاضد، حيث تدعم المدارس الغنية المدارس الفقيرة" [2]، وبذلك يؤكد القائمون على هذه المؤسسات أنهم يعتبرونها "محطات لبث أنوار الهداية، ومصانع لإعادة بناء الإنسان، ويتولى إيجاد الجيل الذهبي، الجيل الذي ينتشل أمته من الهامش معيدا إياها إلى "متن" الحضارة وصناعة الحياة".[3]

المطلب الخامس: وقف معلمي تركيا و قاعات المطالعة

1. وقف معلمي تركيـــا إطار موجه ومساعد لمدارس الخدمة

لقد أسس حواريو كولن هيئة لجمع الأطر التعليمية والمساهمة في تأطير المدارس انطلاقا من "إزمير" منطلق تيار الخدمة، يقول د. محمد جكيب:" تعتبر المدينة الساحلية "إزمير" مهد الخدمة، فهي المدينة التي مارس فيها الأستاذ فتح الله الخطابة والوعظ في

[1] فتح الله كولن، جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 294

[2] عبقرية فتح الله كولن، ص: 131

[3] المصدر نفسه، ص: 131

مساجدها الكبيرة، وقد كانت المدينة معروفة منذ العهد العثماني بانخراط أهلها في إطار جمعيات وتجمعات مهنية كان "وقف المعلمين الأتراك" أو "وقف معلمي تركيا" أهم وقف أسسه محبو الأستاذ فتح الله كولن وتلامذته في إزمير، حيث استهدف جمع الأطر التعليمية تحت إطار واحد، ولما كان هؤلاء أنفسهم آباء، فقد كان الغرض كذلك هو دعم أبنائهم في تمدرسهم... ولا شك أن "وقف المعلمين" هذا والهيئات التي صدرت عنه،يمكن أن تعتبر المحطة التي يلتقي عندها أغلب المدارس التي تعرف بـ "مدارس فتح الله"، فهي التي تقوم برسم الإطار النظري والفكري الديداكتيكي بهذه المدارس.. وهو الموحد القوي والعنصر الأساس والمركزي للمدارس"[1].

2. قاعات المطالعـــة

يتحدث عمار جيدل عن فوائد هذه القاعات قائلا: " تنتشر هذه القاعات في كثير من المدن التركية فقيرها وغنيها على السواء، تفتح في الأحياء الشعبية ويتردد عليها الطلبة من مختلف مراحل التعليم فضلا عن الذين لا يملكون القدرة المالية للذهاب إلى المدارس التأهيلية أو المدارس الخاصة. وبهذه القاعات مدرسون متطوعون يساعدون الطلبة في دروسهم مجانا، ويدربونهم على تجاوز الاختبارات الوطنية.. ويقرب من هذا وجود مراكز متعددة الخدمات في المدن الكبرى كإسطنبول التي يوجد بها "الأكاديمية" وهي مركز متعدد الخدمات، يغلب عليه الخدمة البحثية والتربوية، فضلا عن الدرس التوجيهي الأسبوعي القائم على التربية المستدامة بالوعظ والإرشاد والمطالعة الهادفة للكتب، وهي فرصة سانحة للتكوين الفكري والحركي والتدرب على التبليغ"[2].

تكتسب مراكز البحث أهمية خاصة لدى كولن وأبناء الخدمة، لأنها وسيلة أساسية لتطوير البحث العلمي واكتشاف الطاقات وتأهيلها، واستثمار الدراسات البحثية في خدمة المجتمع والارتقاء بمستوى التعليم. يقول د انس أركنه: "وعندما يتناول فتح الله كولن موضوع الجامعات يؤكد على أهمية مراكز البحوث العلمية وعلى ضرورة وجود أعداد كافية منها إلى جانب الجامعات. وفي حالة غياب هذه المراكز البحثية ستقوم الجامعات

[1] أشواق النهضة، ص: 308 – 309

[2] محاربة الفقر: المنطلقات والغايات، حركة فتح الله كولن أنموذجا، مستقبل الإصلاح، ص: 465

بإنتاج أفكار نمطية، ومع الأسف فإن جامعاتنا أنتجت ـ لمدة طويلة ـ أفكارا نمطية بدلا من العلم. وهذه الأفكار النمطية تقتل العلم والبحوث العلمية. لذا كان من الضروري أن يكون هدف الحصول على العلم والقيام بالبحث العلمي غاية كل شخص في المجتمع،فإن لم يتحقق هذا انتشرت الأنانية في المجتمع"[1].

3. الأكاديميـــــا

تعد "الأكاديميا" أهم مركز للبحث العلمي لدى تيار الخدمة، وهي تضم "قاعات للباحثين، ومكتبة، وقاعات للبحث الجماعي والمطالعة الموجهة، وأخرى للمحاضرات والمناسبات واستقبال الضيوف.. وقاعة كبرى للصلاة، تعلو العمارة تاجا على رأسها.. كذا مطعم، ومؤسسة محترفة لخدمات الشاي والقهوة وتوابعهما للضيوف الزائرين وللباحثين المقيمين.

كل شيء داخل "الأكاديميا" في مكانه، منسق، ومرتب بأدب ورفاهة، لوحة فنية عجيبة، وصورة ذوقية خلابة؛ لا تلحظ اضطرابا، ولا وسخا، ولا تجاوزا للحد، ولا تصرفات انتهازية..الصور الجميلة لإصدارات "مجموعة قينق"، بعشرات اللغات العالمية،واللوحات الزيتية الأصيلة الأصلية، من صلب التراث الإسلامي الثر... وغيرها من مظاهر الجمال والجلال.. تغريك وتحضنك".[2]

[1] فتح الله كولن، جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 221

[2] أرباب المستوى، ص: 215 – 216

لمبحث الثالث: استقلالية المدارس

المطلب الأول: استقلالية المدارس بشركاتها الخاصة وإدارتها المستقلة

تتمتع مدارس الخدمة باستقلاليتها في إدارة شؤونها التربوية والمادية، مما أكسبها ثقة كبيرة وشجع المحسنين على الاستمرار في احتضانها [1]، ومع تعددها وتنوع مستوياتها، فإن لكل مدرسة شركتها وإدارتها التي تسيرها، يقول د. عمار جيدل: "تشمل المدارس التعليمية كل مرافق التعلم من مرحلة الحضانة إلى الروضة إلى الابتدائي والإعدادي إلى التعليم الثانوي، وبالنسبة للمرحلة الثانوية تتضمن كل التخصصات التعليمية في النظام التعليمي العام. تؤسس هذه المؤسسات التعليمية وتديرها شركات خاصة ذات أسهم، تعمل في إطار القوانين التي تضبط القطاع الخاص وتتبع وزارة التربية التعليم التركية، وهي مؤسسات وإن كان بينها اتصال في فكرة الخدمة إلا أنها مستقلة عضويا عن بعضها، فلكل مؤسسة تعليمية شركتها الخاصة وإدارتها المستقلة"[2].

لا تعني هذه الاستقلالية وضع البرامج والمناهج بعيدا عن الوزارات المعنية بالموضوع، بل إن مدارس الخدمة . ـ المنتشرة في أكثر من مائة وستين بلدا ـ تلتزم "بالمقررات الخاصة بكل بلد، بحيث يتم توزيع الكتب المطبوعة على مجزوءات ليمكن الانتقاء منها حسب ما تفرضه المقررات المحلية، وحسب ما يقبل في بلدها، واستبعاد ما لايقبل. إضافة إلى طباعة كتب خاصة بالبلاد أو استخدام الكتب الدولية المقبولة لدى الدولة من دول ذات خبرة في الموضوع التعليمي".[3]

تحاول هذه المدارس، امتلاك وسائل الانفتاح على مكتسبات العصر لتأهيل طلابها للحصول على فرص عمل جيدة، انطلاقا من "التحدث بلغة العصر والنظرة المنفتحة على العالم، وهو ما يتضح مثلا من خلال اعتماد التدريس باللغة الإنجليزية أو

---

[1] La société civile p 65

[2] محاربة الفقر: المنطلقات والغايات، حركة فتح الله كولن أنموذجا، مستقبل الإصلاح، ص : 463 – 464

[3] فلسفة التعليم، السريلحة في المجال الحيوي، مستقبل الإصلاح، ص: 345

الأخذ بالمناهج والبرامج الأمريكية الدولية وتطبيقها في المدارس والجامعات التركية التي يتم إنشاؤها وافتتاحها في الخارج تشجيعا للأجانب على الالتحاق بها وتماشيا مع طبيعة السوق المتعولم وما يتطلبه في الخريجين من متطلبات من حيث التدريب والتأهيل ونوعية ومستوى المهارات المكتسبة، وبما يضمن لهم الحصول على فرص عمل جيدة ولائقة".[1]

التمويـــــل

لقد كانت لخطابات كولن ومواعظه ودروسه ومقالاته المتمحورة حول الإنفاق والتضحية والهجرة والجهاد، أثر كبير في إقامة مؤسسات التعليم بفضل "حركة البذل الواسعة التي أطلقتها دعوة الأستاذ كولن، والتي تدفع الموسرين ورجال الأعمال إلى بناء هذه المدارس كليا أوجزئيا أو التكفل بمدرسة منها في بلد خارج تركيا، غير أن دور هذا النوع من التمويل نفسه أصبح جزئيا بعد أن استطاعت كثير من هذه المؤسسات أن تدير نفسها بطريقة اقتصادية وفعالة من جهة، وبعد أن تم إنشاء مؤسسات هي بمثابة الإطار الموازي لمؤسسات التعليم، تتكفل بالتمويل الاقتصادي لإنشاء وإدارة مؤسسات أخرى"[2].

ومن أجل تمويل "يوفر متطلبات العملية التربوية الناجحة، من مناهج ووسائل وملاعب ومعامل ومناشط، فقد تداعى كثير من رجال الأعمال لإيجاد شركات وقفية تقوم بهذه المهمات حتى نحج التيار في إيجاد أعداد من المدارس النموذجية امتلك بعضها إمكانات ضخمة تضاهي مدارس أوروبا وأمريكا واليابان، وامتلك التيار مطابع ضخمة تكفلت بطباعة مناهج مدارس التيار" [3]، هذه المطابع تعد من مصادر تمويل المدارس الأساسية "فهي إطار مواز لمنظومة التعليم، وعلى سبيل المثال فإن شركة ''surat'' للنشر والطباعة، والتي يعمل بها 82 مؤلفا من المعلمين الذين تدربوا في هذه المدارس، بالإضافة إلى معلمين متعاونين من خارج تركيا، تقدم خدماتها في طباعة

[1] شهادة حول زيارة تركيا، ناهد عز الدين، مستقبل الإصلاح، ص: 544

[2] فلسفة التعليم، السريلحة في المجال الحيوي، مستقبل الإصلاح، ص: 342

[3] عبقرية فتح الله كولن، ص: 99

الكتاب التعليمي لصالح ثمان جهات بما فيها وزارة التعليم التركية، وقد قامت إلى سنة 2009 بطباعة ما يناهز خمسة ملايين من نسخ الكتب المدرسية لصالح الدولة"[1].

وبهذا " تحولت التربية في إطار الخدمة إلى مجال للاستثمار وفي هذا يمكن أن تقف في تركيا على مجموعة من الشركات في الغالب أقساما إعدادية؛ ففي إسطنبول اشتهرت مجموعة فيم (FEM) ومجموعة أنافن (ANAFAN) ومجموعة الفاتح (FATIH) ومجموعة جوشكون (GOSKON) وفي محافظة إزمير اشتهرت كورفز (KORPEZ) وياماناار (YAMANLAR) وفي أنقرة العاصمة اشتهرت مالتبه (MALTEPE).. وتفتح كل مؤسسة من هذه المؤسسات مدارس لها أو فروعا في أكبر المدن التركية"[2]، ولقيت قبولا كبيرا لأنها مشاريع استثمارية غير ربحية[3].

المطلب الثاني: مركزية التضحية والبذل والعطاء في إنجاح المشاريع

من العناوين التي يمكن أن يوصف بها تيار الخدمة الإيمانية وأنصار الأستاذ محمد فتح الله كولن "المُضَحون"، وذلك لأن المشاريع التي دعا إليها أو أسسها كولن وتلاميذه ومحبوه قائمة على أساس التضحية والبذل بمرجعيتهما الثلاثية: الإيمان ـ الهجرة ـ الجهاد، حيث "إن لب هذا التيار هو الجهاد المدني الأبيض الذي يقدم الخدمات التربوية الاجتماعية والإعلامية والاقتصادية لكل أبناء المجتمع وفق المستطاع، ومن هنا جاءت تسمية هذه الحركة بحركة ـ أو تيار ـ الخدمة"[4]،

تعد خاصية التضحية قاسما مشتركا لأبناء الخدمة فـ" التربويون في هذا التيار ،متوزعون في مائة وستين دولة، بعضها دول متخلفة جدا، وبمرتبات عادية. مع أن أغلبهم من أصحاب الدرجات العالية في الثانوية، وكان بالإمكان إدخالهم في أرقى الكليات والوصول بهم إلى أرمق الوظائف وأرقى المراكز، ومع ذلك ضحوا واستمروا.

---

[1] فلسفة التعليم، السريلحة في المجال الحيوي، مستقبل الإصلاح، ص: 348

[2] أشواق النهضة، ص: 307 – 308

[3] HIZMET Questions et Reponses sur le mouvement Gulen, p 160

[4] عبقرية فتح الله كولن، ص: 70

ومثلهم التجار، والإعلاميون، والعمال. ولهذا فإن كولن يطلق على هؤلاء مصطلح "الإبراهيميين" لأنهم هاجروا في سبيل الدعوة كما فعل إبراهيم عليه السلام".[1]

لقد تعاون المال والعلم وضحى أهلهما من أجل تنفيذ وصايا الأس لذلك كولن وهبُّوا "يفتتحون مؤسسات تعليمية في أماكن عديدة من العالم، وهناك كثير من الناس الذين هاجروا لتقديم علمهم وروحهم في هذه المدارس المفتوحة... حيث ربطوا النشء في هذه المدارس بالقيم الجوهرية والأخلاقية والإيمانية، وانفتحوا على العالم، وفهموا العصر الذي يعيشون فيه جيدا، وأخذوا بتفسيرات العصر، واستخدموا التكنولوجيا والفنون الحديثة والوسائل التعليمية المتطورة".[2]

يكاد يكون التفاني في إنجاز مشاريع الخدمة . ـ خصوصا المدارس . ـ وفي رعايتها وخدمة المستفيدين منها والصبر على تكاليف ذلك، رغم الظروف الصعبة، سمة بارزة لحركة الخدمة؛ يقول أركون جابان: "تقدم الخدمات في معظم الأماكن بروح التضحية وذلك في المدارس التي افتتحها رجال الأعمال الذين وهبوا قلوبهم للخدمة،وهناك من يقدمون الخدمات ويشاركون بكل أنواع التضحية في سخونة صحاري إفريقيا التي تزيد درجة حرارتها على خمسين درجة، وفي برودة سيبيريا التي تقل درجة حرارتها عن خمسين درجة تحت الصفر، ومنهم من لقي حتفه وهو يحاول إنقاذ طالب سقط في البحيرة وكاد أن يغرق، ومنهم من عاشوا على الخضروات التي زرعوها أمام بيوتهم حتى لا يفسحوا المجال لانقطاع الخدمة"[3].

إن مشاريع التعليم مشاريع بعيدة المدى، وتأثيرها يحتاج الى سنوات، وثمارها تستدعي صبر الفلاحين المهرة أمام أرض تحتاج إلى مال وجهد كبيرين حتى تؤتي أكلها. وقد أثبت رجال الخدمة أنهم جديرون بتحقيق أهداف المدارس التي عمروها بتضحياتهم. يقول أنس أركنه: "التعليم سباق طويل المدى وصعب، فهو يستلزم تضحية جدية، وتحملا وصبرا على الآلام والمشاكل. والتضحية كانت أهم عامل في نجاح هذه المدارس، فهناك الآلاف من الذين هرعوا إلى خدمة التعليم بكل شوق وبكل رغبة، وأدوا

[1] المصدر نفسه، ص: 70

[2] فلسفة الخدمة لدى فتح الله كولن، د أرجون جابان، ص: 259 – 264

[3] المصدر نفسه، ص: 268

هذه الخدمة ناذرين أنفسهم لخدمة الإنسانية، وراضين بالعيش بكل تقشف وزهد. كان مثل هذا الأمر قد غاب تماما عن نظام التعليم في تركيا من زمن بعيد.

لقد كان من الصعب جذب المربيين والمعلمين إلى المناطق الفقيرة، ومع أنه تم وضع نظام مضاعفة الرواتب في بعض هذه المناطق الفقيرة، إلا أنه لم ينفع كثيرا، وبقي ميل هؤلاء ورغباتهم في البقاء في جو المدينة في المدن الكبيرة. ولكن هذه الصعوبة لم تكن موجودة في هذه المدارس، بل تم إرسال المربين والمعلمين إلى أرجاء الدنيا وإلى مناطق بدائية محرومة من العديد من الحاجات العصرية. بل أرسلوا حتى إلى مناطق تحتدم فيها المعارك وإلى مناطق خطرة لا يتوفر فيها عنصر الأمان.. ومع كل هذه المخاطر فقد هرع المربون إلى هذه المناطق متوكلين على الله ومسلمين أمورهم ومستقبلهم له. كأن هؤلاء الذين توكلوا هذا التوكل يبرهنون عمليا على مدى حاجة نظام التعليم إلى التضحية والفداء"[1].

من أشكال التضحية وصور البذل عند أبناء الخدمة:

أ . صبر المدرسين على الفئات المستهدفة وسعيهم إلى فتح مغاليق أنفسهم؛ "وكما يضرب هؤلاء الفتية في الأرض .ـ كل الأرض ـ لا يصدهم شيء، ولا يحول بينهم وبين مبتغاهم حائل، فإنهم يضربون كذلك في "النفس البشرية" وينطلقون وراء أشد تخوم النفس ظلمة، وأكثرها رعبا واستعصاء، حيث تتصارع في الأعماق مئات من الـ"أنا" ليصالحوا بينها. وينشروا الأمن والسلام في أرجائها، ويسلكوا بها نحو "المعرفة القرآنية" التي تسوي جميع صراعات الإنسان مع نفسه ومع الكون ومع الله تعالى".[2]

ب . ساعات يوم الخدمة تفوق يوم الدوائر الرسمية؛ "حيث يبدأ الدوام الرسمي في الدوائر الحكومية في الثامنة صباحا وينتهي في الخامسة مساء، أما في مؤسسات الخدمة فيبدأ رسميا في السابعة صباحا وينتهي في السادسة مساء، أما افرادها فإنهم يتسابقون على الإنجاز والإنتاج.. وكثير من هؤلاء لا يرون أهليهم إلا لماما وهناك من ينامون في مكاتبهم لسويعات قليلة".[3]

---

[1] فتح الله كولن: جذوروه الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: 290

[2] الضاربون في الأرض، ص: 212

[3] عبقرية فتح الله كولن، ص: 220 – 221

ج . لقاء (الهمة) محضن للتضحية وكاشف لها، في هذه اللقاءات "يتم تبادل الخبرات والرأي في الأداء والتحفيز من أجل جمع المال للمشروعات المطلوب إنجازها،أو لاستمرار المشروعات وعمل المؤسسات التي تم بنا وؤها. في أحد لقاءات الهمة في إسطنبول كان الحاضرون من التجار والمعلمين والموظفين، وجميعهم يشعر أنه في حالة إيمانية وليست دنيوية، وكلمات الشيخ وتعليماته وتوجيهاته التي أذيعت على الحاضرين كانت تضفي جوا روحانيا إيمانيا شفافا ومتوجها في آن، وتشيع إحساسا عاما لدى الجميع بأن تبرعاتهم المالية أيا كان حجمها أو جهدهم البدني هو في سبيل رسالة عظيمة وهدفها الأسمى خدمة الدين والعقيدة وابتغاء مرضاة الله، وأن حدود هذا الجهد هي الكون كله، وليس فقط تركيا، وأن ما يصرف في الدنيا هو رصيد للمرء في الآخرة، وأنه كلما كان هناك موضع بحاجة يمكن الوصول إليه، فأبناء الحركة مستعدون لتلبية النداء".[1]

ومن المضحين من يصر على البقاء مخفيا لا يعلمه إلا الله سبحانه، والحفظة الذين يسجلون الأعمال، وقليل من مسؤولي الخدمة، وذلك مثل " مجموعة من المدارس في تل العرايس ـ أغلى منطقة سياحية في إسطنبول ـ عبارة عن مجموعة فيلات بناها رجل ثري وضع بجانبها أساسات مسجد فخم مجاور لها وأهدى مفاتيحها إلى أهل الدراية ولا يريد ذكر اسمه".[2]

د . المنح الدراسية للطلبة الفقراء:

"يتم مساعدة الفقراء على الانتساب إلى مدارس الخدمة بتكلفة رمزية أو تكلفة يغطي نفقاتها بعض المتحققين بفكرة الخدمة من التجار أو الصناعيين كما تتولى الشركات المؤسسة للمؤسسة التعليمية بتغطية النفقات" [3]. وتحتضن " مدارس الخدمة من 10 إلى

[1] شهادة عن المرئي في حركة فتح الله كولن التركية، مستقبل الإصلاح، ص: 526

[2] نداء الروح، ص: 152

[3] محاربة الفقر: المنطلقات والغايات، حركة فتح الله كولن أنموذجا، مستقبل الإصلاح، ص: 466

20% من طلبتها من الطلبة الفقراء عن طريق المنح الدراسية التي توفرها الحركات عن طريق رجال الأعمال في منطقة المدرسة"[1]، أو عن طريق "الأبلا (المحسنة) التي تعطي 100 منحة في السنة، كل منحة تقدر بـ 2000 أورو، ومن الأبلات (المحسنات) من تعطي 500 منحة في السنة".[2]

تعمل الحركة على إيجاد فرص العمل لهؤلاء الطلبة "إما بالعمل في سلك التعليم والتربية أو العمل في مجال التجارة التي تسهل الحركة لمن يريد أن يجد الدعم الذي يعينه على ممارسة ما يحلو له من تجارة على أن يكون من الأصناف أو الممولين للخدمة".[3]

المطلب الثالث: المعاهد التحضيرية فرصة لتواصل أعمق بين الطلبة

يحتاج الطلبة إلى إجراء مباراة الالتحاق للدخول إلى الجامعة بتركيا ، ومن ثم لا بد من الاستعداد الجيد والتحضير المكثف، وهو ما تقوم به المعاهد التحضيرية التي "تمثل جزءا مهما من مجال العمل التعليمي لهذه المؤسسات (المدارس). وقد بدأ العمل بنظام المعاهد التحضيرية (معاهد التوجيه) في تركيا عام 1973، وهو نظام شامل لكافة الطلاب المرشحين للالتحاق بالتعليم العالي في الجامعات والمعاهد العليا، والذين يقدر عددهم بمئات الآلاف كل عام... وتتيح المعاهد التحضيرية بسبب نظام دراستها المكثف (تحضيرية) والمستمر (داخلية) تواصلا واحتكاكا أكبر بين الطلاب، وقدرة أعلى على التأثير في بعضهم البعض (الصحبة). وهنا تأتي أهمية الأدوار التي تقوم بها تلك المؤسسات التي تواكب هذه المرحلة من الحياة التعليمية للطالب، فتتيح له دروسا إضافية للدعم مجانا، وهي بسبب وجودها في مناطق متعددة داخل المدن تتيح للطلاب شبكة واسعة من مؤسسات الدعم التعليمي والتربوي على السواء، كما تمثل كثير منها بيئة

[1] مستقبل الإصلاح، ص: 482

[2] نداء الروح، ص: 79

[3] شهادة عن المرئي في حركة فتح الله كولن التركية، مستقبل الإصلاح، ص: 526

علمية وأخلاقية للتواصل بين الطلاب. وهو ما يتضح بجلاء حين نعرف أن نسبة نجاح الطلاب خريجي هذه المدارس في امتحانات الدخول إلى الجامعة هو ضعف النجاح في المدارس الأخرى".[1]

تستقبل هذه المعاهد التدعيمية الطلبة الأتراك الذين هم على باب الجامعة، وهي اليوم أفضل مأوى للطلبة من كل الفئات والجهات.[2]

مبيتات الطلبـــة

يرجع اهتمام الأستاذ محمد فتح الله كولن بمبيتات الطلبة، إلى مرحلة إقامته بإزمير حين "عين مديرا في سكن طلاب ثانوية الأئمة والخطباء (كستانة بزاري) في إزمير بتاريخ 11 مارس 1966م.

وكان السكن الطلابي يعاني من الفوضى، فاضطر بادئ الأمر إلى مواصلة العمل ليل نهار في إدارة السكن فلم يكن ينام سوى ساعة أو ساعتين أملا في عودة الانضباط إلى السكن، وكانت قناعته ضرورة ملازمة الطلاب بشكل دائم، للاعتناء بهم عن كثب... وقد وجد صعوبات في البداية وعدم تفهم من قبل عدة أطراف، ولكن سرعان ما أحبه الطلبة والأساتذة من خلال دروسه في التزكية وحديثه عن الصحابة حيث كان يبكي ويُبْكِي من حوله".[3]

وقد كانت تلك هي النواة في تأسيس "دور الطلبة على شاكلة دار الأرقم،ووضع لها مخططا تربويا بديعا"[4]، حيث " تعقد فيها مجالس الذكر والمدارسات الإيمانية، كثيرا ما كان يحضر فيها فتح الله كولن، والمحسنون يتولون مصاريف الكراء ثم الشراء بعد ذلك، وتوسعت هذه البيوت في أحياء عديدة من إزمير"[5].

---

[1] فلسفة التعليم، السريلحة في المجال الحيوي، مستقبل الإصلاح، ص: 342 – 343

[2] البراديم كولن: فتح الله كولن ومشروع الخدمة، ص: 200

[3] فتح الله كولن: قصة حياة ومسيرة فكر، ص: 59 – 60 – 61

[4] البراديم كولن: فتح الله كولن ومشروع الخدمة، ص: 173

[5] عودة الفرسان، ص: 258 – 259

تسابق التجار والمحسنون في بناء العشرات من بيوت الطلبة [1]، فلم تمض سوى سنتين على إقامة كولن بإزمير حتى "ازداد عدد الطلاب كثيرا، وبات الاهتمام بهم في فترة الصيف ضرورة، فقام بتنظيم دورات تأهيل في مخيمات صيفية، فواجهته عقبة التمويل فقصد أنقرة يلتمس من أهل الخير الذين يعرفهم من يمول حاجات المخيم لاسيما الخيام، فنهض هؤلاء بإنشاء أول مخيم فالتحق به سبعون طالبا، ومازال العدد يزداد في الأعوام التالية حتى صار الطلبة في السنة الثالثة يتناوبون على المخيم لكثرتهم إذ وصل العدد ألفا"[2].

ومن أهم أهداف تلك المخيمات الصيفية:

- استغلال عطلة الصيف في مواصلة العلم
- التعمق في العلوم الشرعية
- تزكية القلوب وتثقيف العقول.

ومن أهم وسائل تحقيقها: ـ قيام الليل ـ القراءة ـ أنشطة رياضية واجتماعية.

وكان الأستاذ فيها خادما وواعظا ومؤطرا وباحثا عن التمويل[3].

تركت فترة المخيمات أثرا بالغا في حياة كولن، "إذ يقول عنها: ورغم مرور سنين عدة فإنني مازلت أشعر بها بقوة وحيوية في قلبي و وروحي وذاتيتي...كانت تلك الأيام بالنسبة لنا مرصادا للماضي بأكمله، وخرائط برزخية تتبدى فيها أحلام المستقبل...وستظل تلك الأيام بالنسبة لي حتى النهاية أزهى فترات حياتي".[4]

---

[1] البراديم كولن: فتح الله كولن ومشروع الخدمة، ص: 174

[2] فتح الله كولن: قصة حياة ومسيرة فكر، ص: 66 – 67

[3] المصدر نفسه، ص: 72 – 73

[4] فتح الله كولن: قصة حياة ومسيرة فكر، ص: 74 حتى 78. شد الرحال لغاية سامية ص: 196

استمرت هذه المخيمات من سنة 1967 حيث أقيم أول مخيم لمدة ثلاثة أشهر ،إلى غاية 1975، ثم غير منهجه.. وفي سنة 1980 تحولت دور الطلبة إلى مدارس نظامية رسمية تماشيا مع الظروف والأحوال[1].

ومع تطور مجالات عمل حركة الخدمة وكثرة مدارسها وطلبتها، ازدادت الحاجة إلى مقار لإيواء الطلبة المحتاجين، ولا تخلو اليوم "مدينة من مبيتات الطلبة، تختلف طاقات استيعابها ؛ فيصل بعضها إلى استيعاب 250 طالبا، وتستوعب هذه المؤسسات تلاميذ مراحل التعليم الثانوي وطلبة الجامعات من أهل المناطق النائية أو أبناء المدن الذين تضيق مساكنهم عن تحقيق تعليم نوعي، والغالب أن تكون المبيتات فاخرة يقيم فيها الطلبة مجانا أو بتكاليف رمزية. وعددها في المجتمع التركي كبير جدا يفوق الحصر"[2].

[1] البراديم كولن: فتح الله كولن ومشروع الخدمة، ص: 174

[2] محاربة الفقر: المنطلقات والغايات، حركة فتح الله كولن أنموذجا، مستقبل الإصلاح، ص: 465

أهم النتائج المتوصل إليها:

- إن كولن شاهد عصره؛ ذلك أن في مؤلفاته حديثا ذا شأن عن أحوال المجتمع التركي وأدوائه الاجتماعية والثقافية والسياسية.
- كولن متأثر بالنورسي، لكنه شق طريقا خاصا، حقق من خلاله كثيرا من طموحات بديع الزمان، واجتهد في إنشاء مؤسسات تربوية وحوارية خارج تركيا. وهذا التأثر الشديد جعل بعض الدارسين يصفونه بأنه ممثل للنورسي وآخرين ينعتون حركته بالانشقاق.
- لقد مكَّن فن الخطابة والتأثير الجماهيري كولن من جمع الذين استجابوا لدعوته وتأهيلهم لفتح مشاريع الخدمة في مختلف المجالات.
- تجنب هيمنة الشيخ، وروحُ استقلالية مشاريع الخدمة، والحرصُ على حرية القرار، ومأسسة الأعمال والمنجزات، دفَعَ جنود الخدمة وحواريي كولن إلى حيوية وإبداع لافتين للنظر.
- لقد وسع تنوع مؤلفات كولن وتعدد موضوعاتها وكثرة اهتماماتها من دائرة المهتمين بفكر محمد فتح الله بحيث تعددت مراكز الأبحاث والدراسات عبر العالم التي تناولت قضايا هذه المؤلفات.
- ركزت الدراسات العربية على مشروع النهضة والإصلاح لدى فتح الله كولن، أما الدراسات الغربية فقد اهتمت أكثر بقضايا الحوار والتصوف والتسامح والإرهاب.

- ينطلق الإصلاح من ذاتيتنا الحضارية، وينبع من ميراثنا الثقافي، ويهتدي بحسن فقه الكتاب والسنة.
- يستند تفعيل محورية الإنسان في الإصلاح من حيث كونه ركن الحضارة الأساس إلى مركزية الأسرة البانية في تنشئة جيل ورثة الأرض.
- محدودية أثر جهود الأفراد ما لم تنتظم في عمل جماعي منضبط يغيب فيه الأنا.
- ضرورة تجديد الفرد والمجتمع من خلال إحياء مقاصد الشعائر التعبدية وشحن الأرواح بنهج الكهفية.
- لا تعارض بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد وبين ترسيخ فقه الائتلاف وإشاعة ثقافة الحوار، شريطة الفهم السديد المتوازن لنصوص الكتاب والسنة في هذه القضايا.
- حتى نرتقي إلى مستوى حاجات عصرنا لا بد من مأسسة الحوار وسعة أفق القائمين عليه.
- إن أكبر جسر بيننا وبين الناس هو السعي إلى خدمتهم وبسط ما نملك من خير وصلاح ورشد وجعل ذلك رهن إشارتهم. وأعظم وسيلة إلى ذلك بناء إنسان الخدمة، إنسان البعد الجمعي والامحاء.
- إن الفناء في الآخرين طريق إلى احتضانهم، وإحياءَهم حياة لنا.
- إن الصدق في خدمة المجتمع يقتضي إنشاء مؤسسات مستقلة تركن إلى تمويل ذاتي تحميه تضحيات الحواريين الجماعية من خلال هيئات مقننة.
- إن مشاريع الإصلاح والخدمة رهينة بتجديد الموارد وكثرة المنابع ومن ثم تعد المدارس مفخرة حركة الخدمة.
- رغم أهمية البرامج وظروف التدريس فإن المعلم هو الركيزة الأساس لنجاح مشروع التربية والتعليم.

- إن المعلم الذي نذر نفسه لخدمة الإنسان هو القادر على ضمان فاعلية المدرسة.
- إن مأسسة التعاون بين الأسرة والمدرسة شرط ضروري لاختصار الجهود التربوية حتى يتم تعزيز الانتماء للأمة.
- احتضان المتفوقين والموهوبين من اليتامى والمحتاجين، ورعايتهم بأداء تكاليف دراستهم، وتنافس الأغنياء في تقديم المنح لهم، يساعد كثيرا على خدمة المجتمع وتمكين طاقاته وقدرات أهله من بسط جناح الخير والصلاح لعموم الأمة.
- المدارس ترجمة لمنهج الإصلاح والخدمة في فكر كولن ووسيلة لإمداد التيار بالمصلحين وفدائيي المحبة: مهندسي الفكر وأطباء الروح والقلب.
- استطاع تيار الخدمة أن يوفر محاضن اجتماعية للأفراد من خلال مأسسة العمل المجتمعي وتقنينه.
- تتمتع مشاريع الخدمة بالاستقلالية عن بعضها ولا يربطها هيكل تنظيمي، بل تتقاسم الأهداف والمنطلقات والقيم المشتركة المستندة إلى فكر فتح الله كولن ورؤاه التجديدية.
- تمكن تيار الخدمة من تطوير فكر النورسي والإبداع في الانفتاح على العالمين.
- إحدى أهم وسائل الدعوة هي تقديم الخدمات لكل الناس وفقا لقوانين كل بلد، مع الحرص على عدم التصادم مع أي جهة.
- أشاع تيار الخدمة مناخا للحوار من خلال مأسسته في إطار جمعيات ومؤسسات كوقف الصحفيين.
- من خلال مشاريع استثمارية لا ربحية تمكن أنصار الخدمة من إشراك مختلف الأطراف في خدمة الإنسان خصوصا الأتراك في تركيا و خارجها.
- وجود رمز وقيادة محبوبة مضحية حكيمة شرط أساس لإنجاز مشروع مجتمعي هادف.

لائحة المصادر

القرآن الكريم برواية حفص

كتب التفسير

- أضواء قرآنية في سماء الوجدان ، محمد فتح الله كولن، ط 5، دار النيل، القاهرة 2010
- التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع
- التفسير الحديث، ترتيب السور حسب النزول، محمد عزة دروزة، ط 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت 2000
- التفسير القيم، ابن القيم، جمعه محمد أويس الندوي، حققه محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت1978
- روح المعاني في تفس ير القرآن الكريم والسبع المثاني ، محمود شكري الألوسي البغدادي شهاب الدين، دار إحياء التراث العربي، بيروت
- زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، طبعة دار الفكر العربي، القاهرة 1987
- محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي ، تحقيق محمد عبد الباقي ، ط 1، 1957
- مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، ط1، دار الفكر، 1981
- معارج التفكر ودقائق التدبر، عبد الرحمان حسن حبنكه الميداني، ط 1، دار القلم، دمشق.

كتب الحديث والسيرة

- الثقات، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، تحقيق السيد شرف الدين أحمد، ط1، دار الفكر 1975
- السلسلة الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني
- المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري محمد بن عبد الله، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ط دار الكتب العلمية، بيروت 2002
- المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير أبي القاسم الطبراني
- المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة . محمد بن عبد الرحمان السخاوي . تحقيق محمد عثمان الخشت ، ط2 دار الكتاب العربي 1414هـ
- النور الخالد: محمد صلى الله عليه وسلم مفخرة الإنسانية، محمد فتح الله كولن، ط 7، دار النيل، القاهرة 2012
- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، محمد ناصر الدين الألباني، ط1، دار المعارف، الرياض 1992
- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، دار الكتاب العربي، بيروت
- سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة الترمذي ، تحقيق صدقي جميل العطار، ط1، دار الفكر، بيروت 2005
- صحيح ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة

❖ صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري الجُعْفِيّ ، تحقيق الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي، ط1، دار القلم، بيروت

❖ صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، دار الجيل بيروت

❖ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق حسين سليم أسد الداراني، كتاب الإيمان، باب في الإسراء، دار المأمون للتراث، دمشق

❖ مسند أبي يعلى، أحمد بن علي بن المثنى أبي يعلى الموصلي التميمي، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، ط1، دمشق1984

❖ مسند أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل الشيباني، مؤسسة قرطبة، القاهرة، تحقيق شعيب الأرنؤوط

❖ مشكاة المصابيح، محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، ط 3، المكتب الإسلامي، بيروت1985

كتب التصوف والأعلام

❖ إحياء علوم الدين ، أبو حامد الغزالي ، وبذيله المغني عن حمل الأسفار للحافظ العراقي، ط 1، المكتبة العصرية، بيروت 2004

❖ الأعلام، خير الدين الزركلي، ط15، دار العلم للملايين، بيروت 2002

❖ التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح ، محمد فتح الله كولن ، ط 4، دار النيل ، القاهرة 2011

❖ ترانيم روح وأشجان قلب، محمد فتح الله كولن، ط 4، دار النيل، القاهرة 2010

❖ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، ط4، دار الكتاب العربي، بيروت 1985

❖ سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق وتخريج الأحاديث، شعيب الأرناؤوط، تحقيق علي أبو زيد، مؤسسة الرسالة، ط 9، بيروت 1993

❖ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي، تحقيق عبد القادر الأرنؤوط ومحمود الأرنؤوط، دار بن كثير، دمشق، 1986م

❖ العلماء العزاب الذين آثروا العلم على الزواج ، عبد الفتاح أبوغدة، ط1، دار النشر مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب سوريا 1982

❖ القلوب الضارعة، إشراف محمد فتح الله كولن ، ط 4، دار النيل، القاهرة 2009، ي من مقدمة الناشر

❖ زهر البساتين من مواقف العلماء والربانيين، د. سيد بن حسين العفاني، دار العفاني، القاهرة

اللغة والمعاجم

❖ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، إسماعيل بن حماد الجوهري ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ط 4 ، دار العلم للملايين، بيروت 1990

❖ القاموس المحيط ، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي الشيرازي ، ط 8، مؤسسة الرسالة، بيروت 2005.

❖ أساس البلاغة، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري ، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية بيروت ط1، 1998

❖ تاج العروس من جواهر القاموس ، محمد بن محمد بن عبد الرزاق المرتضى الزبيدي، تحقيق عبد السلام هارون، ط 2، الكويت 1994

❖ تهذيب اللغة، محمد بن أحمد الأزهري الهروي أبو منصور ، تحقيق محمد عوض مرعب، ط 1، دار إحياء التراث العربي بيروت 2001

❖ كتاب العين ، أبو عبد الرحمان الخليل بن أحمد الفراهيدي ، تحقيق د. مهدي المخزومي و د. إبراهيم السامرائي، طبعة دار الرشيد للنشر، العراق 1981

❖ لسان العرب ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري، دار صادر، بيروت

❖ معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، الراغب الأصفهاني ، تحقيق نديم مرعشلي ،دار الفكر، بيروت

❖ معجم مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس بن زكريا أبو الحسين ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر 1979

❖ موسوعة المصطلح في التراث العربي، د . محمد الكتاني، ط 1 دار الثقافة الدار البيضاء .

كتب جامعة

❖ أبحاث ندوة الخدمة الاجتماعية في الإسلام، المبادئ الأساسية للخدمة لاجتماعية، د. محمد سلامة غياري، ط1، المعهد العالي للفكر الإسلامي، القاهرة 1996

❖ أثر بديع الزمان سعيد النورسي في إحياء الاتجاه الإسلامي المعاصر في تركيا،

محمد السيد قنديل، ط1، القاهرة 1998

❖ أرباب المستوى، د. محمد بابا عمي، ط 1، دار النيل، القاهرة 2013

❖ أسئلة العصر المحيرة، محمد فتح الله كولن، ط 5، دار النيل، القاهرة

❖ أشواق النهضة والانبعاث، د. محمد جكيب، ط دار النيل، القاهرة 2013

❖ أطلس العالم، إبراهيم حلمي الغوري، ط 5، دار الشرق العربي للطباعة والنشر، بيروت2005

❖ الإسلام في تركيا الحديثة: بديع الزمان النورسي، شكران واحدة، ترجمه عن الإنجليزية محمد فاضل، sunny press.USA 2005

❖ الإسلاميون والحكم في البلاد العربية وتركيا: دراسات وبحوث الندوة الفكرية الأولى المنظمة من طرف مركز الدراسات الدستورية والسياسية، مراكش، يونيو 2006، تنسيق امحمد مالكي، ط 1، 2006

❖ الإصلاح المنشود، عباس الجراري، ط 1، منشورات النادي الجراري، الرباط2005،

❖ الانبعاث الحضاري في فكر فتح الله كولن، أ. د سليمان عشراتي، ط 1، دار النيل، القاهرة 2012

❖ الإنسان ذلك المجهول، أليكسيس كاريل، ترجمة شفيق أسعد فريد، ط 1، مكتبة المعارف، بيروت 2003

❖ البراديم كولن، فتح الله كولن ومشروع الخدمة على ضوء نموذج الرشد، د. محمد بابا عمي، ط 1، دار النيل، القاهرة 2011

❖ الثقة، الفضائل الاجتماعية وتحقيق الازدهار، فرانسيس فوكوياما، ط 1، مركز الإمارات للدراسات، أبو ظبي1998

❖ السلام والتسامح في فكر فتح الله كولن، أ. د. زكي ساري تُوبْرَاكْ، طبعة دار

النيل، القاهرة 2014

❖ الضاربون في الأرض، أديب إبراهيم الدباغ، ط 1، دار النيل، القاهرة 2012

❖ العروج الحضاري، فؤاد البنا، ط 1، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة 2013

❖ العمل الاجتماعي في الإسلام، د. مصطفى بنحمزة، سلسلة دفاتر المركز، مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، وجدة 2013

❖ القدر في ضوء الكتاب والسنة، محمد فتح الله كولن، ط 7، دار النيل، القاهرة 2012

❖ المفكر الداعية الإسلامي الكبير بديع الزمان سعيد النورسي، أبو بكر القادري، ط1، 2004

❖ الموازين أو أضواء على الطريق، محمد فتح الله كولن، ط 7، دار النيل، القاهرة 2012

❖ النورسي متكلم العصر الحديث، د. محسن عبد الحميد، طبعة سوزار للنشر، القاهرة

❖ بديع الزمان سعيد النورسي وآثره في الفكر والدعوة، حسن عبد الرحمان بكيز، دار الحق

❖ بديع الزمان سعيد النورسي، نظرة عامة عن حياته وآثاره، إحسان قاسم الصالحي، مطبعة النجاح الدار البيضاء 1999

❖ تزيين الأسواق في أخبار العشاق، داود بن عمر الأنطاكي

❖ تطور الأوضاع الثقافية في تركيا، من عهد التنظيمات إلى عهد الجمهورية، سهيل صابان، ط1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية 2010.

❖ تقارب الشعوب موعد الحضارات: دعوة المفكر الإسلامي التركي فتح الله جولن نموذجا، د. هدى درويش، ط1، دار السلام للطباعة، القاهرة 2010

❖ حقيقة الخلق ونظرية التطور، محمد فتح الله كولن، ترجمة أورخان محمد علي، ط 5 ، دار النيل، القاهرة 2011

❖ رجل القرآن وصناعة الإنسان، د. عبد الحميد عويس، ط 1، دار النيل، القاهرة 2009

❖ روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، محمد فتح الله كولن، ط 7، دار النيل، القاهرة 2012

❖ سيكولوجية التنشئة الاجتماعية، د.صالح محمد علي أبو جادو، ط 4، دار المسيرة، عمان 2004

❖ سيكولوجية الجماهير، غوستاف لوبون، ترجمة وتقديم هاشم صالح، ط 2، دار الساقي، بيروت1997، ص: 116

❖ شد الرحال لغاية سامية، محمد فتح الله كولن، ترجمة عبد الله محمد عنتر و د. عبد الرزاق أحمد، دار النيل القاهرة 2014

❖ صورة الأتراك لدى العرب، د. إبراهيم الداقوقي، ط 1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2001

❖ عبقرية كولن بين قوارب الحكمة وشواطئ الخدمة، فؤاد البنا، ط 2، دار النيل،القاهرة 2013

❖ عودة الفرسان: سيرة محمد فتح الله كولن، فريد الأنصاري، ط 3، دار النيل،القاهرة 2012

❖ فتح الله كولن رائد النهضة الراشدة في تركيا المعاصرة، د. عبد الحليم عويس، ط1، دار النيل، القاهرة 2013.

❖ فتح الله كولن: الرؤية والتأثير؛ تجربة فاعلة في المجتمع المدني، مايمول أحسن

خان، ط دار النيل، القاهرة 2015

❖ فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، محمد أنس أركنه، ط 1، دار النيل، القاهرة 2010

❖ فتح الله كولن: قصة حياة ومسيرة فكر، أَرْطُغْرول حكمة، ترجمة عبد المولى علي جربيع وخليل جمال عبد الناصر، ط 1، دار النيل، القاهرة 2013

❖ فقه الجهاد، يوسف القرضاوي، ط1، مكتبة وهبة، القاهرة 2009

❖ كلمات شاهدة حول الدين والمجتمع والدولة بأفق إنساني، (حوارات مع الأستاذ فتح الله كولن)، دار النيل 2015

❖ كليات رسائل النور: سيرة ذاتية، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، ط 2، شركة سوزلر للنشر، القاهرة 1998

❖ كليات رسائل النور، الملاحق في فقه دعوة النور، بديع الزمان سعيد النورسي، ط2، شركة سوزلر للنشر، القاهرة 1995

❖ محاورات حضارية، د. جيل كارول، ترجمة إلهام فتحي وأحمد سعيد، ط 1، دار النيل، القاهرة 2011

❖ مختارات من المثنوي العربي النوري لمؤلفه بديع الزمان سعيد النورسي، أديب إبراهيم الدباغ، ط1، مطبعة الزهراء الحديثة، الموصل 1983

❖ مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي، خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية، القاهرة 2009

❖ مفاتح النور في مفاهيم رسائل النور، د. فريد الأنصاري، ط 1، دار النيل، القاهرة 2010

❖ موسوعة الحركات الإسلامية في الوطن العربي وإيران وتركيا، د.أحمد الموصللي، ط 1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2004

❖ نحو عقيدة صحيحة، محمد فتح الله كولن، ترجمة أورخان محمد علي وعبد الله عنتر، ط دار النيل، القاهرة 2014

❖ نداء الروح، رحلة في عالم الفرسان، د. مريم آيت أحمد، ط 1، دار النيل، القاهرة 2013

❖ نصوص في دينامية الجماعات، ترجمة وإعداد الحسن اللحية، ط 1، دار الحرف، القنيطرة 2007

❖ نور وفتح : قراءة في فكر سعيد النورسي وفتح الله كولن، عبد القادر الإدريسي، ط1، دار النيل، القاهرة 2014

❖ هندسة الحضارة، د. سليمان عشراتي، ط 1، دار النيل، القاهرة 2012

❖ ونحن نبني حضارتنا، محمد فتح الله كولن، ط 1، دار النيل، القاهرة 2011

❖ ونحن نقيم صرح الروح، محمد فتح الله كولن، ط 5، دار النيل، القاهرة 2011

❖ خزانة الأدب وغاية الأرب، تقي الدين أبو بكر علي بن عبد الله الحموي، تحقيق عصام شعيتو، ط 1، مكتبة الهلال، بيروت 1987

❖ طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ط 4، دار النيل، القاهرة 2008

❖الإسلام والخدمة الاجتماعية، د. إبراهيم عبد الرحمان رجب، ط1، 2000،

المجـــلات

❖ مجلة الوعي الإسلامي، عدد 528، غشت 2009

❖ مجلة الفرقان، عدد: 2013/70

❖ مجلة حراء، ع 11**أبريل – يونيو 2008**

❖ مجلة حراء، عدد 20، يوليوز. غشت 2010

❖ مجلة حراء، عدد 42، ماي 2014

كتب باللغة الأجنبية

- Essais, Perspectives et Opinions, M . FETHULLAH GüLEN , Editions Du NIL, troixième édition 2011
- HIZMET Questions et Reponses sur le mouvement Gulen, Muhammed Getin, edition du nil , 2013
- La société civile démocratie et islam. perspective du mouvement Gûlen , Sous la direction d'Erkan ToGuslov
- Le Nouveau Visage De l ʾislam: Le Mouvement Gülen, M . Enes ERJENE, Edition Du NIL , 2011
- Perles de sagesse ,M .Fethullah Gulen. Traduit par cyril lamiral. Edition du nil , deuxième 2009
- Un enseignant à l'etranger, M .Futhellah Gülen, Murat Alptekin, Edition Nil, Istanbul 2012
- TERROR AND SUICIDE ATTACKS: AN ISLAMIC PERSPECTIVE, Edited by Ergün Çapan, New Jersey 2005
- The Gülen Movement: Civic Service Without Borders , Muhammed Çetin , Edition 2010, Publisher: Blue Dome Press, Çaglayan A .S, Izmir, Turkey

مواقع إلكترونية

- www.almelafalturki.com
- www.herkul.org
- www.hiramagazine.com
- www.odabasham.net

فهرس الآيات

الآية	رقمها	السورة	الصفحة
﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾	23	البقرة	177
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾	114	البقرة	168
﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾	165	البقرة	196
﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾	256	البقرة	357
﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ﴾	14	آل عمران	117/116
﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾	64	آل عمران	170
﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾	104	آل عمران	1
﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾	110	آل عمران.	29/1
﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾	193	آل عمران	174

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾	1	النساء	185/219 182/
﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ﴾	1	النساء	185
﴿كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾	77	النساء	359
﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾	48	المائدة	26/25
﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾	56	الأعراف	30/29
﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾	24	الأنفال	174
﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٢٥ ﴾	25	الأنفال	289
﴿لَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾	102	التوبة.	29
﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١١١ ﴾	111	التوبة	263
﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ۝١٢٢﴾	122	التوبة	452
﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾	3	يونس	415
﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣٨ ﴾	38	يونس	176

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾	81	يونس	30
﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾	13	هود	176
﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾	88	هود	32
﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾	112	هود	413
﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾	114	هود.	113
﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴿١١٧﴾﴾	117	هود	31
﴿ولنصبرن على ما آذيتمونا ﴾	12	إبراهيم	249
﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾	22	الحجر	177
﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾	99	الحجر	302
﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾﴾	88	الإسراء	176
﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ﴾	80	الإسراء	415
﴿ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾	**90**	**الأنبياء**	262

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾	105- 106- 107.	الأنبياء.	29/32
﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾	39	الحج	359
﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾	19	المؤمن	357
﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾	84	الشعراء	415
﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾	97 98	الشعراء	196
﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾	109	الشعراء	280
﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾	45	العنكبوت	269
﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾	69	العنكبوت	217
﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾	71	الأحزاب	29
﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾	6	الزمر	183
﴿وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾	10	الزمر	249
﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾	16	الزمر	262
﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾	65	الزمر	214/213
﴿يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾	30	غافر	352
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾	30	فصلت	413

﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٨﴾	38	الشورى	426
وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾	15	الأحقاف	29
﴿وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ٢﴾	2	محمد	29
﴿يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾	20	محمد	172
﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾	10	الحجرات	318
﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ٤٧﴾	47	الذاريات	178
﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ٥٥﴾	55-54	القمر	415
﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤﴾	4	القلم	411
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢﴾	2-1	المدثر	285
﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ٣﴾	3	الكوثر	91

فهرس الأحاديث

طرف الحديث	الصفحة
«الدال على الخير كفاعله»	286
الدين النصيحة	285
«اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري »	33
«الناس كالإبل المائة »	375
«اليد العليا خير من اليد السفلى»	387
« إن الله قال: من عادى لي وليا فقد «آذنته بالحرب »	114
«**إن** الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد »	2
«إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»	340
«إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»	1
إن الناس إذا رأو المنكر	289
أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل جملة من الأسئلة	300
« أنا أغنى الشركاء عن الشرك»	214
«إنما مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد نارا »	100
«بني الإسلام على خمس»	26
«خياركم أحاسنكم أخلاقا»	411
« خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»	222
دعه لا يحدث لناس إن محمد يقتل أصحابه	107
رجعنا من الجهاد الأصغر	299/298
«شرار أمتي العلماء الذين يأتون الأمراء »	98
«شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة »	362

«عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر »	415
«عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَشْرَ سِنِينَ »	27
«عن خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة »	71
«عينان لا تمسهما النار »	296
«فر من المجذوم كما تفر من الأسد»	180
قدمتم خير مقدم	298
« قل ربي الله ثم استقم»	413
«لا تصلوا في مبارك الإبل، فإنها من الشياطين»	184
«ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار»	119
«ليس منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الشياطين»	184
« مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة»	434
«من تمسك بسنتي عند فساد أمتي فله أجر مئة شهيد»	113
«من سن في الإسلام سنة حسنة وعمل بها بعده »	287
«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره واستوصوا بالنساء خيرا »	183
يا رسول الله أي الأيمان أفضل	300
«يا رسول الله، لقد هلكت، لقد أصبت من امرأة قبلة »	112

فهرس الأشعار

البيت	الصفحة
أحسن إلى الأناس تستعبد قلوبهم ❄ فطالما استعبد الإنسان إحسان	371
العقل مرتعب جزع، يارب كم رهيب هذا الانقلاب	43
الكل حسن إلا أنا	421
الكل قمح و التبن أنا	421
الله ربي وهذا الكون أجمعه ❄ بيتي وسكانه أهلي وإخواني	334
ضاع الدين والإيمان فالدين خراب والإيمان تراب	43
عباراتنا شتى وحسنك واحد ❄ وكل إلى ذاك الجمال يشير	315
فلا وفاء والعهد عدم والأمانة لفظ بلا مدلول	43
قد انسلخ الحياء وانحسر فالعار ملء البوادي والقفار	43
كم وجه قبيح لم نعرفه اختفى خلف رقيق الستار	43
والكذب رائج، والخيانة ملتزمة في كل حال والحق في المجهول	43

فهرس الأعلام

الإسم	الصفحة
ابن عباس	26
أبي هريرة	53
إحسان قاسم الصالحي	78
افلاطون	10
الشافعي	87
الطاهر بن عاشور	11
الملا أحمد	58
النورسي بديع الزمان	-354-340-321-296-251-74 – 70-68-64- 444-77-78. 79. 80 -. 85. 86. . 87. 107. 83. 110. 142.
ألوارلي	63 – 61
أنس بن مالك	27 – 53
أوزال تورغوت	46
برنارد	67
بوشكين	67
تولستوي	67
جاهد	94

جلال الدين الرومي	94 – 68 – 67 – 66
جمال ترك	22
حسن البنا	66–39
حسين طوب	70
خباب بن الأرت	363
داوود	121
رامز أفندي	62 – 60 – 59 – 57
رفيعة	61
روسيل	67
سارتر	448 – 10
سفيان الثوري	393
سلميان	121
شامل أغا	58
صالح أوزجان	64
صبغة الله	57
صفوت سنيح	95
ضياء الدين الكوموشخانوي	151
ضياء كوك آلب	36
عبد الله بن عمر	53
عثمان بكتاش	65
عدنان مندريس	79 – 45 – 44
عصمة إينونو	45

عيسى	121
فرويد	448
كانط	10
كونفشيوس	10
لطفي عوني	22
ماركس	448
مالك	88
مؤنسة	59
مصطفى اوزجان	22
مصطفى كمال	38-58
موسى	121
ميل	10
نوزاد صواش	22
هارون الرشيد	393

فهرس الأماكن

المكان	الصفحة
ادرنة	72 – 71 – 50
ارضروم	354 – 92 – 86 – 84 – 83 – 66 – 65 – 44
ازمير	150 – 486 – 481 – 405 – – 149 – 95 – 94 – 74
اسبارطة	44
استانبول	76 – 37
اسطنبول	489 – 486 – 482 – 456 – 405 – 100 – 44 – 36
اسكندرون	404
اغرى	404
الأناضول	82– 75 – 57 – 36
السودان	404
ألوار	62 – 59
انقرة	492 – 486 – 76 – 72 – 44
بينجول	404
تراقيا	404
تركيا	404– 403 – 401 – 133 – 143 – 83 – 82 – 76 – 75 – 58
دارفور	404
كورجوك	57
مرسين	404

فهرس المحتوى

مقدمة 1

الباب الأول الأستاذ محمد فتح الله كولن ونشأته وبيئته 34

الفصل الأول: حالة تركيا العامة ونشأة الأستاذ محمد فتح الله كولن.....35

المبحث الأول: ظروف تركيا السياسية العامة..... 37

المطلب الأول: خسارة الحرب العالمية الأولى والاحتلال الأجنبي 37

المطلب الثاني: أتاتورك والانتكاسة الكبرى..... 38

المطلب الثالث: العلمانية الاستئصالية..... 39

المطلب الرابع: نسيم من الحرية يهب على تركيا سنة 1950.....43

المطلب الخامس: عام حزن وبداية الفوضى والتضييق على الحريات.....44

المبحث الثاني : الحالة الاجتماعية والثقافية لتركيا خلال النصف الثاني من القرن الماضي..... 47

المطلب الأول: عبودية الأهواء والشهوات 48

المطلب الثاني:الركون إلى الغرب وطلب التطور من خلال نمطه الحضاري 50

المطلب الثالث: قطع المجتمع عن جذوره المعنوية..... 51

المطلب الرابع: تشاكس المرجعيات واختلال الموازين.....54

المبحث الثالث: ميلاد فتح الله كولن ونشأته 56

المطلب الأول: مولده..... 56

المطلب الثاني: أسرته..... 58
المطلب الثالث: طفولة كولن وعفة شبابه..... 61
المطلب الرابع: أهم شيوخه..... 63
المطلب الخامس: لماذا لم يتزوج كولن؟..... 68
المطلب السادس: معاناته مع الاعتقال..... 70
المبحث الرابع: فتح الله كولن والنورسي 74
المطلب الأول: مولد بديع الزمان النورسي ونشأته 74
المطلب الثاني: أهم مراحل تطور فكر سعيد النورسي الإصلاحي.....77
المطلب الثالث : رسائل النور..... 78
المطلب الرابع: فتح الله كولن والنورسي..... 82
الفصل الثاني: الخطيب الواعظ..... 89
المبحث الأول: الخطوات الأولى في الوعظ..... 91
المطلب الأول: أول درس في المسجد، البداية الرسمية للوعظ.....91
المطلب الثاني: توسيع مجال الوعظ 94
المبحث الثاني: من أهم مميزات خطاب كولن الدعوي..... 96
المطلب الأول: أهمية الحديث عن خصائص خطاب كولن الدعوي.....96
المطلب الثاني: الصدق والاستقلالية..... 97
المطلب الثالث: اللين والحكمة..... 98
المطلب الرابع: الواقعية..... 102
المطلب الخامس: كولن والبكاء..... 104
المبحث الثالث نماذج من أحاديث كولن ومواعظه.....106

المطلب الأول: فقه التعامل مع المتساقطين في طريق الخدمة..... 106
المطلب الثاني: أزماتنا مشاريع عمل وإصلاح..... 109
المطلب الثالث: من تجليات إحياء السنة جهود أهل الخدمة..... 113
المطلب الرابع: الإنسان مصدر المشاكل والحلول 116
المطلب الخامس: دعوة جنود الخدمة وحواريها إلى إزالة غربة الإسلام المعاصرة..118
الفصل الثالث: مؤلفات الأستاذ محمد فتح الله كولن 122
المبحث الأول: أهم خصائص مؤلفات الأستاذ كولن..... 124
المطلب الأول: الحركة والفاعلية..... 124
المطلب الثاني: تعدد مجالات التأليف..... 126
المطلب الثالث:البعد الإصلاحي ومحبة الناس.....127
المطلب الرابع:حضور الذاكرة التاريخية والنفحات المسجدية.....129
المبحث الثاني: مؤلفات الأستاذ محمد فتح الله كولن 132
المطلب الأول: قائمة مؤلفات الأستاذ محمد فتح الله كولن..... 132
المطلب الثاني: تعريف بمؤلفات الأستاذ محمد فتح الله كولن المترجمة إلى اللغة العربية..... 141
الباب الثاني: أسس ومنطلقات الإصلاح في فكر الأستاذ محمد فتح الله كولن.....154
الفصل الأول: منطلقات الإصلاح عند الأستاذ محمد فتح الله كولن 155
المبحث الأول: أسس ممهدات في نظرية كولن في الإصلاح 157
المطلب الأول: الانطلاق من أنفسنا سبيل علاج أدوائنا..... 157
المطلب الثاني: الذاتية الحضارية منطلق صياغة مستقبلنا 160
المبحث الثاني: مرجعية الكتاب والسنة في فكر كولن.....164
المطلب الأول: المصادر الأساسية لميراثنا الثقافي.....164

المطلب الثاني: من شروط الانتفاع بالقرآن الكريم..... 165
المطلب الثالث: توظيف الإعجاز القرآني لترسيخ ربانية الكتاب..... 175
المبحث الثالث: فقه الحديث عند كولن..... 180
المطلب الأول: قواعد منهجية في دراسة كولن للحديث النبوي..... 180
المطلب الثاني: نموذج تجسيدي لفقه كولن للحديث النبوي 182
الفصل الثاني: مركزية الإنسان الفاعل والأسرة البانية في الإصلاح..... 187
المبحث الأول: محورية الإنسان في الإصلاح..... 189
المطلب الأول: الإنسان ذلك المحور الأساس لأي إصلاح..... 189
المطلب الثاني: الإنسان الإيجابي ركن الحضارة..... 192
المطلب الثالث: الإنسان بين الفكر والحركة 201
المبحث الثاني: أهمية التوازن في بناء و صياغة الإنسان 206
المطلب الأول: الحاجة إلى الإنسان المتوازن لصياغة القرار الإيجابي..... 206
المطلب الثاني: من تجليات التوازن..... 209
المطلب الثالث: التوازن سبيل إلى الإيجابية 212
المبحث الثالث: مركزية مؤسسة الأسرة في الإصلاح عند كولن..... 219
المطلب الأول: نظرة كولن للزواج والأسرة 219
المطلب الثاني: نحو أسرة بانية..... 224
المطلب الثالث: وجوب رعاية جيل البناء والمستقبل..... 228
الفصل الثالث: العمل الجماعي من حيث ضوابطه وتفعيله..... 234
المبحث الأول: أهمية العمل الجماعي عند كولن وأهم ضوابطه..... 236
المطلب الأول: أهمية العمل الجماعي..... 236
المطلب الثاني: من أهم ضوابط العمل الجماعي المؤثر..... 239

المطلب الثالث: التكامل بين الفرد و المجتمع..... 254
المبحث الثاني: تفعيل الشعائر التعبدية لتجديد الإيمان..... 259
المطلب الأول: عبودية الله تعالى طريق الحرية والتصوف جسر إليه..... 259
المطلب الثاني: فقه مقاصد الشعائر التعبدية من خلال الصلوات..... 263
المطلب الثالث: الكهفية وسيلة الشحن والتجديد الإيماني..... 271
المبحث الثالث: مركزية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في منهج كولن
الإصلاحي..... 274
المطلب الأول: حاجة الفرد والمجتمع إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..... 274
المطلب الثاني: نحو تجرد الأمر بالمعروف نصرة للدين..... 280
المطلب الثالث: نحو توسيع دائرة الآمرين بالمعروف..... 284
الفصل الرابع: فقه الجهاد والحوار عند كولن 290
المبحث الأول: مفهوم الجهاد عند كولن..... 292
المطلب الأول: شمولية مفهوم الجهاد..... 292
المطلب الثاني: بين الجهاد (الأكبر) والجهاد (الأصغر) 295
المطلب الثالث: حسن الجهاد من خلال الخدمة الإيمانية..... 302
المبحث الثاني: فقه الائتلاف عند كولن..... 308
المطلب الأول: أهم سبل علاج الاختلاف وتحقيق الائتلاف..... 308
المطلب الثاني: احترام تنوع الاجتهادات..... 313
المطلب الثالث: النقد الإيجابي حصن الائتلاف..... 317
المبحث الثالث: أهمية الحوار في منهج كولن الإصلاحي 323
المطلب الأول: الحوار سمة أساسية في مدرسة كولن الإصلاحية 323
المطلب الثاني: نحو مأسسة الحوار في مدرسة كولن..... 327

المطلب الثالث: أسس الحوار في فكر الأستاذ كولن..... 332
الباب الثالث: مرتكزات الخدمة وفاعلية المدرسة..... 337
الفصل الأول: الخدمة المفهوم والخصائص..... 338
المبحث الأول: مفهوم الخدمة وخصائصها..... 340
المطلب الأول: مفهوم الخدمة..... 340
المطلب الثاني: المزج بين المدنية والتجربة عنوان خيرية الخدمة..... 344
المطلب الثالث: المأسسة والشمول..... 349
المطلب الرابع: الإيجابية والتلطف..... 353
المبحث الثاني: إنسان الخدمة وأهم مواصفاته..... 365
المطلب الأول: الحاجة إلى التحول الصادق وفدائيي المحبة..... 365
المطلب الثاني: مميزات إنسان الخدمة..... 369
الفصل الثاني: أسس الخدمة وتمويلها..... 378
المبحث الأول: أسس الخدمة 380
المطلب الأول: التزكية في حضن السنة والصحابة 380
المطلب الثاني: الاستعلاء الرحيم والنفير العام..... 384
المطلب الثالث: استقلالية حركة الخدمة وتمويلها الذاتي..... 390
المبحث الثاني: أركان الخدمة المادية..... 396
المطلب الأول:التمويل الذاتي عن طريق الجهاد المالي..... 396
المطلب الثاني:التشجيع على الاستثمار وتوسيع مجالاته: توسكون..... 400
المطلب الثالث: العمل الخيري والإغاثي: هل من مغيث؛ أو هل من أحد..... 402
الفصل الثالث: الخدمة والأخلاق..... 409

المبحث الأول: أهمية الأخلاق في صياغة إنسان مجتمعي.....411
المطلب الأول: الاستقامة بوصلة الأخلاق..... 411
المطلب الثاني: أهمية الصدق في التمكين للخدمة.....414
المطلب الثالث الحاجة إلى التواضع والشورى وفقه الممات لصناعة الحياة.....421
المبحث الثاني: إنسان البعد الجمعي والامحاء..... 430
المطلب الأول: الفناء في الغير جسر احتضان الجميع.....430
المطلب الثاني: الحياة من خلال إحياء الآخرين..... 432
المطلب الثالث: فقه الإثم والغربة..... 435
الفصل الرابع: المدرسة مفخرة حركة الخدمة..... 442
المبحث الأول: أهمية التعليم ومركزية المعلم..... 444
المطلب الأول: كولن بين المدرسة "الدينية" والمدرسة "الحديثة"..... 444
المطلب الثاني: أهمية التعليم عند كولن.....451
المطلب الثالث: مركزية المعلم في العملية التعليمية والتربوية..... 461
المبحث الثاني: مدارس الخدمة وعوامل فاعليتها.....468
المطلب الأول: وحدة العقل والقلب وتعزيز الانتماء للأمة..... 468
المطلب الثاني: انفتاح المدرسة على مختلف الثقافات.....475
المطلب الثالث: التأليف الجماعي للكتاب المدرسي والتقييم المستمر للتلاميذ.....478
المطلب الرابع: ارتباط المدرسة بالعائلة.....480
المطلب الخامس: وقف معلمي تركيا وقاعات المطالعة..... 482
المبحث الثالث: استقلالية المدارس.....485
المطلب الأول: استقلالية المدارس بشركاتها الخاصة وإدارتها المستقلة.....485
المطلب الثاني: مركزية التضحية والبذل والعطاء في إنجاح المشاريع..... 487

المطلب الثالث: المعاهد التحضيرية فرصة لتواصل أعمق بين الطلبة.....491
الخاتمة..... 495
لائحة المصادر والمراجع..... 498
فهرس الآيات..... 509
فهرس الأحاديث..... 514
فهرس الأشعار..... 516
فهرس الاعلام..... 517..
فهرس الأماكن..... 520..
الفهرست..... 521